

الوافي بالأدب العربي
في المغرب الأقصى

محمد بن نابت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الأول

نشر وتوزيع



دار الشفا

34.32 شارع فيكتور هيكو

الدار البيضاء

تليفون : 26.23.75

الطبعة الاولى 1402 هـ 1982 م

جميع حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة

وبعد فهذه دراسة كانت نواتها الاولى قد ألفت في الاحاديث الاذاعية التي عهدت الى منذ فجر الاستقلال فكانت الاذاعة الوطنية توجهها الى المستمعين بالداخل طيلة خمس سنوات ، كما كانت توجه أخرى نحو الشرق الأدنى في نفس المدة ، وباختلاف بسيط عن الاولى .

و اثر ذلك كاتبني ، وأنا بمدينة بريطون Brighton أستاذ مصرى ، هو محمد عفيفى ، في شأنها ، فوجهت اليه بمجموعتي الاحاديث ، التي استخلص منها كتاب « الادب المغربى » فكان بذلك شريكا في التأليف ، الذى استقل فيه ، بالمقدمة ، والتمهيد ، واللمحة الجغرافية ، والتاريخية ، وما الى هذا حتى الفصل الاول من الكتاب (1) .

لقد كان عنوان تلك الاحاديث « تاريخ الادب المغربى » . وبهذا كان النهج فيها مسابقة الحقب التاريخية التي عاشها هذا الادب منذ بزوغ فجره الى ظهوره الذى يظننا .

نعم ، كانت الاحاديث استعراضا للشريط الادب العربى في هذه البلاد ، غالبا ، مع بعض الملاحظات والوقفات النقدية أو المقارنة أحيانا ، وانتهى ذلك الشريط عند نهاية القرن الثالث عشر الهجرى .

وتلت هذه الاحاديث محاضرات كنت ألقيا بكلية الآداب ، فى الرباط وفاس ، منذ بداية سنة 1960 ، مما استغرق أكثر من عشرين سنة . وانضاف اليه احاديث اذاعية عدت الى القائنها عندنا بعنوان « قصة الادب العربى بالمغرب الاقصى » .

فكان النهج فى هذه هو النهج فى تلك السابقة ، مع بعض الاختلاف الذى فرضه الزمان الفاصل بينهما ، والمعلومات التى نتجت فيه والملاحظات التى تولدت منه ، فكان التفسير

(1) ومن المؤسف أن هذا الزميل قد ترك بعض الفقرات التى وردت فى تلك الاحاديث على ما هى عليه ، بعد ما حذف متعلقاتها من ذلك ما نجد فى الصفحة 206 من الطبعة الاولى هكذا :

« وقد أشرنا الى هذا من قبل ، وضربنا له أمثلة جميلة من أشعار المغاربة ، ولا سيما مالك بن المرحل منهم » .

فهذا كلام كان منا اشارة الى ما سبقه من احاديث ، ولم يرد مضمونه فى هذا الكتاب ، كما جاء بعد فى نفس الصفحة :

« ونختم هذا الحديث بقراءات من رسالة طويلة لأبى القاسم العرفى »

فهو كلام فى هذا « الحديث » صارخ بهذا القبيل المذاع .

وكذلك نجد فى الصفحة 511 ما يلى :

« وفى الحديث الآتى سنتناول هذه المسألة »

فهذه أيضا حالة اداعية منى على « الحديث الآتى » الذى تحقق فيه ذلك « المحال » عليه منى ، ولكنه لم يحقق فى هذا الكتاب ... وعبر هذا مما يطول ذكره ، ومنه التمليق (1) بالصحة 496 حيث الاحالة على الفصل السادس ، بما لا ذكر فيه ، وهو من حديث لنا

والتهذيب والتشذيب أحيانا والزيادة أحيانا أخرى ولعل سائلا يسائل :

ان كان النهج واحدا ، فما الحامل على تبديل العنوان ؟

والجواب ، أن هذا التبديل ، كان من ضمن نتائج ذلك « الزمان » الذى جعلنا نظمنا الى صحة هذا العنوان اطمئنانا تاما ، ونفضله على ذلك الذى لم نظمنا اليه هذا الاطمئنان الكلى ...

فالقومية التى دعا اليها الداعون فى الشرق ، وكنا من تلاميذهم نتحمس لها مبدئيا ، لم نجد لها مرآة صافية صادقة فى أدبنا ، ولا فى أى أدب كان وما زال فى باقى البلاد العربية ، وهو أدب الفصحى ، التى تهين — بحمد الله — علينا جميعا .

بل اننا حتى فى لغتنا العامية ، نقول ، اننا نتكلم العربية ، نقول ذلك فى المغرب والمشرق ، ولا نقول ، نتكلم المغربية أو المصرية مثلا ، فما دام ذلك كذلك ، فلا يكون من الواضح أن نقول « الأدب المصرى » — كما قال بذلك أساتذنا الخولى يرحمه الله — وآلف كتابا بهذا العنوان. لان الأدب الفصحى فى مصر ليس له من المعالم الخاصة المميزة له عن غيره شيء ذو بال .

وكذلك لا نقول « الادب المغربى » كما قلنا بذلك ، وكتبنا فيه ، باحدى المجلات ، تحت عنوان « ظهور الادب القومى العربى » (1) . لان هذا الادب الفصحى ليس له من مميزات خاصة به أيضا .

فالأدب الذى يستحق هذه التسمية الخاصة هو ما كان لأولئك الذين ظهرت آدابهم القومية أخيرا ، بعد ما ظهرت لغتهم بذلك المستوى الذى مكنها من هذه الآداب (2) .

لقد كانت اللغة المستعملة فى اسبانيا أو الاندلس خاصة ، تدعى باللغة اللاتينية ، ولهذا وجدنا ابن حزم يسميها بذلك فى كتبه بالنسبة « اللاتينية » . وكانت العلوم والآداب فى باقى البلاد الأوربية ، قبل التاريخ الحديث ، تؤلف باللاتينية ، ولم تتخذ لغتها القومية فى علومها وآدابها ، الا بعد أن ارتفعت لغتها العامية الى ذروة من الكمال ، وأصبحت قادرة على تأدية هذه المهمة قدرة تامة فانفصلت عن أمها وودعت حاضنتها الوداع الأخير ، وقد ردت هذه الى أرذل العمر وأشرفت على الفناء ، أو كادت ، فهى قابضة فى عقر دارها ، لا يلم بها الا أفراد لا يتعدون عدد الأتامل ، بخلاف العربية فهى تتمتع بريعان شبابها ، يتكلمها الناس ويتفاهمون فيما بينهم وتخطبهم فى الصحافة اليومية والإذاعات المستمرة ، وهى كل يوم ترفد هذه العامية وتهذبها وترفع من أفكارها وتقوم على تربيتها خير قيام . ولهذا فإن العامية فى حاجة ماسة الى هذه الأم الرؤوم والحاضنة الحنون . ومن قبل حاولت العامية فى مصر الانفصال عنها . فلم تقو على ذلك ، وباء الدعاة اليها بالفشل الذريع . فالحمد لله مرة أخرى على هذه الفصحى التى لاتنفصم عراها .

(1) كان ذلك سنة 1950 ونشر فى مجلة « القافلة » التى صدر العدد الاول منها بالبليضاء ، فكان الاول والآخر منها .

لقد كان الأستاذ أمين الخولى يدعو الى هذه القومية بكل حرارة وإيمان ، وكانت محاضراته فى هذا الاتجاه تقضى فى النقاش الذى يشارك فيه طلاب العالم العربى ، كما كان زملاؤه وعلى رأسهم المرحوم عبد الحميد العبادى يعارضونه فى كل لقاء ، حتى فى القطار الذى كان يحملهم من القاهرة الى الاسكندرية ، حيث جامعة فاروق الاول ، كل أسبوع .. وفى سبيل هذا خصص لنا استاذنا للفرعونية ، كان نفسه ومعيدته الأستاذة عائشة بنت الشاطىء ، آنذاك ، يحضران معنا فى الصباح الباكر بكلية الآداب من جامعة مؤاد الاول .

(2) ونعلا فقد بدأت بوادر هذا فى أدبائنا الشباب الذين نخصصوا فى الادب الحديث عندنا ، ومع ذلك فإن منهم من طلب من موظف — كان — بالمركز الجامعى ، أن يبحث له عن قصة كتبت ترجمتها عن التركية وتحمل عنوان « أجر وصبر » فلم طلبها السيد « المحاضر » العلم عند الله .

مفراج الكتاب

لقد مهدنا بمقدمة فى المراكز الاولى للثقافة المغربية ، وفيما يلابسها من ظروف تاريخية واجتماعية وجغرافية احيانا ثم قسمنا الموضوع الى ابواب داخلها فصول ، حددناها بمراحل تاريخية ، وان لم يكن هذا التحديد حاتها فيما بينها : اذ كل مرحلة من مراحل التاريخ لا بد ان تكون موصولة بما قبلها ، غير مفصولة عما بعدها . على ان كل ذلك انما هو بحسب الغالب ، والا فان مرحلة من المراحل لا بد ان يشذ فيها ما نريد ان يكون منها ، فيأبى الا ان يكون سابقا عنها او لاحقا بها .

ومهما يكن ، فقد جعلنا لهذا الادب ابوابا تضمنت فصولا ، يكون اولها ما قبل المرابطين ، وثانيها عصر المرابطين ، وثالثها عصر الموحدين ، ورابعها عصر المرينيين ، وخامسها عصر الوطاسيين ، وسادسها عصر السعديين ، وسابعها العهد العلوى الحالى .

فهى اذن مراحل تاريخية ، مرتبطة بالامارات والدول ، على سبيل التقريب ، لا على سبيل التحديد ، ولا ضمير فى ذلك ما دام الغرض قد استبان ، والسبيل قد انضح لمن يريد ان يساير ادبنا العربى فيقطع معه الاشواط الزمنية التى قطعها فى الف او يزيد ، بالاضافة الى كون اغلب الآثار الادبية صادرة عن رجال كانوا من رجال الدولة او على اتصال بها وبرجالها .

ان المنهج التاريخى ، فى جل الدراسات ، خصوصا النظرية منها ، سليم قويم ، دعا اليه جمهرة من الفلاسفة فى الحديث والقديم ، واستعملوه فى دراساتهم الفلسفية ، فأتى بالنتيجة المطلوبة الصحيحة التى لا تحتمل الجدل والتشكك فيها ، لانها مبنية على مقدمات .

كذا قال المناطقة فى اقيستهم ، وكذا نقول فى دراساتنا لادبنا ، وهى دراسة صاعدة فى سلم النشوء والارتقاء لهذا الادب الذى نعتبر مراحلها الاولى مقدمات له ، صفرى فكبرى ، تتطلعان ككتاهما الى النتيجة التى

نعمل لها ويعمل الجيل الصاعد كذلك ، في غير فتور وفي غير لغوب منه .
ومهما صادفنا من عثرات في ذلك السبيل ، ومهما توقفت بنا القافلة،
أو انبهت علينا الطريق ، فإن ذلك لا يعنى الانتكاس حتما ، وإن تسرعنا
أو تشاعمنا فوسمنا بعض الخطوات بذلك ، فالعقل البشرى والخيال
الانسانى ، كلاهما يستنيم في مدة من حياته ولكنه لا يموت ، موتا حقيقيا ،
بل تأخذه السنة أو النوم ، الى أن يستيقظ ، وهو متحفز للعمل مستعد
للاستمرار في سيره ، والتسنىم للارتقاء في مراقى عليائه . نعم إن المراحل
قد يعترضها ما ينحرف بها عن السبيل ، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون
انحرافا يعترئها كما يعترئ الانسان النامى انحراف في صحته ، ثم تعاوده
السلامة ، ان قدر له الاستمرار في مراحل الحياة الدنيا .

اذن فلننتظر من أدبنا الخطوات الصاعدة ، وإن تخللتها عثرات كما
سنرى ، والحلقات المتداخلة ، وإن ضاق بعضها بعد الانساع ، فذاك
كله من قبيل الاسترواح ، ليس غير ، وسنكثر من الاثيان بالنصوص في غير
الاختيار ، في المراحل الاولى لقلة العثرات عليها ، كما لن يكون منا اختيار
في مرحلة من المراحل القصيرة لنفس السبب أو لكونها لا تدع لنا اختيارا
في نتائجها .

المقدمة

من المفروغ منه أن الادب بالمغرب كان من الناحية التاريخية ، آخر ما تنفست به العربية في أقطارها المفتوحة ، فقد عرفت الاقطار الاسلامية على الاطلاق ، شرقا وغربا أدبا عربيا نشأ فيها أو نزع اليها ، قبل أن يعرف ذلك المغرب الاقصى ، بالخصوص في هذا التحديد الذي يخرج من نطاقه امارة تاهرت الرستمية المتأخمة .

وهذا التأخير كان لاسباب جغرافية وحضارية واجتماعية وسياسية ، عملت فيها الفتن والحروب ، وعملت فيها أكثر من ذلك كله فتوحات الاندلس التي تسرب بها العنصر العربي من البلاد (1) بل تسرب منها عناصر مغربية كان يرجى منها أن تاتي بأكلها في بلادها ، فأتت بذلك الاكل في البلاد التي نزلت أو آباؤها اليها ، وفي مقدمة هؤلاء أبناء موسى وطارق وأحفادهما كما في جمهرة الانساب لابن حزم .

ففتح الاندلس سد على بواكير الادب العربي الابواب وعاق سيرها في طريقها المستقيم نحو النشوء والارتقاء في هذه البلاد المغربية ، ثم كان قاطعا لخطوط الهجرة العربية فيما بعد ، فما أمها عبد الرحمن بن معاوية ، وأقام برهة من الزمان بين أخواله نفزة بالريف حتى غادر مقامه وركب البحر من المزمة الى المنكب من الاندلس ، وهناك كان القرار النهائي ، وهناك كانت الدعوة الى آل بيته والتابعين الى الاندلس النى استمرت فيها الاموية تلوح للعربية ورجالها فتاتهم حبوا حتى من العراق خصيمها ، فكان هؤلاء لا يقتربون من تخوم البلاد حتى يتنكبون عنها الى الاندلس ، وفيهم القالى ومن اتى بعده وفيهم صاعد البغدادي ، وكلهم كانوا يشعرون

(1) ذكر منهم ابن الكردبوس حنش بن عبد الله الصنعاني وأبا عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد البجلي ، وعبد الرحمن بن شماسه المصري وأبا النضر حيان بن أبي حيلة مولى عبد الدار ، ويقال مولى بن حبل بن حسنة ، في عشرين رجلا منهم (اى التابعين) ويقول عبد الملك بن حبيب السليمي « ودخل الاندلس من التابعين ، سوى من لا يعرف ، نحو من عشرين رجلا » ، وبعضهم يذكر عبد الرحمن الحلي . . وكان فيهم الشاعر القائد ، مغيث الرومي ، مولى الوليد بن عبد الملك ، وهو معروف جدا في التاريخ ، ومذكور في كتب الادب ، كنفح الطيب ، كما كان موسى قد أرسل مع طارق ، من رجالات العرب ، عبد الملك بن أبي عامر المافري ، وعلقمة اللخمي .

وهم يقتربون منا ، شعور المتنبي وهو في شعب بوان ، كما أفصح عن ذلك القالى نفسه .

لهذا كله تأخر ظهور الادب العربى عندنا ، فكانت اول بادرة له في هذه البلاد اوائل القرن الثالث او أواخر الثاني ، ان تحقق ما نسب للمولى ادريس الاصفر ، أما الخطبة المنسوبة لطارق فنكاد نجزم بكونها غير صادرة عنه ، وهو من مغاربة جيله المبكر وشاهد الانتقال فيها اختلاف نصها ، كما في الامامة والسياسة ، وعدم ذكرها بتاتا ، كما في الاكتفا لابن الكردبوس (1) .

والنتيجة ان الاندلس تعربت قبل المغرب ، ظهر بها الادب قويا قبل ما ظهر كذلك بالمغرب ، الذى سكت به صوت العروبة والادب الى حين اتى عليه ، ان كان قد نطق به أصحابه ، قبل هجرتهم الى الاندلس . وهذا لا نستغربه ، فهو — ان كان — ما حصل مثله حتى بالجزيرة العربية نفسها موطن العربية والادب الرفيع والشعر الصادح . فمنذ ان عرفت هذه الجزيرة الاقطار الاخرى ، انتقل صوت الادب الجهورى منها الى تلك الاقطار . وما مضى عليها زهاء قرن من الزمان حتى خفت ذلك الصوت ان لم يكن سكت نهائيا بها ، وترددت أصداؤه المدوية في جنبات بلاده خارج تلك الجزيرة . ولهذا لا نستغرب أيضا ان قرأنا في التاريخ ان المولى ادريس الأصفر فرح بالمهاجرة العرب لانه كان وحيدا فريدا بين البربر .

حقا لقد نعم المغرب بالاستقرار على عهد هذا الملك ، استقرارا نسبيا ، ولكن سرعان ما قامت على موته فتن مبيدة بين أبنائه وأحفاده ، وقضت او كادت على الاخضر واليابس ، وان كان قد نشأ من ذلك الانقسام شبيه ما نشأ من انقسام الامارات في الشرق من تنشيط محلى ، الا ان هناك فرقا كبيرا ، بين الانقسام في المغرب والانقسام في المشرق ، فهذا كان حديث عهد بالعربية . وما نعم بهذا الاستقرار الذى كان الشرق قد نعم به . حتى ان الفتن والحروب قد تكون من بواعث تنشيط الادب ، وهو ما وجدناه في الشعر العربى القديم ووجدناه في الحرب العالمية الاخيرة ، ولكن هذا ان كان ، فانما يكون في الامم التى عرق فيها ذلك الادب وتلك اللغة ، أما

(1) فيه انه قال « قاتلوا حتى تموتوا » .

المغرب فكانت العربية وافدة عليه ، طارئة عليه في قومه ، فكانت تنتظر منهم التعرف عليها والاصاخة الى ندائها ، ولا بد في هذا كله من هدوء بال واطمئنان حال . وما كان هدوء وما كان اطمئنان ، ففتن الخوارج وغيرهم والثورات المندلعة في كل جانب ، ثم بعد ادريس الثانى ، كما تقدم كانت تلك الفتن الداخلية والحروب بين الادارسة انفسهم وبينهم وبين اغيارهم . ومن ورائهم العبيديون النازحون اليه والمستنزفون للبقية الباقية، ان كانت هناك ما زالت بقية ، نزحوا بها الى المشرق ، حيث لا عودة لها ، كانت ، الا بالرماح تتقصف والنصال تتكسر على نصال اخرى امتدت الى المغرب من الاندلس . فكان المغرب لاولئك وهؤلاء الميدان الخارجى ، الذى عرف في ايامنا ميدانا لاصحاب الحرب العالمية .

وعلى كل حال فبالاستقراء والاستثناس نجد ان مراكز الثقافة الاولى، كان جلها واقعا على السواحل الشمالية للمغرب ، مثل مليلية ، والنكور ، وسبتة ، وطنجة واصيلا ، والبصرة التى كانت تحاذى البحر او تقاربه ، يضاف الى هذه المراكز الساحلية العاصمة الخطيرة فاس ، بعد العاصمة الخارجية سجلماسة .

لقد كانت هذه المراكز حضارية ، في غالبيتها ، قبل الفتح الاسلامى ، احتفظت بنفسها او اقام الاسلام على انقاضها مدنا وعواصم ، فمدينة مليلية فنيقية كانت تدعى « روسادير » ولما نزلها مليل البربرى أحد قواد ادريس بن صالح الآتى ذكره ، اتخذها مقاما له ولقومه اليفرنيين . واستقل بحكمها ونسبت اليه ، وتوجه اليها أنظار العلماء والادباء من الاندلس فأسسوا بها لمن بعدهم بنى العلم والادب . على حين كانت مدينة النكور القريبة من المزمة او هى ، كما يقول البكرى ، تقام على موقع او معسكر عتيق في تلك الجهات . وقد ادعى مؤسسوها أنهم عرب يمنيون ، وان كان أهل بلدهم يفندون هذه النسبة ويقولون أنهم نفزيون بربر . ولا تعنينا صحة هذه النسبة ، بقدر ما يعنينا ادعاء أصحابها العروبة التى عملوا على تثبيتها وتدعيمها برجال العلم والادب من اندلسيين ومغاربية وهم ضمنهم فقد نشر في هذه الجهات رئيس القوم صالح بن منصور التعاليم الاسلامية ، وخلفه ابنه المعتصم ثم شقيقه ادريس المؤسس الحق ، فاخطت المدينة ، ثم اتبها ابنه سعيد ، فبنى مسجدها على غرار مسجد الاسكندرية . وهذا له

مدلوله في التعلق بالشرق العربي ونشر العلم به وكذلك سبقة الفنيقية أسس بها أمارتها الإسلامية بنو عصام الغماريون ، الذين كانوا يدينون بالطاعة للادارسة ، فقد خلف عليها عصام أباه الذي كان يدعى الرجل الصالح ، كما كان جد النكوريين يدعى بالعبد الصالح (1) فعمرت المدينة وعاد إليها نشاطها من الاندلس ورجال الثقافة والفكر لا محالة .

والامر في طنجة أنها كانت أعرق حضارة من هذه البلاد جميعا ، اتخذها الفنيقيون مركزا هاما تجاريا على الزقاق ، واتخذها الرومان مركزا استراتيجيا ، واطلقوا اسمها على إقليم شاسع كان يتسع كل القطر المغربي أحيانا ، وبه عرف عند الفاتحين الاول ، وبها كان مركز الحكم والقيادة لطارق ابن زياد ، ثم كانت موطننا أساسيا لفرق الخوارج والمعتزلة ، الى ان جاء المولى ادريس .

وكانت روافد الاندلس القريبة منها بنحو سبعة عشر ميلا ، تمدها بالثقافة الإسلامية، بعد ما نزع القراء (2) عنها في الفتح الاندلسي ولا شك أنها كانت المركز الاول للعربية في المغرب وأنها كانت ستزدهر ازدهارا عظيما مبكرا لولا الفتح الاندلسي كان في مقدمته أولئك القراء كما كانوا باليامة وتليها أصيلا الضاربة في القدم فكان منها رجال خلدوها في سجل العلم والادب ، خصوصا بعد ما طارت إحدى العواصم الادريسية وهذه المدن جميعها ، ما عدا النكور ، أصبحت أوائل القرن الرابع ، نابعة للحكم الاموي ، فازدادت الحركة الثقافية أصالة بها ، أما النكور فقد تعرضت للغزو الفاطمي ، ثم عادت الى أصحابها الذين عادوا اليها من مهجرهم بالاندلس ، ولكن الفاطميين اعدوا الكرة فأخربوها . وأما البصرة ، فقد اختلف في موقعها ، فمنهم من يجعلها القصر الكبير ، الذي ما زالت به معالم للرومان ، ومنهم من يجعلها مولاي بوسلهم ومنهم من يجعلها سوق الاربعاء، وهذا لا يخالف ما قبله ، فربما كان إقليم هذه العاصمة للامير الادريسي يمتد الى الساحل ، ومنهم من يجعلها حيث حد الكرت ، وهذه أيضا لا تخالف ما تقدمها . فقد أجمع الذين ذكروها من الجغرافيين القدامى أنها كانت

(1) وكان في البرغواطيين صالح ابن طريف وصالح بن عيسى .
(2) في ابن خلدون كانوا سبعة عشر ولكن ابن الرقيق يجعلهم سبعة وعشرين أنزلهم ابن نصر بطنجة . وهم الذين وجههم الى المغرب عمر بن عبد العزيز ، ولا شك ان مسئلتهم صحب طارقا في فتحه للاندلس ، ليقوموا على رأس الجيش .

لعهدهم في منتهى السعة ، كما قال البكري « مدينة كبيرة واسعة وهى
أوسع تلك النواحي مرعى » على أن البكري وسابقه يجعلونها غير
تلك المدن ، كالأصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

قصدوا الشعراء من الشمال الأفريقى ومن الأندلس ، بل حتى من
الجزيرة العربية ، كما سنرى .

وقد صارت من الشهرة بحيث ألف فيها وفي رجالها بالقرن الرابع ابن
الوراق ، وكان منهم اعلام ذكروا في طبقات المالكية ومشاهير اعلامها .
وما كانت سجلاسة بدعا في هذه العواصم ، فقد كانت مركزا هاما للطرق
الصحراوية وغيرها ، قبل الاسلام ، ثم اتخذها عاصمة لهم الخوارج
الصفيرية ونعمت بالاستقرار في حكم بنى مدرار وسرعان ما ارتبطت بامارة
الرستميين ، التى تأسست بعدها في اواسط القرن الثانى ، فكان لهذا
الارتباط بالمصاهرة وغيرها ، عامله في نطاق التعريب ، كما كان للاتصال
مع الأندلس عامله أيضا ، وظهر رجال منها ذكروا بمعاجم الأندلسيين وغيرها ،
والف فيها كما ألف في البصرة وتوابعها (1) .

وأخيرا نتصل بأى البلاد والعاصمة الكبرى التى حملت راية العربية
وعلمها ازيد من ألف سنة ، لم تضعها من يدها ولم تكل ولم تن في حملها ،
مهما اشتدت الكوارث العصبية عليها ، انها عاصمة ادريس فاس العريقة
في القدم ، والجامعة لجاليتين عربيتين نزحت احدهما اليها من الأندلس
والاخرى من القيروان ، فكانت العدوتان ، عدوة الأندلس وعدوة القرويين ،
وكانت جامعة هذه من أقدم جوامع العالم الاسلامى وفي هذه العاصمة
رجال مبكرون من هذه الجالية عرفوا بأسمائهم ومناصبهم ، وظهر فيها
أدب تنفس به ادريس الأصغر فبنوه وأحفاده ، كما سجلت ذلك كتب
التراجم والتواريخ وحتى كتب الجغرافية ، كما سنرى .

وبقدر ما أصيبت سجلاسة من كوارث الفاطميين ، نعمت فاس بعد
تعرضها لخطرهم بالفتح الاموى واستقرار الحضارة الأندلسية بها طيلة
القرن الرابع تقريبا ، وان تخلل هذه المدة هجمات فاطمية ، فكان جامع

(1) انظر مقالنا «نشأة دول الخوارج بالمغرب» نشر بمجلة البحث العلمى العددين 4 و 5 السنة 1965

القرويين يعج برجال العلم والادب لذلك العهد (1) .

وفيما يتصل بهذه المدن من رجال العلم والادب ، فاننا نكتفى ببعضهم فيما يلي :

من مدينة مليلية ، كان خلف بن مسعود الجراوى الملى ، وقاضيهما أحمد بن فتح الملى ، الذى كان فى علمه وأدبه نظير بكر بن حماد التاهرتى معاصره .

ومن مدينة النكور ، كان الشاعر ابراهيم بن ايوب النكورى ، والعالم المتفنن موسى بن ياسين ، مولى صالح النكورى ، وحسين بن فتح النكورى، كما كان من مهاجرة الاندلسيين اليها شاعر الامارة الاحمى التلى او الطلى ، كما فى جغرافية البكرى .

ومن مدينة سبتة كان خلف بن على بن ناصر البلوى والشيخ محمد بن على الاموى وعتيق بن عمران الرفعى الفزارى ، قاضيهما الفقيه المحدث وابراهيم بن أبى العباس القيسى ويوسف بن حماد بن خلف الصدقى ، وعبد الرحمن بن سليمان البلوى الشاعر وعبد الله ابن غالب الهمدانى ، ثم محمد بن يعلى المعافرى ، فابن غازى الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضى . وهؤلاء الثلاثة مشهور ما قاله المعتمد ابن عباد فى حقهم وذكره ياقوت ، فى معجمه الجغرافى . وقد عرف للاولين شعر سياى ذكره ، وعرف للاخير منظومة فى الكوائن والحوادث ، اشار اليها المقرئ فى ازهار الرياض، وفيه كذلك نقل عن مقدمة ابن خلدون ابيانا من زجل الكفيف الزرهونى تشير اليه (2) .

ومن مدينة طنجة كان عبد المنعم بن عبد الله بن علوش المخزومى وأحمد بن سليمان بن أحمد المكناسى وعلى بن هرون القاضى بها وسليمان ابن يحيى بن سرواس الجمحى المحدث روى عنه أبو القاسم بن بشكوال بمسند الموطأ وغير هؤلاء كثيرون بتراجم الاندلسيين .

(1) انظر بحثنا المنشور فى مجلة تمودة Tamuda سنة 1956 تحت عنوان « بزوغ الثقافة العربية بالمغرب » .

(2) منها قوله :

والجسر فى كتيباتنا	وفى تاريخ كتيباتنا
تذكر فى صفحها وابياتنا	شق وسطيح وابن مرانا

ومن أصيلا كان أحمد بن عبد الله بن موسى الكتامي الآخذ عن ابن مسرة الاندلسي الشهير ، كما كان بها أسر عريقة توارثت العلم والادب مثل أسرة الفقيه محمد الاصيلي والد الشاعر ابراهيم وجد عبد الله الحافظ والمتكلم الاصولي النظار الشهير بتأليفه في المشرق والمغرب وهو والد الفقيه محمد الشهير بالاندلس .

ومن مدينة البصرة كان العالم يحيى بن خلف الصدفي الذي كانت له رحلة الى المشرق ثم عاد بعلم وافر تلقاه عنه الاندلس والمغرب وتوفي بسببة ، ومنهم الفقيه الضليع أبو هرون عمران العمري ، نسبة الى عمر ابن الخطاب ذكر ذلك الحكم الاموي ، واطلع عليه القاضي عياض وأثبتته في ترتيب مداركه ، وله رحلة الى المشرق كذلك ، وكان يعاصره عالمان آخران من البصرة ، هما أحمد بن حذافة وبشار بن بركانة ، ولهما رحلة الى المشرق معه (1) .

ومن سجلهاسة ، كان عيسى بن سعادة العالم الزاهد ، له روايات بالاندلس ورحلة الى المشرق صاحب فيها القابسي وابا محمد الاصيلي المذكور وأخذ عنه محمد بن أبي زيد الفقيه القيرواني ، ومن رجالها يحيى بن زكريا المعروف بابن الرباطي ، وجساس الفقيه الزاهد الرحالة أخذ عنه كتاب الزهد ليم بن رزق بمدينة مجريط (مدريد) توجه الى المشرق فأخذ عن رجاله ، وسمع منه من الاندلسيين عبد الرحمن بن خلف .

(1) انظر بحثنا في مجلة تهودة ، وترتيب المدارك لمياض ، وكتب التراجم الاندلسية ، مثل : معجم ابن الأبار ، والتكملة له ، وكتاب الصلة لابن بشكوال ، وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرص ، والفهرسة لابي بكر بن خير الاشبيلي وبغية الملمس للضبي ، وجذوة القتبس للحبيدي ، وصلة الصلة لابن الزبير يضاف الى هذه الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي

الباب الاول

فيما قبل العهد المرابطي

لقد شاهد المغرب قبل قيام دولة المرابطين أحداثا جساما بدأت بالثورة على الخلافة الاسلامية بالشرق فكانت خوارج وشيعة ومعتزلة تضرب في اصقاع البلاد ثم انتهى هذا كله بقيام الدولة الادريسية (1) وان كان بسيط تامسنا قد بقى على خروجه ونحطته المتطرفة ، كما بقى اقليم سجلماسة على استقلاله خارجيا صفريا غالبا ومالكيا في غير الغالب .

ثم كانت الفاطمية تعصف بالبلاد وتهدد دولة الامويين خارج البحار مما دفع هذه الى ان تعبر نحونا فتحتل الساحل الشمالى كله ما عدا النكور التى وقعت صريعة الفاطميين ويتقدم هذا الاحتلال الاموى نحو الداخل فيتمكن من احتلال العاصمة الادريسية فاس .

ويكون لكل من الجبهتين الفاطمية والاموية رجال وزعماء يعمالون لحساب كل منهما بل يكون من هؤلاء من يعمل حينا لحساب الفاطميين وحينا آخر لحساب الامويين ومنهم بعض الامراء الادارسة والزعيم الخطير ابن ابي العافية المكتاسى .

وما تهدا العاصفة بعض الشئ حتى تتوزع البقعة المغربية الى امارات فيها مغراوة وبنو يفرن وغيرهما من زعماء البربر وفيها امارة بنى حمود التى مدت سلطانها على ستة وطنجة واصيلا وعلى بعض الاقاليم الغمارية والريفية ، الى ان يرث سلطانها هذا من مواليتهم المقربين اليهم مولاهم سقوط البرغواطى وابنه . فكان المغرب يحكمه جمهرة من الامراء والزعماء يشبهون على عهدهم ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون البلاد الاندلسية بعد سقوط الخلافة الاموية بها . ولم يوضع حد لهذا التمزق والفوضى الا فى النصف الثانى من القرن الخامس كما سنرى .

(1) انظر مقالنا « كيف اسس المولى ادريس مملكته » فى العدد 137 من مجلة « رسالة المغرب » السنة 1952

وفي معظم هذه الاحداث كان للادب بعض الاصداء الخافتة اغلبها
اصداء الشعر ودونها اصداء النثر . فمن الشعر نجد أبياتا للمولى ادريس
يتصل بعضها بسياسة الدولة وبعضها بعواطفه الخاصة . فمن الاشعار
السياسية ما كتب الى البهلول عبد الواحد المدغرى المنحاز عنه الى
ابراهيم بن الاغلب وهى معروفة فى كتب التواريخ المتداولة :

أبهول قد شمتت نفسك خطة	تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك ابراهيم من بعد داره	فأصبحت منقادا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب	غدا آخذا بالسيف كل بلاد
ومن دون ما منك نفسك خاليا	ومناك ابراهيم شوك قتاد (1)

هذه أبيات لا يهمننا أن كانت حقيقة لادريس أم نظما على لسانه اذ
المهم صدورهما أوائل القرن الثالث أو أواخر الثانى ، ويتصل بهذا بيتان
قالهما عن ارتجال — كما قيل — وهو اثر معركة خاضها :

ليس أبونا هاشم شد أزره	وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا	ولا نشتكى مما يؤول الى النصب (2)

ومن الاشعار المتصلة بعواطفه الخاصة هذه التى قالها متشوقا الى
اهل بيته كما فى الحلة السراء لابن الابار :

لو مد صبرى بصبر الناس كلهم	لكل فى روعتى أو ضل فى جزعى
وما أريع الى يأس ليسلمنى	الا تحول بى يأس الى طمعى
وكيف يصبر مطوى هضائمه	على وساوس هم غير منقطع
إذا الهموم توافت بعد هجمته	كربت عليه بكأس مرة الجرع
بان الاحبة واستبدلت بعدهم	هما مقيما وشملا غير مجتمع
كأننى حين يجرى الهم ذكرهم	على ضميرى مخبول من الفزع
تأوى همومى اذا حركت ذكرهم	الى جوانح جسم دائم الهلع
وينسب لابنه القاسم اشعار كذلك ، وتابعهما فى هذا ابناؤهما وأحفادهما .	

(1) روض القرطاس لابن أبى زرع .

(2) البكرى وروض القرطاس كذلك واعمال الاعلام .

ومهما يكن ، فان أمراء أدارسة قالوا شعرا ، فكانوا كبنى أمية في
الاندلس ، مبكرين بالحركة الادبية ، وهكذا كان ادريس والقاسم ثم ابناؤهما
أو أحفادهما ، مثل ابراهيم بن الحسن ، الذى وفد على الخليفة الاموى
المستنصر عام ثلاثة وستين وثلاث مائة ومعه ولده محمد ، فأقاما بالاندلس
الى أن غدر ابن أبى عامر بالحسن بن جنون ، فقال ابراهيم يهجو به هذه
الابيات :

فيما ارى عجا لمن يتعجب	جلت مصيبتنا وضاق المذهب
انى لا كذب مقلتى فيما ارى	حتى اقول غلطت فيما احسب
أكون حيا من أمية واحد	ويسوس هذا الملك هذا الاحدب
تمشى عساكرهم حوالى هودج	أعواده فيهن قرد أشهب
ابنى أمية اين أقمار الدجى	منكم وما لوجوهها تتغيب (1)

ومن الاوائل سعيد بن هشام المصمودى القائل ، كما فى المغرب للبكرى
والبيان المغرب لابن عذارى والعبر لابن خلدون ، منددا بالبرغواطيين وما
نالهم بموقعة بهت ، التى خاضها أبو غفير فى قتال الادارسة او مع ادريس
خاصة فى أوائل القرن الثالث وتوفى عام 320 :

تفى قبل التفرق فاخبرينا	وقولى واخبرى خبرا يقينا
هموم برابر خسروا وضلوا	وخابوا لا سقوا ماء معينا
يقولون النبى أبو غفير	فاخزى الله أم الكاذبين
الم تسمع ولم ترى يوم بهت	على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات بهم ثكالى	وعارية ومسقطه جنينا
سيعلم قوم تامسنا اذا ما	أتوا يوم النشور مهيئينا
هناك يونس وبنو أبيه	يوالون البوار مهطعينا
اذا وريا ورى رمت عليهم	جهنم قائد المستكبرينا (2)
فليس اليوم ردتكم ولكن	ليالى كنتم متميسرينا (3)

(1) البيان المغرب لابن عذارى

(2) ورد هذا البيت فى نسخة من العبر هكذا وفى نسخة أخرى يختلف عنه ولا يستقيم وزن
مصراعه الثانى .

(3) يعنى بتميسرين الانتساب الى ميسرة الحقير الصفرى الثائر عام 122 والمصمودى لعله
من مصودة القصر الصغير .

ولابراهيم بن ايوب النكورى ابيات حفظت له في مدح الامراء الادارسة
— كما يبدو — وهى (1) :

اىا املى الذى ابغى وسولى	ودنياى التى ارجو ودينى
الحرم من يمينك رى نفسى	ورزق الخلق من تلك اليمين
ويحجب عن جبينك طرف لحظى	ونور الارض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامه من نكور	اليك بكل ناجية امون

وفى اواخر هذا القرن واوائل الرابع وقد تحرك الفاطميون وصاروا
يكتسحون البلاد جرت بين شعرائهم وشعراء النكور نقائض ، تسجلها لهم
التواريخ ، كما فى البيان العرب والمغرب للبكرى والعبر كذلك فقد كان
عبيد الله كتب الى اهل المغرب عامة يدعوهم الى الدخول فى طاعته ، وكان
من جملة من كتب اليهم سعيد بن صالح الذى وصل اليه الكتاب مذيلا
بهذين البيتين :

فان تستقيموا استقم لصلاحكم	وان تعدلوا عنى ارى قتلكم عدلا
واعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم	وادخلها عنوا واملاها قتلا

فامر سعيد الاحمى التطيلى شاعره بنقض البيتين فقال ، وكتب
بهذه الأبيات اليه :

كذبت ورب البيت لا تعرف العدلا	ولا عرف الرحمن من قولك فضلا
وما أنت الا كافر ومنافق	تميل مع الجهال فى السنة المثلثى
وهمتنا العليا لدين محمد	وقد جعل الرحمن همك السفلى

ولما سقطت نكور وخر صريعا صاحبها الامير سعيد ، قال شاعر
العبيديين (2) :

لما طفى الارذل وابن الارذل	فى عصابة من الطغام الجهل
قال نكور دون ربى معقل	اتاه محتوم القضاء الفيصل

(1) البكرى وغيره .

(2) الأرجوزة لاحد بن المروذى كما فى البكرى والغالب انه لم يكن مغربيا ويذكر بانه شاعر
العبيديين أو يهمل ذكره بتاتا .

من الاله المتعالى الاعدل فحل ارضا طالما لم تحلل
حطم اهل كفرها بالكلل وجاء راس راسها المبذل
على القنا من الرماح الذبل ذالمة شعناء لم تفتل
ولحية غبراء لم ترجل

وفي اواسط هذا القرن تنبأ رجل من غمارة يدعى حاميم ، فقال فيه
شاعر من طنجة ، منددا به وبأصحابه (1) :

وقالوا افتراء ان حاميم مرسل اليهم بدين واضح الحق باهر
نقلت كذبتكم بيد الله شملكم فما هو الا عاهر وابن عاهر
نان كان حاميم رسولا فائنى بمرسل حاميم لاول كامر
روى عن عجوز ذات افك كهينة تجاوز في اسحارها كل ساحر
اخاديت افك حاك ابليس نسجها يسرونها والله ببدي السرائر

ومن شعر ابراهيم الاصيلى قصيدة قالها في بنى زياد من هواره الذين
كانوا يقطنون بجوار اصيلا ، ذكر منها ابن عذارى هذين البيتين :

سقى غربى ارض بنى زياد سحائب ما يجف لها غروب
ولا زال النعيم يعم قوما ازاؤهم من الشرق الكئيب
وقوله في فاس كما عند البكرى وياقوت باختلاف بسيط :

دخلت فاسا ولى شوق الى فاس والجبن ياخذ بالعينين والراس
فلمست ادخل فاسا ما حييت ولو اعطيت فاسا بما فيها من الناس
ولابن بياع السبتي في ناقتة :

وردت بها التنوفة وهى بدر فلم اصدر بها الا هلالا (2)
وللكاتب ابى بكر بن عطاء كاتب صاحب سبنة الحاجب بهاء الدولة
وكاتب أبيه قبله (3) :

سامنع قلبى ان يكون لكم مثوى واستدفع البلوى واستصرف اللها

(1) البكرى وابن عذارى وهو كما في البكرى عبد الله بن محمد المكنوف الطنجى .
(2) الدخيرة لابن بسام .
(3) المطرب لابن دحية .

وما سرني بعد الرضا اذ غدرتكم
وصيرتم العتبي عتابا فكلما
قضى الله ان اقصى وأصفيكم الهوى
وما كان ظني قبل ذا ان حاسدي
وما جلت البلوى علي وانما
وغادرتكم بين الحشى هضبتى رهوى
ابثكم شجوى تزيدوننى شجبوا
وغيرى يستدنى وان كان لا يهوى
بمنهلكم يروى وانى لا أروى
شباتة أعدائى أجل من البلوى

ولابن غازى الخطيب أحمد بن سعيد فى ناقة :

حرف كمثل الصاد الا انها
كالبدر قدره الله منازلا
بعد السرى جاءت كحرف النون
فى الامق حتى عاد كالعرجون

ولعله اخذ هذا من قول المعرى :

ولاح هلال مثل نون اجادها
بجارى النضار الكاتب ابن هلال
مع قوله :

وحرف كتون تحت راء ولم يكن
والعرب تشبه النون بالاهلة والرائى هو الراكب الذى يضرب رثتها
والدال هو السفين . فاستغل ابن غازى هذا كله كما يبدو لنا . والبيت
الثانى فيه توارد مع ابن بياح . (1) .

ولابن القابلة السبتي عبد الله (2) :

الشيب فى مفرقى حلا
وكان كالابنوس راسى
وعقد عهد الملاح حلا
فاحتله عاجه فحلا
وحرمت وصلى الغوانى
وقلن قتل العميد حلا

ولا شك انه قصد فى هذه المتشابهة بكلمة « حل » :

وله :

(1) أما البيتان الواردان فى كتابنا « الادب المغربى » منسوبين لابن مرانة المذكور آنفا ، فليسا
له وانما هما للمصنفى أبى الحجاج نعننى بهما :
انظر الى بهجة بليونش وحسن ذاك المنظر اللامع
تحكى الثريا عندما أخرجت بليسة الخنفة فى الجامع
وهما مذكوران فى « ازهار الرياض » كما ذكر له فيه ستة أبيات فى الموضوع .
(2) كذلك وأصله من الذخيرة التى عقد فيها فصل لذكره .

يارافيا قطع كل ثوب ويا رشا حبه اعتمادي
عسى بخيط الوصال ترفو ما قطع الهجر من فؤادي
وله (1) :

ووجه حبيب رق حسن أديمه يرى الصب فيه وجهه حين ينظر
تعرض لى عند اللقاء به رشا تكاد الحميا من محياه تقطر
ولم يتعرض كى أراه وانما أراد يرينى أن وجهى اصفر (2)

وفي النفع عن الذخيرة ، أن ابن بسام اجتمع مع ابن عبادة وابن
القبالة السبتي بالمرية ، فنظر الى وسيم يسبح في البحر ، وقد تعلق بسكان
بعض المراكب ، فقال ابن عبادة ، أجز :

انظر الى البدر الذي لاح لك

فقال ابن القبالة :

في وسط اللجة تحت الحلك

قد جعل الماء سماء له واتخذ الفلك مكان الفلك

وانشد له ابن بسام كذلك يصف القتلى :

تركهم نهب الفلاة ووحشها شعورهم شعث وأوجههم غير
تظل سباع الطير عاكفة بهم على جثث قد سئل أنفسها الذعر
وقد عوضتهم من قبور حواصلها فيا من رأى ميتا يطير به قبر

ومن شعر يحيى ابن الزيتوني الفاسي قوله في استنجاز الوعد من
المعتضد بن عباد : (3)

سفينة الوعد في بحر الرجا وقفت فامنن بريح من الانجاز يجريها

ومن شعر أبى بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى السبتي في صفة
متجن : (4)

(1) شرح المقامات للشريشي . والابيات في الذخيرة : ووجه محبى ...

(2) كذلك وعنوان المرقصات لابن سعيد .

(3) الذخيرة لابن بسام .

(4) طوق الحمامة لابن حرم وفيه بصفه بأنه كان شاعرا مقلدا .

سريع الى ظهر الطريق وانه الى نقض اسباب المودة اسرع
يطول علينا أن نرقع وده اذا كان في ترقيعه يتقطع
وهكذا قد رأينا فيما تقدم أن الشعر المغربي ، تدخل في الحوادث
السياسية والصراعات العقديّة ، ومعنى هذا أن الجو المغربي كان قابلا
للاستفادة من هذه الصرخات أو الدعايات الشعرية ، وأن الدول والافراد
استعملت هذا السلاح ، كما كان يستعمل تماما عند العرب أنفسهم في
جاهليتهم واسلامهم ، وهى ظاهرة يستبشر بها ، ولا شك انها كانت قد
تحققت أهدافها وتراءت أبعادها .

وان كنا قد لاحظنا بساطة في تلك النماذج ، وبعض التعبيرات التى
تتكرر فيها ، مثلا وجدنا :

فقلت كذبتكم بدد الله شملكم فما هو الا عاهر وابن عاهر
لعبد الله الكفيف الطنجى .

وفى نفس التاريخ أو قريب منه ، وجدنا :

كذبت ورب البيت لا تعرف العدلا وما أنت الا كافر ومنافق
لشاعر الامير سعيد بن صالح ، ثم وجدنا :

لما طغى الارذل وابن الارذل فى عصبية من الطغاة الجهل
لشاعر العبيديين بعد ما قضاوا على الامارة .

فهذه طريقة عامية ، متبعة فى سباب الفוגاء ، ومع هذا فان الشعراء
كانوا يسلكونها للتأثير على الشعب الذى كان يتأثر بها ولا بد ومهما يكن ،
فتلك اصدااء كانت تتردد فى تلك الظروف ، منبعثة عن المعارك الطاحنة
والتيارات المتصادمة .

وقد تقدم ما نسب للمولى ادريس بن اشعار ، ويذكر الاصفهاني فى
مقاتل الطالبين أنه كان فارسا شجاعا جوادا شاعرا وكذا ابو الفدا
اما نشره فمنه الخطبة التى خطبها اثر بيعته كما نجد فى روض
القرطاس وغيره .

ومن النماذج النثرية في هذه الحقبة الزمنية ما صدر عن ابن أبي العافية من رسائل موجهة الى عبد الرحمن الناصر وهي مثبتة في الجزء الخامس من المقتبس مخطوطة الخزانة الملكية .

وبعد فقد اشرنا خلال ما تقدم الى العلائق الادبية التي كانت بين تلك الامارات وغيرها من البلاد الاندلسية والافريقية وغيرها . وفي هذا الصدد نثبت ما قيل في بعضها من اشعار وافدة او قارة بها فمن ذلك قول بكر بن حماد التاهري وهو في طريقه الى البصرة مخاطبا اميرها احمد بن القاسم ابن ادريس :

ان السماحة والمروءة والندى	جئعت لاحمد من بنين القاسم(1)
واذا تفاخرت القبائل وانتمت	فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلى	وعلى العضب الحسام الصارم
انى لمشتاق اليك وانما	يسمو العقاب اذا سما بقوادم
فابعث الى بمركب اسمو به	على اكون عليك اول قادم
واعلم بانك لن تنال محبة	الا ببعض ملابس ودراهم

فبعث اليه كما يقول ابن عذارى ببغلة سنية وصلة جزلة ، وكان له فيه امداح كثيرة ، وهو الذى استجلب هذا الشاعر ، كما قال البكرى في « المسالك والممالك » وفيه ان له علما وقدرًا بالمغرب وكان يعرف بالكرتى نسبة الى « الكرت » ، حيث كانت البصرة ، كما يقول بعضهم ويبدو انه صار شاعر الامارة فقال في بعض أحداثها كما نجد في قوله لابی العيش في وقائمه :

سائل زواغة عن طعان سيوفه	ورماحه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها	والخيل تمرغ في الوشيح الذبل
غشى مغيلة بالسيوف مذلة	وسقى جراوة من نقيع الحنظل

وكانت لابی العيش — كما في البيان المغرب — مدينة تلمسان وما والاها يسكنها مثل زواغة ونفزة .

(1) أخذ هذا الافتتاح من قول حمزة بن بيض الحنفى في رثاء محمد بن القاسم :
ان السماحة والمروءة والندى
لحمد بن القاسم بن محمد

ومن تاهرت أيضا أتى قاضيها أحمد بن فتح فمدح عيسى بن إبراهيم
ابن القاسم بشعر قال فيه :

ما حاز كل الحسن الا قينة	بصرية في حمرة وبياض
الخمير في لحظاتها والورد في	وجناتها هيفاء غير مفاض
في شكل مرجى ونسك مهاجر	وعفاف سنن وسمت ابيض
تاهرت أنت خلية وبرية	عوضت منك ببصرة فاعتاضى
لا عذر للحمراء في كلفى بها	أو تستفيض بأبحر وحياض
ما عذرها والبحر عيسى ربها	ملك الملوك ورايض الرواض

ويبدو ان هذا الشاعر كان يطوف بالمغرب ويتردد على عواصمه ،
ولهذا نجد له أبياتا أخرى في هجو فاس ، كما أثبتتها البكرى في المسالك
والممالك ثم ياقوت في معجمه .

وعلى الجملة فان الشعر في هذه الجهات كانت له أصداء قوية ، ويذكر
ان شاعرا أتى فسنن في حصن كان مقاما على وادى ورغبة فحن الى
موطنه وقال :

الا هل أتى أهل المدينة أننى	بورغة بين الأعجمين غريب
إذا قلت شيئا قيل ماذا تريده	لهم بين أحرار الوجوه قطوب

فالشاعر كما يبدو أتى الى المغرب من المدينة المنورة ، فهو من أولئك
الوافدين عليه من خارج إفريقيا والاندلس . وشعره هذا يذكرنا بما قاله
المتنبي في شعوب بوان ، وهو على كل حال ينبئ بما كان للادب والشعر
خاصة من نفاد في هذه الجهات وشيوع بها فمن الاندلسيين محمد بن اسحق
المعروف بالبجلت صاحب البيتتين في مدح عدوة القرويين وهما :

يا عدوة القرويين التى كرمت	لا زال جانبك المحبوب ممطورا
ولا سرى الله عنك ثوب نعمته	أرض تجنبت الأثام والزورا

وهذا الشاعر كان قد هجا الامير جنون القاسم بن إبراهيم المعروف
بالرهونى ابن محمد بن القاسم بن ادريس باهاج كثيرة كما يذكر البكرى
ويأتى ببعض أبيات منها .

وكان بيت ابراهيم الادريسي بيت علم وأدب وكان ابنه أحمد — كما يقول البكري — عالمهم فكان يحفظ السير والتواريخ نسابة عاقلا حليما مجلا وكان يعرف بأحمد الفاضل كما كان أحمد الأكبر بن القاسم له علم كذلك وكان يشهد مجلس يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس العلماء والشعراء وكان من جلسائه أبو أحمد الشافعي الذي قصده من المشرق لا محالة وكان ممن يتكلم عنده في العلم وكان له عديد من النساخ والوراقين ينسخون له كما كان ينتجعه الناس من الاندلس وغيرها فيحسن الى جميعهم وينصرفون عنه أكرم منصرف ، كما يقول البكري الذي ذكر أن هذا الأمير كان أهل فاس قد بايعوه فأقام بها مدة الى أن قدم مصالة بن حبوس فتقدم الى مدينة الزيتون وكانت قاعدته قبل دخول فاس فخرج اليه وبعد حرب طاحنة انهزم وحمل الى المهديّة حيث هلك بها سنة 334 .

ولما استولى عبد الرحمن الناصر على سبّعة قال الخالدي معاصر ابن عبد ربه :

بصائر كانت برهة قد تولت	بسيفك دانت عنوة واقترت
ولا حليت بالزى لما تحلت	وما قربت أهواؤها اذ تقربت
عزائم لو ترمى بها العصم زلت	ولكن ازلت راسيات عقودها
تدال بحمد الله من شر دولة	ودولة منصور اللواء مؤيد
بشائره تروى الانام بسبّعة (1)	فهذا اوان النصر منها وهذه

وفيما بعد هذا القرن وجدنا ابن دراج يقصد بنى حبود فينشد في المناسبات وفي غيرها اشعاره فيهم مثل لاميته الفائقة النى أشاد بها ابن بسام في ذخيرته ومطلعها :

لعلك يا شمس عند الاصيل	شجيت لشجو القريب الذليل
فكونى شفيعى لدى ابن الشفيع	وكونى رسولى لدى ابن الرسول

(1) هذا من ناحية الاندلسيين في ذلك الصراع مع الفاطميين اما بجانب هؤلاء فان ابن هانيء شاعرهم تناول كثيرا من مواقفهم في المغرب كما نحد ذلك في ديوان شعره خصوصا بعد اتصاله بـ جوهر الصقلي .
وفي جمهرة الاسباب لابن حرم اشارة الى بعض الاتصالات الاندلسية بتلك الامارات وأن عمر بن حفصون كان يخطب لابراهيم صاحب البصرة وقد نشرنا سنة 1962 بمجلة تطوان جواب من العلاقات الاموية الادريسية .

ومثل رائيته التى قالها بمناسبة مولود لهم ومطلعها :

هلال بنور السعد والحق مقمر اهل على الاسلام الله اكبر
وبعده كان شاعر آخر من الاندلس يؤم هؤلاء الحموديين وينشدهم
نونية طنت فى أرجاء المعمور وهو ابن مقانا الاشبوني القائل فيها :

وكان الشمس لما أشرقت	فانشئت منها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على	ابن حمود أمير المؤمنين
ملك ذو هيبة لكنه	خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه	ادخلوها بسلام آمنين
وينادى الجود فى آفاقه	يمموا قصر أمير المؤمنين

أما الشعراء المغاربة الذين وضعنا يدنا على نزر من تراثهم فان ابن
القابلة منهم يكون أشهرهم على الإطلاق وهو وحده الذى خصه بعنايته ابن
بسام من بين المغاربة حيث جعل له فصلا — كما تقدم — وساق نبذا من
شعره وأخباره على سبيل الاستحسان .

الباب الثانى :

العهد المرابطى

كان المغرب فى القرن الخامس وأواسطه بالخصوص ينعم بشىء من الاستقرار والنظام ، وان لم يخل من بعض الفتن والحروب بين الاتاليم بل حتى فى الاتليم الواحد .

لكنه بالرغم من هذا كله أصبح يضم بعض الامارات التى تنسم بسمات الدول ، مثل امارة مغراوة بفاس وامارة بنى يفرن بسلا وامارة بنى حمود فى سبتة وطنجة واصيلا ثم امارة سقوط البرغواطى وابنه فى سبتة وطنجة كذلك .

وكانت لهذه الامارات صلات فيما بينها يطبعها النظام فى غالب الاحيان، فعرف المغرب امنا داخليا وسيادة لا ينازعه فيها منازع ، على العكس مما كانت عليه الاندلس آنذاك ، حيث كانت الصلات بين ملوك طوائفها صلات العداء والحروب ، التى مهدت لها الفتنة المعروفة بالفتنة البربرية والتى اطاحت بالخلافة الاموية ، فوجدت النصرانية ثغرات فى الكيان الاسلامى تسربت اليها ومكنت لها فى عدة جهات وامارات منها ، فكان لهذا كله عامل قوى دفع الاندلسيين الى الهجرة وتطلعت اعين هؤلاء الى المغرب الذى نال نصيبا من حضارتهم وثقافتهم .

يضاف الى هذا هجرات القيروانيين الذين اكتسحت بلادهم موجات من الاعراب المخربين فقصدهم المغرب ، وكان منهم الحصرى الضرير وعاصرتها هجرات الصقليين الذين تعرضت جزيرتهم الى الغزو النورماندى، فكان منهم ابن حمديس الصقلى الذى لجأ الى المغرب واقام به برهة من الزمن عاد بعدها ، بخلاف الحصرى الذى استقر به نهائيا وتوفى بطنجة .

واخيرا كانت اول دولة كبرى ينعم بها المغرب ، فتضم هذه الامارات وتجمع شتاتها وتمد فى بقعة مملكتها التى خلصت المغرب من هذا التمزق كما خلصته من تلك الامارة المبتدعة الضالة التى كانت شوكة فى جنب المغرب

الاسلامى عانى منها آلاما ممضة طويلة أربعة قرون وهى امارة البرغواطيين ولم تكف هذه المملكة بضم شتات المغرب بل وجدناها فى الربع الاخير من هذا القرن تضم تحت جناح لها الاندلس وتخلصه من ذلك التمزق وتدفع عنه عادية النصرانية الفتاكة .

تلك هى دولة المرابطين التى هرع اليها كتاب الاندلس وشعراؤه فنعم المغرب بعهد الزاهر وقطف ثمار الثقافة الاسلامية وهى يانعة الأزهار طيبة الثمار .

فى هذا القرن كان الحصرى يتردد على سبتة وطنجة وكان ينشد قصائده الطوال ، كما كان يتردد على مدن المغرب ابن حمديس الصقلى فينظم الاشعار مخاطبا ومادحا ، ويختتم هذه الحلقة المفرغة المعتمد ابن عباد فينظم الاشعار كذلك ويتأوه فى بعضها ويرسل صيحاته فى أرجاء البلاد فتتردد أصداؤها فيها وتستمر تلك الاصداء حتى بعد وفاته فيها قال الشعراء فى محنته وأنشدوه على قبره .

بعد ما كان الحصرى يقرئ بسبتة التى توفى له بها ابن كما توفى له آخر بدانية فقال فى مطلع قصيدة :

أستودع الله لى بدانية وسبتة فلذتين من كبدى
كما يقول فى مطلع اخرى :

ابنى مذ منحتك سبتة للعلا لم يرضها يحيى ولا ادريس (1)
وفى اقامته بطنجة قال فى مطلع قصيدة :

سئمت حياتى والمقام بطنجة كأن ببلاد الله غير عراض
والمعروف أنه كان بها لما جاءها المعتمد فى طريقه الى منفاه وأنه
قصده بشعره مستجديا فقال المعتمد الابيات المعروفة :
شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب

(1) يريد يحيى وادريس ابنى على بن حمود الذى كان سليمان الاموى - وهو المستعين - قد اقطعه سبتة وأخاه القاسم طنجة وأصيلة مع الحزيرة الخضراء .

سألو العسير من الأسير وأنه
لولا الحياء وعزة لخميلة
قد كان أن سئل الندى يجزل وأن
بسؤالهم لاحق فاعجب واعجب
طى الحشا ساواهم في المطلب
نادى الصريح ببابه أركب يركب (1)

وكان الحصرى بطنجة منذ عام 483 الى وفاته . وغير هذه الابيات التى
قالها المعتمد فى المغرب فهناك عشرات المقطوعات التى قالها فيه وفى عدة
مناسبات تربو على الثلاثين قطعة وتقارب ثلاث مائة بيت وكان الشعراء
يقصدونه من الاندلس وغيره أما ابن حمديس فقد تردد على عدة مدن مغربية
مثل أغمات وسلا وسبتة ولازم المعتمد فى أغمات وكان قد مدحه ومدح
المرابطين وبطولاتهم فى الاندلس . ومن الذين مدحهم بالمغرب قاضى سلا ابن
القاسم بلامية فريدة يقول فيها :

لقد بهرت شهب الدرارى منيرة
ورثتم تراث الجد من كل سيد
فمن قمر يبقى على الأفق بعده
وأصبح منكم فى سلا الجور أخرسا
مآثر منكم لا يكأثرها الرمل
على منكبيه من حقوق العلا ثقل
هلالا ومن ليث خليفته شبل
وقام خطيبا بالذى فبكم المعدل

كما قال فى المرابطين :

بنو الحرب غدتهم لبان ثديها
يحثون للهيجاء جردا سلاها
إذا طعنوا بالسهمرية خلثهم
وأن كر منهم ذو لثام مصمم
وما استعذبوا منهن إلا العلاقما
وينضون فى البيداء بزلا صلاما
ضراغم تغرى بالقلوب أراقما
غدا لقم الهيجاء بالسيف لاثما

وأشاد ببوسف بن تاشفين فى عدة قصائد له مدح بها المعتمد بن عباد .

كل هذا يعنينا من غير المغاربة إذ كانت أصداؤه تتجاوب ولا شك
بينهم وتنعكس عليهم فيكون لها وقعها فى هذا المحيط الذى ينجلى فيه أديبان
عظيمان كان أحدهما قاضيا لطنجة وكان الآخر قاضيا لسبتة هما ابن زنباع
وعياض والاول لا نعرف عنه إلا ما ذكره ابن خاقان فى قلائده من ترجمة

(1) ليستفاد من هذه الابيات ، أن طنجة على أول عهد المرابطين بها كانت تضم شعراء ،
تصدوا (كلهم) المعتمد ، وأن المغرب غيرها كان له شعراء أيضا ، قصد منهم من قصد
المعتمد ، فى تلك الحادثة التى كانت عام 484 .

مركزة في فقرها وأسجاءها ثم ما ذكره ابن القاضي عياض في التعريف بأبيه وأنه امتدت به حياته فكان ممن يقارضه الشعر عياض وهو قاضى سبتة في أبيات عتاب ذكرها له ومعنى هذا أنه عاش في أواسط القرن السادس ولم يمِث ، كما قال بعضهم ، عام ثلاثة وخميس مائة .

وعلى كل حال فالآثار الادبية التي بيدنا انما هي مما سجله له الفتح في كتابه المذكور (1) ، وقد قال فيه ما يلي :

ملء حياء وقنىء استحياء ، طود سكون ووقار ، وروضة نباهة
ياتعة الازهار ، وسمت صفحات المهارق غرره ، وانتظمت بلبات المغرب
والمشارق درره . ان نطق رايت البيان منسربا من لسانه ، والاحسان منتسبا
لاحسانه . حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى
تصاندها وأرجازها ، وعلم اطالنها وأيجازها . وهو فى الطب موفى العلاج ،
واضح المنهاج وله نظم تزهى به نحور الكعاب ويستسهل الى سماعه سلوك
الصعاب . وقد أثبت منه ما تجتليه ، فتستحليه ، وتمقله ، فتنقله ، فمن
ذلك قوله : (فى الربيع) :

أبدت لنا الايام زهرة طيبتها	وتسربت بنضيرها وقشيتها
واهتز عطف الارض بعد خشوعها	وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت فى عنفوان شبابها	من بعد ما بلغت عتى مشيها
وقفت عليها السحب وقفة راحم	فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعمجت للازهار كيف تضاحكت	ببكاها وتبشرت بقطوبها
وتسربت حللا تجر ذيولها	من لدمها فيها وثشق جيوبها
فلقد أجاد المزن فى انجادهما	وأجاد حر الشمس فى تربيها
ما أنصف الخرى يمنع طيبه	لحضورها ويبيح له لغيبها
وهى التى قامت عليه بدفئها	وتماهدته بدرها وحليبها
فكأنه فرض عليه موقت	ووجوبه متعلق بوجوبها
وعلى سماء الياسمين كواكب	أبدت ذكاء العجز عن تغيبها

(1) وقد ورد ذكره فى الخريدة بابن بياض كما ورد كذلك فى السعري لابن القاضي عياض فان لم يكن ذلك تحريفاً فانه المذكور بالخزيمة التى جعلته سبتيا وأثبت له البيت الذى لم يرد بالقلاند وسبق ذكره بالبَاب الاول .

زهر توقد ليلها ونهارها
 فضلت على سير النجوم بأسرها
 فتأرجت أرجاؤها بهبوبها
 وتصوبت فيها فروع جداول
 تطفو وترسب في أصول ثمارها
 فكأنها هي موجسات أساود
 فأدر كؤوس الانس في حافاتها
 فحديث اخوان الصفاء لذاذة
 واركض الى اللذات في ميدانها
 أعريت خيلك سيفها وخريفها
 او ما ترى الازهار ما من زهرة
 والطير قد خفقت على أفنانها
 تشدو وتهتز الغصون كأنها
 وتفوت شأو خسوفها وغروبها
 ومروها في الخلفتين وطيبها
 وتعانقت ازهارها بنكوبها
 تتصاعد الابصار في تصويبها
 والحسن بين طفوها ورسوبها
 تنساب من أنقابها للصوبها
 واجعل سديد القول من مشروبها
 تجنى ويؤمن من جناية حوبها
 واسبق لسد ثغورها ودروبها
 وشتاءها هذا اوان ركوبها
 الا وقد ركبت فقار قضيبها
 تلقى فنون الشدو في أسلوبها
 حركاتها رقص على تطريبها

ونلاحظ على هذه القصيدة أن اثر الاندلس قوى فيها وان بعض الاشياء
 التي اهتم بها الاندلسيون مذكورة في تلك القصيدة مثل الخيري الذي يتردد
 ذكره كثيرا في شعر الاندلسيين .. كما نجد ظاهرة اخرى ، وهي استغلال
 بعض المصطلحات العلمية التي برع شعراء الاندلس في استغلالها بأشعارهم
 مثل ابن زيدون وابن دراج وابن هانيء وابن عبد ربه وغيرهم ولم يكن
 استغلالهم هذا مما يستثقل في أشعارهم كما كان في شعر غيرهم . (1)

واذا كان للقرآن الكريم اثره البالغ في ادبنا ، منذ نشأته الى يومنا ،
 بحكم كونه البداية الاولى في تعليمنا ، فان هذه القصيدة الجميلة استعارت
 ابياتها الاولى صورا من القرآن ، من مثل قوله تعالى : « وترى الارض
 هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » وقوله
 « ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت
 ان الذي أحيها لمحيى الموتى » وقوله « الله الذي يرسل الرياح فتثير
 سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من
 خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وأن كانوا من قبل

(1) ولاشك اننا لمسنا شيئا من ذلك في النماذج الشعرية الواردة بالبواب الاول.

ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى اثر رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى « كل ما هناك »، انه حول الاسناد مجازا فجعله للارض بدل العباد ، وانه اشتق « راحم » من اثر رحمة الله ، اشتقاقا مطابقا في معناه ، فلم يات بالصفة المشبهة بل باسم الفاعل ، وانه جعل السحب تبكى ، بدل أن يخرج الودق من خلالها . (1)

سوى هذا فائنا نلاحظ على القصيدة ، أن الشاعر فيها عمد الى بث الانسانية في وصفه لمظاهر الطبيعة ، فالايام قد تبدت وهى متسرلة بحلها ، والارض قد تملكها البهجة ، فاهتز عطفها بعد خشوعها ، وبدت النعماء على محياها بعد شحوبها ، وتطلعت الى الحياة فعادت الى عنقوان الشباب ، بعد ما كانت قد بلغت عتى المشيب ، وذلك بفضل هذه السحب التى ادركتها الشفقة عليها والرافة بها ، فوقفت عليها وقفة راحم ، باذل لرحمته منقذ للضعيف والعانى ، يحس بألمه ولوعته ، وبكت لها بعيونها وقلوبها ، وفى هذا التعبير ملاءمة ، بين السحاب كائنات وبينها كالسحاب فى آن ، فهى تبكى بالعيون شأن الانسان وهى تبكى بالقلوب التى يخرج الودق من خلالها ، ثم لا يكتفى بهذا الوصف الانسانى ، حتى يحثر نفسه فيه ، واذا به يتعجب لهذه الازهار ، كيف تضاحكت ببكاء تلك السحب ، وكيف تبشرت بقطوبها ، وكيف ظهرت بزيتها متسرلة حلها تجر ذيولها زهوا ، بما فعلت فيها تلك السحب من لدم وشق جيوبها ، وهنا ايضا يقترب الى الحقيقة فى تصويره الانسانى ، فهذه المزن التى جاءت بها السحب ، قد اجدت فى انجاد تلك الازهار ، كما اجد حر الشمس فى تربيتها ، ومع هذا فمن الازهار ، كالانسان عاق لأمه ، ناكرا لجميلها ، فهذا الخرى ما انصف امه الشمس التى ربته ، فهو يمنع عنها طيبه ، اذا حضرت ، ويبيح لغيرها اذا غابت ، وبذلك يكون الشاعر ، قد اتصل بالاخلاق ومثلها ووقف موقف المستفزع لهذا الجحود من الخرى العاق لأمه ، التى قامت عليه ، وهو طفل رضيع ، بدفئها وتمهده بدرها وحليها ، وما أجمل تشبيه اشعة الشمس الصافية بالدر والحليب ، وتستغرب بعد هذا من ذلك المنع الذى له ميقات ، وكما قيل

(1) وقد تجلى الاستغلال القرآنى فى الشعراء الاندلسيين السابقين كالاربعة المذكورين آنفا وقد سجلناه من اشعارهم فيما كتبناه بمناسبة الذكرى التى كانت ستقام بالمغرب للشاعر ابن زيدون وعنوانه « بنظرة على شعر ابن زيدون » .

الصلاة ، فكانه مفروض على الخيرى المكلف ، لابد ان يقوم به ، فى وقت له موقوت ، يجب القيام به بمجرد وجوب تلك الشمس ، وبهذا لا يكتفى بالانسانية حتى يجعل لها دينا يوجب عليه صاحبها القيام بشعائره .

ثم جعل الياسمين كواكب فى سمائها ، الا أن هذه تخالف الكواكب الأخرى ، حيث ان الشمس فى طلوعها تعجز عن كشف نورها ، وبذلك فهى زهر تتوقد ليلها ونهارها ، ولا تتعرض للخصوف والغروب ، قد فضلت على النجوم بأسرها ، لظهورها ليل نهار وطيبها ثم نراه أيضا يلائم بينها أيضا كائنسان وبينها كآزهار ، فيجعل أرجاءها تتأرجح طيبا بهبوب الرياح ، ويجعلها « تتعانق » بانصرافها عنها ثم يتصل بجداول المياه ، التى تتخللها ، فهى فى حركاتها تأخذ صوبها منحدره ، بينما الابصار تتصاعد اليها فى انحدارها ، وهذه من المقابلات البديعية بين الازداد ، وهى تطفو وترسب تتخلل الاشجار المثمرة ، وما أحسنه من منظر ينعتد بين طفوها ورسوبها ، ثم يجعلها فى جريانها هذا كالاساود تفر خائفة موجسة ، تنساب من انقابها الى مضايق الجبال الوعرة والوديان .

وبعد ما يفرغ من هذا التصوير الذى جعلها كلها حركة ونشاطا ، زيادة على تلك الانسانية والتشخيص « البنورامى » أحيانا عاد الى نفسه يستحثها على التمتع بمباهج الحياة فى هذه المباهج من الطبيعة ، فخطب صاحبه طالبا منه أن يدير عليه كؤوس الانس على حافات تلك الجداول ، وأن يجعل سديد الحديث من مشروب تلك الكؤوس ، لان حديث اخوان الصفا لاذة ما بعدها لاذة ، لا يعترها ما يكدرها اثما او لغوا ، وكأنه هنا استعان بالآية الكريمة : يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ثم يغرى صاحبه بالذات ، ولكنه يصوره فارسا عليه أن يقتحمها فى ميدانها ، وعليه أن يسد عليها المنافذ ، فلا يترك لها ثغرا أو دربا ولا شك أن هذه الصورة ، منتزعة من الظروف الزمنية التى كان الشاعر يحياها فاسنجايت لغنه فى هذا التصوير الذى يوغل فيه فيقول لصاحبه ، ان أفراسك التى تركضها ، طالما أهملتها وتركتها غير مسرجة لركوبك ، فى فصول الصيف والخريف والشتاء ، أما الآن وقد حل الربيع ، فقد جاء أو ان ركوبها ، وهذا تشخيص للمعانى بهذه الافراس وغيرها ، ويزيده اغراء ، بأن الطبيعة الجميلة نفسها قد خفت لما دعاه اليه ، فهذه الازهار نفسها

كلها فارس وكلها ممتط فئار قضيبه ، كما يمتطى الفرسان صهوات جيادهم.

وليس وحده يدعو الى هذه الملذات ، بل الطيور كذلك تدعوه اليها،
وهي تغرد على أفنانها ، تلقى فنون الشدو بأسلوبها فتسمعها الغصون
وتطرب لشدوها وترقص على تطريبها (1) .

ومن امداح ابن زنباع قصيدة ضادية استهلها بقوله :

أرى بارقا بالابلق الفرد يومض كأن سليمى من أعاليه أشرفت إذا ما توالى ومضه نفض الدجى أرقت له والقلب يهفو هفوه وبت أدارى الشوق والشوق مقبل واستنجد الدمع الابى على الاسى واعذل قلبا لا يزال يروعه تظنها ثغر الحبيب وخده إذا بلغت منك الخيالات ما أرى الى أن تفرت عن سنا الصبح سدفة وندت الى الغرب النجوم مروعة وأدركها من فجأة الصبح بهتة كأن الثريا والغروب يحثها وما تبتري في الهتعة العين أنها	يذهب جلباب الدجى ويفضض تمد لنا كفا خضيبا وتقبض له صبغه المسود أو كاد ينفض على أنه منه أحد واومض على وأدعو الصبر والصبر معرض فتنجدنى منه جداول فيض سنى النار يستشرى أو البرق ينبض فذا ضاحك منه وذا متعرض فأنت لماذا بالشيوخ معرض كما انشق عن صفح من الماء عررض كما نفرت غير من السيل ركض فتحسبها فيه عيونا تهرض لجام على رأس الدجا وهو يركض على عاتق الجوزاء قرط مفضض
---	---

فالابيات الاولى تتسم بالتقليد للقديم حتى في ذكر البقاع بالابلق الفرد
الذى تواجهنا به لامية السموال . ولولاها لما شهر هذا « الابلق الفرد »
ثم بذكر الاسماء ، التى وان عاش معنا بعضها ولكنه بحكم التشبث بالقديم ،
مثل «سليمى» فى البيت الثانى الذى حاول أن يتأنق فيه بهذا التشبيه الذى
ركبه على المصراع الثانى من البيت الاول على سبيل اللف والنشر المرتب ،
اذ التهذيب يناسبه الكف الخضيب عند البسط والتفضيض يناسبه عند القبض

(1) نجد شعراء المغرب قد أعجبوا بهذا التصوير فصاروا يرددونه في اشعارهم خصوصا
في العصر العلوى .

لنصاعة البياض في صاحبه واصل الصورة من قول امرئ القيس :
أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليمين في حبي مكلل
والبيت الرابع تنفس من البيت :

تعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأمل
وأخيراً في الأبيات الأربعة يأتى ذكر النجوم وفيها الثريا المذكورة
في المعلقة :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
كان الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان الى صم جندل
ومعرفة مواقع النجوم وهيأتها كانت لازمة للاديب والعالم الدينى ،
ففى القرآن « لا أقسم بمواقع النجوم » وفيه « وبالنجم هم يهتدون » فعلى
المفسر ان يفهم هذه المواقع وان يدرك الاهتداء بالنجوم ، أما الادب والشعر
منه خاصة ، فيكفى أن نطلع على كتاب العمدة لابن رشيق ، فنجد فيه باباً
خصصه للنجوم ومنازل القمر (1) .

يذكر به أجزاء السنة ويتعرض للأنواء وأسمائها والمنازل وما قيل
في ذلك من أوصاف وما اعتقد من اعتقادات وهذا ديوان الشاعر ابن مقبل وهو
شاعر مخضرم ، نجد فيه فهرساً خاصاً للنجوم الواردة في شعره ، الذى
تردد فيه الجوزاء والدبران والشعرى والمجرة وسهيل والسمك .

(1) افتتحه بقوله « ولما رأيت العرب ، وهم أعلم الناس بهذه المارل وأنوائها ، لأنها سقف
بيوتهم وسبب معاشهم وأنجاعتهم ، غلطوا فيها فقال أحدهم ، من الأنجم العزل والراحه ،
وقال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت

فأتى بتعرض الجوزاء ، ورأيت كل من عنى بالنجوم من المحدثين ، واستوفى جميع
المنازل مخطئاً ، لا شك في خلافه ، لأنه إنما يصف نجوم ليلة سهرها ، والبحوم كلها
لا تظهر في ليلة واحدة ، ولذلك قلت أنا احتياطاً في الليل من نسيب قصيدة ، مدحت بها
السيد أبا الحسن ، أدام الله عزه :

قد طال حسنى حلتى من كل ناحيته وسقط
وتكررت فيه المنازل منه لا منسى العلق

وجب أن أذكر هذه المارل وأنوائها ، واختلاف الناس فيها ، وعولت في ذلك على
ما ذكره أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الرجاجى .

وكذلك نجد ابن هانيء من شعراء الاندلس ، يتعرض في شعره لذكر
النجوم ومواقعها ، ومن أجمل ذلكم قوله في مطلع قصيدة :

بعيشك نبه كأسه وجفونه وقد ولت الظلماء تقفو نجومها وولت نجوم الثريا كأنها ومر على آثارها دبرانها واقبلت الشعري العبور مكبة وقد بادرتها أختها من ورائها تخاف زئير الليث يقدم نثرة كأن السماكين اللذين تظاهرا فذا راح يهوى اليه سنانه كأن رقيب النجم أجدل مرقب كأن بنى نعش ونعشا مطافل كأن سهيلا في مطالع أفقه كأن سهيلا عاشق بين عود كأن معالي قطبها فارس له كأن قدامى النسر والنسر واقع كأن أخاه حين دوم طائرا كأن الهزيع الأبنوسى لونه كأن ظلام الليل اذ مال ميلا كأن عمود الفجر خاقان عسكر كأن لسواء الشمس غرة جعفر	فقد نبه الابريق من بعد ما أغفى وقد قام جيش الفجر لليل واصطفا خواتيم تبدو في بنان يد تخفى كصاحب رداء كبت خيله خلفا بمرزمها اليعسوب تجنبه طرفا لتخرق من ثنى مجرتها سجفا وبربر في الظلماء ينسفها نسفا على لبدتيه ضامنان له حتفا وذا أعزل قد عض أنمله لهفا يقلب تحت الليل في ريشه طرفا بوجرة قد أضللن في مهمه خشفا مفارق الف لم يجد بعده الفا فآونة يبدو وآونة يخفى لواءان مركوزان قد كره الزحفا قصصن فلم تسم الخوافى به ضعفا أتى دون نصف البدر فاخطف النصف سرى بالنسيج الخسروانى ملتفا صريع مدام بات يشربها صرفا من الترك نادى بالنجاشى فاستخفا رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا(1)
---	--

وهكذا نجده يتخلص الى ممدوحه بعد ما أفرغ تشبيهاته في تلك
النجوم وهيأتها ، وكذلك ابن زنباع كانت أبياته تلك في مقدمة مديح له
والمهم أن ظاهرة النجوم في أشعار الجاهلية وما بعدها ظاهرة منتزعة من
البيئة الصحراوية ، أما ما قيل منها في غيرها فعلى التبعية .

يبقى بعد هذا كله صور التشبيه والاستعارة المتأنقة في نحو « نفص

(1) وهذا المنيع المركز على « كان » للتشبيه في النجوم ومواقعها أصله للمهلل في تصديده
« أيلتنا بذى حسم أنيرى » .

الدجى له صبغه المسود أو كاد ينفض « وفيها إشارة من بعيد الى « ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » .

وفي الابيات من غير هذا القبيل ، محسنات بديعية ، من نحو الطباق في البيت الخامس منها ، ثم السادس في الدمع الابى الذى انجده بجداول فيض ، بعدما كان منه في البيت الرابع الذى نجد فيه القلب الحاد يهفو هفوه.

وفي الابيات من السابع الى آخرها ، يطغى هذا التأنق في القلب المرتاع من سنى النار والبرق ، لانه يذكره بثغر الحبيب في نصاعة بياضه وبخده في وهجه المتورد ، فذا ضاحك منه وهذا متعرض له ، ثم يأتى نمزق السدفة ، التى شبهها بنحو الجلاب ، على سبيل الاستعارة المكنية ، عن سنا الصبح ، كما ينشق الطحلب عن صفحة الماء النهر ، وقد هرعت النجوم مروعة نحو الغرب كأنها غير ركض نافرة من السيل ، على أن النجوم قد أدركتها بهتة من فجأة الصبح ، فهى تبدو وتختفى كأنها عيون نعالج بتمريضها ، وفي تلك النجوم ، كانت الثريا ، وقد اسنحتها الغروب ، كأنها لجام للدجى وهو يركض ، ففى هذا استعارة أخرى مكنية حيث شبه الدجى بفرس أدهم ، رشح له باللجام على الرأس وبالركض ، واخيرا اذا نظرت العين الى الهتعة ، فانها تجدها تماما كأنها قرط مفضض على عاتق الجوزاء ، فهذه الهيئة لا يدركها الا الخبير بمواقع النجوم والكواكب ، وسنرى للقاضى عياض رسالة في نحو هذا .

وعلى كل حال ، فقد وفق على اتباعه فهو يذكر أنه يرى برقاً يومض بهذا الجبل الشاهق ، وأن وميضه تعتوره الحمرة والبياض ، فهو بذلك يذهب جلاب الدجى ويفضضه ، فكأن لمعانه صادر عن حركة الكف الخضيب التى تمدها سلبى وتقبضها ، وهى مشرفة من أعالي البرق فاذا ما توالى هذا الوميض ، فانه لا محالة يذهب بسواد الظلام ، وينفض الدجى بذلك صبغه المسود ، أو بكاد ينفضه . ولا شك أنه فى هذه الجملة على ذكر من قوله تعالى : « يكاد سنى برقه يذهب بالابصار » وهى جملة تؤدى الواقع لهذا الوميض الذى يبدو ويختفى وكذلك الظلام يختفى بدوه ويبدو باختفائه، ثم يذكر أنه أرق لهذا المشهد ، وان قلبه وجف له ، وان كان احد من هذا

البرق وأومض (1) ، وأن شوقه الى محبوبته « سليمي » التي تمثلها مشرفة من أعالي البرق ، استبد به كل الاستبداد فصار يداريه ولكنه يغلبه بقوة أقباله عليه ، ولا يسعفه الصبر الذي يدعوه ، فيعرض عنه ، فلم يبق الا أن يستنجد دمه العصي على أساه ، فينجد به غزارة الجداول الفيض وينحى على قلبه باللائمة لكونه لا يفتأ يرتاع لسنى النار كلما اندلعت والبرق كلما نبض ، لان النار المتوهجة تذكره بخد الحبيب المتعرض والبرق النابض يذكره بثغر الحبيب الضاحك وهنا يلتفت الى نفسه ووجد منها شخما يعترض عليه في كتمانها للواعجه وتعرضه بالشخوص ، مع أن الخيالات قد بلغت منه مبلغها واعبت به أهواؤها ، وعاد الى قصته من حيث لم يرم مكانه فقد طلع عليه الفجر وتفتشت عن ضوءه سدفة الظلام كما انشق عن صفحة الماء النمر ما كان يفمرها من طحالب ، ويسجل عند هذا الفجر منظر النجوم وهي تجنح الى الغروب بسرعة كأنها مرتاعة ارتياح الحمر من السيل الجارف ، فهي جادة في ركوضها ، فهذه النجوم والصبح قد فاجأها بباهت ضوءه قد صارت تتخفى وتلتمع كأنها عيون تعرضت للتمريض (2) أما الثريا منها والغروب يستحثها ، فكأنها لجام على رأس فرس الدجا وهو يركض ، وأما الهقعة منها فلا تشك العين وهي تنظر اليها أنها قرط مفضض على عاتق الجوزاء .

وفي نهاية القصيدة ، سنراه يجيد في وصف الهيجاء ، وعوامل سيوفها ، وطعان رماحها ، ووقع سنايك جيادها ، في الميدان الذي يتمدد ويتقلص بها ، وما يعتلى هذا الميدان من نقع مظلة كالسحاب ، الا أنها تمطر الصواعق ، ثم هذه الإبطال التي لزمت القتال مدة سهكت فيها جسمها تحت الدروع ، الى آخر هذه الأوصاف التي نجدها في هذه الأبيات :

سل الحرب عنه والسيوف جداول	تدفق والارماح رقط تنضنض
وبالارض من وقع الجياد تمدد	ولكنه فيما تروم تقبض
وبالافق للنقع المثار سحاب	مواخض لكن بالصواعق تمخض

(1) للحة الجرمي اليمنى - وابن زباع ينتمى الى اليمن - ضادية يقول فيها :
 أرقت وطال الليل للبارق الومض حبيبا سرى مجتاب أرض السى أرض
 وبات الحبيى الحون ينهض مقدما كهض المدانى قيده الموعث النقض
 (2) تقدم عن ابن خاقان أن ابن زباع كان « في الطب موفق العلاج » فيكون « التمريض » منهجا من ذلك الطب .

وقد سهكت تحت الحديد من الصدا جسموم بها علت من المسك ترحض
ومدت الى ورد الصدور عيونها صدور العوالى والعيون تغمض
وأشرفت الأبيض الرقاق الى الطلى لتكرع فيها والرؤوس تخفض
فلمست ترى الا دمء مراقبة تخاض الى اكباد قوم تخضخض

غير هذا فان حرف المضاد يتحاماها الشعراء ، أو أغلبهم في قوافيهم ،
فلا نجد في شعراء الجاهلية من استعمله الا امرا القيس في قصيدة لا شك
أن ابن زنباع نظر اليها أيضا ، ومطلعها :

أعنى على برق أراه وميض يضىء حبىا في شماريخ بيض
ويهدأ ناراءت سناء وتارة ينوء كتعتاب الكسير المبيض
وتخرج منه لامعات كأنها أكف تلقى الفوز عند المبيض
فعدت له وصحبتى بين ضارج وبين تللاع يثاث فالعريض

أما في الاسلاميين ، فنجد منهم سبعا في ديوان الحماسة لابی تمام
وخمسا للبحتري زائدا آخر هو أبو خراش الهذلى الذى وجدناه
مذكورا في الاول ، وكلهم يمنيون أجادوا عموما وتعهد بعضهم يمينه كقوله :
قولا لهذا المرء ذو جاء ساعيا هلم فان المشرفى الفرائض
وكان عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ، يفوقهم بضاديته (1) .

عصر الشبيبة فاضر غرض فيه ينال اللين والخفض
وهى ثمانية وخمسون بيتا قلادت قافيتها . وقد انتهى هذا التقليد الى
القيروان وصقلية والاندلس ، فكان من القيروانيين الحصرى وخصوصا في
مراثيه التى تكف قوافيها أما في صقلية فأحسن ما نجد لها على هذا الحرف ،
قصيدة لابن حمديس ، لا تعادلها في جمالتها قصيدة أخرى على ما أعرف
وهى في نهر :

ومرو صدى الروضات يسحب دائبا على الارض منه جملة تتبعض
إذا ما جرى واهتز للعين مزبدا حسبت به فورا من النسر ينقض

(1) في مدح خالد بن يزيد بن مزيد وقال المبرد : هو فيها أشعر من أبيه وحده .
وفي القلائد نجد ضادية لأبى محمد بن القاسم مجيبا عن أخرى لأبى المباس الوارد في
المعليق ص 48 .

وتنسب منه حية غير أنها
وتحسبه ان حبكت متنه الصبا
له رعدة تعتاده في انحداره
كان له في الجسم روحا اذا جرى
وما هو الا دمع عين كأنها
اذا سرحت للسقى من كل جانب
يقيم عايتها الانس والصبح مقبل
تطول على قدر المساب وتعرض
عمودا علاه النقش وهو مفضض
كما تبسط الكف العنان وتقبض
به نهضة والجسم بالروح ينهض
لطول بكاء دهرها لا تغمض
رايت بقاع الارض منها تروض
ويرحل عنها الوحش والليل معرض

وممن حاول في المغرب هذا الحرف في قوافيه ، الامير سليمان الموحد ،
ولكن محاولته لم تتعد بيتين ثم نجد مالك بن المرحل يكلفه ضمن غيره وفي
الاندلس نجد لابن عبد ربه أبياتا أتى بها على سبيل التمثيل لثلاثة أبحر من
العروض (« الحرم منك الرضى » « وفي الكلة الصفراء ريم أبيض »
و « وروضة ورد حف بالسوسن الغض ») ثم كان ابن دراج ينظم خمسة
أبيات ، باد عليها التكلف :

اذا سقيت أرض فقد بشرت أرض وعند عموم الكل ينتظر البعض
وجاء بعده ابن زيدون فنظم قصيدتين ، احداهما في أربعين بيتا كتب
بها الى ابن عبدوس :

اثررت هزبر الثرى اذ رىض ونبهته اذ هدا فاغتمض
والثانية في سبعة وعشرين يخاطب بها المعتضد ابن عباد :

غمرتنى لك الايادى البيض نشب وافر وجاه عريض
ثم كان ابن خفاجة ينظم قطعة ذات ثمانية أبيات يصف بها سرعة
ذهاب الشباب :

الا مضى عصر الصبا فانقضى وحبذا عصر شباب مضى
ولعله نظر فيها الى مقصورة ابن دريد ، وخصوصا في البيتين
الاخيرين :

لاح ففى عينى نور الهدى منه وفى قلبى نار الغضى
وأبيض من فودى به اسود كنت أرى الليل به ابضاً

وهى أبيات قلدها على غير عادته واستمر منهم هذا التصنع الذى ختم بابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك . وكذلك الامر فى الشرق اذ قلده فيه ابو تمام والبحترى والمعري والحائى وسبط ابن التعاودى وابن سناء الملك، استبروا فى تقليدهم حتى آخرهم شوقى فى انس الوجود (1) .

وهذه قصيدة أخرى له فى مدح وزير وقائد محنك كتب له الظفر فى بعض الفتوح :

ويفخر الخط بالقنا الذيل
بر الفتاة العروب بالرجل
أحنى وتمهى السهام كالمقل
خير بين الدروع والخلل
أشرقت المقربات بالنهل
قلوب أبطالهم من الوجمل
ولا أطاقوا الصعود فى جبل
يفرق بين الفتاة والبطل
كمجرىء الغانيات فى الكلل
مقام تلك الاواحق النجل
كى يسلموا من حرارة الاسل
للة من خفة الى ثقل
جرى فصال سلكن فى الوحل
قد أخاضت بالحديد والعمل
دم وطعن كأعين الحجل
ب وان كنت شاهدا فقل
عنه مقام المكذب الخطل
ر بلا مثبه ولا مثل
وعظم الامر تم لا تسلل
سعودها والشموس فى الحمل

كذا تصان السيوف فى الخلل
وتكرم الخيل فى مرابضها
ويعطف النبع كالحواجب أو
ويؤثر الثرة الكمى اذا
فتح أنارت له البلاد كما
هدت له الروم هدة ملأت
فما أطاقوا الولج فى نفق
القوا بأيديهم ولا سبب
فمجرىء الاسد فى مرابضها
وربما لم تقم مناصلها
تغامسوا فى الدروع زاخرة
فما أمادتهم الدروع سوى النق
كانهم والرماح تحفزهم
جاءوا بها سبغا مضاعفة
مثل عيون الدبى فصيرها
هناك سل بالوزير من شهد الحر
ولا تخف ان حكيت مغربة
فانه الاوحد الذى نرك الدهر
حدث بما شئت عنه من حسن
ففضله يبهز الاهلة فى

(1) ايها المنتهى بأسوان دارا كالثريا تريد ان تنقضا

وفى هذه يحارى البحتري فى قصيدته :

ايها العاصب الذى ليس يرضى نم هنيئا فليست اطعم غضا

ويلاحظ عالى الشاعر أنه فى امداحه ، ان ابتعد عن مجال الوصف والنسيب ، لا يأتى فيها بجديد ، ولهذا فهو فى هذه اللامية عموما متواضع . وهذه القصيدة يظهر أن شاعرنا قد نظر فيها الى قصيدة ابن هاتىء الاندلسى فى مدح المعز يفتتحها بقوله :

كدأبك ابن نبى الله لم يزل قتل الملوك ونقل الملك والدول ولا شك ان قصيدتنا التى نحن بصدها ، قد قيلت فى وقعة من الوقعات التى انتصر فيها المرابطون على النصارى بالاندلس ، وان هذا الوزير كان قائدها أو من قوادها الافذاذ ، وقد بدأ ابن زنباع بالاشادة من أمرها فقال :

لمثلها تصان السيوف فى قرابها ويفخر قرى « الخط » بنسبة الرماح الذبل اليها ، ولمثلها نكرم الخيل فى مرابضها ، وتبر برور الفتاة المتحبة الى رجلها ، ولمثلها يعطف قضبان النبع لتتخذ القسى عطف الحواجب أو أحنى من ذلك ، وتحد السهام تحديد المقل المسددة الى القلوب سهام نظراتها ، وفى مصافها يؤثر البطل شرة القتال ، فيفضل لبس الدروع على لبس الطل الفاخرة ، انه الفتاح العظيم والنصر المبين ، الذى ابتهجت له البلاد أو أشرفت أرجاؤها ، كما أشرفت تلك السيوف المقربة بنهلها من الدماء فلقدت هدت الروم بذلك هدة أمتلات بها قلوب أبطالها خوفا وروعا ، فانهزموا جادين فى فرارهم ، يتلمسون النجاة من هلاكهم ، ولكنهم والسيوف تلاحقهم ، لم يستطيعوا ولوج الانفاق ولا صعود شواحق الجبال فلم يكن لهم مناص من ان يستسلموا عن صفار وذلة ويستولى السبى عليهم وعلى ذريتهم فلا فرق فى مشهدهم بين الفتاة والبطل وهنا تنبعث حاسة الشاعر ، نحو هذه الجميلات ، فيقول ان من يجرىء الاسود ويبعثها من مرابضها كمجرئ الغوانى وهن فى كلها ، وأن لواحق المقل ربما كانت أفنك فى دفاعهن من مناصل أولئك الأبطال الاسود .

لقد تغافس جيش الروم فى دروعهم الزاخرة ، ليسلموا من حرارة الرماح ، فما أفادتهم تلك الدروع الا التحول من الخفة الى الثقل فهاهم والرماح تتخطفهم كأنهم قطيع يخف مسرعا وكأنه يجرى فى وحل يعوقه ، لثقل تلك الدروع السابغة المضاعفة التى أخلصت بالحديد المحكم الصنعة ، فكانت فى دقة حلقاتها مثل عيون الجراد الصفار ، فصيرها الطعان النافذ

ففيها كأنها عيون الحجل لاتساعها وتخضلها بالدماء .

وهذه قطعة له يفخر فيها بأصله الحميري ، كما ادعى ذلك قبله بنو صالح ، وكما سيدعيه أبو عمر الاغماتى ، وكما هو للقاضى عياض ، (وان لم نجد له افتخارا به) :

لهواك فى قلبى كريقك فى اغمى
فأدر على بمثلتيك كؤوسه
ان التلدد فى هواك تلذذ
أحبب بحب لا بثبر ملامه
شغل النواظر والقلوب ولم يدع
ومن العجائب شغل شيء واحد
واقام أزمنة وليس بجوهر
با أيها القمر الذى انسانيه
لم أبد حبك غير أن جوانحي
لا ذنب لى علم الذى أسررتيه
وامرت بالشكوى اليك وانما
ولربما لم تشكنى فأمتنى
وتلافنى قبل التلاف (1) فاننى
الطاعنين بكل أسمر مدعس
والواردين الصادرين الى الوغى
ولعلمهم تسمو بهم هماتهم

غيرى يقول الحب مر المطعم
حتى يدب خماره فى أعظمى
لو كان اقتل من ذعاف الارتم
ملئت بمولييه عيون النوم
من لم يسمه من الانام بميسم
فى الحال امكنة ولم يتقسم
وجرى وليس بمائع مجرى الدم
يرمى اناسا للعيون بأسهم
فاضت به فيض الاناء المفعم
نظرا ولم أرمز ولم اتكلم
ينمى الى الانسان ما لم يعام
يأسى فذرنى تحت أمر مبهم
من حمير وسياخذونك فى دمي
والضاربين بكل ابيض مخذم
لفحت بجهرتها وجوه الحوم
أن يدركوا فى الظبى ثار الضيغم

اذن فالتصيدة يفخر فيها بكونه من اليمن ، ولعله يقصد أن يكون فى ذؤابة الشرف منها ، سليم التى كان لها شأن عظيم فى الجهاد والاستقرار بالشمال الافريقى ، خاصة ، وسنرى فيما بعد أن ابا حفص الاغماتى ، ينظم قصيدة غزلية رائعة ، ولكنه فى الواقع هدف بها الى ما هدف اليه ابن زنباع من الفخر بالاصل اليمنى ، وبساييم بالذات .

الا ان ابن زنباع لم يفصح بسليم ورمز له ، باستعمال يعرفه النحاة،

(1) يقول شاعر من شعراء « الزهرة » :

اذن فتلافنى من قبل ياس
يولد ما يجبل عن التلافى

وهو اجراؤهم القول مجرى الظن في العمل وان كان معناه الاعتقاد في هذا، ولا يشترطون في ذلك شرطا ، كما قال ابن مالك ، وهو ما صرح به سيبويه في الكتاب ، وسليم هذه قبيلة من جذام يمنية ، أو هي بطن من شنوءة من القحطانية .

وهذا الاستعمال نجده في أول بيت من القصيدة :

غيرى يقول الحب مر المطعم

فيقول بمعنى يعتقد ، وهو أبلغ وأنس بقوله :

لهواك في قلبى كريقك في فمى

وصنعة القصيدة انه يخاطب محبوبه بأن هواه في قلبه حلو لذيق اذاذة رضابه في فمه ، فهو لا يعتقد مرارة الحب ، وهو المراد من غيرى وبذلك يستزيد من هذا الحب بأن تدبر مقلة المحبوب عليه كؤوسه فيسكر بذلك سكرًا يدب خماره في عظامه ، فاللدادة في هواه لذة عنده حتى ولو كانت أقتل من سم الافاعي ، فأحبيب بهذا الحب الطاهر الذى لا يبعث الملام ، وتقر به الاعين فتنام على رضى صاحبه ، وقد شغل النواظر والقلوب ولم يترك من الناس الا من لامس بصره وبصيرته ، فكانه بهذا يرمز الى الحب الالهى ، ويعجب من كونه ملاً حيزين وهو واحد بمكانه وهذا من المستحيلات الفلسفية ، التى كان يرددها علماء الكلام والتوحيد العقلى، كما انه أقام ازمئة وهو غير جوهر ، ثم انه يجرى مجرى الدم وليس بمائع، وبعد هذه التأملات يتوجه بالخطاب الى قمره الانسانى الذى يرمى الاناسى بأسهم العيون فيعتذر بأنه لم يبيع لسانه بحبه ولكن جوانحه فاضت به فيض الاناء المفعم وانه لا ذنب له في ذلك ، عام الذى أسره نظرا ، فلم يرمز ولم يتكلم ، وانه قد أمر بالشكوى اليه ، وهل يشكى لمن هو عالم به مطلع عليه ؟ فلا ينمى الى الانسان ويشكى الا ما غاب عنه علمه ، ومع هذا فانه لو شكك اليه ربما لا يشكيه فيقضى حسرة ويأسا ، فخير له ان يظل في أمر مبهم بين اليأس والرجاء .

ومن هنا ينتقل الى المقصود ، فيطلب من صاحبه أن يتلافى أمره قبل ان يتلف روحه ، فهو من حمير ، وهؤلاء سيأخذون صاحبه بدمه ويطالبون بشأره ، وهم الابطال الطاعنون بالرماح الضاربون بالسيوف الواردون

الصادر من الى الحروب التي تلفح الوجوه بنيرانها ، فلعلهم نسو هماتهم ، فيدركون في الظبي ثار الضيغم ، يعنى محبوبه ونفسه .

فهذا الفخر هو المقصود ، وما قبله انما كان مقدمة على طولها ، وهذا الصنيع كان معروفا ، في الفخر والمديح خاصة ، فقد مدح ذو الرمة احد ملوك بني امية بقصيدة طويلة ، افاض في مقدمتها بذكر ناقته ووصفها ، وأخيرا ذكر ممدوحه في بيت ونصف ، فقال له الملك الاموى « ما مدحت الا ناقتك فخذ منها جائزتك » وكذلك وجدنا ابن زنباع يمدح وزيرا بقصيدته اللامية ، فلا يذكره الا في البيت السادس عشر من القصيدة .

ويبدو من البيت الاول انه يعنى بالخطاب « انسانا » سيكره فيها بعد وقد تمثله حبيبا هام به ، فتلذذ بالتلذد في هواه ولكنه حب لا يثير لوما وأنه متمكن من القلوب مالى للعيون وهى في سباتها كما في الحديث « تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » ومن هنا تجدنا في تراث من فهم هذا الحب ، وهو لم يترك انسانا الا « وسمه بميسم » ، أترأه يرمز الى الحب الالهى ، ولا يريد بالريق معناه اللغوى ؟ كما انه لا يريد بالمقلة الجارحة المعروفة ؟

هذا كان يمكن حمله على ذلك ، وينساق معه الكلام ، الى نهاية البيت السابع ، ولكن ثامن الابيات ، يضطربنا الى تاويل آخر فنرمز بالتمر للذات العلية ، ونحمل « الانسان » على « خلقها » مستانسين بالآية : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » ، وهذا ما يكون قد رمز بقوله « يرمى انسانا للعيون بأسهم » وتكون الابيات الثلاثة بعد هذا البيت ، لا غموض فيها ، وقد فسرنا قوله « وانما ينمى الى الانسان ما لم يعلم » بأن الشأن الا ينمى الى الانسان الا ما لا يعلمه ، فكيف ينمى الى الله السميع البصير ويشكى اليه ما هو به عليم خبير ، ويبقى الكلام بعد هذا منسجما ولكنه فيما يذكر بالبيت بقوله « وسياخذوك في دمي » يصطدم بهذا التفسير الصوفى الرمضى الا ان يتكلف في تخريجه ، ويهرع الى ذلك « الانسان » الذى يستعير له « الظبي » فيما بعد ، ولو تمثيلا ، فانبنت عليه مقدمة القصيدة ، التي قصد بها الى الفخر بادىء ذى بدء .

ومن شعره قصيدة اعجب بببيت منها القلقشندى . اما القصيدة فيقول فيها :

نزاع ما أرى بك أم نزوع
 يروعك أو يريعك كل داع
 جهلت وقد علاك الشيب أمرا
 ولولا ذاك ما قدرت انى
 فحسبك ، أو فحسبى منك دهر
 وشوق تقتضيه نوى شطون
 حملت الحب مؤتمنا عليه
 لقد جشمت نفسك متلفات
 وحال الصب تخضبه دموع
 وقد تحمى الدروع من العوالى
 ورب فتى تراعى الاسد منه

والبيت الذى اشرنا اليه هو ما قبل البيت الاخير الذى تفرع عنه
 فى المعنى وقد تفرع هذا من قول العباس بن الاحنف على لسان هارون
 الرشيد :

ملك الثلاث الانسات عنانى
 ماى تطاوعنى البرية كلها
 ما ذاك الا أن سلطان الهوى

وحللن من قلبى بكل مكان
 واطيعهن وهن فى عصيانى
 وبه قوين اعز من سلطانى

ثم قول سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الاموى:

عجا يهاب الليث حد سنانى
 فاقارع الاهوال لا متهيبا
 وتملكت نفسى ثلاث كالدمى

وأهاب لحظ فواتر الاجفان
 منها سوى الاعراض والهجران
 زهر الوجوه نواعم الابدان

ثم قول ابن حمديس على هذه الوتيرة وكرر فيها القول كما فعل ابن
 زنباع : وبعدهما قال فى ذلك سليمان الموحد ثم المنصور السعدى فابنه
 زيدان كما سيأتى فى محله .

وابن زنباع كما فى البيت السالف الذكر كان مأخوذاً بسحر العيون ،
 فقد تقدم له فى ذلك :

ويعطف النبع كالحواجب او
 وربها لم تقم مناصلها

أحنى وتمهى السهام كالماقل
 مقام تلك اللواحظ النجل

وقوله :

فأدر على بمقلتيك كؤوسه حتى يدب خماره في أعظمي
يا أيها القمر الذي أنسانيه يرمى أناسا للعيون بأسهم

وقد عني في هذه القصيدة — شأنه في غيرها — بالمحسنات البديعية التي نجدها في البيتين الأول والسابع منها وفيها توجيه الخطاب — كمادة الشعراء — الى نفسه . وهي قطعة غزلية رقيقة ، يدعى صاحبها صدورها عنه ، وقد جلل رأسه الشيب واهدقت به الشيخوخة وركبه الهرم وهذا هو المقصود من الامر الذي يقوم بعلمه الرضيع ، على سبيل المبالغة منه ولكنه ما زال على صبوته واتباع غيه وجهله كما قال .

ومن اخوانياته قوله يخاطب الفتح ابن خاقان :

هوى منجد يلقي بها الليل متهم يبيت يدارى او يدارىء ما به
لاجفانه من كل شيء مؤرق وليس الهوى ما الراى عنه مزحزح
واعذر اهل الحب كل مدله واجاد ابناء الزمان مرزا
ويصعب حمل الهم والهم مفرد ولولا ابو نصر ولذات أنسه
فتى فتح الله المعارف باسمه تأخر في لفظ الزمان وانه
اسوا بالمعاني وهى در منظم وما يستوى في الحكم راق وغائص
اليك ابا نصر بديهة خاطر اهبت بها للقول وهو لما به
وكم مصقع لا يرهب القول فعله ولو لم يكن الا وداعك وحده
فما يصنع الانسان وهو بفهمه وقد كنت تشكىنى من الدهر دائبا

يصرح عنه الدمع وهو يجمجم
ويغلبه امر الهوى فيسلم
ومن اين للمشتاق شيء ينوم
ولكنه ما الراى فيه مفخم
يرى أن من يهدى له النصح الوم
يقاسى خطوب الدهر وهو متيم
فكيف ترى في حمله وهو توام
تقضت حياتى كلها وهى علقم
ومن دونها باب من الجهل مبهم
بمعناه في أعيانه متقدم
وجاء بها من افقتها وهى انجم
لقد نال اسنى الرتبة المنسجم
توالى عليها الشغل وهو مقسم
فلبى ولم يسعده نطق ولا فم
ثنته خطوب ما انثت وهو مفحم
لاشفق منه يذبل ويللم
يحس بأثنيات الامور ويفهم
فقد صرت اشكو منك ما انت تعلم

عليك سلام تسحب الريح ذيله فيعبق منه كل ما يتسنىم
وان لم يكن الا وداع وفرقة فان مؤدى قبلك المتسنىم

وجمال هذه القطعة يكمن في مقدمتها ذات السبعة الابيات ، على ما
بها من تصنع ولعب بالالفاظ ومقابلات في البيتين الاولين ، وعلى فتور في التعبير
بالبيت الثالث ، وتبقى بعدها الابيات الاربعة خالية من كل مأخذ .

وبعد هذا كله لا شئ في ابيات التنويه والاشادة ، التي صدرت عنه
« بديهة خاطر » وهو في حالة من القلق وتراكم الاشغال وتوزع الافكار ،
تلك الخطوب التي تفت في عضد المصانع من البلغاء والفصحاء .

ويبدو أن هذه العواطف المبداء كانت على اثر وداع بين الاخوين
الصديقين تلتها فرقة مبرحة تصدع القلب بها كما تفهم الابيات الخمسة الاخيرة
والمهم من هذه الاخوانية انها تبرهن على الشيوع الادبي الذي كان
الاخوان يتجاذبون اطرافه لذلك العهد ، كما نجد له مثالا آخر صدر عن ابن
زنباع ، قاله على الارتجال ، وقد زاره نفر من اخوانه ، وهو هكذا على
تواضعه :

اهلا وسهلا بكم من سادة نجب كالذبل السمر أو كالانجم الزهر
أجملتمو وتفضلتم بزورتمكم وليس ينكر فضل من ذوى حسب
أضاء منزلنا من نور وجهكم وطاب من عيشنا ما كان لم يطب

ومن قبيل الاخوانيات القصيدة التي اجاب بها الوزير ابا محمد بن
القاسم معزيا في قريب له وهذا الوزير قد أقصى عن مكانته ، مما تشير اليه
الابيات الآتية (1) :

(1) ابو محمد بن القاسم ، كان من وزراء على بن يوسف ، ثم « نفذ في أمره ما نفذ ،
وانفصل عن أمير المسلمين وانتدب ، خيره في بلاد المغرب ناختر سلا ، واعتقد انه يأنس
فيها ويسلى ، بمجاورة بنى القاسم الذين فدوا بدور سمائها ، وصدور أسمائها ، فلما
حلها انقبض عنه أبو العباس انقباضا نعى عليه أقيح نعى ، ونسب فيه الى قلة الوفاء
والرعى » ، وكتب (الوزير أبو بكر بن عبد العزيز) الى الوزير أبي محمد بن القاسم
كيف رأى مولاي في عبد له وهو أنا يرى الوفاء ديناً وملة ولا يعتقد في حفظ الاحاء ملة ، ، ،
وكتب اليه مسلياً عن نكته « الوزير الفقيه أدام الله عره وكناه ما عره أعلم باحكام
الزمان من ان يرفع اليها طرنا أو ينكر لها حرنا ، ، ، ولما نكب الوزير أبو محمد بن القاسم
النكبة التي أنبأت بتعذر الاوطار ، ، ، خاطبه كل زعيم مسلياً عن نكته ، ، ، فكتب اليه
(أبو عبد الله بن أبي الخصال) ، ، ، برقة مستبدعة ، وهى ، مثلك ثبت الله فؤادك =

لعلك من جواد قد أجادا
وبشر بالتى يسمو اليها
فانى قد رأيت الدهر طلقا
ومنذ بخت حظك وهو كبر
ولن يرضى الزمان وأنت فيه
ومثلك وهو أنت ولا مزيد
ومن وقذته بالنوب اللالى
ولولا ما كفت به فؤادى
ومن يطفى بنزر الماء نارا
جزاك الله خيرا من صديق
ورد عليه صبيرا ضل عنه
وانجده على خطب عراه

ونال الغاية القصوى وزادا
سواك فلا تبلغه مرادا
تنزل عن خلائقه وحادا
احال على الورى سنة جمادا
تدافع عن محلك أو تعادى
شقى وكفى الملمات الشدادا
فكيف يطيق عدوا واشتدادا
من الحكم التى تسلى تمادى
فليس يزيدها الا انقصادا
أفاد صديقه مما استفادا
وأقسم لا ينال له قيادا
وأدرك فيه ثارا فاستقادا

هذا ما يتصل بالقاضى ابن زنباع أما القاضى عياض فقد ولد عياض بن موسى اليحصبى الاصل السبئى النشأة عام ستة وسبعين (1) وأربع مائة ، وتوفى عام أربعة وأربعين وخمسمائة نشأ أبو الفضل فى بيت عفة وصيانة ونبل وثقافة ، فتلقى تعليمه ببلده سبتة ، على جلة من العلماء ذكروا بالتعريف لابنه محمد وبكتاب الاحاطة لابن الخطيب وغيره ، ولما كان سنه اثنتين وثلاثين سنة توجه الى الاندلس — والغالب أنها لم تكن وجهته الاولى — فأخذ بقرطبة ومرسية وغيرهما ، ثم عاد الى سبتة ، فأجلسه أهلها للمناظرة عليه فى المدونة ، ثم جلس للشورى بها ثم ولى قضاءها ، ثم نقل الى غرناطة فمتقلد خطة قضاها ، ثم عاد الى سبتة التى ولى قضاءها لثانى مرة ، وصار رئيسها على قيام الدولة الموحدية ، التى بايعها لاول الامر ،

= وخفف عن كاهل المكارم ما أدهى بك وآدك يلقي دهره غير مكترث .
انظر « قلائد العقيان » ومنه نقلت هذه الفقرات .

جميع النصوص المذكورة لابن زنباع وردت فى « قلائد العقيان » وهو المصدر الاول فى هذا وجميع من تناولوه انما كان اعتمادهم على القلائد أساسا وعلى غيرها تبعاً والحق ان الشاعر غير مقطوع بمغربيته بالرغم من ذكر نسبه أما كونه قاصيا على طنجة فهذا لا يثبت كونه منها ولكن الاصل الاصطحاب كما يقولون .
على أنه ان كان نفس الشاعر ابن بياض ، فقد سبب هذا ابن بسم الى سبتة وذكر له بيتا لم يرد فى القلائد ، كما أشربا الى ذلك فيما سلف فان ثبت ان ابن زنباع حقا معربى فانه بذلك يكون شاعر العهد المرابطى لا يضاويه معربى فى ذلك ولا يدانيه .
(1) وليس عام ستة وتسعين كما ورد فى كتاب الببوغ بطبعته الاولى والثانية .

ولكنه بدا له في نشأتها ما جعله ينأى عنها ويتابعه أهل بلده فيخلعون ربة الطاعة من عنقهم ، وبعد التغلب عليهم ، حمل قاضيهم الى عاصمة الدولة ، وأبقى عليه فولى قضاء تادلة التي كانت عمالة كبرى ، فكان مقره بقرية داي وتوفي بعد سنة من نقله .

وعلى حين لا نجد من آثار ابن زنباع والتعريف به الا ما ذكره الفتح ابن خاقان ، والا اشارة اليه في كتاب التعريف ، فان القاضي عياض قد طبق المغرب والمشرق واشتهر بأخباره وعلمه وأدبه ، وتأليفه فيهما ، حتى قيل « لولا عياض لما عرف المغرب » .

الحقيقة ان عياضا يعد أعجوبة عصره ، وموسوعة شاملة لما كان يحيط به من ثقافات واسعة واتجاهات فيها ، فهو ناظم نثر ، منشىء ومؤلف ناقد ، وهو حافظ واعية ، فقيه مجتهد ، كما يصفه بذلك ابن الخطيب في احاطته ، وهو خطيب مصقع ، وصوفي متزن متمكن من طريقتيه .

واذا أردنا أن نجعل للمغرب أوليات ، فآثار القاضي في مقدمتها ، لا يتقدمها غيرها البتة ، واذا أردنا أن نضع لرجاله مجلين ، فهو في الصف الاول منها ، بل هو المتقدم فيها ، على الاطلاق ، وهذه نماذج من آثاره ، تنبئ عن كونه بحرا لا ساحل له بل ان الايام ما زالت تطالعنا في الفينة بعد الاخرى بكنوز من تلك الآثار ، وضروب والوان من تلك المقومات .

نجد في نظم عياض ، وهو أضيق ميادينه ، كما ذكر في التعريف لابنه . يقول ابنه : ان ابا الحسن بن زنباع (1) كان بينه وبينه في الشبيبة ، اخاء كبير ، وفي الكبر ، الى أن ولى رضى الله عنه القضاء ، وهما على تلك الحال ، فبعد وقع بينهما تقاطع ، فبلغ ابي رحمة الله عليه ، عنه كلام ساءه ، فكتب اليه الابيات القديمة :

الى كم وكم اشياء منك تريينى	أغمض عنها لست عنها بذى عمى
أحاذر أن أكاف عنها بمثلها	تكون لاسباب القطيعة سلما
سأصبر حتى يبلغ الموت بى ولم	أخك ولو جرعتنى الدهر علقما

(1) كما في النسخة المطبوعة ، أما الخطية ففيها « ابن بياع » ، وهو ما اشرنا اليه آنفا ويستفاد من هذه القصة انه كان في سن القاضي عياض تقريبا ، وبهذا لا يعقل ان تكون وفاته سنة 503 ، كما ورد في النبوغ بطبعته الاولى ، وحسب ما أرخ به ميلاد عياض ، كما سلف ، فان وفاته تكون بعد ميلاد عياض بنحو سبع سنوات فقط وهو خطأ في منتهى الفداحة والعفلة

وله بين يدي رسالة — كما في التعريف وازهار الرياض — :

قل للماجد والحديث شجون	ما ضر أن شاب الوقار مجون
ولئن غدوت من العلوم بموضع	تومى اليه أصابع وعيون
فلدى للاداب عين (1) صبة	فيها الى ملح الظروف ركون
كنا افترقنا عند دعوى خطة	ساعت بها — فيما فهمت — ظنون
فأنيت بالبرهان فيها نيرا	وعدت عواد بعد ذا وشؤون
وبعثت الان (2) بها ليعلم أننى	عين الزمان وسره المكنون

وله متغزلا وقد ضمن حديثا في الاخير :

أذات الخال كم ذا تنتضيها (3)	على سيوف عينيك انتضاء
بمهلك لى مواعد اقتضيها	من التوريد واللعس اقتضاء
فقتضى وعد مطلق وانجزيه	« خيار الناس احسنهم قضاء »

وله — قال ولده : ما كتبتك من خطه — :

يا راحلين وبالفؤاد حملوا	أيرى لكم قبل الممات قفول
أما الفؤاد فعندكم أنباؤه	ولواعج تنتابه وغليل
أترى لكم علم بمنترح الكرى	عن جفن صب ليله موصول
أودى بعزمة صبره وابائه (4)	طرف أحم ومبسم مصقول
ما ضركم وأضنكم (5) بتحية	يحى بها عند الوداع قتيل
ان البخيل بلحظة أو لفظة	أو عطفة أو وقفة لبخيل

وله — كما في التعريف أيضا — :

إذا الاخلاء لم تحمد غيوبهم	وخان ميثاقهم في البعد أوحالا
فلى بأغصات خل لا أذم له	مدى الحياة وان شطت نوى حالا

وله في خامات زرع بينها الشقائق :

-
- (1) في الازهار « نفس »
(2) في الازهار « وبعثت حينئذ » وينبغى تسهيل همزة « الآن » للوزن .
(3) حذفت النون كما تحذف في المسند لواو الجمع والف التثنية أحيانا تخفيفا لا لضرورة كما هنا .
(4) في الازهار « ولبابه » .
(5) في التعريف المطبوع « ما ضركم أو أضنكم »
وفي البيت الوارد أخيرا تصدير كقول أبى تمام :
« ان الضنين بدمعه لضنين »

انظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست امام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وينسب اليه متغزلا البيتان الشهيران (1) :

رايت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرًا ولكن رايت بعينها ورايت بعينى

وفى لزوم ما لا يلزم وفيه اغراض :

يا من تحمل عنى غير مكرث لكنه للضنى والسقم اوصى
تركتنى مستهام القلب ذا حرق اخا جوى وتباريح واوصابى
اراقب النجم فى جنح الدجا سمرًا كائننى راصد للنجم اوصابى
وفيه كذلك :

اذا ما نشرت بساط انبساط فعنه فديتك فاطو المزاحا
فان المزاح على ما حكى اولسو العلم قبلى عن العلم زاحا
وايضا :

الله يعلم انى منذ لم اركم كطائر خائنه ريث الجناحين
فلو قدرت ركبت البحر نحوكم لان بعدكم عنى جنى حينى
وقوله فى قرية « بليونش » :

بليونش جنّة ولكن طريقها يقطع النياطا (2)
كجنّة الخلد لا يراها الا الذى جاوز الصراطا
وقوله عند ارتحاله عن قرطبة :

اقول وقد جد ارتحالى وغردت حداتى وزمت للفراق ركائبى
وقد غمصت من كثرة الدمع مقلتى وصارت هواء من فؤادى ترائبى
ولم تبق الا وقفّة يستحثها وداعى للاحباب لا للحبائب
رعى الله جيرانا بقرطبة العلا وسقى رباها بالعهاد السواكب

(1) انظر النبوغ ، وفى « ديوان الصباية » لابن ابي حجلة التلمسانى ، انها للمستوى الاربلى العراقى ، ولم يرد ذكر لها فى التعريف لابن القاضى ، ولا فى الازهار للمقرئ .
(2) نسبا له فى الازهار ونسبا لابن مجبر فى النتح .

وحى زمانا بينهم قد الفته
الخوانن بالله فيها تذكروا
غدوت بهم من برهم واحتفائهم
طليق المحيا مستلان الجوانب
مودة جار او مودة صاحب
كأنى فى اهلى وبين اقاربى

ويقول مخاطبا بعض أصدقائه الذين ودعهم :

لك الخير عندى لذاك النزاع
يعز علينا تنائى الديار
لكم امل كان لى فى اللقا
فلم اجن منها سوى حسرة
اثن حمل القلب ما لا يطاق
فمقل يهيم وقلب يـراع
وذاك سلامك لى والوداع
وامنية قد طواها الزماع
فوجد جميع وانس شماع
فما كلف الجفن لا يستطاع

ويقول مخاطبا الوزير ابن القاسم كما يبدو (1) .

عسى تعرف العلياء ذنبى الى الدهر
وقد حال ما بينى وبين احبة
هموا او دعوا قلبى تباريح لوعة
على ان لى سلوى بأن فراقهم
سأفزع للريح الشمال لعلى
تبلغ منها للوزير تحية
تظلمه من حر كل هجيرة
وتنبئه انى اكن صباية
أهز بها عطفى من غير نشوة
وانى أشدو فى النوادى بذكره
أجل وعساها ان تبلغ مهجتى

وله مراجعا الفتح بن خاقان :

أبا النصر ان شدوا رحالك للنوى
وان تتركوا قلبى مقيما وترحلوا
فان جميل الصبر عنك بها شدوا
فماذا ترى فى مهجة معكم تغدو

وله فى مدينة الرسول ، بعد نثر فى « الشفا » تقدمه فى ذلك :

يا دار خير الرساين ومن به
هدى الانام وخص بالآيات

(1) والابيات مذكورة فى الثلاث والارهار وفى هذا انه قالها معتذرا لعرض له .

وتشوق متوقد الجمرات
من تلکم الجدران والعرضات
من كثرة التقبيل والرشفات
أبدا وأو سحبا على الوجنات
لقطين تلك الدار والحجرات
تغشاه بالأصال والبكرات
ونوامى التسليم والبركات

عندى لاجلك لوعة وصبابة
وعلى عهد ان ملات محاجرى
لأعفرن مدون شيبى بينها
لولا العوادی والاعادی زرتها
لكن ساهدى من جميل تحية
اذكى من المسك المفتق نفحة
وتخصه بزواكى الصلوات

وله فى زيارة المقام الشريف (1) :

لاحت علينا من الاحباب أنوار
فانزل فقد نلت ما تهوى وتختار
هذى منازلهم هذى هى الدار
وذا هو الجزع فابك ذا هو الفار
له بتقديمه رسل وأحبار
ليلا وقد ضربت بالليل أستار
لنا على غيرنا فضل وآثار
هذا الذى تربه كالمسك معطار
للمذنبين اذا ما اسودت النار
قبل الممات فلا تشغلك أعمار
أو لم تزره فان الشوق زوار
بر عطوف لفعل الخير أمار
قد أثقلت ظهري آثام وأوزار
أخاف تحرقنى من أجلها النار
ومن خطايا فان الرب غفار
ورق وما نفحت فى الروض ازهار
ما لاح نجم وما تنهل (2) أمطار

قف بالركاب فهذا الربيع والدار
بشراك بشراك قد لاحت قبابهم
هذا المحصب هذا الخيف خيف منى
هذى قباب قبى آثار وطئهم
هذا النبى الحجازى الذى شهدت
هذا الحبيب الذى أسرى لخالقه
هذا الرسول الذى من أجله شهدت
هذا الشريف الذى سادت به مضر
هذا الشفيع الذى ترجى شفاعته
بادر وسلم على أنوار روضته
ان لم تعاین ثراه العين يا أسفى
يا أهل طيبة حل ريعكم قمر
ياخيرة الرسل يا أعلى الورى شرفا
واشغلتنى ذنوب عنك مؤلمة
فكن شفيعى لما قدمت من زلل
صلى عليه الاله العرش ما سجعت
وآله وعلى أصحابه السعدا

(1) القصيدة من مخطوطة بالخزانة العامة للرباط فى مجموع من ورقة 66 ا - 68 أ (رقم 774

(2) بالأصل « هطل » ولا يستقيم بها الوزن والغالب أن القصيدة لم تصدر عن عياض فهى متواضعة فى غناها عامية فى لهجتها .

وهذه اخرى فى التوسل (1) :

وأستكشف البلى واستعطف الطولا
بنفريج كرب طالما واصل الهولا
الىك رفعت الامر والقول والفعلا
فسامح مسيئا قد جنى الجد والهزلا
ويا سامع النجوى وما من هو الاعلى
قه الفقر والافلاس والفقد والذلا
رداء من البلى اذا عوا به الويلا
ونفس هبوى كلها الفرع والاصلا
فليس لنا مغن سواه ولا مولى
ذليلا حقيرا أهمل الفرض والنفلا
تصير مدى الاعصار أخبارها مثلا
صلاة تعم الرسل والحب والاهلا (2)

الىك مددت الكف أستمطر الفضلا
دعوتك مضطرا فعجل اجابتى
عليك اعنمادى فى جميع مقاصدى
وانت ملاذى يا مرادى وسيدى
نداء من الاعماق يا فالح النوى
يتيم من الطاعات عفوك يرتجى
لك الشكوى ياربى بقوم تسربلوا
بجناه رسول الله فارحم نضرعى
لجأت الى باب الكريم لفاقتى
كئيبا حزينا بافتقار وضيعة
فأنزل عليهم من علاك صواعقا
وصل على قطب الوجود محمد

وهذه قصيدة يتوسل فيها أو يناجى بها المقام النبوى (3) :

وهذه الروضة والمنبر
من نوره الساطع ما يبهـر
فما لاجفانك لا تمطر
فمثله الاعين لا تنظر
واى كسر فيه لا يجبر
كانت قناديل به تزهـر
بوطوءه فيه لمن يخطر
فى هذه الحضرة مستصغر
والجود والسودد والمتجر
ومن شداها المسك والعنبر

يا عين هذا السيد الاكبر
فشاهدى فى حرم المصطفى
يا عين ذا ما كنت تبغينه
هذا مقام المجتبى أحمد
واى فهم فيه لا ينجلي
ودت نجوم الافق لو أنها
ما كان هنا مهجتى لو غدت
كل مقام قد سما قدره
تجمع الفضل بها والندى
الى ثراها الزعفران انتهى

(1) من مخطوط بالخزانة فى مجموع من 239 ب - 260 ب رقم 1625 .
(2) وهذه القصيدة بعيدة أن تصدر عنه هى عامة فى عمومها وحذفنا أربعة أبياب منها لشدة تصحيفها .
(3) والقصيدة بأسوانها نعلنا نطمن الى صحة نسخها ، ويقع فى المخطوطة التى ذكرت أولا بالرقم 774 .

قد حسدتها سدرة المنتهى
والكعبة الغراء والمنحنى
فاستبشرى يا مقلتي باللقا
قد ذهب الهم وزال العنا

لما حوت والفلك الانور
والحجر والاستار والمشعر
فمن رأى الاحباب يستبشر
وكل ما يخشى وما يحذر

وله — وانشده ابنه — كما فى التعريف له :

اليك بـؤت بذنبى
وامنن على بلطف
فقد ركبت ذنوباً
وطال تقصير سعى
وقد أسأت فأحسن
وجئت أطلب توباً
فاتقبل بفضلك توبى
وعافنى واعف عنى

فاغفر خطاياى ربى
تجبر به صدع قلبى
سودت منهن كلبى
فى كل فرض وندب
فلم تزل محسناً بى
اذ ضاق بالذنب رجبى
واغفر برحماك ذنبى
فأنت يا رب حسبى

وله — كما قال ولده عند توجهه لحضرة سيدنا أمير المؤمنين (ثم قال
— غير أنه ضاع لى منها بيت —) :

اقهرية الادواح بالله طارحى
فقد ارتنتى من هديك رنة
لعك مثلى يا حمام فائنسى
فكم من فلاة بين داي وسبتة
تصنق فيها للرياح لواقع
يذكرنى سح المياه بأرضها
ويعجبنى فى سهلها وحزونها
(لعل الذى كان التفرق حكمه

أخا شجن بالانوح أو بغناء
تهيج من برحى ومن برحاء
غريب بدای قد بليت بداء
وخرق بعيد الخافقين قواء
كما ضعفتنى زفرة الصعداء
دموعاً أريقته يوم بنت ورائى
خمائل أشجار ترف رواء
سيجمع منا الشمل بعد تناء) (1)

ومن نظمه — كما بالازهار — (2) :

لاتيان مال مال كل مؤمل ولكنهما سبيل صعب المسالك

(1) هذا هو البيت الضائع منه والمثبت فى الازهار ج 4 ص 268 .
(2) الجزء الرابع وكذا الابيات الواردة بعد جلها من الجزء الرابع .

كذلك جنات النعيم ودونها
ومن نظمه هذه القطع الطليقة . ففى الاعتبار وشكوى الزمان والخلان
يقول :

أترانى وما عسى أن ترانى
سلبتنى صروفه كل علق
كلما حزت بغيتى بفلان
عمرك الله هل سمعت بحى
كل يوم طليعة لفراق
فاسأل الشعريين عنها وحسبى
ودع الفرقيدين أن جهلاها
وله أيضا متغزلا :

يا خليلي فاحملا بعض قولى
بلغا عنى الثريا سلاما
خلت انى ملكتها واذا بى
لست أنسى وكيف لى أن أنسى
هل الى نظرة سبيل فانى
وقال أيضا فى عرس مرابطى :

ليهن العاى أن زفت الشمس للبدر
وقرت عيون المجد آية قررة
لدى ساعة أفضت الى كل بغية
قران كلا السعدين فيه تلاقيا
لتجر المنى فى حلبنيه مغدة
بسعد أمير المومنين تطلعت
تهناه نجل الملك حظا ممتعا
تمن بها الايام ثم تردها
وقال أيضا فى مثله :

سمح الزمان بليلة
غراء جامعة السرور

أجنت أكف جناحتها
ما فض طين ختامها
دارت على فلك السعوى
من كل ما ملأت مها
ما إن ترى إلا أمية
تخذوا القلوب أسيرة
فطاههم وقف المعلا

قطف الامانى والحبور
فيما تقدم من دهور
د بمثل أشباه البذور
بته العيون أو الصدور
را حاز ارثا عن أمير
وثووا بها عوض السرير
ء وان تدولت الامور

وخطب السلفى الاصبهاني بقوله (1) :

أبا طاهر خذها على البعد والنوى
لمسوى لك ما بين الضلوع مودة
يناجيك بالذكرى فيشفي غليله
أنبت عمود الدين والاثر الذي
وطاراك ألتصيت البعيد فأرخت
فما من ثرى الا بذكراك عاطر
بقيت لاسناد الحديث تقيمه
ولا زلت تحوى كل فضل وسؤدد

تحية مشتاق ، لذكراك شيق
نشف صفاء كالزلال المروق
ويخلص بالود الصحيح ويلتقى
سناء هدى للحق كل موفق
مآثره ما بين غرب ومشرق
ولا أفق الا بنورك مشرق
وللعالم تملى منه كل محقق
وتسمو بمعراج الجلال وترتقى

وقال أبو الحسن بن شاذان الشقورى : أنشدنى القاضى عياض لنفسه :

ولله قوم كلما جئت زائرا
إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة
أولئك مثل الطيب ، كل له ثدى

وجدت نفوسا كلها ملئت حلما
ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
ومجموعه يزداد ريحا إذا شما (2)

ومما اشتهر من كلامه على طريق النروية — يصف غداة باردة :

كان كانون أهدي من ملابسه لشهر تموز أنواعا من الحلل

(1) وجواب الاصبهاني عنها في التعريف لابنه (103 — 104) .
(2) قال المقرئ : قلت : كذا ذكر غير واحد عن الشقورى ، وفي ذلك — عدى — نظر ،
يتبين بما تراه الآن وذلك أن ابن خاتمة ، ذكر في مزية المارية في ترجمة أبى القاسم بن
ورد ما نصه : وحكى أبو عمر بن عات قال : رأيت أن أبا بكر بن العربى ، حدث
أبا القاسم ابن ورد ، أن أبا حامد ، كان ينشد في آخر مجلسه :
إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
فوصله أبو القاسم بن ورد ببيتين ، أحدهما قبله ، وهما المذكوران

أو الغزالة من طول المدى خرفت
ومن وصاياه قوله :

يا طالب العلم استمع قول امرئ
العلم في أصلين لا يعدوهما
علم الكتاب وعلم الآثار التي
جاءت بها الإثبات منهم واعتنت

وهذا نظم للقاضي عياض - رحمه
تقعد عن الأسفار ان كنت طالبا
تشوق اخوان وفقد أحبة
وكثرة إحصاء وقلّة مؤنس
فان قيل في الأسفار كسب معيشة
فقل كان ذا دهرًا تقادم عهده
فهذا مقالى والسلام كما بدا

ومن قبيل نظمه قوله كما في التعريف والازهار :

أعوذ بربى من شر ما
واسأله رحمة تقتضى
فما للخلائق من ناره
يخاف من الانس والجنة
عوارف توصل بالجنة
سوى فضل رحماء من جنة

فهذه أبيات تعليمية على نحو مثلث قطرب نعد من النظم ولا تعد من
الشعر في روحه وجوهره ولعياض في مكانة أهل العلم وعلى رأسهم مالك
ابن أنس :

يا سائلا عن حميد الهدى والسنن
وعقد قلبك فاشدده على ثلج
واسلك سبيل الالى حازوا نهى وتقى
هم الأيمة والاقطاب ما انخدعوا
اطلب هددت علوم الفقه والسنن
لا تطوبنه على شك ولا دخن
كانوا فبانوا حسان السر والعلن
ولا شروا دينهم بالبخس والغبن

(1) وجاء في ترجمة محمد بن محمد الطيب المالكي القافلى سلك الدرر للمرادى بيتان على
غرار السابقين وهما :

كان كائنون أهدي من منازلهم
أو الغزالة تاهت في تغلها
(2) « السعادة الأبدية » لابن الموقت .

شهر نسيان أصافا من التحف
لم تعرف الحدى والثور من الخرف

خير القرون نجوم الدهر والزمن
نجاة من بعدهم من غمرة الفتن
أهل النهى والنقى والعلم والفطن
مشهر الذكر في شام وفي يمن
نهجا الى كل معنى رائق حسن
امام دار الهدى والوحى والسنن
ودع زخارف كالأحلام في الوسن
والمقتدى بالهدى في ذلك الزمن
شهادة المصطفى ذى الفضل والمنن
تنضى المطايا وتنضى بدن البدن
طى القلوب كمجرى الماء في الغصن
قولاً وان قصروا في الوصف عن لسن
ومن رضاه كصوب العارض الهقن
تسقى برحماء متوى ذلك اليفن (1)

اصحاب خير الورى أخيار ملته
بن اهتدى بهداهم مهتد وهم
وتابعوهم على الهدى القويم هم
واختر لدينك ذا علم تقلده
حوى اصولهم ثم اقتفى أثرا
وبالك المرتضى لا شك أفضلهم
وعنه خذ علمهم ان كنت متبعما
فهو المقلد في فقه وفي نظر
وعالم الارض طرا بالذى حكمت
ومن اليه بأقطار البلاد غدت
من أشرب الخلق طرا حبه وجرى
وطال كل لسان في فضائله
عليه من ربه أصفى عواطفه
وجاد ملحه وطفاء هاطلة

فهذه قصيدة الغالب أنها كانت من بواكير منظومه ، فهي من الكلام
المفسول من زينة الشعر ، وان حوت نوائح وأوصافا كريمة لأهل العلم
والنقى ، وخصوصا امام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، ومن فقر التعبير
فيها الشطران :

وعالم الارض طرا بالذى حكمت من أشرب الخلق طرا حبه وجرى
فهذا التأكيد المكرر دليل على كون صاحبه كان على عتبة الانتاج الادبي
المبكر ، ويصح أن توضع القصائد بين منظوماته في الحكم والنصائح ،
كما تقدم ذكر بعضها .

وكذلك نجد من مشهور نظم القاضي عياض هذه القصيدة، التعليمية
التي نظمها على نسق سور القرآن ، وضمنها مدح النبي صلى الله عليه
وسلم وآله والعشرة المبشرين وهي :

في كل « فاتحة » للقول معتبره حق الثناء على المبعوث « بالبقرة »
في « آل عمران » قدما شاع مبعثه رجالهم « والنساء » استوضحوا خبره

(1) اليمن الشيخ الكبير وبالأصل « الجفن » ولا معنى له هنا فأصلحناه بما يقرب منه في الحروف
والقصيدة واردة في « ترتيب المدارك »

قد مد للناس من نعماءه « مائدة »
« اعراف » رحماه ما حل الرجاء بها
به توسل آذ نادى « بتوحيته »
« هود » « ويوسف » كم خوف به امنا
مضمون دعوة « ابراهيم » كان وفي
ذوامة كدوى « النحل » ذكرهم
« يكف » رحماه قد لاذ الورى وبه
سماه « طه » وحض « الانبياء » على
« قدافلح » الناس « بالنور » الذى شهدو
اكابر « الشعراء » اللسن قد خرسوا
وحسبه « قصص » « العنكبوت » اتى
في « الروم » قد شاع قدما امره وبه
كم « سجدة » فى طلى « الاحزاب » قد سجلت
« سبا » هم « فاطر » السبع العلى كرما
في الحرب قد « صفت » الاملاك تنصره
« لغافر » الذنب فى تفضيله سور
« شعراء » ان تهجر الدنيا « فخرها »
عزت « شريعته » البيضاء حين اتى
فجاء بعد « القتال » « الفتح » متصلا
« بقاء » « والذاريات » الله اقسام فى
في « الطور » ابصر موسى نجم سؤده
« اسرى » فنال من « الرحمن » واقعة
اراه اشياء لا يقوى « الحديد » لها
في « الحشر » يوم امتحان الخلق يقبل فى
كف « يربح لله » الحصاة بها
قد ابصرت عنده الدنيا « تغابها »
« تحريمه » الحب للدنيا ورغبته
في « نون » قد « حقت » الامداح فيه بما
بجاهه « سال » « نوح » فى سفينته

عمت فليست على الانعام مقتصره
الا « وانفال » ذاك الجود مبتدرة
فى البحر « يونس » والظلماء معتكره
ولن يروع صوت « الرعد » من ذكره
بيت الاله وفى « الحجر » التمس اثره
فى كل قطر « فسبحان » الذى فطره
بشرى ابن « مريم » فى الانجيل مشتهره
« حج » المكان الذى من اجله عمره
من نور « فرقائه » لما جلا غرره
كالنمل اذ سمعت آذانهم سوره
اذ حاك نسجا بباب الفار قد ستره
« لقمان » وفق للدر الذى نثره
سيوفه فأراهم ربه عبـره
لن « بياسين » بين الرسل قد شهره
« فصاد » جمع الاعادى هازما « زمـره »
قد « فصلت » لمعان غير منحصره
مثل « الدخان » فيعشى عين من نظره
« أحقاف » بدر وجند الله قد حضره
واصبحت « حجرات » الدين منتصره
ان الذى قاله حق كما ذكره
والافق قد شق اجلالا له « قمره »
فى القرب ثبت فيها ربه بصره
وفى « مجادلة » الكفار قد نصره
« صف » من الرسل كل تابع اثره
فاقبل « اذا جاءك » الحق الذى قدره
نالت « طلاقا » ولم يصرف اها نظره
عن زهرة « الملك » حق عندما ذكره
أثنى به الله اذ أبدى لنا سيره
حسن النجاة وموج البحر قد غمره

وقالت «الجن» جاء الحق فاتبعوا
«مدثرا» شافعا يوم «القيامة» «هل
في «المرسلات» من الكتب انجلا «نبأ»
الطافه «النازعات» الضيم حسبك في
اذ «كورت» شمس ذلك اليوم و «انفطرت»
وللسماء «انشقاق» «والبروج» خابت
«فسبح اسم» الذي في الخلق شفعه
«كافجر» في «البلد» المحروس غرته
«والليل» مثل «الضحى» اذ لاح فيه «الم
ولو دعا «التين والزيتون» لا بتدرا
في «ليلة القدر» كم حاز من شرف
كم «زلازل» بالجياد «العاديات» له
له «تكاثر» آيات قد اشتهرت
«الم تر» الشمس تصديقا له حبست
«ارأيت» ان اله العرش كرمه
«والكافرون» «اذا جاء» الوري طردوا
«اخلاص» امداحه شغلى فكم «فلق»
ازكى صلاتى على الهادى وعترته
صديقهم عمر الفاروق احزمهم
سعد سعيد زبير طلحة وأبو
وحمزة ثم عباس وآلهما
اولئك الناس آل المصطفى وكفى
وفي خديجة والزهرا وما وادت
عن كل ازواجه أرضى وأوثر من
اقسمت لا زلت أهديهم شذا مدحى

«مزملا» تابعا للحق لن يذره
أتى «نبىء» له هذا العلى ذخره
عن بعثه سائر الاخبار قد سطره
يوم به «عبس» العاصى لما ذعره
سماؤه ودعت «ويل» به الفجره
من «طارق» الشهب والاملاك منتشره
و «هل أناك حديث» الحوض اذ نهره
«والشمس» من نوره الواض مختره
نشرح لك «القول» فى أخباره العطره
اليه فى الحين «واقرا» تستب خبره
فى الفجر «لم يكن» الانسان قد قدره
أرض «بقارعة» التخويف منتشره
فى كل «عصر» «فويل» للذى كفره
على «قريش» وجاء الروح اذ امره
«بكوثر» مرسل فى حوضه نهره
عن حوضه فلقد «تبت يدا» الكفره
للصبح أسمعت فيه «الناس» مفتخره
وصحبه وخصوصا منهم عشره
عثمان ثم على مهلك الكفره
عبدة وابن عوف عاشر العشره
وجعفر وعقيل سادة خيره
وصحبه المقتدون السادة البسرره
ازكى مديحى سأهدى دائما درره
أضحت براءتها فى الذكر مشتهره
كالروض ينثر من اكمامه زهره

اثبتنا هذه المنظومة التعليمية ، من كتاب ازهار الرياض ، حرصا منا
على ذكر ما للقاضى من نظم مجرد ، لا انها شعر بمعناه وسواها وان كان
بعضه مما يدخل فى عمود الشعر ، الا أنه ليس بالدرجة التى عليها اشعار
زميله قاضى طنجة ابن زنباع وابن القاضى فى تعريفه يشير الى كون والده

لم يكن يقول من الشعر الا مجازاة لاصحابه ، لا فطرة منه فطر فيها على الشعر وفنه وكذا القول في تلك الالوان البديعية التى هدف اليها في بعض قطع من اشعاره ، جاء فيها بعض الجمال ، ولكن اصبع التصنع او التعليم تشير اليها من خلالها ، يكون ذلك الجمال لم يكن المقصود ولا الداعى الى نظمها ، والفن الذى لا يقصد اليه لا يعد من حسنات صاحبه ، ولو لمحت فيه لمحة من الجمال ، لان الفن صنع الانسان ، لا بد فيه من تحرر الابداع ، والا فهو رمية من غير رام لا فضيلة لاصحابها فيها ، ولو اصابته هدفها المطلوب منها وغير المقصود من صاحبها .

وصدق الحديث (انها الاعمال بالنيات) تطبق القاعدة على كل شيء ، وفيه الكلام الجميل في نفسه الصادر عن الاطفال ونحوهم اما نثره فأجمله الرسائل الاخوانية التى اختارها له الفتح في القلائد ، ويمكن ان يعمم هذا حتى في شعره المختار فمن تلك الرسائل او من فصولها قوله مخاطبا الفتح ابن خاقان ، محملا اياه تحية للرئيس ابي عبد الرحمن بن طاهر .

عمادى ابا نصر ، مثنى الوزارة ووحيد العصر ، هل لك في منة تفوت الحصر ، تخف محملا ، وتبلغ املا ، وتشكر قولاً ، وعملاً ، نترنم شكراً به الحداة ثقيلاً ورملًا ، اذا بلغت الحضرة العلية مستلماً ولقيت الطاهر بن طاهر فخر الوزارة مسلماً ، وحللت من فنائه الارحب حرماً ، ولمست بمصافحته ركن المجد يندى كرماً ، فقف شوقى بعرفات تلك المعارف ، وانسك شكراً بمشاعر تلك العوارف ، واطف اكبارى بكمبة ذاك الجلال سبعا ، وبوىء لودادى في مقر ذلك الكمال ربعا ، وابلق عنى تلك الفضائل سلاماً ، يلتئم بصريح الحب الثاماً ، ويحسن عنى بظهر الغيب مقاماً ، ويسير بارح الحمد انجاداً واتهاماً .

فنلاحظ على صنيعه ، بالاضافة الى السجع محسنات مختلفة ، من قبيل المعنوى هذا الطباق ، في « مثنى ووحيد » و « انجاداً واتهاماً » ومن قبيل اللفظى ، هذا الجناس في « مستلماً ومسلماً » و « حرماً وكرماً » و « المعارف والعوارف » .

وفي هذا الفصل من التضمين ، قوله « ويحسن عنى بظهر الغيب مقاماً » فهو من قوله تعالى « حسنت مستقراً ومقاماً » وفي صدره تحليل

قول الشاعر ، فى نفس الموضوع ، وهو تحمىل التحية للمحبين .

يا صاحبى فدت نفسى نفوسكما وحيثما كنتما لقيتما رشدا
ان تحملا حاجة لى خف حملها تستوجبا منة عندى بها وبدا
ان تقرأن على أسماء ويحكمها منى السلام وأن لا تشعرا احدا

وفيه من قبيل الاصطلاح النحوى « المثنى » المقابل بالوحيد ومن الموسيقى « الثقل والرمل » والفقهى ما انتزع من شعائر الحج فى الاستلام ، والحرم ولمس الركن والوقوف بعرفات وانساك المشاعر والطواف بالكعبة سبعا ، وبهذا يطنى عليه الطابع العلمى ، وان صاغه صياغة أدبية .

لنترك هذه الرسالة ولنتعرض الى رسالة اخرى كتبها الى نفس الصديق . يقول فيها : فى علمك سدد الله على حكمك ، ما جمعه فلان من جلائل تشذ عن الحصر ، وفضائل يعترف بها نبهاء العصر ، يقول فيختلس العقول ، ويعن ، فيذهل الالباب ويجن ، ان نظم فعبيد او لبيد ، او نثر فعبد الحميد او ابن الحميد ، او صال فأبو نعامة ، او أنال فكعب بن مامة ، او فاخر فشجرة سيادة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، او ذاكر فبحر معارف لا تكدره الدلاء ، الى همة تصفع هامة الثريا ، وعزة تبتهن الفضل ابن يحيى ، ولهجة تخرس العجاج ، وبهجة تترى بنصر بن حجاج ، ولو كنت بن أبى هالة ، لما بلغت المنتهى له ، على انى لم انبه لشأنه ذا جهالة ، لكنه الكلام يطرد ، والبداية حسب ما ترد ، واللسان ينطق ملء فيه ، والجنان يرشح بما فيه .

فهذا الفصل المتألق فى نسجه ، المتنمق فى سجعاته ، قد حوى توريات وتضمينات ، فمن شخصياته المتراقصة ، الشعاعان عبيد ولبيد ، والكاتبان عبد الحميد وابن العميد ، والفارسان الجوادان ، أبو نعامة وكعب بن مامة ، والاول اسلامى ، وهو قطرى بن الفجاءة الخارجى ، والثانى جاهلى ، وهو المكنى بأبى داوود ، من الفرسان الذين يضرب بهم المثل فى حسن الجوار .

ثم يستمر فيذكر الفضل بن يحيى البرمكى ، والعجاج الرجاز المشهور باغرابه ، ونصر بن حجاج الذى شهر بجماله فى خلافة عمر الذى سمع منشدة تقول :

هل من سبيل الى خبر فاشريها أم من سبيل الى نصر بن حجاج
فنفاه من المدينة ، اتقاء الفتنة من جماله .

واستمر في التلميح بهذه الشخصيات ، فذكر ابن أبى هالة ، وهو
هند بن أبى هالة بن النباشى بن زرارة ، زوج خديجة أم المؤمنين فابنه هذا
ربيب النبى عليه السلام ، من الصحابة ، كان يتحلى بأخلاق نبيلة ، رباه
عليها من كان على خلق عظيم .

وكما تقدم لعياض في شعره كثير من التشابهات ، فاننا نجده كذلك في
هذا الفصل ، يستعمل منها « هالة » من قوله « المنتهى له » فتكررت
« هالة » بنهاية كلمة المنتهى ثم الجر والمجرور « له » وأخيرا تاتى في
« جهالة » فبحذف جيمها ، تبقى « هالة » وكذلك يفعل بكلمة « فيه » في
قوله ملء « فيه » فيعتقد به التشابه مع قوله بعد يرشح بما فيه فتكررت
كلمة فيه مع اختلافها ومن التضمين القرآنى في هذا الفصل ، قوله « فشجرة
سيادة أصلها ثابت وفرعها في السماء » ولا يكاد يخلو له فصل من هذا
التضمين .

وهذه رسالة لا تختلف في صلبها عن العمود الاول الذى وصفناه ،
وكلتاها تتخذ طريقة ابن العميد مسلكا . الا أن الاقتباس في هذه لم يكن
من نوع تلك ، وانما هى اقتباسات أديب من معارفه التى لا تعدو نطاق
الادب بذكر شعراء وكتاب وأشخاص عرفوا في التاريخ الاسلامى من عهد
عمر بن الخطاب الى عهد المأمون ابن الرشيد وكلها شخصيات شرقية
لا ذكر لغيرها من بينها ، ولا لمعاصر كان يعيش على ذلك العهد فهى طريقة
تقليدية عرفها الشرقيون خصوصا في القرن الرابع . على أن هناك رسالة
أخرى لا نجد فيها أثرا لهذا الاقتباس الا في فقرة واحدة وهى :

وصلت لمعظمى قرب الجلال ، وزهيت به رتب الكمال ، وحامت على
مشرع مجده العذب طيور الآمال ، وغصت أفنية جنابه الرحب بوفود
الاقبال ، لا غرو أعزك الله ان من لاحظ من آثار فضلك الرائقة لحظة ،
او حظى من سماع محاسنك الرائقة بلفظة ، أن تسير به همته في لفائف
واحدا ، وتعتسف الطرق الى ورد جلالك وافدا ، حتى يشاهد الكمال لم
يحوج الى نقص ، وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في شخص .

فهذه الفقرة الأخيرة هي وحدها المقتبسة من البيت المعروف لابی نواس:
ليس على الله بمستنكسر أن يجمع العالم في واحد
ونحو هذا فصل من رسالة أخرى هكذا :

لا بد أعزك الله لكل حين ، من بنين ، يحلون عاطله ، ويجلون فضائله ،
ولكل مجال ، من رجال ، يقومون بأعبائه ، ويهيمون في كل واد بأنبيائه ، ولئن
كانت جهرة الادب خامدة ، وجذوته هامة ، ولسانه حصيرا ، وانسانه
حسيرا ، فلن يخليه الله من هلال يطلع ، فيشرق بدرا وزلال ينبع ، فيغدق
بفضائه بحرا ، وشبل يشدو ، فيزار من غابه ليثا ، وطل يبدو ، فيمطر
من ربابه غيثا .

ففى هذا اقتباس واحد من قوله تعالى « ألم تر أنهم في كل واد
يهيمون » .

ومما صدر عنه عفو خاطر ، ولم يحتفل به احتفال ما قبله ، ما راجع
ابن خاتقان ، في الغفارة التي تأخر صرفها عليه ، ادام الله ياوليى جلالك ،
وأبقى حليا في جيد الدهر خلالك ، الغفارة عند من ينظر فيها ، وقد بلغت
غير مضيع تلافيتها ، ويرجى تمامها قبل الصلاة وادراكها ، وتصل مع رسولى
وكانما قد شراكها ، وان عاق عايق ، فليس مع صحة الود مضايق ، والعوض
رايق لايق ، وهو واصل ، وانت بقبوله موصل ، والسلام عليك ما ذر
شارق ، وومض بارق .

ومع هذه العفوية فانها لم تخل من تأنقات في مثل جلالك مع خلالك
وفيها مع تلافيتها وادراكها مع شراكها وعايق مع مضايق ورايق لايق وواصل
مع موصل .

ومن رسائله العجيبة التي تنم عن باع له في هيئة النجوم ، ما كتب به
الى الوزير أبى محمد ابن القاسم ، وهى :

قد وقفت أعزكما الله على بدائعكما (1) الغربية ، ومنازكما البعيدة

(1) يعنى الفتح ابن خاتقان معه ، وكان قد كتب الى ابن القاسم مودعا ، برسالة وصف النجوم ،
مراجعته ابن القاسم بمثلها ، واشتهر أمر الرسالتين وتبورى فيه .

القريبة ، ورايت ترقيكما من الزهر الى الزهر ، وتنقاكما الى الدرارى بعد
الدر ، فأبحتما حمى النجوم ، وقذفتماها من ثواقب افهاكما بالرجوم ،
وتركتماها بعد الطلاقة ذات وجوم ، فحللتما بسيطها غارة شعواء ، لها
ما عوت اكلب العواء .

هناك افترست الفوارس ، ولم تغن عن السماك الداعس ، وغودرت
النثرة نثارا ، واغشى لالاؤها نقما مثارا ، كأن لكما قبلها ثارا ، واشعرت
الشعريان ذعرا ، قطعت له احداهما اواصر الاخرى ، فأخذت بالحزم منها
العبور ، وبدرت خيلكما وسيلكما بالعبور ، وحذرت اللحاق عن أن تعوق ،
عن منحى العيوق ، فخلفت اختها تندب عهد الوفاء ، وتجهد جهدها في
الاختفاء ، وكأن الثريا حين ثرتم بقطبينها اتقتكم بيمينها ، فجدذتم بنانها ،
وبذلت للخصيب امانها ، فعندها استسهل سهيل الفرار ، فأبعد بينه
القرار ، وولى الدبران اثره مدبرا ، وذكر البعاد فوقف متحيرا ، وعادت
العوائد بشامها ، وألقت الجوزاء للامانى بنطاقها ونظامها ، فمها اعزكما
الله سكما الدهماء ، فقد ذعرتما حتى نجوم السماء ، ففادرتماها بين برق
وفرقي ، وغرق أو حرق ، فنزحزحا في مجدكما قليلا ، واجعلا بعدكما الناس
سبيلا ، فقد أخذتما بأفاق المعالى والبدايع لكما قمرها والنجوم الطوالع
فهذه أيضا كفيرها يسودها السجع ، وتتضمن تلميحات واشارات ، كما في
قوله « وبذلت للخصيب امانها » فلعله يشير الى بيت ابى نواس :

نفس الخصيب جميعه كذب وحديثه لجليسه كـرب

كما نجد اشارة الى قول الشاعر ، في غير هذا ، وهو :

ايها المنكح الثريا سهيلا عـمرك الله كيف ياتقيـان
هى شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يـمان

وبشير في غير ذلك كله الى ما عبر عنه آخر بقوله :

اذا دبران منك يوما لقيتـه أوـمل ان القاك يوما يأسـد

وفيهما من الاقتباس نحو « واجعل بعدكما للناس سبيلا » فهو من الآية
« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ونحوه من القرآن ، فهو
تعبير قرآنى على كل حال .

وهذه رسالة الى زملائه الذين تباروا في الحاق سطور تتخلل رسالة لابی القاسم ابن الجد وهي التي قد قدم بين يديها القطعة المذكورة في شعره وهي : فارقت السادة الجلة ، أدام الله عزهم ، بثبات قدم عميدهم ، وأبقى عليهم ظله ، عند مجاراتنا الحاق الكتاب ، فكأنها كانت منى دعوى ، توجب الارتياح ، وكان الفقيه أبو فلان صديقنا أعرف بالقصد الى الزيادة ، في رسالة الوزير أبى القاسم بن الجد ، على ايجاز الفاظها واندماج اغراضها ، وجلالة قائلها ، واعندال أواخرها وأوائلها ، فلم أقدم تلك العشية شيئا على تسويدها وتذليل برودها ، وان كان المتحكك لذلك الطود العظيم ، كموقع الوثنى بالاديم ، ولكن بحكم الاضطرار ، وقصد الاختيار للاختبار ، وطرقتنى لصاحبها من الحادث الكارث ما شغل عن صقل وجوهها ، وأذهل عن توجيهها ، وحين وجدت الآن فجوة ، وأنست العشية وان لم تكن سلوة ، وجهت بها بشریطة رفع الدعوى ، وامتحان البلوى ، وصرف عين الانتقاد ، وتحسين الظن والاعتقاد ، وقد أعلمت على الزيادة بالحرمة ، لتكون فصلا بين الكلامين وعبرة ، ولم يمكنى مفارقة المنزل ، مراعاة لحق من يقصد وينزل ، وحذرا أن ينتقد ، من لا يجد ، فليكن الكل عندكم بالامانة حتى نجتمع والسلام عليكم يطول اعظاما لجلالكم ويتسع ، ورحمة الله تعالى وبركاته (1) .

وبهذه الرسالة نكون قد اتصلنا بنموذج آخر من نثر القاضى عياض ، وهي رسالة متممة كانت على سبيل المبراة بين الانداد ، كما أشار الى ذلك ابنه بقوله ، تذاكر رحمة الله عليه مع جلة زعماء ، وقادة علماء ، وسادة أدباء ، تعاطوا بينهم كأس الادب ، حتى ذهبت بهم في التغفل فيه كل مذهب ، فمتسابقوا في ميدانه ، وجرى كل ملء عنانه ، الى أن تصدوا التعجيز ، وسدوا باب المسامحة والتجوز ، وقالوا : الغاية القصوى ، المعربة عن كل مدح في الادب دعوى ، أن نكتب رسالة معربة المعانى رائقة ، ذات أصول ثابتة وفروع سامقة ، فيلحق بين كل سطر منها زيادة توافق معانيها ، ولا تخل من مبانيها ، فتطاول لها ، رحمة الله عليه ، وازهار آدابه تنم ، وقال : انا لها ولكل أمر مهم ، وعينت له الرسالة ، وكتب ما تقف عليه .

(1) الرسالة المشار اليها بالزيادة فيها مثبتة بالتعريف الصفحة 91 وما بعدها .
أما أبيات التقديم فسبقت بنهاية الصفحة 50 وبداية 51 من هذا الكتاب .

ومن فصول رسائله الاخوانية الواردة بكتاب التعريف قوله :

ليت شعري اأعتب أم اعتب ، واعترف بالذنب أم اذنب ، لا جرم لو علمت لنفسي جرما ، لجعلت عليها برد الشراب حراما ، ولسلبتها لذية المنام عزما ، حتى يفيء اليها ، من وجد عليها ، ويرضى عنها ، المنظلم منها ، بعلائكما ما هذا الجفاء ، وأين ما تدعيانه من الوفاء ، أحين جدت بنا الحال وشدت للنوى الرحال ، ودعا بنا داعي الزماع ، وخلجت يد وعين للوداع ، اتخذتماني ظهريا ، وصرت عندكما نسيا منسيا ، لا أعلم لكما علما ، ولا القاكما الا حلما ، كان شملنا لم يزل متصدعا ، وكأنا « لطول افتراق لم نبت ليلة معا » ماذا يريب الغريب ، من اغياب الاحباب ، أمجالسة السلطان وموانسة الاوطان ، أبى المجد من ذلك وأبيت ، ولنا يابيت بالعلياء بيت ، أم صدود وملال ، ينافيه ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقيتهما من الذى يعطى الكمال أم ثم ذنب يوجب الصدود ، ويودى بود الودود ، أسمعاه لارجع الى المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عوض الكتاب ، فأعذر ولا أعذر ، وأنصف من نفسى وأعدل ، والسلام .

فهذه رسالة لا تختلف عن غيرها ، وفيها من التضمين ، شطربيت لمتهم ابن نويرة ، وهو فى قوله :

فلما نفرقنا كأنى ومالكاً لطول افتراق لم نبت ليلة معا
كما أن من القرآن فيه « اتخذتموه وراكم ظهريا » « وكنت نسيا منسيا » .

وهذا فصل آخر من ذلك القبيل :

مالى ولك أيها الماجد ، وقاك الله شر كل حاسد ، تسح على سحب بيانك ، وتجرى قبلى طلقا ملء عنانك ، وتكلفنى من مباراتك ما ليس فى وسعى ، وتحملنى من مجاراتك ما يعجز عنه قلمى وطبعى فمهلا قليلا ، لعلى اشفى من مراجعتك غليلا ، وأعمل فى محاورتك ذهنا قليلا ، والا فاطو فى ذلك بساط العتاب ، واقنع منى بما يرفع حرج الكتاب ، واكتف بأطال الله بقاطك ، ووصل علائك ، ووقفت على كتبك ، وما تضمنه من آدابك ،

وانا شديد الشوق اليك ، والسلام الجزيل عليك (1) والا فمتى تخطيت الى اكثر من ذلك ، لم تجدنى هنالك ، لا زالت التحيات متوالية لديك ، مترادفة بالامانى عليك ، والسلام الاحفل عليك ورحمة الله .

نكتفى بهذه النماذج من رسائله ، وهى على مستوى عال ، بحكم ذلك العصر الذى كان يحرص كل الحرص على تلك الزينة التى تبدت بها ، وهى على تفاوت فيما بينها من جمال ، يختلف النقاد — ولا شك — فى المفاضلة فيها ، وانا افضل الرسالة الثالثة لما فيها من هذه الصور المتلاحقة المتراسة ، بوصول قرب الجلال ، وزهو رتب الكمال ، وحوم طيور الآمال على مشرع مجده العذب ، وكون جنبابه الرحب يغص بوفود الاقبال ، الى آخر الرسالة المتخففة من زينتها ، الا ما كان من السجع الذى اصبح لازما والا اقتباسا واحدا ، اشرنا اليه فيما سلف .

اما خطبه ، فهى فى وزنها بين الخطب تختلف كذلك ، واقلها واخفها فى الميزان ، ما صدر عنه على سبيل التعليم كما يأتى . وما دامت تلك الخطب تلقى على جمهرة العوام من المصلين ، فلا ننتظر منها أن تكون على مستوى يروقنا ويبهجنا ، كما وجدنا فى رسائله التى توجه بها الى العلية من طبقات الكتاب والوزراء فى الدولة المرابطة ، وكلهم كانوا من الاندلسيين الذين شغلوا مناصبهم هذه بالاندلس نفسها أولا ، ثم استدعاهم يوسف فابنه الى الحضرة ، فكانوا زينتها ومفخرها ، بما فاقت به حاضرة بغداد ، كما فى المعجب .

ومهما يكن فهذه خطبة من خطبه ، يستهلها بقوله :

الحمد لله الذى سبق كل شئ قدما ، ووسع كل شئ رحمة وعلما ونعما ، وهدى اوليائه طريقا نهجا امماو « انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ، لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكتين فيه أبدا » أحمدته على مواهبه وهو أحق من حمد ، وأسأله أن يجعلنا أجمع ممن حظى برضاه وسعد ، واستعينه على طاعته وهو أعز من استعين واستنجد ، وأستهديه توفيقا فان « من

(1) يكى بهذا عن بسيط الاساليب فى الرسائل الاخوانية .

يهدى الله فهو المهند ، ومن يضل فان تجد له وليا مرشدا « الى ان يقول :
ايها السامع ، قد ايقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته ،
ووعظك كتاب الله بزواجه وعظاته ، فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته « واتل
ما أوحى اليك من كتاب ربك لا تبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا «
أين الذين عتوا على الله وتعظموا ، واستطالوا على عباده وتحكموا ، وظنوا
ان لن يقدر عليهم حتى اصطلموا « وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا
لمهلكم موعدا « غرهم الامل وكواذب الظنون ، وذهلوا عن طوارق الغير
وريب المنون « وظنوا انهم اليقنة لا يرجعون « « حتى اذا راوا ما يوعدون
فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا » (1) .

نفى هذه الفقرات ، لا يسير على وتيرة واحدة من السجعات ، بل
انه يخللها بآيات ، لا تجمع بينها سبعة منها وفيها من التضمين في الاسلوب ،
قوله « وظنوا ان لن يقدر عليهم « فهو من قوله تعالى « فظن ان لن نقدر
عليه » . وصار يذكر بأحوال القبر ومواقف القيامة ، وما تنتهي اليه من
جنة ، ذات بهجة وحدائق ، او نار ذات لهب وصواعق ، وضمن ذلك آية
واحدة فقط .

وقد اقتصر ابنه في التعريف على الخطبتين اللتين سقنا منها هذه
الفقر ، وذكر ان خطبه مجموعة في كتاب .

وهذه خطبة له في الحضر على التوكل تكاد في صوغها لا تختلف عما قبلها :
عباد الله ، سلموا الامور الى من بيده ازمة مقاديرها تنجحوا ، واشتروا
قلوبكم باخلاص التوكل على الله تريحوا ، واعلموا ان الحرص لا يزيد المرء
على ما قسم له ، وتصاريق الدهر تقطع لكل أمل امله ، وانما يدرك الانسان
بسعيه ما كتب له لا ما طلب ، ويبلغ بكده ما قسم له لا ما أمل واحتسب ،
فاجملوا رحمكم الله في الطلب توفقوا ، وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا ،
واريحوا انفسكم من النصب في طلب الدنيا والكد فانه لا مانع لما اعطى الله ولا
معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، الا وان التوكل على الله والثقة
به احد ابواب الايمان ، ومن افضل درجات العدل والاحسان ، وهو حقيقة
العبودية والتوحيد ، وموجب الرضى والتسليم للرفيق الشهيد ، فقد جرى

(1) وردت كذلك بالاحاطة كما ورد بها كثير من اشعاره السالفة .

القلم بما كان ويكون ، ونفذ قضاء الله بكل خير وشر وحركة وسكون ، وانقطعت الاطماع عن تأميل غير ما تقدم من مشيئاته ، (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته) ، ففيم التعب والطلب وقد سبق لك في الكتاب ما سبق ، وعلى م اللهف والاسف على أمر قد فرغ منه قبل أن تخلق ، ألم يضمن لك ربك رزقك وما وعد في سمائه ، ألم يعلمك أنه لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، فعامل ربك أيها العبد بالتوكل والتسليم ، تفز بالعيش الهني والثواب الجسيم .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال ، كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال يا غلام ، اني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الاقلام وطويت الصحف ، ان أحسن الحديث وأبلغ المواعظ كلام الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) جعلني الله واياكم ممن توكل عليه في كل حالاته ، واتقاه سبحانه حق تقاته ، وغفر لي ولكم ولجميع المسلمين .

وهناك خطب أخرى أتى بها المقرئ في أزهار الرياض منها خطبة في سور القرآن على نحو القصيدة السالفة فيها ، وشك المقرئ في نسبتها اليه لنزول أسلوبها عن أساليب عياض ، ولا معنى لهذا الشك في تلك الخطبة التعليمية والا لكانت القصيدة بذلك الشك . وعلى كل حال فاننا لا نلتبس لعياض مزية في تلك الخطب الملقاة على العوام ، والخطبة التي أريد بها تسجيل الصور القرآنية وانما نلتبس له بعض المزية — لا كلها — في الخطب التي افتتح بها كتبه ، فمنها خطبته لترتيب المدارك هكذا :

« الحمد لله الذي أسبغ على عباده بفضلہ نعمًا لا تحصى ، وقدر على من شاء بعدله أن يطاع ويعصى ، وعين أهل الجنة والنار بقبضة القضاء ، وميز في ظهر آدم بين طائفتي السعادة والشقاء ، ثم انتقى منهم ليطم عدله خواص واصفياء ، وجعل فيهم رسلا وأنبياء ليوضح بهم لمن أراد هدايته منهاجه ، ويقيم على من صد عنه وصدف عن آياته حجاجه ، فبذلوا في ذات

الله جدهم ، ونصحوا العباد جهمهم ، الى أن اختار الله لهم ما عنده ، وتضى كل واحد منهم ما كتب له من أثر ومدة ، عليهم من صلوات الله ما لا يحيط به حصر ولا عدة ، ثم تمم الله على المؤمنين فضله ، وختم أنبياءه ورسله بأرجحهم ميزانا ، وأرفعهم مكانا ، وأكرمهم أخلاقا ، وأطيبهم أعرافا ، وأطولهم في الفضائل باعا ، وأكثرهم أمة واتباعا ، أبى القاسم سيد ولد آدم ، صلى الله عليه وسلم ، كما شرف وكرم ، فجاهد في الله حق جهاده ، وزايل الجلائل الصعبة في ارشاد عباده ، حتى أقامهم على سواء محجته ، وأخذهم طوعا وكرها ببالغ حجته ، وساقهم في السلاسل الى جنته ، ودخلوا في دين الله أفواجا بدعوته ، فأنجز الله به وعده ، وعبد الله تعالى وحده ... الى آخر المقدمة .

ومثلها خطبة كتاب « الشفاء » هكذا :

الحمد لله المنفرد باسمه الاسمى ، المختص بالملك الاعز الاحمى ، الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الظاهر يقينا لا تخيلا ووهما ، الباطن تقدسا لا عدما ، وسع كل شىء رحمة وعلما ، وأسبغ على أوليائه نعماء ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أنفسهم عربا وعجماء ، وأزكاهم محتدا ومنمى ، وأرجحهم عفة وحلما ، وأوفرهم علما وأقواهم يقينا وعزما ، وأشدهم رافة ورحما ، زكاه روحا وجسما ، وحاشاه عيبا ووصما ، وآتاه حكمة وحكما ، وفتح به أعينا عميا ، وقلوبا غلفا وآذانا صما ، فأمن به وعززه ونصره من جعل الله تعالى له في مغنم السعادة قسما ، وكذب به وصدف عن آياته من كتب عليه الشقاء حتما ، « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » ، صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتنمى ، وعلى آله وسلم تسليما ..

أما بعد أشرق الله قلبى وقلبك بأنوار اليقين ، ولطف لى ولك بما لطف بأوليائه ، الذين شرفهم بنزل قدسه ، وأوحشهم من الخليقة بأنسه ، وخصهم من معرفة ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة ، ووله قلوبهم في عظمتة حيرة ، فجعلوا همهم به واحدا ، ولم يروا فى الدارين غيره مشاهدا ، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون ، وبين آثار قدرته وعجائب عظمتة يترددون ، وبالاتقطاع عليه والتوكل عليه يتعززون

الى آخر المقدمة التى فيها نفحة صوفية نبوية ، تمتاز بها عن الاولى

أما من الناحية الفنية ، فالمقدمتان ، تلتزمان السجع - على العادة - وهذا يكلفهما أحيانا بعض الكلف ، خصوصا في الأخيرة ، مثل « أنفسهم عريا وعجبا » وتستعملان محسنات ، كالجناس في « تحصي ويحصي » و « باعا واتباعاء » و « محجته وحجته » و « نعماء عماء » و « أنفسهم وأنفسهم » و « حكمة وحكما » و « تنمو وتنمي » و « وصد وصدف » و « الاسمي والاحصى » و « جبرة وحيرة » و « كالطباق في » يطاع ويعصى » و « الجنسية والنسار » و « السعادة والشقاء » و « طوعا وكرها » و « الظاهر والباطن » و « عريا وعجبا » و « روحا وجسما » و « فآمن به وعززه وكذب به وصدف عن آياته » و « السعادة والشقاء » (في المقدمة الثانية أيضا) و « أوحشهم » و « ملأ قلوبهم وولاه عقولهم »

وكالانتباس في « والظاهر والباطن » و « جاهد في الله حق جهاده » و « دخلوا في دين الله أفواجا » و « وسع كل شيء رحمة وعلما » و « بعث فيهم رسولا من أنفسهم » و « آتاه حكمة وحكما » و « فآمن به وعززه ونصره » و « صدف عن آياته » فهذا من قوله تعالى : (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) وقبله (وعزروه ونصروه) وقبل هذه (وآتاه الله الملك والحكمة) وجاء الى جانب هذا الانتباس بتضمين نص الآية ، مثل « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » « وقتل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » ثم هناك اقتباس من الحديث « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » .

وهي خطبة تذكر بالاعتاظ من صروف الدهر وزواجره ، وتحث على تهذيب السرائر بالتقوى والاخلاص الى الله والشكر لنعمه ، والحذر من نقمه ، وفي هذا الصدد يأتي بالآيات القرآنية العديدة ، يختم الخطبة منها بهذه « ربنا آتانا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

وهذه خطبة أخرى يفتتحها بالحمد لله مبدئ الحقائق ، ومبدئ الخلق . ومبدع السبع الطرائق ، ومزينها بالكواكب الشواهد واسمر على هذه الوتيرة التي تتخللها الاسجاع القافية ثم يتوجه الى المستمعين ويحضهم على سلوك جادة الطريق وترك ما عداها « ولا تفرنكم الدنيا

بكواذب المخارق ، فانها كثيرة البوائق ،،، نازكة لمن هام بها مفارق ،
تدير دوائرها بكل صامت وناطق ، كم اهلكت قبلكم من الخلائق ، وطوت من
الفراعين والعمالق ، وطوحت من القياصر والبطارق ، وطرحت العصم من
اعلى الشواحق ، واسقطت من الجو كل خرق الجناح خافق ، وكم ذى بشطة
ومنظر فائق ، بعيد الصيت في جميع الخوارق ، قد شيد الحصون في كل
حالق ، واوصد الابواب والمغالق ، وارصد الجيوش والفيالق ، بفترا
بمساعدة دنياه واثق ، فما راعه وهو في بلهنية من عيشه الرائق ، حنى
رمته بثالثة الاثافي وحالقة الحوالق ... »

وهكذا استمر في سوق هذه الاسجاع ، التي عرفت بها العربية في
خطبها بالجاهلية والاسلام ، كما عرفت بتلك المواقف الاعتبارية في العصور
الخالية ، وملوكها الجباريرة ، منذ خطبة ابن ساعدة الايادي .

زيادة على هذه الجناسات المتأنقة في « مبدى الحقائق ومبـدئ
الخلائق » « وطوت وطوحت وطرحت » وغير هذه مما نجده في باقى الخطبة
وقد ضمن هذه الخطبة شيئا من القرآن ا كقوله : قطينا لذلك الحفر
الى « يوم تبلى السرائر » وتعرض الخلائق .

ومن تتبع قراءة كتبه التي بأيدينا فلا يعدم أن يجد بها نماذج طيبة من
النثر ، مثل قوله في الشفاء ، قبل الابيات الواردة في مدينة الرسول عليه
الصلاة والسلام :

وجدير لمواطن عمرت بالوحى والتنزيل ، وتردد بها جبريل وميكائيل ؛
وعرجت منها الملائكة والروح ، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح ؛
واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم ما انتشر ؛ مدارس آيات ، ومساجد وطلوات ،
ومشاهد الفضائل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ؛ ومناسك الدين ،
ومشاعر المسلمين ، ومواقف سيد المرسلين ، ومنبوا خاتم النبيئين ؛ حيث
انفجرت النبوة واين فاض عبابها ، ومواطن طويت فيها الرسالة ، وأول
أرض مس جلد المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ترابها (1) ؛ — ان تعظم

(1) اخذ هذا من قول الشاعر :

بلاد بها نيطب على تماثمي وأول أرض مس حدى تربها

عرصاتها ، وتتنسم نفحاتها ، وتقبل ربوعها وجدراتها .

وللقاضى عياض وقفات نقدية تنعكس على آثاره الادبية التى قدمنا ، وهو جانب هام فى كتابه « بغية الرائد » وهذا الجانب الذى يهمنى من الكتاب ، فى النقد الأدبى ، يعد من أقدم ما لدينا للمغاربة فيه ، ولا غرو فى هذا فالقاضى عياض بآثاره العديدة ، أقدم شخصية علمية فى التاريخ المغربى على الإطلاق ، وما زالت الايام تطالعنا أو تطلعنا على كنوزه الخفية ومنها هذا النقد الادبى ، الذى لم يعرف للمغاربة منه الا القليل جدا ، وفى لمحات خاطفة كذلك ، كما نجد للشريف السبتي والسجلماسى وابن البنا . واستمر النقد هكذا ، حتى كان فى القرنين الحادى والثانى عشر ، أحمد بن يعقوب الولاى المكناسى ، ينبعث به فى شرحه للتلخيص « مواهب الفتاح » ففى هذا الشرح نجد له كثيرا من المواقف النقدية الهامة (1) .

وصنيع عياض فى كتابه فريد ، وهو وليد له ، كما قال « مما لم يتقدم فيه كلام بلغه علمى وانتهى اليه ذكرى » هكذا قال ، وان كان فى مواقفه النقدية الادبية يفصح باعتماده على علماء النقد والبلاغة ، كالرمانى والباقلانى والحامى والثعالبى والبستى والامدى والخفاجى والاخفش والمعرى .

ويستشهد بها يستشهدون به أشعارا غالبها من ديوان الحماسة لأبى تمام ، ولم يذكر من شواهد مغربية الا واحدا له فى المتشابه وهو (2) :
إذا ما بسطت بساط انبساط فممنه فديتك فاطو المزايا
فان المزاح كما قد رآه أولو العلم قبل عن العلم زاحا
والنماذج التى يستجيدها كثيرا ما نجده فيها يصف الكلام ، بكثرة فصوله وقلة فضوله ، مختار الكلمات واضح السمات ، قد قدرت الفاظه قيس معانيه ، وقررت قواعده وشيدت مبانيه ، ووصف آخر ، بصدق تشبيهه ، وصقالة وجوهه ، قد جمع من حسن الكلام أنواعا ، وكشف

(1) اشرنا الى بعضها ، فى تناولنا لتاريخ البلاغة العربية الذى جعلناه كمقدمة على كتاب « دلائل الاعجاز » الذى علقنا عليه ولم نكن آنذاك قد اطلعنا على هذه « البغية » والا لجعلنا ما فيها تاجا على مغرق النقد الادبى للمغاربة ، كما أننا لم نكن قد اطلعنا على « منهاج البلغاء وسراج الادباء » لحازم القرطجنى ، والا لكنا قد توحنا به حركة النقد الادبى عند الاندلسيين .

(2) هكذا ورد البيتان ، والمعروف لنا فيهما « فممنه فديتك » ثم « كما قد روى » وهو اظهر وأليق بالتركيب والاصطلاح .

- 79 -

وطبق بعض نظراته على ما ورد في أحاديث النسوة ، فقال في قول احداها « زوجى لحم جبل وعر أو وعث » :

ان هذه المرأة أودعت أول كلامها تشبيه شيئين بشيئين ... فشبهت باللحم الغث بخله وقلة عرفه ، وبالجبل الوعث شراسة خلقه وشموخ أنفه ... ففصلت الكلام وقسمته ، وأبانت الوجه الذى به علقتم التشبيه وشرحته ، فقالت ، لا الجبل سهل ، فلا يشق ارتقاؤه ، لأخذ اللحم الغث المزهود فيه ، لان الشيء المزهود فيه ربما أخذ اذا جاء عفوا ... ثم قالت ولا اللحم سمين فيحتمل في طلبه ... مثقفة صعود الجبل ومعاناة وعورته ... فقطع الكلام عند تمام التشبيه والتمثيل ، وابتدأه بحكم التفسير والنفصيل ، البق بنظم الكلام ، وأحسن من نفى التبرية وسرد الصفة في نمط البيان ، وأجلى في رد الاعجاز على صدور هذه الاقسام .

ثم أتى بنظائر لهذا التقسيم المفصل من الفرعان الكريم ، فقال في ذلك : وحيث وردت المنفيات فيه لصفات أشياء ، أو لشيئين يخص كل واحد منها بوصف ، وقصد كل شيء منها بنفى عيب ، ابتدا الكلام حينئذ مستأنفا فقال : « بوضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول » ، ولا هم عنها ينزفون « فقله « لا فيها غول » من صفات المشروب وقوله « ولا هم عنها ينزفون » من صفات الشاربين ، وهذا من الترتيب البديع والتناسب العجيب ... ومثله : قلبى وطرفى منك هذا فى حمى قبيظ وهذا فى رياض ربيع

فانه حمل « حمى القبيظ » ، على القلب ... وحمل « رياض الربيع » ، على الطرف ... فتناسب النظم على نسقه ، وتطارد الترتيب ، وفي الفصل الذى عقده أخيرا للبيان ، تعرض — كما قال — لفنون البلاغة ، والابواب الملقبة بالديع ، من لفظ رائق ، ومعنى فائق ونظم متناسب ، وتاليف متعاقد متناسق ... من الكلام الفصيح الالفاظ ، الصحيح الاغراض ، البديع العبارة ، البديع الكناية والاشارة ... فكرر ما سلف له مختصرا ، فى كون جمال الكلام من حيث الانسجام واحسان النظم فيه ، مع مراعاة فصاحة الفاظه وصحة معانيه ، وتلوين العبارة بصور البيان والبديع ، من نحو الكناية والاستعارة والتشبيه ، كما جاء ذكره بعد قوله السالف .

ويقول في مهبة التشبيه ، انه « أحد أنواع البلاغة ، وأبداع أفانين هذه الصناعة ، وهو موضوع للجلاء والكشف ، والمبالغة في البيان والوصف ، والعبارة عن الخفى بالجلي ، والمتوهم بالمحسوس ، والحقير بالخطير ، والشئ بما هو أعظم منه وأحسن ، أو أخس وأدون ، وعن القليل الوجود ، بالمعهود المألوف ، وكل هذا لتأكيد البيان ، والمبالغة في الإيضاح ، ثم صار يمثل بآى من القراءان الكريم لذلك ثم قال ، وقد يقع تشبيه الشئ بالشئ تشبيها مجردا ، ليس فى شئ من الأبواب المتقدمة ، كقول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى
لكنه يلحق بنوع التوليد والتخريج ، الذى بلاغته الفطنة لادراك التشبيه ، لا غير ، وصدقه فيه ، وان كان لبعضهم فى هذا البيت مقال لا ارتضيه .

ومن قبل هذا مثل للتخريج والتوليد لغريب الشبه ومخيلة المتال ، وهو وجه بلاغته ، بقول المعرى فى كف الثريا :

كان يمينها سرقتك شيئاً ومقطوع على السرقة البنان
وعلى كل فقد شرط فى التشبيه أن يكون صادقا من الوجه الذى وقع به التشبيه ، والا اختل به الكلام ، كما قال :

أما بيت امرئ القيس الذى نظر الى معناه الآن ، فقد سبق له أن نظر الى رصفه ، وأعجب به من حيث التناسب فى الاتيان بالعناب للقلوب الرطبة وبالحشف لليابس منها ، على الترتيب والتنسيق فى الذكر ، الاول للاول والثانى للثانى ، كما قال بعضهم :

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد ملء المسامع والافهام والمقل

وفى الترصيع قال ، وقد يسمى بالموازنة وبالتسليم وبالتضفير وبالتسجيع ، وهو أن تتضمن الفقرة أو بيت الشعر مقاطع أخرى بقوافى متماثلة ، غير فقر السجع وقوافى الشعر اللازمة ، فيتوشح بها القول ، ويتفصل بها نظم اللفظ ، كما أتت بجمال فى وسط الفقرة الاولى وجبل فى وسط الفقرة الاخرى ، فيما به التمثيل آنفا ، وجعل منه « فأثرن به نقما

فوسطن به جمعا « ففيه مقابلة . وبعد ما تكلم عن المجانسة ، قال : واختلف أرباب البلاغة والفقد في هذا النوع (من البديع) اذا لم يكن مشتقا من أصل واحد ، فسموها بعضهم مجانسة تغليبا للاكثر ، وأما أبو الفرج قدامة ، فسمى هذا النوع مضارعة ، ومثل له بسرى مع شرى ، وفساح مع فياح ، وعجز مع بجر وتعشيش مع تغشيش ، ولكنه قال : وأما التجنيس الحقيقي فهو أن يكون في الكلام لفظتان ، أحدهما مشتقة من الأخرى ، مثل « انصرفوا صرف الله قلوبهم » ومثل « الربا ويربى » أو بمنزلة المشتق نحو « تتقلب فيه القلوب » ونحو « واسلمت مع سليمان » وكله من القرءان الكريم أو تكون لفظتان على صيغة واحدة مختلفتى المعانى ، نحو « الظلم ظلمات » وقريب منه « ناضرة الى ربها ناظرة » .

وكان أبو الفتح البستي يسمى ما كان على قول الأئمة « ملقى عظام لو علمت عظام » متشابهها ، قال عياض ، « واخترع قوم من المتأخرين أنواعا غريبة سموها تجنيس التركيب ، كقول المعري :

مقاليتا مقاليتا ومطايا مطايا

وهو — كما قال — نوع متكلف من غير حدود البلاغة ، اذن فشرط البلاغة عنده خلوها من التكلف ، وهى قوله قيمة ردها غير بما مرة ولكنه مع هذه القاعدة ، استثنى فقال ، « ربما يندر منه المستحسن ، كقول الميكالى :

تمت محاسنه فما يزرى بها مع فضله وسخائه وكماله
الا قصور وجوده عن جوده لا عون للرجل الكريم كماله

وقال البستي « فهل لمنهاجى من هاجى » « فدعنى فان يقينى يقينى »
وقول الآخر « ارى قدمى اراق دمي » .

والحقوا به تجنيس التصحيف ، وهو مشاركة صورة الحرف في الخط دون اللفظ ، وهذا — كما قال — لا يدخل في باب البلاغة المستجادة ولا المتكلفة أصلا ، ولا في شئ من حدود الكلام ، ولا صناعته ، اذ لا يقرع السمع منه لهجة ، ولا يقوم له في النطق حجة ، وقد رأيت أبا منصور الثعالبي ، قد عد هذا الباب في باب التجنيس ، وذكر فيه قوله تعالى « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » وأشباها لهذا من الكلام ، وليس عندى من

هذا الباب ، وهو من الباب الاول الذى سماه قدامة بالمضارعة ، وهو التجنيس فى أكثر الكلمة أو بعضها ، وذكر فى هذا الباب قول بعضهم ، النار فى الفتيلة كالتعادى للقبيلة ، والصب مع الصب ... وشبه هذا فلم يحسن هذا ، ولم يقل شيئاً لاجل صورة الحروف ، اذ لاحظ لهذا ، كما قلنا ، فى الفصاحة ، ولاحظ له من التجنيس .

وفى كلامه على المطابقة قال ، هو مقابلة الشيء بضده ، ومثل له بالوعر مع السهل ، والغث مع السمين ، وهو مما يحسن الكلام بمقابلته ، ويروق بمناسبته ... واختلفوا فى تلقيه ، فكان قدامة يسمى هذا بالمتكافىء ، وخالفه فى هذا الجميع ، ولا يكون هذا النوع عنده ، متكافئاً الا اذا كانت الكلمة وضدها الحقيقى ، مثل السمن والهزال والسهولة والوعورة ، والسواد والبياض ، والنطق والسكوت ، أما البياض مع الحبرة ، والسواد مع الضوء ، فبعضهم يجعله طباقاً ، ويجعل آخرون طباقاً غير محض أو مخالفاً ، والاول مطابقاً .

أما نحو اسد وفهد ، فهو مقابلة ، ولا يسمى طباقاً ، ثم مثل للمقابلة أيضاً بقول المرأة « لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى » عند أهل النقد مقابلة ، كما قال ، فحملت (المرأة) اللفظ على اللفظ ، وردت المقدم الى المقدم ، والمؤخر الى المؤخر ، فتقابلت معانى كلماتها ، وترتبت الفاظها ، كما تقدم لها وفى الآية بعد ذلك .

ثم تكلم عن لزوم ما لا يلزم قال ، وبعضهم يجعله أحد أنواع الترصيع ، فى « فيرتقى وينتقى » التزام القاف والتاء قبل القافية الالف المقصورة وكذلك التزام القاف فى « ينتقل ويتوقل » قال ، وهذا نوع زيادة فى تحسين الكلام وتمائله ، واغراق فى جودة تشابهه وتناسبه ... وأولع به المتأخرون ، فمن مجيد ومن مقصر ، وبالجمله ، فلا يحسن منه ، ومن جميع ما مخضنا القول عنه ، الا ما ساقه الطبع ، وقذف به خاطر ، دون نكلف ولا مقاساة ، ووجد لفظه تابعا لمعناه ، منقادا له ، موضوعا عليه ، غير مرغم فيه ، ولا منافر له .

فهو يكرر هنا شرط عدم التكلف والاكراه ، ويجعل الزينة اللفظية خادمة للمعنى ، وبذلك وبالنظم سلفا ، يكون كعبد القاهر الجرجانى وكالذين

تتأناؤا ان المعانى ارواح والالفاظ اشباح ، وقال بذلك الجاحظ نفسه ، مع تقديره للالفاظ فى الشعر ، كما قال به ابن شرف القيروانى .

نكتفى بهذه اللحاح والالماعات ، كما سماها عياض ، وهى تدل على ما كان عليه الرجل من اطلاع ونفوذ نظر ووضوح بصر بالنقد وقد اشرفنا على العهد الموحدى ، نريد ان نلقى نظرة على هذا العهد المربطى الذى سنودعه ومعنا القناضى عياض لقد كان الادب لهذا العهد ادبا يطبعه الطابع الاندلسى فى شكله وموضوعه ، ينجلي ذلك فى ابن زنباع وعياض اللذين اتصلا ادبهما بشخصيات كانت من جهايزة الادباء الاندلسيين ، ومن رجال الدولة التى كانت عاصمتها تزخر بهم (1) كما كان المعتمد ابن عباد ، حيا وميتا ، بالمغرب ، عاملا من عواهل هذا الطبع الاندلسى فى ادبنا ، فلقد كان الشعراء وعلى راسهم ابن اللبانة وابن حمديس الصقلنى ، الذى لم يكن شعره كذلك يختلف فى شىء عن الشعر الاندلسى ، يترددون على هذا الملك الاندلسى او يلازمونه ، فيطارحونه الشعر ، ويكون لذلك اصداؤه عند غيرهم ، كما كانت اصدااء المراثية ، التى انشدها ابن اللبانة على قبره تفعل فى الناس فعلها الصاخب ، الذى يصوره كتاب القلائد ، وكأنى بالقوم عامة كانوا مستعدين لهضم ما كان يلقى من ادب غص شهى على مائدتهم الحافلة ، فابن عباد يجد من يداخله فى ميوله ، حتى فى اولئك الفاسيين الذين كانوا يشاركونه ظلام السجن ويسامرونه فى احواله ، ولهذا نجده يحزن كل الحزن ، حينما يفارقونه مودعين وقد اطلق سراحهم ، ويصور ذلك الحزن لفراقهم فى شعر شجى صدر عنه ، ضمن اشعاره الشجبية .

(1) اذ نرى انه بالرغم من سيطرة الفقهاء على يوسف بن تاشفين فان المراكشى يقول « وانقطع الى امير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم (عهد الرشيد والمأمون) واجتمع له — ولابيه من بعده — اعيان الكتاب وفسار البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار ومن كتب لامير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله ابوبكر المعروف بابن القصيرة احد رجال الفصاحة والحائز نصب السبق فى البلاغة » . ثم كتب له ولابيه بعد اى بكر الوزير ابو محمد عبد المجيد بن عبدون . ويذكر ايضا فى كتابه المعجب ان على بن يوسف كان يبد هذه الحركة بكثير من رجال الاندلس فيقول : ولم يزل امير المسلمين اول امارته يستدعى اعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبى القاسم بن الجد المعروف بالاحدب احد رجال البلاغة وابى بكر محمد المعروف بابن القبطرنة وابى عبد الله محمد بن ابي الخصال وابى مروان بن ابي الخصال وابى محمد ابن عبدون عبد المجيد بن عبدون .

حقيقة ان أولئك الذين أعولوا في أغمات ، وصادقوا في جنبات السجن ، لم يكن ذلك كله منهم ، للادب بقدر ما كان منهم لذلك العز الذى ذل ، وذلك العرش الذى زلزل ، ولكن مع ذلك لا ننسى عامل الادب فيه ، مهما كانت الظروف .

لقد كانت قصيدة ابن زنباع الربيعية ، قصيدة لو رأى مثلها صاحب « البديع » لالحقها بأشعار الاندلسيين فى « الربيع » كما كانت أبيات عياض وهو بقرية داي ، اندلسية فى روحها وتنفساتها ، وكانت قصيدة ابن زنباع ، وهو يشكر الوزير ابن القاسم على تعزيتة فى فقد عزيز له ، اندلسية فى جوهرها وعرضها ، وكانت قصيدة عياض ، التى وجهها الى وزير .. الغالب أنه كان ابن القاسم ؛ ورسالته التى الحقها برسالة أبى القاسم ابن الجد ، مفعمتين كلتاهاما بالجو الاندلسى الخالص .

واذا توجهنا الى الاغراض ، فهى فى الادبين ، تتضمن مديح الكبراء ، ومخاطبة الاخوان من الوزراء ، والاشادة بأعمالهم وأخلاقهم وتتضمن وصف المشاهد ، من القاضيين معا .

كان هذا منهما لا يتعدى المحيط المذهب ، فليس لهما هجو ، وان لم يخلوا من عتاب أخوى ، وهذا اندلسى فى مظهره العام ، لأن شعراء الاندلس ، كانوا قليلا ما يلجون بالهجو ، كما حصل من ابن عبد ربه ومنافسه القلقاط ، وكما حصل بعدهما من اليكى متلا ، كما أن الرئاء لم يكن منهم مثلما كان بالشرق وعند العرب قديما ، بل كان منهم مواقف اتعاضية وامعانيات فى سر الحياة والموت ونطاقتهما الذى لا يفلت منه الجبابة وطفاة الدهور الغابرة ، مما نجده فى مراثية ابن عبدون لبنى الافطس ، وأخيرا فى مراثية صالح الرندى للاندلس الاسلامى .

والرثاء كالهجاء ، لم نجد لهما حسا فيما تقدم من شعر المغاربة ، وما قيل فى تلك المواقف والمواقف الحاسمة ، لا يعد من قبيل الهجاء بمعناه العاطفى ، بقدر ما يعد داخلا فى السياسة وخطوطها العريضة التى كانت مع الاندلس فى نحو ما قال الخالدى عذ فتحة سبنة وما قاله غيره فى الادارسة وعاصمتهم ، مما نجده فى البكرى متلا ونادرا ما عثرنا على الهجو فى عصرنا كما حصل من ابراهيم بن الحسن الادريسى وعبد المومن السجلماسى

الشيء الوحيد الذى وجدناه فى الاندلس ولم نجده فى المغرب لذلك العهد ، هو الخمرىات ، وان كان لها حسيى عند ابن زنباع الذى ذكر الكؤوس والشراب وما يفعله فى النفوس على سبيل التشبيه فى ذلك وليس على سبيل الحدوٲ من صاحبه .

وكانت الرحلة الى المشرق ، سواء فى ذلك ادناه وأوسطه ، فى العهد المرايطى على أشد ما تكون رحلات المغاربة اليه لأن الدولة نفسها كانت متعلقة بالشرق تعلقا كليا ، لدرجة أنها كانت تعتبر خايفة بغداد ، هو الخليفة الشرعى للبلاد ، فتنخذ العملة باسمه ، وتذكره فى الخطبة وتنخذ شعاره الأسود فى اعلامها وغيرها ، وهذا مما زاد ولا شك فى اتجاه المغاربة ورجال العلم منهم خاصة نحو المشرق ، ونظرة الى كتب التراجم المشرقية ، تجعلنا نشاهد من هؤلاء مثل ، أبى هرون موسى بن عبد الله بن ابراهيم الاغماتى ، الشاعر العالم النظار الذى قصد مصر والحجاز والجبال (ما بين اصفهان الى زنجان) وخراسان وأقام بنيسابور وبخارى متفقا بهما كما يقول ياقوت الذى ذكر فى معجم الأدباء عند ترجمة عمر النصفى انه الف كتابا فيه سماه « عجلة النخشى لضيغه المغربى » ، ومثل على بن يقظان السبى ، الذى ورد على مصر ومضى منها الى اليمن ، وزار العراق ودار فى الأفاق بشعره ، ومثل أبى محمد عبد الله بن تويت اللمتونى ، الذى قدم المشرق للحج وطلب العلم فأقام به طويلا ، كما قدم اليه أخوه الفقيه أبو يعقوب ينتان المتوفى بزبيد من اليمن ، ومثل عمران موسى بن محمد بن خطاب الكندى السبى الذى توجه الى المشرق وأنشد به شعرا كثيرا للمغاربة ، كما أنشد لنفسه . وهؤلاء الثلاثة ذكرهم السلفى فى معجم السفر ، اما الاول فمقد ذكره العماد فى خريدة القصر . وقد نشأ من هذا النشاط لون جديد فى أدبنا كما سنرى . ولاول مرة نجد المصادر الشرقية شعتنى برجال المغرب وعلمائه . والملاحظ من هذه المصادر ، أن أماكن كثيرة أخرى صارت تنفس بالأدب ، مثل مدينة اغمات ، ومراكش التى ذكر منها العماد عبد الله بن حماد المراكشى ، بعد سجالسة التى ذكر منها عبد المومن بن يحيى السجالسى ، ومثل مكناسة التى ذكر منها محمدا المعروف بينطلق ، كما ذكر العماد من فاس حماد بن الرفا الفاسى .

ومن شعر عبد الله بن حماد المراكشي قوله :

بت ليلى أنافر النوم حتى لاح لى الصبح لا أغمض عينا
وكانى لما وعدت ضرير أجزم قد اتاك يطلب دينا

ومن شعر عبد المؤمن السجلماسي قوله فى هجو قاض :

ايا عرة فى جميع القضاة واجور قاض قضى واحتكم
أمثلك يصلح فى قطرنا يلى الحكم فى الشرع بين الأمم

ومن شعر ينطلق قوله فى الفراق :

ان يوم الفراق يوم عسير يتوقى وقوعه المهجور
كم اديلت للشوق فيه دموع واستحرت للبين فيه صدور
واغتدى العاقل الصبور جزوعا للنوى والنوى عليه أمير
اى عقل يبقى واى اضطبار لمحب فؤاده مستطير
اذ أحباؤه أشاءوا ارتحالا بينهم غدوة وقالوا المير
ومطايهم تشد ولم يي ق سوى ان يقال للركب سيروا
لو ترائى يوم ارتحال المطايا وينان الحبيب نحوى يثير
لرايت امرا أجن من الشو ق فأضحى كأنه مسحور
ليس يستطيع ان يودع حيا دونه كاشح له وغبور
لم يزل يتبع الحبيب بطرف دمه للفراق دمع غزير
وينادى والشوق يضرم فى الاحد شاء نارا لها لديه سفير
بالاهى قرب مزار حبيبي ولأنت القدير نعم النصير

ومن شعر حماد بن الرفا الفاسي قوله من قصيدة فى الاستعطاف :

دع العنب وارجع لى حنانيك للعتبى وواصل الى الكتب واغتفر الذنبا
وكن كالذى ما زال فى الناس محسنا وان هم اتوا ذنبا وهاجوا به كريبا
وللعفو عن ذنب المسء عبادة تطيب بها ذكرا وترضى بها الريا
وتحرز فى اثائها خير مكسب يكون جمالا فى الحياة وفى العقبى
فان اعترافى أننى لك مذنوب يجدد لى عهدا ويثمر لى قريبا
لعل الليالى نستجد لقاءنا فاشكو بعبادا زادنى فيكم حبا
لقد طال هذا البعد حتى اذاقنى عذابا ولقانى به خطبه خطبا

الى ان يقول :

إذا الريح هبت من سماء أرضكم
واستخبر الركبان عنكم لعلنى
فلا مبلغ عنكم الى رسالة
فأرجع مكلوم الفؤاد معذبا
لعمل الذى أفضى بنا لفرق
ذهلت فلم أملك فؤادا ولا لبسا
بذاك أقضى من سلام لكم نجبا
ولا قائل خيرا ولا دافع كتبنا
تشب به نار الصبابة لى شبا
يسنى لنا لقيا ويسنى لنا قريبا

ومن شعر ابن يقظان المذكور قوله :

صبا الفؤاد لريم رمته فابى
عاطيته الكأس فاستحيت مدايتها
حتى اذا غازلت أجفانه سنة
ظلنا به طربا من حسن نغمته
وله أبيات :

أخواننا ما حلت عن كرم العهد
وكم من كؤوس قد أدت بؤدكم
أحن الى مصر حنين متيم
ومنها :

أراهم بلحظ الشوق فى كل بلدة
ولو ان طعم الصاب جرعت فيهم
وتخلص فقال فيها :

فكم قد قطعنا من مفاوز بعدهم
الى ان وصلنا الموصل الآن فانتهت
وخضنا بها الصعب المرام من الوهد
بنا لجمال الدين راحلة القصد

ومن شعر ابن شقرق قوله فى سفينة :

تخذت جناحا مثل قلبى خافقا
تسرى وتزجىها الرياح اذا سرت
تستعذب الملح الاجاج لدى الظما
وحوت قوادم كل طير مسرع
وتمر مر العارض المتقشع
مهما العطاش وردن عذب المشرع

وقوله في مولود ولد عند موت أخيه :

الله أكبر بدر تم أطلعا	في اثر بدر بالامول تقنعا
وبكى الغمام لذاك منتحبا كما	ضحك الزمان لذا غداة تطلعا
ف عجبت من قمرين ذلك آفل	بادى السرار وذا تبلج مطلعا
وعجبت من غصنين ذلك ذابل	بادى النحول وذا رطيب اينعا
وعجبت من عين بذا قرى وقد	سخت بمصرع ذاك في حال معا
يا من رأى من سر حالة حزنه	ورأى الهناء مع العزاء تجمعا (1)

ومن شعر الأغماتى قوله وهو بنيسابور :

لعمر الهوى انى وأن شطت النوى	لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في أقصى خراسان نازحا	فجسسى في شرق وقلبي في غرب (2)

وقبل أن نودع العهد المرابطى نرى أن أدبيه الشاعر هو ابن زنباع ،
ان صحت مغربيته ، وأن أدبيه النائر هو القاضي عياض على الاطلاق
والاستغراق .

(1) تمامها في الحريدة مع أبيات أخرى له كثيرة تركناها كما تركنا غيرها من شعر ابن يقطان المذكور .
(2) وأنظر سلوة الانفاس .

الباب الثالث

المعهد الموحد

يعتبر هذه المعهد تجسيدا للقيمة التي انتهى اليها الادب المغربي في شتى ألوانه وفي مختلف أنشطته ، فكان بحق يمثل الاستمرار النبائي لتلك الحركة التي باركها المعهد المراتبي وقام بدورها الكامل القاضي عياض ، الذي أسلم شعلتها المتأججة الى عهدنا هذا .

لقد أدى الدور الأول في هذا المعهد رجال برزوا في المعهد السالف ، وكان سيكون منهم عياض نفسه لولا أن المنية لم تجهله الا قليلا ، فمضى نحبه وانتظر منهم شعراء كان في مقدمتهم ابن حبوس الفاسي ، وكتاب ، كان في طليعتهم ابو جعفر ابن عطية وأخوه ابو عقيل .

أما ابن حبوس ، فهو :

أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس ، مولى بنى أبى العافية ، وصفه ابن الأبار في كتابه « التكملة على الصلة » بأنه كان عالما محققا وشاعرا مفلحا يتقدم بذلك أهل زمانه ويوقف على جودة شعره في ديوانه ، وكذلك يقول فيه ابن عبد الملك في كتابه « الذيل والتكملة » اذ يصفه بأنه شاعر مفلح من جلة فحول الشعراء مثقف في معارف سوى ذلك من كلام ونحو ولغة وغيرها . ويهمننا منه ناحية خاصة هي الناحية الادبية بل تهمننا من هذه الناحية ، اخص منها (هي) ناحيته الشعرية . فابن حبوس الفاسي اشتهر كشاعر أكثر مما اشتهر بشيء آخر دونه ، وشعره هو الذي استطعنا ان نجد فيه بعض آثاره الادبية العديدة ، أما غيره فاننا لا نجد له الا قطعة نثرية جميلة نقلها عن مذكرته عبد الواحد في كتابه « المعجب » وهي :

دخلت مدينة « شلب » من بلاد الاندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئا ، فسألت عمن يقصد اليه فيها ، فدلتني بعض أهلها على رجل ، يعرف بابن الملح ، فعمدت الى بعض الوراقين ، فسألته سحاة

يقتلع خطواته فينتجه بها الى هذا الوراق الذى يسأله سحاة من الورق فيسلمها اليه ، ثم يعصر قريحته ويمسح جبينه بعد ما تستجيب اليه شاعريته الجائعة . ها هو ذا قد انتهى الى الرجل الذى استقبله فى الدهليز ، استقبالا حسنا ، فسأله بعد ما علم انه غريب : من اى الطبقات انت ؟ هنا يجيب فى لباقة « انى من اهل الادب » ولم يقل من الشعراء لاول وهلة ، فالشعر والشعراء يحيط بهما هالة لابد من أخرى تحافظ عليها فتحفظها بن مفاهيم الناس الذين لم يكونوا قد عرفوها بأعيان أصحابها المحقين ، ثم يتبعها بقوله من الشعراء وسرعان ما يدفع عنه تهمة الادعاء فينشد الابيات التى برهنت عن شاعريته المثلى وجدارته فوقع من صاحبه احسن موقع واذا به يأخذ بيده ، فيدخله الى منزله ، بعدما كان يحادثه فى الدهليز ، وقدم اليه الطعام .

ولا شك ان الماضى الذى مر بشساوته وضراوته يجعلنا ندرك ما تحت هذه الجملة الاخيرة ، وكيف تنفس بها صاحبها وكيف تحركت لهواته فيها ، ثم هذه الابهة والرفاهية مع هذا الاحترام الذى ناله منهما « عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه (صاحب المنزل بنفسه ، بين يدي وفتحته فاخرج منه (كذا) فدفعه الى وقال الى آخر القصة التى ختمها بهذه « العقدة » العجيبة « فدخلت عليه جائعا فقيرا وخرجت عنه شبعان غنيا » !!

أما شعره الذى اشتهر به فحسب الترتيب الزمنى مايلى :

من قصيدة فى بجاية عام 547 ، مخاطبا اولا الخليفة عبد المومن عند حصاره لها :

عصفت بدعوتك الرياح الهوج وسطا بأمرك ذابل ووشيج
وتقدمتك الى العدو مهابة يشقى بها فى سده ما جوج (1)
ثم مخاطبا صاحبها :

شدت اليك على الرياح سروج اين الفرار بأهلكم ياجوج

(1) البيان من زاد المسافر ، والذى يليهما من المن بالامامة ، وجعله اولا وانه لما انشده « قال الخليفة يكنيه البيت وامر له بجائزة » .

ولما تم افتتاحها قال :

حديثهم اذن المشـرق
فلم يسبقوها ولم تسبق
فمهما تصب باطلا تحرق
تفرد بالسودد المطلق
فما زال منحدرًا يرتقى
ولما تفتنا ولم تاحق
تجل عن السور والخندق
وبولاهم عاذ بالزورق
فلو خاض في البحر لم يغرق

من القوم بالغرب تصفى الى
جروا والمنايا الى غاية
بأيديهم النار مشبوبة
يقودهم ملك أروع
تخيرته الله من آدم
الى الناصرية سرنا معا
الى برزة فى ذرى أرعن
يعوذون منا بمولاهم
وأكسبه خوفه خفة

ولعله قال فى هذه المناسبة مادحا الخليفة (1) :

مان بنور عدلك واستنارا
وامركم مع الفلك استدارا
يدور اليكم من حيث دارا
فنحوكم اذا يبغى الفرارا
لها سكنت ولا وجدت قرارا

امير المؤمنين لقد اضاء الز
لكم شرقا البلاد ومغرباها
يسير اليكم من ناء عنكم
فمن قد فر عنكم من عدو
ولو خوفتم اعلام رضوى

وله بمناسبة احتفال الخليفة بالمصحف العثمانى الذى اتى به عام 552

قصيدتان ، احدهما هكذا :

والفرع منسوب الى أصله
هو الذى يكرم فى فصله
وانما يشكر من فضله
اهل فرج الخير من اهله
والشخص لا ينفك عن ظله
لابد ان تظهر فى فعله
ما يدرك الطرف على رسله
قد يعطف الشكل الى شكله
اضافة العلو الى سفله

فعل امرىء دل على عقله
ان الذى يكرم فى جنسه
والمرء لا يشكر عن نفسه
والخير والشر لهذا وذا
لا يتترك اللازم ملزومه
وكل مفطوم على شيمه
لا يدرك الطرف على شده
والناس أشتات وفى الطبع ما
اضافة السفلى الى علوه

(1) زاد المسافر

ما غاية العالم في علمه
ولا الذى يشكر عن بذله
عمرى لقد حمل أمر الورى
من لم تزل انوار افكاره
ذاك سراج الكل بل شمس
تضىء انوار النهى حوله
زوى (1) الفضل الى وقته
هذا كتاب الله جل اسمه
خير امام آخر جاءه
اليه يهيم كل (ما) مصحف
أجرى ابن عفان الى نصره
انيسه في وحشة الدار اذ
رمى به الخابط في غيه
وصار من اوكد شغل امرى
صيانة الشيخ له اوجبت
حتى اتى الأمة من نبهت
فأيقظ الاجفان من نومة
عرف ما يجهل من حقه
ومال في تعظيمه ميله
البسه من رائق الحلى ما
وزاد ما أبطن من بره
نشز يضىء النجم في علوه
فمن حصى الياقوت حصباؤه
كأنما الأصباغ فيه وقد
زخارف النوار في روضه
فاض أتى الحسن في كله
لم تر عين قط شبها له

كفاية الجاهل في جهله
مثل الذى يشكر عن بذله
مضطاع بالعيب من حمله
تهيم على المحل في محله
بل عقله الفعال في عقله
في عقده المبرم او حله
ليقدم (2) المثل على مثله
بخط عثمان وفي دخله
خير امام كان من قبله
تأنق العالم في نقله
وخلصكم زاد على خصله
تواطى القتل الى قتله
وضمه الحاطب في حبله
في تركه الاعراب عن شغله
لجاجة الباغين في بذله
شهادة الرسل على عدله
صحا بها المخبول من خبله
وضم ما فرق من شمله
اعادت الفرع الى أصاله
يعجز جيد الدهر عن حمله
على الذى أظهر من حمله
ونيرات الشهب في سفله
وتبره يغنيه عن رمله
تألف الشكل الى شكله
هراق فيها الليل من طله
فكله يعجب من كله
ولم تصخ أذن الى مثله

(1) فى الاصل هذه الكلمة غير واضحة ولعل الصواب ما أثبتناه من زوى الشيء جميعه
وتبضه وطواه ونحاه .
(2) كان بالأصل « فيقدم »

أذاعت الحكمة سر النهى
تقيد اللحظ به فهولا
وذاك من فضل أمام الهدى
كانما العمال آلاته
جهايز الأفاق قد بلدوا
وكلهم برز في سبقه
ما خطو من يعدو به سابح
وليس من يعرف من نهرة
ولا الذى يمرح مرخى له
ولا حسام نال منه الصدا
التمر معزو الى نخله
والقدس محفوظ على أهله
عجائب العالم مختصة
ومن الثانية هذا المطلع لها :

سيشكر المصحف اكبابكم
اذكرتم الايام ما أغفلت
مصحف ذى النورين عثمان ما
ما اختار شيئا مؤنسا غيره
أوسعت الدنيا اطراحا وما
يحنو عليه العطف منكم ولا
أحببتم المولى فأحببتم
البستموه حلية لم يكن
لم تدرك الاعراب ما كنهها
لا أسفرت سفرتكم هذه
تكفل السعد بمقصودكم
عناية الله بكم جمعة

أما قصيدته الاولى ففسار بها
أنوك من عبد ومن عرسه
ما من يرى أنك في وعده

فيه ومات الخبط في جهله
يصرفه الناظر عن نبيله
وكلنا نعزى الى فضله
تفعل ما يصدر عن فعله
في فصل ما يفصل او وصله
واحرز الخصل على مهله
كخطو من يعدو على رجله
مثل الذى يعرف من سجله
مثل الذى يمرح في شكله
مثل الذى بولغ في صقله
والشهد منسوب الى نخله
وانتم تالله من أهله
بأولياء الله او رسله

عليه اذ أوجده الفقد
من بره اذ قدم العهد
كان لكم عن صوته بد
حين أتى واقترب الوعد
كان لكم الا به وجد
يغبه الاشفاق والسود
ما خطه من وحيه العبد
يسمح للكف بها الزند
ولا ادعت ادراكها السغد
عن واضحات نجحها نقد
وبانت الوجهة والقصد
له عليها الشكر والحمد

على نبط قول المتنبي في هجو كافور :
من حكم العبد على نفسه
كمن يرى أنك في حبسه

وانما يظهر تحكيمة	ليحكم الانسان في حبسه
العبد لا تفضل اخلاقه	عن فرجه المتن أو ضرسه
لا ينجز الميعاد في يومه	ولا يعى ما قال في امسه
فلا ترجى الخير عند امرىء	مرت يد النحاس في راسه
وان عراك الشك في نفسه	بحاله فانظر الى جنسه
فقلبا ياؤم في ثوبه	الا الذى يلؤم في غرسه
من وجد المذهب عن قدره	لم يجد المذهب من نفسه

وشعر ابن حبوس هذا وان كان ابن عبد الملك المراكشى ، قد اثنى على صنيعه في كتابه الذيل والتكملة الا أننا ازاءه نراه اشبه ما يكون بالنظم . .
لقد قال أولا : وهى عندى من غرر قصائده ، ثم قال بعد اتيانه بالقصيدة :
اثبت هذه القصيدة الفريدة بأسرها استجادة لها واستغرابا لما حوته من
(انواع الحكم والامثال السائرة) .

نعم انه في تأملاته ، وحكمه التى سردها بطريقة ، خططها المنطق
انصورى الارسطى ، لعاى أهمية للمتمعن فيها ، ولعل ذلك ما دفع ابن
عبد الملك الى حكمه المشار اليه .

ثم ان هذه الأببات ، تشبه الى حد ما منطلومات أبى العناهية في
زهدياته ، ببساطتها وتقليب صورها رأسا على عقب ، أو طردا وعكسا
كما يقول الميقاتيون .

اضافة السفلى الى علوه	اضافة العلو الى سفله
ما غاية العالم في علمه	كفاية الجاهل في جهله

ومع هذا فان فيه بعض الصور الشعرية ، مثل قوله :

نشر يضىء النجم فى علوه	ونيرات الشهب فى سفله
كانما الاصباغ فيه وقد	تألف الشكل الى شكله
زخارف النوار فى روضه	هراق فيها الليل من طله
فاض اتى الحسن فى كله	فكله يعجب من كله
لم تر عين قط شبهاله	ولم تصخ اذن الى مثله
اذاعت الحكمة سر النهى	فيه ومات الخبط فى جهله
تتوיד اللحظ به فهو لا	يصرفه الناظر عن نبله

لا شك ان البيت الاخير اسعفه بيت لاهرىء القيس فى معلقته ، واصفا سرعة الفرس ، بقيد الاوابد ، وان كانت الصورة غير الصورة هناك والمنزع فيها غير المنزع هناك أيضا . وفى الدالية مسحة من التفكير ويبدو عليها بعض الاستعمال المنطقى وهذا ما كان عليه الشاعر من ثقافة عقلية .

سوى هذا ففى النموذجين معا ، أهمية تاريخية ، يستفيد منها الدارسون كثيرا ، فقد عرف عن الدولة مبادئها الشيعية (بل الشيعية الاسماعيلية بصفة خاصة ، كما سنرى فيما بعد ، ومع هذا فيبدو ان القوم لم يكونوا دقيقين أو متجربين لمذهب بعينه ، ولهذا نجد المؤرخين ، يسمون دعوتهم بانها قد اختلفت فيها مذاهب ثلاثة ، الشيعية والخارجية والاعتزال ومع هذا فيبدو انهم لم يكونوا متحمسين لها تماما .

وقد سمعت من مفكر كبير وعالم جليل ، ان دعوة محمد بن تاومرت حتى الآن لما تعط حقها من عناية الدارسين المتعمقين فى الدرس فهى دعوة لا تشبهها فى عقدها المحكمة دعوة للدعاة فيما مضى .

ومهما يكن ، فالشيعى كالخارجى لا يسمح بالاشادة بعثمان ، ولا يصيخ الى هذه الابيات بارتياح :

مصحف ذى النورين عثمان ما	كان لكم عن صونه بد
ما اختار شيئا مؤنسا غيره	حين اتى واقترب الوعد
هذا كتاب الله جل اسمه	بخط عثمان وفى دخله
خير امام آخر جاءه	خير امام كان من قباه

اما الموضوع فقالوا ان هذا المصحف كان رابع اربعة انتهى الى بنى امية ، ونقل اليهم بالاندلس ، فظل عندهم الى ان صار الى عبد المومن ، وبعد الموحدين صار الى بنى عبد الواد ، ثم الى المرينيين ، الذين كانوا يتنقلون به ، كما فعل الموحدون قباهم ، فغرق أيام أبى الحسن ، ضمن ما غرق له من رجال ومتاع ، وهو بالمياه النونسية فاتحا .

لقد كان اهتمام الموحدين ، وأولهم عبد المومن ، عظيما بهذا المصحف ، وكان مبعثا عظيما للشعراء خاصة ، كما كان مبعثا لغيرهم فى وصفه والنويه به ، ومن أوائل الواصفين له عبد الواحد المراكشى ، الذى يقول فى كتابه

المذكور ، متحدثا عن أبى يعقوب :

بلغنى انه اتصلت اليه منه (اى من ملك صقلية الذى صالحه)
ذخائر لم يكن عند الملك مثلها ، مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى الحافر ،
جعلوه فيما كللوا به المصحف على قدر استدارة حافر الفرس ،
هو فى المصحف الى اليوم مع احجار نفيسة .

وهذا المصحف الذى ذكرناه (يقول) وقع اليهم من نسخ عثمان ،
رضى الله عنه ، من خزائن بنى أمية ، يحملونه بين ايديهم انى
نوجهوا ، على ناقة حمراء ، عليها من الحلى النفيس ، وتياب الديباج
الفاخرة ، ما يعدل اموالا طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج
الاخضر ، يجعلونه عليها ، وعن يمينه ويساره عصيان ، عليهما لواءان
اخضران ، وموضع الاسنة منهما ذهب شبه تفاحتين ، وخلف الناقة بغل
محلّى ايضا ، عليه مصحف آخر ، يقال انه بخط ابن تومرت ، دون مصحف
عثمان فى الجرم ، محلّى بفضة مموهة بالذهب ، هذا كله بين يدي الخليفة
منهم .

وبعد فلا ندرى لم اختار ابن حبوس قصيدة المتنبى ، لينظم على نمطها
فى مدح الخليفة عبد المومن ، وهى فى منتهى السخرية والافتداع الذى نال به
كافورا ، ولم ينل بمثله أحدا من مهجويه ، على أن قصيدة المتنبى نفسها
ناظرة الى أخرى فهى على نسق قول محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد
الله التميمي القرشى :

لا تلم المرء على فعله وانت منسوب الى مثله
من ذم شيئا واتى مثله فانما يزرى على عقله

ونلاحظ عليه انه لا يبدو فى شعره قصد للالفاظ الا نادرا ، ومن هذا
ما تقدم فى البيت :

فماض اتى الحسن فى كله فكله يعجب من كله
كما سيأتى له :

رمت أن ترقى سريعا فتدريست صريعا
فهذا جناس قليلا ما يصادفنا فى شعره ، أما الطباق وهو من المعانى ،

فيصادفنا اكثر من هذا ، وقد وجدناه في البيت الاخير الذى فيه الجناس ،
بين « سريعاً » و « صريعاً » اذ فيه طباق ايضاً في « ترقى »
مع « ترديت »

وفيما عدا هذه الحلية الخفيفة فابن حبوس شاعر معان اكثر منه
شاعر الفاظ ويصح أن نعهده من مدرسة المتنبي الذى يقلده كثيراً
فالمزية الحقيقية في شعره ليست الالفاظ الخداعة ، ولكنها في المعانى التى
تبرهن عن قيمتها وتعلن عن نفسها بواقعها .

وبهذا سنرى له من الاوصاف ، ما ضربت الرثم القياسى في مبالغاتها
المهولة ، ولكنها في الفاظها معتادة للناس .

لقد كان شاعرنا ، يعرض ما يحلو في عين ممدوحيه ، ولهذا قال
المستحيل في مديحه اياهم ، ولم يكن يتورع في حرفته هذه شأنه فيها شأن
ابن دراج الاندلسى ، الذى كان يدور مع أطماعه كيف دارت ، ويمدح من
ترجح كفته ، فاذا خفت هذه الكفة ورجحت كفة غيره عليها ، قلب ظهر
المجن ، وانقلب مدح السابق ذماً وهجاء ، وكذا الامر واقع مطرد في كل
ممدوح ، ولهذا وجدنا ابن حبوس يمدح الوزير ابا جعفر ابن عطية ، لما
كانت كفته راجحة ، فلما خفت ووقع في المحنة ، نحا عليه بالذم والهجو ،
ارضاء لسيدته الموحدى لقد مدحه بقوله فيما مضى فقال :

الا زار من أم الخشيف خيالها	ومن دونها البیداء يخفق آلهما
لقد أوقدت في القلب منى جمرة	بدا في سواد العارضين اشتعالها
ثقلت الليالى عند غيرى سلمها	وروقة دنياها وعندى قتالها
أتحسدى في أن أعيش كأنها	إذا فسدت حالى ستصلح حالها
أما تتقى أن يشرئب لنصرتى	قوى إذا رام السماء ينالها
وماذا الذى ينأى عليه وأنه	لذو قدم أم النجوم نعالها
وزير العلى عندى من القول فضلة	رويتها في مدحكم وارتجالها
وما كنت أخشى مدة الدهر أن أرى	تميد بى الدنيا وأنتم جبالها

فلما قتل هو وأخوه أبو عقيل ، كما سيأتى ، ذلك عام 553 ، قال
متشغياً فيه ، وبإيعاز من الخليفة لا محالة شعراً هاجياً كما سنرى .

ولا غرابة في هذا فالشاعر كان من أولئك الشعراء الذين يعرضون

شعرهم على واجهات الراغبين يصورون فيها ما يريدون وينطقون بما لهم يحمدون فهم مرتزقة الفنون وهم « في كل واد يهيمون » كما قال الله فيهم وعلى كل حال ففى هذه الأبيات الأولى التى مهد لها بالشكوى من الزمان وعثراته فيه ، كما يفعل ابن دراج قبله ، والمتنبى قبل هذا ، نراه يبالغ فى وصف الوزير بأوصاف ، قد تناكب تلك التى سنجدده يصف بها الخليفة الموحدى ، فهذا الوزير اذا رام السماء نالها ، وكيف لا يكون كذلك ، وهو لا ينأى عنه مطلوب ، والنجوم صارت كبراهها نعلا لقدميه .

فيا وزير العلى ، عندى فى مدحك أقوال لا تنفى ، أرتجل فيها قصائدى أنا وأروى فيها أنا أخرى ، فأنت ملاذى لا أخشى بكم ما يريب الناس من دنياهم ، فكيف تميد بى الدنيا ، وأنتم جبالها الراسية بها ، ولا شك أنه استفاد هذه الصورة من الآية « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » أو الآية « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » .

وابن حبوس نادرا ما يقتبس من القرآن ، كما يفعل عياض ، ولكنه مع هذا يستفيد من بعيد بعض المعانى من القرآن ومهما يكن فهذا مدح للوزير وهو فى ذروة المجد يتسنى المكانة الرفيعة فى الدولة الناشئة فلما حلت به النكبة قال فيه هاجيا :

أندلسى ليس من بربر يختلس الملك من البربر
لا تسلم البربر ما شيدت بالملك القيسى من مفر

وهذه نغمة تطفح بالعصبية البربرية ، لم نعهدها فى غيره من أدبائنا (1) كما أنها تحاول أن تنفى عن ذلك البساط من المجد ، هذا الوزير المنكسود الحظ ، لأن أصله أندلسى ، وان ولد وعاش فى المغرب ، وهى دنية تضاف الى خلقه الدنى الذى ظهر به فى هذا الموقف .

ومن شعره ما قاله فى فتح المهدي عام 555 أو 554 مخاطبا الخليفة عبد المومن :

بطالع الاسد أخط البناء بها لكنك الاسد الدامى الاظافر
باب حديد وأبراج ثمانية تسخر العقل فيها أى تسخير

(1) وان جعلها تشيد مفرها بالملك العربى القيسى يريد عبد المومن الذى كان ينتهى الى هذا الاصل العربى

ثم كان ينشد الخليفة بجبل طارق عام 556 :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا
وتعلمت أيامه ان تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا
وجد الهداية صورة فتشكلا
الى ان يقول :

فلأنتم الحق الذي لا يمتري
ولأنتم سر الاله وامركم
عزلت ولاة الحس عن ادراكه
كأترتم زهر النجوم أسفة
ومنعتهم الريح الهبوب لأنكم
صدت تمشى القهقري ولو أنها
ومنها في صفة الرياض :

ان رنت الريح الخفوق ازاءها
شرب النشاط سلافة حتى انثنى
ومن أمداحه له — كما في نظم الجمان — قوله :

بخليفة المهدي سيدنا اغتدى
وتفجرت عين النباهة بعدما
قد صير المعقول قلبا مائلا
ورعى جسيم العلم في اوطانه
وافيت حضرته المقدس تربها
ووقتت وسط سباطه فوجدته
لم السق الا عالما وازاءه
ومدارسا تسع الرياضة لو رأى
وسمعت كل مذاهب الحق التي
وبصرت بالطوسي يفهق حوله
لم ألف الا مصقعا أو مقلقا
والكل في علم الامام مقصر

(1) الأبيات في « زاد المسائر » وقد اقتصر في « المعجب » على الأولين منها وقال في صاحبها
انه كان يقلد ابن هاني في « قصد الالفاظ الرائعة والتعاقع الموهلة واثير التتمير » وهو
حكم جائر في حقه .

فاترك عكاظا والوفود بسوقها حذقا وسحبان الخطيب ودغفلا
يعثو لها الأعشى بنار مطلق ويضم علقمة اليها جـرولا
والحق بحضرته السنية واستمع للقول واحذر ويك أن تتقولا
فيها كمال الدين والدنيا معا وسعادة الأرواح في أن تكملـا

ففى هذه الابيات ، نجد الشاعر لم يحتفل بالالفاظ ، البتة ، ولم يتأنق في سرد هذه الصور التى أشاد فيها بمجالس العلم التى كانت للموحدين ، وخص بالذكر فيها العلوم العقلية ، التى تيسرت لطلابها ، بفضل خليفة المهدي ابن تومرت ، فصار نهج العلوم به مذكلا معبدا ، واصبحت النباهة قد تنفجرت به ينباعها ، وفاضت عيونها ، بعد ما كان القاصد اليها قد اصابه الوهن والعجز ، فجعل علوم المعقول ماثلة لمن يريدھا ، فيقتنصھا في سهولة ، ويصيب قلبها فيتمكن منها ، وانتشر التعليم في البلاد فتأتى رعى مراعى العلم المتكاثفة النبات ، في أوطانه لمن كان منها لا يتيسر له التنقل عنها الى الاقطار الاخرى وانى قد أتيح لى أن وافيت حضرة الامام ، تقدست تربتها ، فشاهدت ما لا يتخيل في مخيلة الناس ، فقد وقفت مبهوتا وسط حلقات العلم بها ، فوجدتها أسواقا تقام على العلوم والمعارف ، ولم يكن بتلك الاسواق ، الا عالم أو متعلم ، متقل أو مبتكر ، ووجدت مدارس متنوعة ، تسع الرياضيات ، التى لو رآها سقراط ، لاحترق الهيكل الذى كان يحتويه وباقى الفلاسفة لعهدہ ، وسمعت في تلك المدارس الى جانب هذه العلوم ، دروسا في الهداية والتنوير ، لا يعدل عن مقتضى مذاهب الحق فيها ، ففيها نجد من العلماء من هم في درجة الامام الغزالي ، يفيض علومهم ، ومن هم في مرتبة امام الحرمين الجويني ، تبيننا وتلقينا ، وكلا الرجلين من اساطين الاشمعية ، التى كان على مذهبها محمد بن تومرت وخليفته والموحدون عامة .

ثم يستمر في وصف هذه المجالس بكونها طافحة بالخطباء والشعراء ، والمتكلمين المجادلين عن عقيدتهم ، والكاتبين المترسلين في بسط شئون دينهم ، وجميع هؤلاء لا يصل الى المدى المعلوم التى كان عليها الامام المهدي ، فحسب المبرز منهم أن يدركه الليل في طلب علمه ، وأن يسهر في التماسه ، فهذه هى سوق العلم حقا ، فاترك جانبا ، سوق عكاظ وما كان يضطرب بها من شعراء وخطباء وعلماء ، كسحبان وائل ، الخطيب ،

ودغفل بن حنظلة النسابة ، وأعشى ميمون الشاعر ، الذى قصده المحلق
فمدحه بقوله :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

والقصيدة تنظر فى بعض أبياتها ، الى رائية المتنبى فى ابن العميد ،
كما ينظر بعضها الآخر الى ابن زيدون فى داليتة فى المعتضد بن عباد
فهى أبيات ، ينظمها النسق المعتاد فى النصائح ، ولا ضجة فيها للالفاظ ،
ولا صخابة بصلصلتها ، وما لنا نذهب بعيدا عن البيتين ، اللذين ذكرهما
عبد الواحد المراكشى ، فألفاظهما ليس فيها من هذا القبيل شىء ، كل ما هنالك ،
مبالغات معنوية ، حيث جعل الزمان قد بلغ ما كان يأمله من الهداية ،
فى فضل هدى الخليفة عبد المومن ، فكأن الزمان نفسه ، كان ضالا حائرا ،
فارتفع عنه هذا الضلال ، ونزح عن كاهله كابوس الحيرة ، بهدى عبد
المومن ، وأن الايام كانت جاهلة جائرة ، فتعلمت به العدل ، بين الناس وقضت
لهم بموجبه ، ويكفى هذا الزمان ، ان كان لا يستقر على حال ، ولا يتمثل
فى شكل ، فوجد الاستقرار فى هذه الهداية ، وتشكل بصورتها
ومهما يكن فان هذه القصيدة جاءت على نمط قصيدة المتنبى .

قد قالها فى ابن العميد وهى التى مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم نصبرا وبكاك ان لم يجر دمعك أو جرى
وكان ابن دراج فيما قبل نظر إليها فى قصيدته :

بشراك من طول الترحل والسرى صبح بروح السفر لاح فأسفرا
أما نظر ابن حبوس هذا فواضح فى قوله :

لم اللق الا عالما وازاء متعلما متكثرا متقللا
فهو من قول المتنبى :

وسمعت بطليموس دارس كتبه متكما متبديا متحضرا
وفى قوله :

وبصرت بالطوسى يفهق حوله وابى المعالى مجعلا ومفصلا

فهو ينظر الى قول المتنبي :

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الاله نفوسهم والاعصرا
ثم كان من أمداحه لعبد المومن قصيدته الرائية التي أنشدها وهو برباط
الفتح ، استهلها مخاطبا البحر المحيط :

الا ايهاذا البحر جاورك البحر
وجاش على امواهك الحلم والحجا
وسال عليك البر خيلا كماتها
لعاك يطفيك اشتراك سمعنه
وليس اشتراك اللفظ يوجب مدحة
فمالك من وصف تشاركه به
ومالك من معنى يشير الى الذى
فأنت خديم الشمس والبدر عنوة
ويحويك شطر الارض تغمر بعضه
وقد وسع الايام جودا ونجدة

الى قوله :

هنيئا لاهل الارض ان حلها امرؤ
وبشرى لهذا السيف ماء لحده
بنى (فرضة) أم البلاد فكلها
تكنفها الملئان من كل جانب
فهذا عليه المد والجزر دائبا
ومنها :

غدت نقطة في ضمن دائرة الدنيا
فمن حيث ما رمت الجوانب نلنها
فذلك أعماق الجسوم وطولها
يفوح تراب الارض من طيب نشره

(1) اخذ مضمون البيت من قوله تعالى : « وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائح شرابه
وهذا ملح أجاح » كما ركز على عدم هذا الاستواء حل الابيات في القصيدة .
وهى من الاعلام بعد تصحيح ما استطعنا من تصحياتها .

ولا شك أن هذه القصيدة تفوق بكثير القصيدة السالفة .

وهكذا فهو يخاطب البحر المحيط ، الذى وقف على ساحله فى حضرة
مدوحه الخليفة ، فيفتتح الخطاب بهذا النداء الذى فخم من شأنه ، بأداة
الافتتاح ، وبحرف أى ثم بالإشارة التى شفعها بهاء التنبيه كذلك ، فقال ،
« ألا + أى + ها + ذا » . وبعد هذه المنبهات الأربعة ، أفصح بالمنادى
« البحر » مخاطبه بأنه الآن فى جوار بحر آخر ، يفوقه بكونه يحمل كل
طاقات الحياة اذ بيده النفع والضرر ، وبأنه يجيش بالعقل ويموج بالنها
على مياهك ، وأن فيضانه على أعطافك ، إنما هو بما يصدر عنه من أمر
ونهى وإن ساطانه وقدرته ، كان بهما البر يسيل على البحر ، يسيل
بهذه الخيول المظهمة، التى تمتطيها الشجعان والابطال، المعقود على نواصيها
الوية النصر دائما ، فهى أن همت بغزو ، وجب لها النصر ، بآدى ذى بدء ،
قبل أن تباشر القتال .

فلربما اغتررت ايها البحر ، حينما سمعت ، أن بحرا قد جاورك ،
فان هذا البحر لا تضاهيه فى شئ من عظمته فهو بحر لا يشاكله بحر من
البحور ، فهذا الاشتراك الذى اغتررت به بين البحرين ، إنما هو من قبيل
المشكك وليس من قبيل الاشتراك فى الواقع ، بل انه يكاد يكون من قبيل
المخالف ، فأنت خديم الشمس والبدر تتحرك بالضرورة وفق أمرهما ، مدا
وجزرا ، أما ذاك البحر فالشمس والقمر يخدمانه طوع أمره ، وهو بجوده
وسطوته يسع الايام ويحتوى الانام ، ولا قدر لما تأتى به فى حسابيه ،
ولاشك أن هذا الوصف المبالغ ، إنما استاقه من وصف الكرى « وسع
كرسيه السماوات والارض » .

اذن فقد سلبت ايها البحر كل ما يمكن أن تشارك به هذا البحر
العظيم ، وليس لك من معنى يجمع بينكما ، إلا أن يكون هذا الخداع اللفظى ،
الذى نجده فى كلمة « البحر » واستقله الشعر فزخره ، حيث جعلك
تجاوره ، وما لك من صفة تفوه بها إلا أن يكون ما تدعيه لك من قبيل
الوقاحة والجراءة المتناهية فى التهور والهيان فى الادعاء ، فليس
الاشتراك اللفظى لك مدحة ما .

سوى هذه الامداح وما اليها فلا بد من حبوس قصيدة يهاجم فيها الفلاسفة
وهى (1) :

(الزم) ظمأك فى شريعة أحمد
(وأقم بد) أعطان الديانة عليها
(لذ) بالنبوة واقتبس من نورها
واذا رأيت الصادرين عشية
الدين دين الله لم يعبا بمب
قالوا بنور العقل يدرك ما ورا
بالشرع يدرك كل شىء غائب
من لم يحط علما بغاية نفسه
ولقد نرى الفك المحيط وعلم ما
سعد المجرة بالكواكب دائم
من خص بالسفلى جرم البدر أم
ما شاق الطود المنيف وان علا
وجواز عكس الامر فى ذا واضح
ذاك اختصاص ليس يعلم كنهه
خفى عليك ابا فلان انها
سالت علينا للشكوك جداول
وتبعقت بالكفر فينا السن
اعدائنا فى ربنا احبابنا
كشف القناع فلا (هوادة بيننا)
ستنالهم منا الغداة قوارع
وتصوب فيهم سحبنا بصواعق
من كان يضربهم بسيف واحد
ولعمر غيرهم وتلك الببة
قالوا الفلاسف قلت لك عصابة

تسقى اذا ما شئت غير مصرد
تدنيك من حوض النبى محمد
واسلك على نهج الهداية تهتد
عن مذهب الدين الحنيف فأورد
تدع ولم يحفل بضلة ملحد
ع الغيب قلت قدى من الدعوى قد
والعقل ينكر كل ما لم يشهد
وهى القرية من له بالابعد
فى ضمنه أعى على المترصد
فى زعمهم وقسيمها لم يسعد
من خص بالعاوى جرم الفرقد
الا بمنزلة الحضيض الاوهد
للعقل فازدد من يقينك ترشد
من ليس يوصف بالبقاء السرمدى
نوب تطالعنا تروح وتغندى
بعد اليقين بهما ولما تنفد
لا تفقد التضليل من لم تفقد
جرحوا القلوب واقتلوا فى العود
حتى تغادرهم وراء (المسند)
ان لم تغلهم غولها فكأن قد
تلك النى جلبت منبة أريد (2)
فأنا (لأضربهم بألف مهند)
ان الحمام لجمعهم بالمرصد
جاءت من الدعوى (بما لم يحمد)

(1) من الاعلام لعباس بن ابراهيم وما ورد فيها بن هلالين فهو ساقط أو مصحف صحناه
واثيناه حسب اجتهادنا .

(2) هو اخوليد الذى مال فيه :
أخشى على أريد الخوف ولا أرهب نوء السمك والاسد

خدعت بالفاظ تروق لطائفة فإذا طلبت حقيقة لم توجد
ذو علمهم لو كان شاهد علمنا ورأى جهابذة الكلام المؤيد
لعراه من حسن هنالك لؤلؤ وأقام بين تحير وتلبس
أسفى لو أنى (قد) نصرت عليهم (لثمت) فى المهجات كل مهند
يلغى كتاب الله بين ظهورهم وجميع مسنون النبى محمد
ياقاتل الله الجهالة انها ورق لأغصان الشباب الاملد (1)

انه فى هذا ، وهو الذى درس الفلسفة ، وظهرت آثارها على شعره ،
لم يكن الا مدافعا عن نفسه مهاجما لأولئك الذين زحزحوه عن مكانته التى
كان يتمتع بها أيام عبد المومن بالذات ، فلما كان عهد ابنه أبى يعقوب يوسف ،
كان للفلاسفة مكان مرموق عنده ، حيث قرب ابن طفيل تم ابن رشد ، وصار
ينقطع اليهم أحيانا ولا يظهر للناس ، لانشغاله معهم فى معالجة المسائل
الفلسفية ، وطرق المواضع المعتاصة منها ، كما صور ذلك معاصره
عبد الواحد الراكشى ، فى كتابه المعجب ، اذ يقول « ولم يزل يجمع الكتب
من أقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وكان ممن صحبه من
العلماء المتفنيين أبوبكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، كان
متحققا بجميع اجزاء الفلسفة ،،، وكان أمير المومنين أبو يعقوب شديد
الشفغ به ، والحب له ، بلغنى انه كان يقيم فى القصر عنده ليلا ونهارا
لا يظهر ولم يزل أبوبكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار ،،، وهو الذى
نبهه على أبى الوليد محمد بل احمد بن محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه
ونبه قدره عندهم (يقول ابن رشد متحدثا عن أبى يعقوب) سألتنى
ما رأيهم فى السماء ؟ يعنى الفلاسفة ، أقديمة أم حديثة ؟ وجعل يتكلم
عن المسألة التى سألتنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطالس وافلاطون
وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم الى آخر
ما فى المعجب ، مما يدل على مكانة الفلاسفة عند هذا الملك ، الذى فتر عنده
ما كان لابن حبوس من حظوة لم يتمالك نفسه أن حدثها فى تلك القصبدة .
ولم يكن ابن حبوس وحده قد بخس حظه ، بل اهل الادب وبقيّة
العلوم كما يقول ابن خلكان : وكان ميله الى الحكمة والفاسفة أكثر من ميله
الى الادب وبقيّة العلوم .

(1) الاعلام وجعلنا كلمات بين قوسين مصوبا منا أو نتميما حسب الامكان .

فنرى في هذه الأبيات حقدا متقددا ، وتسفيها مدحضا لهؤلاء الفلاسفة ولما يدلون به ، ويزورونه في الفاظ خلافة لاحقيقة وراءها كما يقول ، ولكنه يقابل هذا كله ، بما يدعيه له ، وهو المقصود ، ولغيره ، وهو لا يعنيه ، من التفوق في صوغ الكلام الجيد ، بحيث لو شاهد أولئك الفلاسف هؤلاء الجهابذة وهم يحبرون كلامهم لعراهم الذهول ولأخذوا بجمال هذه الآلى التى ينظمها غيرهم ، فاستولت على أولئك الحيرة والتبلى . ولا شك أن أصحاب هذه الآلى ، ما هم إلا نظامها ، وما المعنى منهم ، إلا ابن حبوس نفسه ، فكلامه كما يقول أصحاب الأصول ، من باب العلم الذى أريد به الخاص . وهنا تشتد به الحفيظة ويستولى عليه الغيظ ، فيتمنى لو كانت له القدرة على الفتك بهذه الفئة ، ويأسف لكونه لا ينصر عليها وكأنه يريد أن يبرر قصده هذا ، بأن هؤلاء تحل دماؤهم ، حيث النى بهم كتاب الله وسنة نبيه :

يلغى كتاب الله بين ظهورهم وجميع مسنون النبى محمد
ياقاتل الله الجهالة انها ورق لاغصان الشباب الأملد

اذن فأصحاب الجهالة ، أفرار لكونهم حديثى عهد بالشباب ، فمن هم هؤلاء الذين يعنيههم الشاعر ، أهم الفلاسفة أم الذين يتبعونهم ؟ ان كانوا الآخرين ، فلا شك أن الشاب الموحى ، الذى كان سنه دون الثلاثين ، على رأسهم ، فاعله يعنيه في قرارة نفسه وعلى العموم ، فالشاعر تهكم على الفلاسفة فيما يعتقدونه مما بعد الطبيعة ، معتمدين في ذلك على عقولهم الننى يدرك بنورها ما وراء الغيب ، كما قالوا ، مع أن الانسان لا يحيط علما بنفسه وهو متلبس بها ، فكيف به أن يحيط بها هو في غاية البعد عنه ، وفي هذا الصدد تعرض لابطال علم التنجيم أو علم أحكام النجوم (1) .

(1) لان هذا العلم كان من صلب الفلسفة منذ القديم وقبل العصر المسيحى ، وكان منشأه عند الكلدان والمصريين واليونان ، ولاقى رواجاً عظيماً لأول ما ترجمت الفلسفة في الإسلام ، وسيطر على عقول العباسيين ، فوجدنا أبا تمام يسخر مما ادعاه أصحابه في متح عبورية ، بل وجدنا من فلاسفة الإسلام من سحر منه ، وهو الفارابى في رسالة نقلها عنه أحد تلاميذه البغداديين .

وهى ضمن ما جمع للمارابى من رسائل مطبوعة ، ولكن العلم هذا بالرغم مما أخذ عليه ظل معمولاً به عند مخلص الأمم الإسلاميه ، فكان في القرن الرابع أهم ما تناولته رسائل اخوان الصفا ، التى ورد فيها « أن الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل الورع والمتسكين ، قد نهوا عن النظر في علم النجوم » ، لان علم النجوم جزء من علم الفلسفة .

ومن شعره في الاعتبار :

(الحي في) حمامه عبرة يذكر بالكونين من جنة وانما يعرض أنموذجا نعيمه فيه الثقاء الذي يكاد نفس المرء من حره نحن طليان فبادر بنا بحر سلمنا منه في ساحل في حيث لا تنجى الفتى حيلة	وانما يعتبر العاقل (1) ومن جحيم ذكرها هاييل من ذا وذا لو نبه الغافل يشفق منه العالم العامل تزول لولا أنه زاييل من قبل أن يقنصنا الحابل فما ترى ان غمر الساحل سواء الفارس والراجل
--	---

وأخيرا نجد الشاعر يتكرر لفنه فيقول (2) :

يا غراب الشعر لا طر فاذا استيقظ شهم هبك لا تقنص عزا رمت أن ترقى سريعا ربما اصطاد بفحات ولقد غال حبيبا بسطا الأيدي حتى واستمحا الشيخ ذا الكب وأعدا الشعر للعل	ت ومنيت الوقوعا قـرم زدت هجوعا لم تقنصت الخـوعا ؟ فترديت صريعا شبعما واصطدت جوعا منك ما غال صريعا منعما الطير الوقوعا رة والطفل الرضيعا م سيوفنا ودروعا
--	---

وهكذا نرى أن ابن حبوس قد فسد ما بينه وبين فنه الشعري في هذه القصيدة ، وأنه انحى باللائمة عليه وعلى السابقين من بنى فنه كابى تمام وصريع الفوائى .

فكان بذلك متشائما من شعره ، فناداه بغراب الشعر ، كأنه غراب البين ، ويدعو عليه أن يكون مهيض الجناح فلا يقوى على الطيران ، فان طار فمناه الله بالوقوع ، وإذا استيقظ من الطبور شهما القرم ، فليزدد

(1) من الاعلام وسقط منها ما جعلناه بين هلالين اجتهدا منا .
(2) زاد المسافر .

هو هجوعا على هجوع .

انك يا غراب ساقط الهمّة ، فان كنت لا تنقص عزا بكسبك ، فلم
تحامات وقنصت الخنوع والخضوع ؟ فكنت في هذا تحاول أن ترقى سريعا ،
ولذلك ترديت صريعا خائر القوى ، لم تنل حتى ما ينالسه بغاث الطير ،
وصغارها ، فربما اصطاد هذا ما نال به شبعه ، أما أنت فاصطدت جوعا . ولقد
أصاب الناس من فنك بلاء عظيم منذ القديم ، فغالى حبيبا منك ، ما غال
صريع الغواني ، فكلاهما استترقهما الطمع ، فبسطا أيديهما للناس ، حتى
سدا بتلك الأيدي المبسوطة الفضاء ، بحيث لو سقط طائر من حالق ،
لما وقع على الأرض ، واستجديا جميع الناس ، من الطفل الرضيع حتى
الشيخ الهرم ، على الرغم من مكانتهما في منهما ، الذى جعلاه للعلم سيوفا
يصول بها ودروعا تقيه عادية الجهالة .

لقد استيقظ ابن حبوس من غفوته وثار لنفسه ، وانتفض انتفاضته
الكبرى . ولكن الصدمة داهمته فصاح بهذه الصيحة :

رد الطرق (1) حتى توافى النميرا	فرب عسير اتاح اليسيرا
وأرسل قلووصك طورا شمالا	وطورا جنوبا وطورا دبورا
وشن على غازيات البلاد	من النقع والرمل جيشا مبيرا
وفر ماء وجهك حتى يجم	وأطف السموم به والهجير
وطرحين أنت قوى الجنا	ح لا عذر عندك أن لا تطيرا
ولا تقعن وأنت السلي	م حيث تضاهى المهيض الكسيرا
فأم الترحل تدعى ولودا	وأم الاقامة تدعى نـزورا
وذو العجز يرضع ثديا حدورا	وذو العزم يرضع ثديا درورا
يعز على النبل أنى غدوت	أكنى أديبا وأسمى فقيرا
وانى ثبت لكف الزمان	يعرق عظمى عرقا مبيرا
وما ذاك أنسى هيابة	أخاف الرحيل وأشنا المسيرا
ولكن بحكم زمان غدا	يحط الجياد ويسمى الحميرا

نفى هذه القصيدة نرى أمشاجا من النصائح ، واللوانا من التوثبات

(1) الماء المطروق فهو عكر لذلك والابيات من الاعلام المذكور بعد تصحيح بعض التصحيح فيها .

تنتهى بالنعى على الزمان ، الذى أصبح يحط الرفيع ويعلى الوضع فهو ينصح بالمدارة ، فان وجد الانسان نفسه مضطرا ان يصيب التافه من الامور ، فلا يحجم عنه ، ريثا ينال عظيمها ، فرب عسير يكون وسياسة لليسير ، ولا يقف الانسان عن المخاطرة فى طلب ما يريد ، حتى ولو كلفه هذا ان يطوف البلاد جميعا ، شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وأن يقتحم البلاد ويثير فى وجهها غبار الاسفار ورمالها ، غاديا ورائحا ، وليحافظ على كرامته ، فلا يرق ماء وجهه بالخلود الى راحة الاقامة ان كان فى هذه الاقامة هوانه ، فليحتفظ بهذا الماء وليوفره عنده ، حتى يطفىء به ، ما يواجهه من حر الهجير والسموم فى ترحاله وليخف طائرا بجناح العزم ، حينها يجد فى نفسه قوة على هذا الطيران ، ولا يتقاعس عنه ، اذ لا عذر له فى هذا ، والا وقع فى الحضيض ، وهو سليم الجناح ، مضاهيا كسير الجناح مهيبه ، لان الترحل لايتأتى الا بالخير العميم ، فأم هذا الترحل ولود اما الاقامة فأمرها عقيم أو نزور ، والعاجز لا يصيب شيئا ، فهو يرضع ثديا حدورا ، لكن ذا العزم ينال مطالبه ، فهو يرضع ثديا درورا . هذه نصائح لابد أن يعمل وفقها ، ولكن واحسرتاه ، وواسفاه على النبل ، الذى يفت فى عضده ، انى غدوت ادعى أدبيا ، ولكنى فقير مملق ، وانى ثبت للزمان ، يعرقنى بكفه عرقا مبيرا ، وما كان تحلى هذا الهوان ، لأنى هيابة للاسفار ، اخاف رحيلها ، واكره مسيرها ولكن حكم الزمان ، الذى قضى بأن يخفض من شأن الجياد ، ويرفع من شأن الحمير .

وبهذه النفثة المصدورة ، ينهى بها قصيدته هذه ، لينشئ أخرى ، وقد ساء ظنه فى الناس عامة ، وكفر بالمثل العليا ، فقال (1) :

أعد لنابحيك عصا	واقضم ماضفك حصى
وشعثع للورى شرقا	مع الساعات او غصصا
وكن وردا خبثثة	يراوغ منهم قنصا
وغمض عينك النجلا	حتى تنعت الحوصا
وهز لمعشر سيفا	وهز لآخرين عصا
وكأثر من يدب لك الض	را واخرص كما خرصا

(1) من زاد المسافر .

ولا تعتب عليه فلو	ظفرت به لما خلاصا
وسؤ ظنا بكـل أخ	يقاسمك الثنا حصصا
ولا تحفل بامعة	يخال الشحمة البرصا
ولا تحرص فرب فتى	مضاع عندهما حرصا
وحرص الطائر الواقع	مع صير جوفه قفصا
لقد رخص الفلاء وأهـ	ون الأعلاق ما رخصا
وقد ذهب الوفاء فلا	يقول مغالط نقصا
فلا تلزم مكان الظـ	ل ان وافيته قلصا
وغن لذا الزمان اذا انـ	تشى وازمر اذا رقصا
ومن شهد الخطوب وعـا	ش مثلى يشرح القصصا

هذه حصيلة التجارب التى انتهى اليها الشاعر السوداوى الطبع فى عمره المديد ، وتقلبه ، فلقد تمر لأهل زمانه هذا الذى املى عليه ، ان يتسلح بكل وسائل الايذاء فليحمل العصا ، ليقتذع بها كل من يتعرض له ، كأنه كلب نابح ، وليلق صلب الاحجار فى فم من يحاول ان ينال منه ، كأنه يمزق عرضه ، وليشعشع الناس كؤوسا يغصون أو يشرقون باحتساء ما تحتويه ، وليكن ماكرا مكر الثعالب أو الآساد المختلسة التى تراوغ لتفتك بفريستها ، وليعامل بالخديفة ، كل من يلقي من الناس ، وليبادر الى انتهاز الفرص منها وليبد الغفلة لهم ، خداعا ومكرا ، فيغمض لهم عينه النجلاء ليجعلهم يحسبون أنه أحوص ضيق حدقتها ، كأنها خيطة لضيقها ، وليتحل بحلا الشر ، فيلوح لجماعة بسيفه المطت ، ويهز الآخرين عصاه الغليظة ، وليكاشر عن انيابه ، كل من يختاله ، وليكذبه الحديث حين يكذبه كذلك ، ولا تعتب على هذا فى هذه الصفات الماكرة ، فانك لو ظفرت بصاحبك لما نجا منك بها ، كما قال المتنبى قبله :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلامة لا يظلم

وان سمعت من أخ ثناءك ، يقاسمك به ، فسؤ ظنا به ، ولا تحفل بامعة يوافقك على كل ما ترى ، ويحسب المظاهر الخلابة حقائق مفيدة ولا تكن حريصا ، فرب حريص خانه ما يحرص عليه ، وكثيرا ما كان حرص الطائر الذى ينزل ليلتقط الحب قد جعل جوفه قفصا لحبسه وهذه نصيحة

مقبولة في ظاهرها ، ولكنها كانت فاتحة لهذه الامتعضات ، من كون الغالى
اصبح رخيما ، والشريف عد خسيسا ، وان الوفاء قد ذهب بالمرّة ، فلم
يعد ينعت به أحد من الناس ، فلا يغالط منهم من يدعى انه نقص عما كان
عليه .

وبعد ذلك يعود الى النصيح ، بالتنقل في طلب العيش ، كما سلف
منه في التصيدة السابقة ، ولهذا فلا يلزم الانسان الظل الذى ان استظل
به نقص عنه فيئة وقلص مده . وهى نصيحة مقبولة كما نرى ، ولكنه يعود الى
وصوليته المعهودة ، ونفاقه المشهور ، فينصح بمائلة الناس على باطلهم ،
فحينما يسكر زمانك سكرته وينتشى بها ، فغن له وازمر اذا رقص من نشوته .

ولا تلمنى في هذه النصيحة ، لان التجارب التى عرقتنى بقساوتها
فرضتها على ، فان قدر لك أن تعيش مثلى ، ويمتد بك حبل الحياة ، فنشاهد
خطوبها ، فان هذه الاحداث والخطوب ، ستشرح لك قصصها شرحا وافيا .

انه ابن حبوس الشاعر الذى لم يخف شيئا في نفسه ، فهو وان كان
مهائلا متكسبا في شعره بأمداحه للملوك والوزراء والكبراء ، يطوف البلاد
مغربها وأندلسها ، في طلب العيش ، فانه كالمتنبى ، يحمل في جنب له
طمعا ، وفي جنب آخر تعاضلا وكبرياء مضغعة ، تنقسمها الحيرة ، وتعمل
على تأريئها الحسرة ، ولا نملا جوف طمعها ، ولو كانت خزائنها مليئة بكل
صامت وناطق فقد حصل ابن حبوس على أموال طائلة ، جبتها له أمداحه
الكثيرة ، ولكنه لم يقنع بها ، كما كان المتنبى ، بتلك الصفة ، فتنقل بالبلاد
في طلبها ، وقافلة جماله ، نحمل تلك الاموال ، التى مدح من أجلها العبيد
والاحرار ، حتى اذا دوهم في طريقه لاكتناز المزيد منها ، لفظ نفسه الاخير
وهو يدافع عن نفسه وعن تلك الاموال ، فيقضى نحبه ويقضى من كان معه من
الرفاق ، وفيهم ابنه وفلذة كبده .

وعلى كل فان هذه نتيجة أليمة انتهى اليها الشاعر ، وقد ضرسته
التجارب بمآسيها ، وأرقته الاحداث بتنمراتها ، ولكن الشاعر ، كما يبدو
كان سوادى الطبع حاد المزاج ، لا يختلف في هذا عن الحطيئة أو ابى
نواس أو ابن الرومى ، وان كان في اتجاهه أو قراره من الواقع اقرب الى
منهج ابن الرومى ، فقد حرم ابن الرومى من ميزة تمتع بها غيره ، فحقق

عليه ورماء بالحمارية ، فقال :

ان تطل لحية عليك وتعرض فالمخالي معروفة للحمير
وكذلك وجدنا ابن حبوس لما انتهى الى الحرمان مما صار يتمتع به
غيره ، قد قال :

ولكن بحكم زمان غدا يحط الجياد ويسمى الحميرا
فهذا ان دل ، فانما يدل على الحقد والحفيظة والشاعر الحق له
حكمه ، وموقفه الذي يعذر فيه ، أو يلتبس له العذر عند ذهوله عن كل شيء
الا عن شعوره الفياض ، ذلك الشعور الذي جعل ابن حبوس يذهل عن
التعاليم الدينية ، وهو المسلم المتحمس لاسلامه فيما رآنا ، فينادى بهذه
المبادئ التي لو صيغت في النثر لقلنا ان صاحبها يدعو الى المكيافيلية ، ولكنها
صيغت في الشعر ، فقلنا ان صاحبها في شطحة متمرده ، لا يلبث ان يقلع
عنها أو تقلع هي عنه ، انها طبول مزعجة جعلته يصرخ صرخته :

وسسؤ ظنا بكل اخ يقاسمك الثنا حصصا
ولا تحفل بامعة يخال الشحمة البرصا
وانه الاخفاق في المسمى ، الذي عبر عنه وشيكا :

ولا تحرص فرب فتى مضاع عندما حرصا
وحرص الطائر الواقع صير جوفه قفصا

اذن فالشاعر ، تعرض لظروف انطقته بتلك النصائح الهدامة للاخلاق ،
فاندفع وقد رفع عقيرته فيها وهو يشنعر بالضم وبالبخس لمكانته :
« لقد رخص الغلاء وأهون الاعلاق ما رخصا » ولم يجد بجانبه من يرفع من
شأنه ، وكان له اصدقاء ببادلونه الود ، فتركوه يعانى ظلمة الكفران ويقول :
« وقد ذهب الوفاء فلا يقول مغالط نقصا » ولهذا فقد وجبت النقلة والابتعاد
عن هذا الجو الخانق : « فلا تلزم مكان الظل ان وافته قلما » فهو لا يعنى
بنصيحته الا نفسه ، ولا يهيمه من غيره شيء البتة ، ولكن الشيوخة تقعده
وتضطره الى الاستنامة أو الاسسلام ظاهرا فيقول : « وغن لذا الزمان اذا
انتشى وازمر اذا رقصا » ويفصح عن موقفه المضطر اليه ، بقوله :
(ومن شهد الخطوب وعما ش مثلى يشرح القصصا)

وهكذا فابن حبوس، نستولى عليه الحيرة وتربكه، وتغمره بمشاعره او نخفته ، فينفس عنها بهذه الآهات اليائسة أو المستيئسة ، وينفجر عن دخليته ، انفجارا مدويا ، ولعل هذا الصدق في التعبير ، هو الذى وسمه بالتهور أو الحمق فيما سلف عنه فتعرض لغضب المرابطين .

والى جانب هذا فقد قال ابن حبوس فى اغراض اخرى كالنسيب الذى ذكرت له فيه بمحاضرات الابرار للحاتمي هذه الابيات :

اسكنان نعمان الاراك تيقنوا	بانكم فى ربع قلبى سكران
ودوموا على حسن الوداد فاننى	بليت باقوام اذا احفظوا خانوا
سلوا الليل عنى مذ تناعت دياركم	هل اكتحلت بالنوم لى فيه اجفان

بعد ابن حبوس ، شاعر الخلافة ، كما بزداد المسافر ، نتصل بآخر (أبو العباس أحمد الكراوى) الذى ذكر بهذا اللقب كذلك ، وشاركه بمناسبة قال فيها شعرا كذلك ،،،،، والكراوى هذا من تادلة ولد فى العقد الثالث من القرن السادس فتلقى تعليمه بمراكش وفاس ثم انتقل الى الاندلس ، التى تقلب فى انحاءها ، فتلقى هناك كذلك عن شيوخه ولا نعرف اكثر من هذا عن اوليته ودراسته ، ولكنه منذ ان اتصل بالبلاط الموحدى اثر ابن حبوس امر امره به فكان شاعره واشتهر ذكره بالمغرب والاندلس وتونس ، كما اشتهر ذكره بالشرق ، وتناوله كثير من كتاب التراجم سواء فى ذلك منهم من كان فى الشرق ومن كان فى الغرب ، ومن تناوله من المشاركة ابن خلكان فى كتابه وفيات الاعيان ، ومن ردد ذكره بالمغرب ابن عذارى ومن الاندلسيين ابن ادريس وابن البار وابن سعيد فى كتابه الفصون اليائنة، وقد ذكر حينما تناول ترجمته انه نقل فيها من كتب التراجم العديدة فى ذلك فقال : وتلخيص ذلك انه من تادلا ، عمل مشهور بين مراكش وفاس ، ثم ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة .

وعلى كل حال فان هذا الشاعر اتصل بعبد المومن وسجل وقائعه فى قصائده التى مدحه بها كما سجل وقائع من بعده من الخلفاء الثلاثة فمن امداحه قصيدة قالها لاستمالة العرب سنة 553 ثم القصيدة التى قالها بمناسبة فتح المهديّة 555 ، ثم اخرى فى وقعة انتصر فيها الموحدون على الاسبان سنة 556 كما سنرى . وتوفى قبيل وفاة محمد الناصر بسنة واحدة

فإذا جعلنا تلك القصيدة التي قيلت سنة 553 أول قصيدة له في هذا البيت الملكي، فإنه بذلك يكون قد قضى من عمره المديد قرابة ستين أو نيفا وخمسين سنة وهو يمدح هؤلاء الملوك الاربعة . وعلى هذا فلا بد ان يكون ديوانه من هذه الدواوين الكبار التي تضم الآلاف ، وخصوصا أنه اشتهر كما يقول ابن سعيد بالقصائد الطوال ، واشتهر كذلك بالهجاء اللاذع فكان رجلا بالاضافة الى أمادبجه هجاء مقذعا ؛ مما يدل على شكاسته ومع هذا وذاك كانت له بعض الابيات أو الاشعار في أغراض شتى ، كالغزل وأشعار المناسبات الشخصية ، الا اننا مع ذلك لا نعثر له على كمية كبيرة من الشعر ، وأهم مرجع يسجل امداحه البيان المعرب .

أما قصيدته الاولى فهي (1) :

<p>احاطت بغايات العلى والمفاخر وزانوا سماء المجد عودا وبداة هم المضريون الذين سيوفهم اوائلهم في الجود للناس غاية وكم فيهم من مثل كعب وهاشم وكم قد اقاموا من عروش موائل وكم لهم من حكمة تبهر النهى ومن خطبة تستنزل العصم من عل هم اطلعوا في ليل كل عجاجة هم مزقوا بالبيض كل ممزق اجيبت بهم في آل ساسان دعوة مآثر اسلاف تلاها بنوهم وأخر مجد شفعوه بأول لهم كل جلد في الجلال مثمر هزبر عليه لبده من مفاضة</p>	<p>على قدم الدنيا هلال بن عامر بسمير القنا والمرهفات البواتر دواعق بأس تنتحى كل كافر وكم تركوا من غاية للاواخر وكم لهم من مثل عمرو عامر (2) وكم قد اقالوا من جدود عوائر ومن مثل في الشرق والغرب سائر ويتضى بتكبيل النفوس النوافر كواكب أطراف الرماح الخواطر ممالك شادنها ملوك الاكاسر بخير عباد الله باد وحاضر بأمثالها أكرم بها من مآثر وأول مجد شفعوه بأخر سريع الى صوت الصريخ مبادر وناب وظفر من سنان وباتر</p>
---	--

(1) ذكر في الملحق بشاعر الخلافة الحراوى للفاسي وهذا الملحق من مخطوط الاستاذ المونى وسقط البيت الثالث منها وذكر في « الفحوى الياسة » والغريب أن الاستاذ الفاسي لم يطلع على هذا المصدر فعلق على الابيات السبعة الواردة فيها بقوله « نقل هذه الابيات صاحب (مشاعر رجال المغرب) ... ولم يذكر المصدر » وتكرر هذا التنصيص عنه واعتبره عادة منه متبعة .
(2) لعله يريد عمرو بن الزبير وعامر بن عبد الله بن الزبير ابن أحيه .

إذا سال يوم الروع أورد قرنه
تعاين منه مثل باز مصرصر
إذا شبت الهجاء أول وارد
يبادر منه القرن أغلب غالب
يثور إليه حاسرا غير دارع
بنى عامر أنتم صميم فصموا
ولا تتوانوا في حظوظ نفوسكم
ومن شكر آلاء الخليفة صولة
نبيل الجبال الشم منها مخافة
ولابد من يوم على الكر أيوم
دعاكم لما يحييكم وارث الهدى
وأحزم من ساس الديانة والدنا
الى أمره في كل أمر ونهيه
إذا نامت الاملاك عما يههما
فلا برح الاسلام منه مؤيدا

موارد موت ما لها من مصدر
على مثل فتخاء الجناحين كاسر
وان خفت الإبطال آخر صادر
حديد شبا الانياب دامي الاظافر
ويقضى عليه دارعا غير حاسر
الى الموت تصميم الليوث الخوادر
فانكم اهل النهى والبصائر
على الكفر تبقى غامرا كل عامر
وتسكن امواج البحار الزواجر
تعم به الدنيا وفود البشائر
وجامع اثتات العلى والمفاخر
واكرم مأمول وأحلم قنادر
يروح ويغدو كل ناه وأمر
رعى الدين والدنيا له طرف ساهر
بمنصور رايات على الكفر ناصر

وفي هذه اقتباس من القرآن ولا يكاد شعر للجراوى يخلو منه كما
سنرى فيما ياتى من شعره .

وكانت هذه على لسان الخليفة عبد المومن الذى له اشعار فى هذا
الغرض كما ان هناك اشعارا اخرى لغيره فى الغرض نفسه .

وهكذا نجد الدولة تستميل هؤلاء العرب ليكونوا فى جيشها ، ولكننا
مع ذلك نراها حذرة منهم ، فهى تبعث بهم الى خوض المعارك فى بلاد
الاندلس لتستفيد من شجاعتهم كبداة أعراب ، ولتتخلص من شوكتهم
ننتقل بعد هذا الى شاعرنا وهو يلقي هذه القصيدة مادحا لعبد المومن
حينما كان محاصرا مدينة المهديّة ، يقول فيها ، بتاريخ عام 555 :

كانت محل أناس قبلنا فخلوا	عنها وآثارهم فيها مقيمات
تالله لو علمت مقدار وارثها	هبت اليك رباها والقرارات
تالوا العطيات أحياء فقلت لهم	بل لم تكن قبل ان كان العطيات
أما سمعت جريرا عن هنيذته	يثنى يرى أنها فى الجود غايات

وأين من حسبه الآلاف من ذهب
وأين من قيس عيلان أرومته
ومن يكن من أمير المومنين فقد
أهنا امام الهدى فالقول منبسط
أعيت مأثركم من أن تنال وكم
وكم أرادت رواة الشعر تحصرها
دمتم ودام لكم أسعاد سعدكم
ولما فتحها قال :

هنيدة من سواده أو هنيذات (1)
وقيس عيلان أملاك وسادات
قامت على فضله منه الشهادات
والدين منتظم والكفر اثبات
شنت عليها من الأقوال غارات
فأخفقت دونها منهم ارادات
ما دامت الارض والسبع السماوات

لمن الخيول كأنهن سيول
طويت لها الدنيا فأبعد ما انتحت
يفزو أديم الارض من صهلانها
فصهيلها محض الثناء وان يكن
تثنى على الملك الذى أيامه
عم البسيطة ملكه فكأنه
جهل النصارى انه الملك الذى
اهل الجهالة هم فكيف الوهم
الى أن يقول :

غصت بهن سبابس وهجول
دان وأبطأ سيرها تعجيل
مثل اسمها حتى تكاد تزول
لا يفهم الاتوام منها صهيل
سنر على هذا الورى مسدول
سيل على كل البلاد يسيل
يرث البلاد وعذرهم مقبول
وعلمت أن الطبع ليس يحول

فعموت عفو القادريين نكرما
شكر البلاد مع العباد خليفة
لو ننطق المهدبتان (2) لقاتنا
بالامس يملأ سمعها ناقوسهم

عنهم وعفو القادريين جميل
هو بالبلاد وبالعباد كفيل
فى الشكر ما لا يدرك التحصيل
واليوم يملأ سمعها التهليل

فهذه القصيدة مدوية هادرة، زادت جلجلة هذه اللام المضمومة المسبوقة
بالردف فى قافيتها : هجولو، تعجيلو، تزولو، صهيلو الى آخرها وفيها هذا الوطل

(1) هنيذة مائة من الابل لا تدخل عليها أداة التعريف نهى علم حنيس لا تصرف . والشاعر
الجرأوى يشير بقوله الى قول جرير فى مدح يزيد بن عبد الملك :
أعطوا هنيذة يحدوها ثمانية ما فى عطائهم ممن ولا سرف
أنظر ادب الكاتب لابن متيية .
(2) يريد المهدية التى اخنطها المهدي أولا والمهدية الثانية التى اخنطها بعدها الى حابها
وحمل بينهما قدر طول ميدان كما فى معجم البلدان .

الناشيء عن اشباع حركة الروى وهو الواو بعد تلك الضمة ، كما راينا ،
وكما نجده في اللامية المنسوبة للسؤال :

اذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

ففيها نجد الكلمات : قليلو ، كهولو ، ذليلو ، الى جانب أخواتها
وهى ترن رنيناً حاداً مزعجاً ، يناسب موضوع القصيدة من الفخر
وذكر الأمجاد ، وكذلك قصيدة الجراوى ، وهى تصلصل بنواقيس الظفر
والنصر ، وتدق طبول الفتح والاستيلاء والبنود خافقة والابطال منتشية
متدافعة ، أما تلك التى قالها قبل أنجاز الفتح ، فكانت لهجة الاعتبار والاعتاض
تقدمها ، فى هدوء صامت وتفكير مسنفرق .

كانت محل أناس قبلنا فخلوا عنها وآثارهم فيها مقيمات
وكذلك ان صارت لنا محلاً ، فسجلو عنها ونخلف بها آثارنا « تلك
أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » . ويكفى من قصيدتنا ، البيتان
فى مطلعها :

لمن الخيول كأنهن سيول غصت بهن سبابس وهجول
طويت لها الدنيا فأبعد ما انتحت دان وأبطأ سيرها تعجيل
فما كان أجدر بالشاعر ان يثاب عليها وحدها ، كما اثيب قبله الشاعر
السمعاني ، على بيته :

ما هز عطيفه بين البض والأسل مثل الخليفة عبد المومن بن على
ولكن عبد المومن لم يذكر فيهما ، فلم يوهى الشاعر بالاختصار عليهما ،
فكان لابد من الاستمرار حتى البيت :

تنشى على الملك الذى ايامه ستر على هذا الورى مسدول

وهذه القصيدة تنظر الى قصيدة لابن هانئ الاندلسى يمدح بها
المعز لدين الله الفاطمى بمناسبة انتصاره على الروم ، ومطلعها :

يوم عريض فى الفخار طويل ما تنقضى غرر له وحجول

وهو ينظر فيها الى قصيدة المتنبي في سيف الدولة ، ومطلعها :

ليالى بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل

اما قصيدتنا ففيها الابيات الآتية :

انك الذى ترث البلاد لديهم جاءوا وحشو الارض منهم جفيل خاضته أوظفة السوابق فانتهى فلتعلم الاعلاج علما ثاقبا وليعبدوا غير المسيح فليس فى اهل الفرار فليت شعرى عنهم رجعوا فابدوا ذلة وضراعة فاذا قبلت غمنة مشكورة وليسمن صليلها فى هامهم وليلغن جياذ خيلك حيث لم نوراءهم حيث انتحوا وامامهم ورعية هداى عدلك فوقها والوصف يمكن فيه الا انه ترد العيون عليه وهى نواظر غامرته فعجزت عن ادراكه	فالارض فال والسجود دليل لجب وحشو الخافقين صهيل منهن ما لا ينتهى التحجيل ان الطليب وقد عززت ذليل دين الترهيب بعدها تأميل هل حدثوا ان الطباع تحول والى الجبله يرجع المجلول لك ثم انت المرتجى المامل ان كان يسمع للسيوف صليل يلغ صباح مسفر وأصيل تطوى بهن تنائف وهجول سنر على مهجانهما مسدول لا يطلق التشبيه والتمثيل فاذا صدرن فانهن عقول لكنه بضائرى معقول
--	---

وهذه قصيدة للجراوى كان أنشدها سنة 556 وقد انتصر الموحدون

فى موقعة « فحس بلقون » على النصارى (1)

أعليت دين الواحد القهار ورأى بك الاسلام قرة عينه وسلكت من طرق الهداية لاحبا وجرت معاليكم الى الامد السدى وقفت على ما قد أردت سعادة لا نخلق الايام جدة ملككم	بالشرفية والقنا الخطار وغدت بك الغراء دار قرار طوبى لمن يمشى على الآثار بعدت مسافته على الاسفار وقفت عليها خدمة الاقدار ابدا ولا تبلى على الاعصار
--	--

(1) يقول « هوسى ميرندا » فى هذا المكان انه غير معروف لديه .

لا غرو أن كنت الاخير زمانه
وافيت اندلسا فأمّن خائف
وحللتهم جبل الهدى فحللتهم
جبل الهدى والفتح والنصر الذى
لوبدلوا اقدامهم بقموا دم

ثم يقول :

لو راء (2) موسى ما فعلت وطارق
اتممت ما قد املوه ففاتهم
بعراب خيل فوقهن اعارب
اكرم بهن قبائل اقلالها
وانظر اذا اصطفيت كتائبها الى
لو انها نصرت عليا لم ترد
هم اظهروه مع النبى وواجب
ملك الملوك لقد انفت الى العلى
انت السبيل الى النجاة فكننا
وجريت فى نصر الاله الى مدى
قد ضاق ذرع الكفر منك واهله

فالفضل للأصال والاسحار
وسمى لأخذ الثار رب الثار
منه عقود عزائم الكفار (1)
سبقت بشائره الى الأمصار
طاروا عن الاوطان كل مطار

زريا بما لهما من الآثار
من نصر دين الواحد القهار
من كل مقتحم على الاخطار
فى الحرب يغنيها عن الاكثر
ما تحمد الكتاب للاسطار
خيل ابن حرب ساحة الانبار
أن يتبعوا الاظهار بالاظهار
ونظرت من فوق الى الاقدار
لولاك كان على شفير هار
يكبو وراءك فيه كل مجار
بهوفق الايراد والاصدار

انها كانت قصيدة جزلة صاخبة استمد الشاعر فيها كثيرا من أبى
تمام، وبقي أن نذكر أنه الى جانب هذا تبدو على القصيدة المسحة الشيعية
فى مثل قوله :

لو انها نصرت عليا لم ترد
ثم يقول :

هم اظهروه مع النبى وواجب
ثم يقول :

اخليفة المهدي دمت مؤيدا بالله منتقما من الكفار

(1) حللتهم الاول من الطول ، وان كان معناه فى الاصل لا يختلف عن الثانى ، لكن لما حذف
منعوله « الرجل » أصبح لازما فكان مصدره الفعول (باطراد كمدا) وما بعده طرف مكان
(2) لغة فى رأى . والابيات واردة فى البيان المغرب .

وهناك شيء آخر له دلالة التاريخية وهو أن هذه الواقعة انتصر فيها أولئك العرب من قبائل بنى هلال وغيرها لأنه يقول فيها :

بعراب خيل فوقهن اعارب من كل مقتحم على الاخطار
اكرم بهن قبائلا اقلالها في الحرب يغنيها عن الاكثار
وكما اشرنا فانه في هذه القصيدة ينظر الى قصيدة أبى تمام :

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة منكم والله قد اوصى بحفظ الجار
ومنها :

موتورة طلب الاله بثارها وكفى برب الثار مدرك ثار
وبعد ما عرضنا نماذج من أمداح الجراوى فى الخليفة عبد المومن ابن على ، نتصل بشعره مادحا لابنه يوسف وهنا لابد أن نقول ان شعر الجراوى قد تحول فى لهجته كما عهدناها من الجزالة والصخابة واستبدلها بلهجة أخرى ، كما سنرى ذلك ، فان الشاعر الذى يربط نفسه بركاب الامداح ، لا يريها ، قلما يكون شاعرا يخلص لفنه ويصطبغ بلونه ، بل هو فى الواقع تاجر يتأجر ببضاعته التى لا يراعى فيها الا ما يطلبه الناس فاذا انصرفوا عن صنف منها وطلبوا غيره ، انصرف هو كذلك عنه وطلب غيره للناس هؤلاء والا افلس وبارت بضاعته ، ودخل فى خبر كان ، وكذلك كان الجراوى ، لا يريد أن يدخل فى خبر كان ، بل روج بضاعته فى سوقه التى ظلت له يعرض فيها مدة تربو على نصف قرن من الزمان ، فكان عليه ان يلائم بينها وبين أذواق طالبيها ، بكل ما وسعته الحيلة وأسعفته القدرة كان عبد المومن ماخوذا بالعظمة والصلصلة النى يقول فيها : « بمثل هذا تمدح الخلفاء » ، أما ابنه فكان فيلسوفا ، دقيق الحس ، فلم يوخذ بذلك كله ولم تعجبه تلك الاصداء التى كانت منبعثة عن ابن هانئ مدوية فى شعر الجراوى ، كما لم تعجب أشباهها الفيلسوف أبا العلاء فقال فيها « رضى نطحن قرونا » ، بل وجدنا ملكنا أو خليفتنا المتفلسف ، ينقطع الى فلاسفة الاندلس ، ويخذ الى شعرائها ، وعلى رأسهم أبو عمر ابن حربون ، شاعر المعانى العميقة والاساليب الرقيقة ، فأصبح شاعرنا الجراوى مضطرا الى تغيير

بضاعته ، معلنا عن أمعاضه في بعض المناسبات ، كما سنرى .

والحق أننا لا نعرف شاعرا ، لم يكد يشعر الا لغيره ، كما عرفنا أبا العباس الجراوى ، وبهذا لا نستغرب أن وجدنا في شعره الآن تحولا ، وأول ما نجد ذاك في قصيدة له قالها سنة 564 بمناسبة استرداد بطليوس، ورد فيها ما يلى :

نظر بكل سعادة مقرون تقديم من شهد الوجود بأنه عائق ثمين زينت الدنيا به تغزو المهابة عنه كل معاند وتشعب حيث توجهت عزيماته ان أصبحت رهين البرامك أمة من قيس عيلان الذين سيوفهم دانت له في الفخر كل قبيلة وكفاهم أن كان منهم مفخرا ملك اذا اضطرب الزمان مخافة القى على أهل الضلالة كل كلا وجرى الى الامد الذى لم يجره ومن العجائب ان وجود بمثله حمال ائقال الورى متهلل في راحتيه لمعتف ولعتد عذرا ابا يعقوب ان علاكم لا يبلغ المنثور بعض مآثر كم مدحة لك بعدها مذخورة لو لم يسد الا نظيرك لم يجز قد كان ما قد قلت يرقب حينه ما زال أمركم الذى هو عصمة	نالت به الدنيا المنى والدين ما زال بالتقديم فيه قمين وافاءه علق الملك وهو ثمين ولو انه اشتملت عليه الصين حربا كما وصفت لنا صفين في ظلمها فحسامه هارون أبدا تصول ظلماتها وتصون من شأنها الا تكون تدين معنى الوجود وسرها المكنون لم يعيه التسكين والنامين فلهم عويل تحتته وأنين ملك ولم تصعد اليه ظنون للخلق هذا الدهر وهو ضنين في حيث تعترض الحتوف الجون يومى ندى ووغى منى ومنون قد أفنت الأمداح وهى فنون ترضى لك العليبا ولا الموزون تزن المدائح كلها وتزين فيه الامين مدى ولا المامون حتى أتى ولكل شىء حين والعز لا يعوده والتمكين
---	---

فهو في هذه القصيدة لم يتخلص تماما من لهجته الاولى ، وكأنه أحس بعجزه ، فاعتذر الى الخليفة ، ولم نره يعتذر فيما سبق لأبيه ، وكان هذا

ما تقضى به طبيعة النشوء والارتقاء ، ولا شك أنه نظر في القصيدة الى ابن هانىء أيضا ، وهو يمدح المعز بقصيدته :

هل من اعقة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين
وهذا النظر واضح في الابيات التالية :

هذا معد والخلائق كلها	هذا المعز متوجا والدين
هذا ضمير النشأة الاولى التى	بدا الاله وغيبها المكنون
لو ان هذا الدهر يبطش بطشه	لم يعقب الحركات منه سكون
الطالبان المشرفية والقننا	والمدركان النصر والتمكين
القت بأيدي الذل ملقى عمرها	بالثوب اذ فغرت لها صفين
أو لم تشن بها وقائعك التى	جفلت وراء الهند منها الصين
ورمى الى البلد الامين بطرفه	ملك على سر الاله امين
لم يدر ما رجم الظنون وانما	دفع القضاء اليه وهو يقين
لم تسكن الدنيا فواق بكية	الا وانت لخوفها تامين
لك حمدنا لا أنه لك مفخر	ما قدرك المنثور والموزون
الله يعلم ان رايك فى الورى	مامون حزم عنده وامين

ولعلنا قد لاحظنا صورة مكررة فى قوله :

وجرى الى الامد الذى لم يجره ملك ولم تصعد اليه ظنون
مع ما سبق له فى قوله :

وجريت فى نصر الاله الى مدى يكبو وراعى فيه كل مجار
فالشاعر المتكسب بشعره كان من أولئك النفعيين — وما أكثرهم فى زماننا — يدور مع أحداث الزمان ، كيفما دارت ، ولا يستغرب هذا من مثله وكان تكلفه أوقعه فى هذا السخف :

« حمال أثقال الورى متهلل » فإى ملك يحتمل هذا الوصف البدوى الغليظ الذى ان احتمل من الخنساء فى أخيهما فهو هنا كبوة وقع فيها الجراوى محاولا التأنق على ان الخنساء جعلت أخاها يحمل الوية الحروب . فذاك « الحمال » للألوية يختلف عن الحمال للانتقال .

وقال فيه بمناسبة جوازه للاندلس ، ودخوله الى اشبيلية ، على هيئة
حافلة قصيدتين يقول في الاولى :

حللت من العلى اسمى ذراها	وجاريت النجوم الى مداها
وواليت السباح فقد تناهت	أمان للعفاة وما تناهاها
وجودك نعمة لله عمت	وجودك نعمة أخرى سواها
أرى ذاك الزمان وشاء الا	تقارن في الامور ولا تضاهها
وصلت وصلت فالامواه تجرى	وغلب الاسد تخدر (1) في شراها
وعذر الشمس لو حسدتك باد	لأن سناك أشهر من سناها
تنال المارقين بكل أرض	ولا طارت ولا نقلت خطاهها
لقد أخنى الزمان على النصارى	بوطء مؤيد صدعت صفاهها
وانصف بعضها الاسلام منها	وأدرك في العقوبة منتهاها
خطوب أذهلت عقل ابن سعد	وذادت عن لواظله كراهها
وقد كانت تشد بها قواه	فما لغبت قواه ولا قواها
يردد آه من أسف وحزن	وما تنجى من الغمرات آها
وهل يبقى وقد ففرت اليه	منيته المريحة منه فاهها
لقد ولى عن الخير اختيارا	ووالى اللات والعزى سفاهها
وآثر معشرا ضلوا سبيلا	فما عرفوا النبى ولا الالهها

يريد في الابيات الأخيرة محمد بن سعد بن مردنيس ، الذى خرج عن
ربقة الطاعة وتحالف مع النصارى وكان بلبس لباسهم ويقتدى بهم فتوجه
اليه اخوه الخليفة أبو حفص وتغلب عليه ، فأشار الى ذلك الجراوى في هذه
القصيدة ، التى صار يتأنق فيها باستعمال الجناس فى

وجودك نعمة لله عمت	وجودك نعمة أخرى سواها
وصلت وصلت فالامواه تجرى	وغلب الاسد تخدر في شراها

وهذا على سبيل اللف والنثر ، فوصلت من الصلة تناسبه الامواه
تجرى ، وصلت من الصولة ، يناسبه غلب الاسد نخدر فى شراها
والقصيدة فى نسجها تشبه قصيدة أخرى ، كان السيد أبو حفص قد بعثها

(1) فى البيان المغرب « تخدر » وهو تحريف لنخدر ، بالخاء المعجمة والذال المهملة ، من خدر
الاسد فى عرينه لزمه .

فهذا الشعر نزل عن مستواه فهو أولى بأن ينسب الى معاصريه من
الاندلسيين المتأنيين في تصنيعهم وتصنيعهم أحيانا ، وان كانت الاخيرة تنظر
من بعيد الى قصيدة ابن هانيء في المعز ، ومطلعها :

الحب حيث المعثر الاعداء والصبر حيث الكلة السيراء
وقد سبق للشاعر أن استعان ببعض أبياتها ، مثل :

جهل البطارق انه الملك الذي أوصى البنيين بسلمه الآباء
فقال :

جهل النصارى انه الملك الذي يرث البلاد وعذرهم مقبول
ومثل :

أعزرت دين الله يا ابن نبيه فاليوم فيه تخمط واباء
فقال :

أعليت دين الواحد القهار بالمشرفية والقنا الخطار
ومن شعره فيه هذه القصيدة التي أنشأها بمناسبة انتصار يوسف
في معركة حارب فيها الملك النصراني فرندو البيبوج بن الادفونش احد
ملوك الاسبان سنة 569 :

عن امركم يتصرف الثقلان	وبنصركم ينقلب الملبان
وبما يسوء عدوكم ويسركم	تتحرك الافلاك في الدوران
جاهدتم في الله حق جهاده	ونهضتم بحماية الايمان
وتركت أرض العدى وقلوبهم	في غاية الرجفان والخفقان
وغزاهم الدين الحنيفى الذى	كتب الظهور له على الاديان
كتب الاله لكم فتوحا فى العدى	هذا لها وسواه كالعنوان
هذا مقام المصطفى بافوز من	حاز النيابة فيه عن حسان
من يعرف الرحمن حقاً يعترف	بحقوقه لخليفة الرحمن

فهذه أبيات ، اذا استثنينا البيتين الاولين منها ، وهما في مبالغتهما
معروفان للشعراء عامة ، لا ترتفع الى ذلك المستوى الشامخ الذى

عهدناه في أمداحه للخليفة عبد المؤمن . بل إن أسلوب الشعراء بعيد عنها وفيه الاقتباس القرآني نحو « وجاهدوا في الله حق جهاده » كما أن فيه من العبارات المتواضعة نحو « وقلوبهم في غاية الرجفان والخفقان » و « كتب الظهور له على الأديان » و « يعترف بحقوقه لخليفة الرحمن » وله كما يقول ابن عذاري من قصيدة أولها :

بسيفك صال الدين في الشرق والغرب ودارت على الأعداء دائرة الحرب
وأذعن نساء واستقام معاند ولأن قيادا كل ممتنع صعب

وفي المصراع الثاني من أولهما اقتباس « عليهم دائرة السوء » القرآنية. وللجراوى في الخليفة قصيدتان بمناسبة إبلاله من مرض يقول في الأولى :

ستملك أرض مصر والعراقا	وتجرى نحوك الأمم استباقا
إذا لم يتفق رأى ورأى	أفادا في محبتك اتفاقا
صفا لك كل قلب غير صاف	وزحزح عن ضائره النفاقا
وحقكم وحقكم عظيم	لقد حسن الزمان بكم وراقا
وقد بلغ الوجود بكم مناه	وقد أمنت عصا الدين انشقاقا
تبادرت الفتوح اليك تجرى	غرائبها وتستبق استباقا
أمير المؤمنين ومن عليه	سنا الإسلام يأتلق ائتلاقا
ويا ملكا أحنت كل أرض	الى أرض أقام بها اشتياقا
يحن اليك يوم غير آت	ويشكو الذاهب الماضي الفراقا
شكوت فأى قلب غير شاك	وأى العيش لم يمرر مذاقا
ولولا عطفة الإبلال كنا	بنار الوجد نحترق احتراقا

أبيات — على عمومها ، بسيطة في صورها ، وإن تخللها تصنيع البديع في نحو :

صفا لك قلب غير صاف

وهو في هذا من البساطة بمكان ، بحيث يمكن إبعاده من هذا الصنيع وفيها من الاقتباس القرآني الموجود في قوله تعالى « فلا أقسم بهواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ومن ناحية أخرى فإن تصوير الفتوح ، بغرائب الإبلال ، تجرى إليه

استقبلنا ، لا يستحق التنويه ، كما أن الامعان في المكان والزمان ، بحنين
أرض الى أرض يقيم بها الخليفة ، وحنين الايام المستقبلية الى ايامه ، وشكوى
الماضية من فراقه كل هذا عمل فيه تأنيق الصنعة ، التي صار شاعرنا
يمارسها ، ويجارى زملاءه فيها ، استجابة لاعجاب الخليفة بها ، كما
في قوله :

شكوت فبأى قلب غير شاك

وقوله أخيرا :

ولولا عطفة الإبلال كنا بنار الوجد نحترق احتراقا

وفي الثانية :

وسمت برجائكم الهمم	شملت ببقائكم النعم
هيئات نساجها الديم	وهمت ديم من راحتكم
تشقى بصوارمها العجم	وعنت لعزائمكم عـرب
بهم تنقاد لها البهم	أسد تنقاد الاسد لها
ولكم ذمت منها الشيم	حمدت شيم الايام بكم
وسماء العلم بها علم	بهرت أنوار خلافتكم
ووعى من كان به صمم	فراى من ليس له بصر
وأثى بغرائب الكرم	وأناف المجد على زحل
ولو أن مقالهم حكم	أعيا البلغاء مقامكم
فله بكم فخر عـم	العيد أحق بتهنئة
من صرف الدهر ويعتصم (1)	دمتم والكل يلوذ بكم

وقوله في أخرى بمناسبة قضائه على ثورة للاعراب (وهى من
الخبب كذلك لان الخليفة كان يعجبه ويقترحه كما في المعجب (2) :

-
- (1) من البيان المعرب كسابقتهما . ويلاحظ انه كرر في هذه معنى تقدم في أخرى بالبيت :
العيد أولى أن أهنيه بكم فعليه منكم بهجة وبهاء
فقال هنا البيت :
العيد أحق بتهنئة
(2) من ملحق « شاعر الخلافة » .
فله منكم فخر عـم

ببسيط العالم تعترض
ما ضر علاك وقد بهرت
شقى الاعداء وان حسبوا
وردوا غدران الغدر ولا
كفروا لما كثروا وزكيت
نعم رزقت نعماً فطفت
ما غرهم بهزبر وغى
أسد تنقاد له الآسا
تذكرو نيران حفيظته
فله من عزمته عدد
يلقى الإبطال فينقض ما
قدم دفع وطلّى بدد
يثق الأرضى بصحبته
نخر الاملاك وانت أبا
يمدون ولا يوفون بما
جهمت كفاك ندى وردى
أصفيت العيش فلا كدر
لو قلت بأنك أوفر من
لم تات بمشبهك ألياً
ما كذب فيك فراسته
ملك أنوار بصيرته
اثواب الدين به جدد

وعلى معبودك تعتمد
من يحجبه عنها الرمد
بمروقههم أن قد سعدوا
صدر عنهن لمن يرد
أموالهم ونما العدد
وبغت فأتيح لها الأسد
خلق الماذى له لبد
د كما تنقاد لها النقد
فيكاد يذوب لها الزرد
وله من نجدته عدد
عقدوا وينقض ما اعتقدوا
وظبى قد وقنى قصد
ان العلوى له مدد
يعقوب تجود بها تجد
وعدوا وتجود ولا تعد
فتصون يد وتصول يد
واقمت الدين فلا أود
أحد ما نازعنى أحد
م ولا ولدته ولا تلد
ملك للعالم منتقد
ومناقبه سرج تقد
وسبيل الحق به جدد

فهذه القصيدة بلغت ذروتها في حليتها البديعية وخصوصاً في التلاعب
بالالفاظ واللقابلة بين الاضداد ، وفيها اقتباس من نحو « ما غرك بربك
الكريم » ونحو « يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » وهى ظاهرة تعم
ما وجدناه من امداحه في يوسف الموحدى .

وفيها صور مكررة مع ما سبق في الاخرى :

« أسد تنقاد له الآساد كما تنقاد لها النقد »

مع قوله سلفا :

أسد تنقاد الأسد لها بهم تنقاد لها البهم
وهذه قصيدة أخرى له في نفس التاريخ ويذكر فيها بناءه لمنار الكتبية
— كما يبدو — (1)

أهدى اليك ثناء العرب والعجم
وأبصرت جودك الآمال فابتدرت
كفته أمر أعاديه سعادته
مستقبل العمر قد عاد الزمان به
لا غرو أن يتسمى غيره ملكا
ليس التقارب في الالفاظ ملتفتا
سطا وجاد أبو يعقوب فاعترفت
تبقى الفوارس والكتاب حائرة
غريبة لم يعاين مثلها زمن
أوفى الملوك وأكفاهم لمعضلة
والناس في الخلق أشباه اذا نظروا
جود أبر على الداماء والديم
الى همهم علي القدر والهمم
فنال مارامه فيهم ولم يرم
الى الشباب وقد أوفى على الهرم
فليس يلتبس المنكور بالعلم
يا بعد ما بين معنى البهم والبهم
له الملوك بفضل البأس والكرم
ان قط بالسيف او ان خط بالقلم
وندره لا تراها العين في الحلم
تعبي الكفاة وأهداهم الى القمم (2)
وانما اختلفوا في الخلق والشيم
الى أن يقول فيه :

بنى منارا على التقوى تطالعهم
وهد ما كان مبنيا على جرف
زهر الكواكب والافلاك من أمم
هار ولم يبن من تقوى على دعم

قالقصيدة على تصنيعها مقتصدة في التلاعب بالالفاظ ، كما في قط
وخط وأوفى وأكفا وهمم ورام ويرم والبهم والبهم
وفيه استغلال لاصطلاحات علمية مثل « المنكور والعلم » و « التقارب
في الالفاظ » و « الالباس » كما انه اقتبس في البيتين الآخرين من الآية
« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه
على شفى جرف هار » وهو يشير فيهما الى المسجد الذى بناه المرابطون
مكان الكتبية فهدمه الموحدون ، فجعله كمسجد الضرار عفى الله عنه

(1) من المصدر السالف .

(2) بالاصل « اللقم » ولا أرى له لياقة هنا

ثم انه ينظر في قوله : « ليس التقارب في الالفاظ ملتفتا » الى ما سبق لابن حبوس في قوله :

« ولبس اشتراك اللفظ يوجب مدحة » فالاشتراك اللفظي أحق هنا من التقارب اللفظي اذ لا تقارب فيه بين ملك وملك مما هو معنى في قوله : « لا غرو ان يتسمى غيره ملكا » بل التقارب المدعى انما هو في المعانى هنا .

ومن امداحه فيه قصيدة ذكر منها ابن خلكان بيتين في غاية التأنق قال فيه ابن خلكان « وهو بديع غريب » والبيان هما :

ان الامام هو الطبيب وقد شفى علل البرايا ظاهرا ودخिला
حمل البسيطة وهى تحمل شخصه كالروح توجد حاملا محمولا

فهذا وصف جعل الخليفة فيه « يحمل البسيطة » ومثل له بالروح احترازا منه لما سبق له من ذكره بحمال أثقال الورى فكأنه انتقد عليه أشد الانتقاد فكفر عن ذلك بهذا البديع الغريب .

وبعد عرض تلك النماذج من امداح الجراوى في يوسف بن عبد المومن ، نتصل به وهو على امداحه ليعقوب المنصور .

وامداحه لهذا الملك العظيم ، لا تكاد فيما عدا الفتوح يختلف في صيغتها المتألفة ، عن امداحه لآبيه ، كما أنها في مستواها السوى لا تكاد تختلف عنها ، وقد كان المنصور كأبيه ، قد ركن الى المدرسة الاندلسية ، فحظيت عنده ، وكان على رأس شعرائها أبوبكر بن مجبر ، الذى وجد الشاعر فيه مزاحما خطيرا ، وحاول أن ينال من فنه في عدة مناسبات ، ولكن المنصور وهو وزير آبيه كان يدرأ عنه تهجم الجراوى ، ويرفع من شأنه (1) وربما غض ضمنا من جانب الجراوى ، عند المقارنة به ، وبذلكم كان ابن مجبر في مقدمة الشعراء الذين ينشدون أشعارهم في شتى المناسبات التى كانت تتصل بهذا الخليفة ، فكان على الجراوى أيضا ، أن يأتى البيوت من أبوابها ، ويقتنص من شوارد الأساليب ما يطيب لممدوحه أو يقدم له من دواجنها ما يلذ له كذلك ، وهذا ما تصوره تماما ، هذه الامداح ، التى نأتى بها متدرجين في

(1) يذكر ذلك ابن الخطيب في الاحاطة وينعت الجراوى بالاعمى ولا نعرف هذه الصفة له الا من هذا المصدر وفيه أن أباه سر من صبيعه هذا .

عرضها تدرجا تاريخيا .

فمن أوائل هذه الأمداح ، القصيدة قالها بمناسبة ، دخول ابن غانية بجاية ، ثم انتصار جيش المنصور عليه بأسطوله الظافر :

وحزبك للاعداء عنك محارب
مبادىء من أحواله وعواقب
ودون سماء الملك شهب ثواقب
سفين السى استيصاله وكتائب
وموج المنايا مثلهم متراكب
وغرتهم جهلا بروق خوالص
ولم تره وجه الصواب التجارب
يرى حاضرا فى أمره وهو غائب
كما جمع الاعواد للنار حاطب
وأعرض عن وجه الهدى وهو لاحب
يطاعن عن ساحاتها ويضارب
ونصر أمير المؤمنين غرائب
مناو ولا ينأى عليه مناصب
بناج وهل ينجو من الله هارب
تناسبه فى حسنه ويناسب
ومرتبة بنحط عنها المراتب
ونورا الا لله تلك المناقب
وقد زاحمت منها السماء الذوائب
تقرر لها بالمعلوات المناسب
ولا عجب ان المزايا مواهب
تهزقنى منه وتنضى قواضب (1)

لواؤك منصور وسعدك غالب
لقد ثكلت أم المناوى وغررت
سما لاستراق السمع من وهداته
تلاقى عليه البر والبحر ترتضى
غريق بفرقى مثله متمسك
هوت بهم الاطماع فى هوة الردى
اطاعوا غويا لم تقيده شرعة
مغيب وجه الراى والوجه حائر
دعاهم الى آجالهم فتهافتوا
تصامم عن وعظ الزمان بقلبه
تخيل ان الناصريّة داره
وفى الغيب من انجاد طائفة الهدى
هو الامر أهر الله ليس يفوته
وما هارب منه ولو بلغ السهى
بناصرها المنصور تاهت خلافة
امام له فضل على الخلق باهر
مناقبه مثل الكواكب كثرة
هى الدوحة السماء فى الارض اطلها
له نسبة قيسية قرشية
حقيق بمبررات النبوة والهدى
بقيتم أمير المؤمنين وسعدكم

ففى هذه القصيدة نجده يستعين بما ورد فى القرآن ، كاستراق السمع واتباع الشهاب الثاقب ، الوارد فى الصفات والجن كما استعان بقوله تعالى ، فى هذه السورة « لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا »

(1) البيان المغرب

واستعان بقوله في سورة ابراهيم « اصلها ثابت وعرعرها في السماء » ، ونجد فيه تصنيعا بالتقسيم والمقابلة بين المعانى ، واللف والنثر ، والاحتفال بالالفاظ وزينتها كرد الصدر على العجز وفيها استغلال لتمثيل معروف وهو « تمسك غارق بفارق » كما أن فيها من الصور المكررة مع ما سبق قوله :

« هو الامر امر الله ليس يفوته مناو ولا ينأى عليه مناصب »
مع قوله في قصيدة أشرنا اليها :

الامر امر الله ليس يضره ما حاولت من كيده الاعداء
ولأبى العباس سيد الملقى المعروف بالجراوى أيضا ، من قصيدة له في عبد المومن افتتحها بقوله :

هو الامر امر الله ليس له رد يؤيده أيد ويسمو به حد
وامداد الجراوى للمنصور في مناسبات الانتصارات والتي تتصل بالفتوح ، يغلب عليها طابع أبى تمام على العموم ، وهو ما سيواجهنا في امداحه هذه ، فيما بعد ، ومنها هذه القصيدة التي قالها في نفس التاريخ بمناسبة تعظيم حجم الدينار الموحدى ، ويقول فيها :

بحد عزمك نال الدين ما طلبا	وأحجم الشرك عن اقدمه رهبا
وايقنت بلمة الاسلام أن لها	بك الظهور على الاعداء والغلبا
وأن كل بعيد عندها كئيب	ولو تطالب في أفلاكها الشهبا
وأن أمرك مستول على أمد	من السعادة فأت العجم والعربا
أن الخلافة نالت من محاسنكم	أوفى الحظوظ فنالت منظرا عجا
أعلى المراتب من بعد النبوة قد	حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصرا في ممالكه	حتى تدوخ منها خيله حلبا
الى العراق الى أقصى الحجاز الى	أقصى خراسان يلقي جيشه الرعبا
هو الذى كانت الدنيا تؤمله	وكل عصر له ما زال مرتقبا
هل ابن اسحاق الا كالذين جروا	الى مصارعهم من قبله خيبا
عن شر منقلب بجلى عواقبه	وقلما حمد المفرور منقلببا
راق النصار عيون النظيرين وقد	غدا اسمك المعتلى أعلاه مكتوبا

(1)

ما ارتاب مبصرها في كف ذاك وذا أن النجوم استحالت للورى ذهباً
نداك عم بنى الدنيا والبسهم في الشرق والغرب أثواب الغنى قشبا
خليفة الله رحماكم لمفترب ناء وما أن نأى دارا ولا اغتربا

وابن اسحاق المذكور في القصيدة هو ابن غانية، الذي خلف أباه على جزر
البليار ، ميورقة ومنورقة ويابسة ، ثم استولى على بجاية ، ثم حرك اليهم
المنصور السيد ابا زيد ، فاستقر ببجاية ، وقد تقدمت القصيدة التي قالها
في هذا الصدد .

ثم كان يمدحه بقصيدة يذكر فيها هزيمة ابن غانية والغز الاتراك معه ،
يقول فيها :

عدوكم بخطوب الدهر مقصود وامركم باتصال النصر موعود
وملككم مستمر ما له أمد موقت دون يوم الحشر محدود
لقى على كل جبار كلاكه كأنه وهو في الاحياء مفقود
راى الشقاء ابن اسحاق أحق به من السعادة والمجدود مجدود
وكيف يحظى بدنيا أو بآخرة وانه عن طريق الحق مطرود
أما درى لا درى عقبى عداتكم كل بحد حسام الحق محصود
لقى السلاح وولى يبتغى أمدا ينجيه وهو مروع القلب مفؤود
ما مر يوما بباب ظنه سبيبا الى التخلص الا وهو مسدود
وهبه عاش ليس الموت أهون من عيش يخالطه هم وتنكيد
أنحى الزمان على الأغزاز واجتهدت في قطع دابرهم أحداثه السود
ونازعتهم سيوف الهند أنفسهم فلم يفدهم عن الهيجاء تعريد
فهم على الترب صرعى مثله عددا ان كان يقضى بأن الترب معدود
انتم سليمان فى الملك العظيم وفى طول الهجد فى المحراب داوود
قد أبهج الدين والدنيا مقامكم وكيف لا وهو عند الله محمود
جارى مناقبكم شعرى فقصر عن بلوغ أدنى مداها وهو مجهود
من ليس معتقدا ايجاب طاعتكم فليس يفنيه ايمان وتوحيد

1) ورد فى البيان المغرب بيت غير واضح ، بل هو مصحف تصحيحا معضلا حذفناه هنا .

رضاكم الدين والدنيا وعدلكم
دمتم حباة مدا الدنيا ودام لكم

وهذه قصيدة أخرى قالها في المنصور بمناسبة انتصار جيشه على ابن
غانية في البلاد التونسية التي استرجع فيها قفصة ، يقول فيها :

فتح يطاول نعته (2) الاحتبابا
واستشعر المراق منه مخافة
وغدا به ما قد صفا من عيشهم
لله يوم الاربعاء فانسه
الى قوله :

وسع الموالي والمعادي حكمه
وسم ابن اسحاق على خرطوميه
طفح الشقاء باهل قفصة وارلقى
وانالهم اضرارهم من قبل أن
لم يفن عنهم اذ اتاهم من عل
طلبهم تحت التراب وفوقه
نالتهم رحمة الخليفة بعدما
آيات نصر بينات كلها
وسعادة عجب تهد قوى العدى
خصت اماما للبرية مجتبي
ملك عليه مسحة ملكية
بهجوا على الابصار بهجة يوسف
مدح الامام عبادة نرجو بها
ما سافرت اذهاننا في مدحه

في كل ارض رحمة وعذابا
خزيما ينال حديثه الاحتبابا
بهم شواهد صعبة وعقابا
راوا العذاب انابة ومنابا
ان يحرسوا الاسوار والابوابا
آجالهم فنولجوا الاسرابا
نادى الردى بنفوسهم واهابا
بهرت بما جاءت به الالبابا
هذا وتقصم منهم الاصلابا
برا تقيا خاشعا اوابا
لبس الزمان جمالها جلبابا
ويضئ داود بها المحرابا
عز الحياة وأن نفوز مأببا
الا وكان لها القصور ايابا

(1) المصدر السابق وان لم يرد فيه ، لبياض بالصفحة ، ذكر نسبة هذه القصيدة اليه ، بل
القارئ لهذا الجزء من البيان ، الذي كنا ضمن المشرنين على تحقيقه وطبعه ، يفهم أن
القصيدة لابن مجبر الذي تقدم شعره قبلها في الكتاب . ولكن ابن سعيد في « الفصون
اليانعة » ذكر من القصيدة أبياتا ناسبا اياها الى الجراوى . وفات هذا المصدر الاستاذ
الفاى فى بحثه « شاعر الخلافة الموحدية » .
(2) فى البيان العرب « فنحه » وكذلك أثبتة الاستاذ الفاسى . ولا نرى معنى له فاصلحناء
استظهارا منا واستثناسا بنحو قوله فيها ياتى « هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا »
وقوله « نقصر عن وصفه الرواة » .

لم يدرك حق مقامه من لا يرى من دون حق مقامه الاطنابا (1)

وبعد هذه تأتي قصيدة قالها في مدحه بمناسبة ظفره بالثائر الجزيري الذي ظهر بمراكش بمخارقه ونشر أراجفه بها ثم بفاس فالاندلس التي فتت به أوباش الناس ، الى أن قبض عليه بهرسية ، فأحضر الى اشبيلية حيث صلب بها ، فقال الجراوى من قصيدة طويلة (2) :

قضى لك الله بالتأييد والظفر مظفر ما لمفسرور يطائبه جد الجزيري في آتلاف مهجته نار من الفتنة العمياء أطفأها ما زال ابليس في الأقطار يوقدها زاد الشقى على الخفاش شبيهه جارى الى سقر أصحابه فهووا ان السذى اتخذ الاهواء آلهة والوعظ في الناس مقبول ومطرح	وبالسمادة في ورد وفي صدر في الارض من ملجأ عنه ولا وزر حتى تورط في ورد بلا صدر سعد الامام وحد الصارم الذكر وترنمى من شرار الخلق بالشعر ضعف البصيرة اذ ساواه في البصر فيها سراعا وواغاهم على الأثر على الضلال مصر غير مزدجر كالخط في الماء أو كالنقش في الحجر
--	---

وهذه الابيات أراها صادرة عن عفو خاطر ، لا تعمل فيها ولا تصنع ولا تصنع ، وهى على مستوى من الجزالة محمود ، ومثلها يشهد بصدق على شاعرية الشاعر ، مجردة من كل تمويه ، وبخلاف القول في أخرى قالها في نفس المناسبة ، وهى :

ما فى الحياة لمن ناواكم طمع عن كل قوس صروف الدهر ترشقه ما للمدو بما أعدته قبل غزاهم الرعب فى جيش بلا لجب دارت عليهم كؤوس الذل مترعة كل الممالك ملك خالص لكم	ان ند خوفا فى أحبولة يقطع فما له فى سوى التسليم منتفع ولا بغير انقياد منه ممتنع فأحجموا من وراء الدرب وانقمعوا تسقيهم جرعا من بعدها جرع وكل ممتنع طوعا لكم تبس
--	---

(1) كذلك وفيها اقتباس من قوله تعالى « سنسبه على الخرطوم » كما أن فيها اشارات قرآنية غير هذا كمحراب داود ووسع رحمة .

(2) كما يقول ابن عذارى فى البيان المذكور .

والبحر تعتمد الانهار موضعه فتلتقى في نواحيه وتجتمع
والشعر ان لم يكن في نفسه حسنا فما تحسنه الاصحاب والشيع
من رام وصفك مستوفى فغفلته يبدى ومن فهمه عند الورى يضع
اضحت علاك مكان النجم عن مدحى ما حيلتى وبلوغ النجم ممتنع (1)

فهذه الابيات عمد فيها أو اضطر الى تمويه بنحو « يا للعدو بما
اعدته » والى لوك الكلام بما تكرر منه لوكه ، كما في البيت الاول والبيت
الرابع ، وان كان الثانى والثالث تابعين للاول فهما من ذاك القبيل ، ثم
البيت السادس منه كذلك ، واخيرا البيت :

من رام وصفك مستوفى فغفلته يبدى ومن فهمه عند الورى يقع
فهو افصح بهذا العجز الذى يشعر به المتكلم فيلجأ الى تعظيم
القول فيه ، وأن وصفه فوق طاقة الانسان ، ويتبع هذا البيت الذى يليه ،
وان كان الاعتذار فيه على درجة من القبول ، كما قال المتنبي :

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلًا فقل
أما البيتان قبلهما فهما من قبيل ضرب الامثال المجردة لا خصوصية
لمحلها هنا أو في غير هذا المقام .

ونستمر في اشعار الجراوى التى قالها في يعقوب المنصور الموحدى ،
مسايرين فيها لاحداثها التاريخية ، ومنسباتها الزمنية فأولها هذان البيتان ،
قالهما الجراوى بمناسبة تأمر أخيه الرشيد وعمه أبى الربيع ضده سنة
584 ثم القضاء عليهما :

الدهر منى فى مديحك أفصح فعلام يتعب نفسه من يمدح
أنت المرشح للتى لا فوقها ان العظيم لمثلها يترشح

وكانه اخذ الاول من قول ابن زيدون :

الدهر ان املى فصيح اعجم يعطى اعتبارى ما جهلت فأعلم
وفى سنة 587 ، كان المنصور قد تأهب لاستخلاص غرب البرتغال ،

(1) المصدر السابق وكذا البيتان بعدها .

وفيه مدينة ثلب، من يد النصارى، فتم له ذلك، ثم عاد الى الحضرة مراکش
تخفق عليه بنود الظفر والنصر ، فتقدم الشعراء لمدحه ، وكان منهم الجراوى
الذى أنشده أبياته التالية (1) :

أياب الامام حياة الامم	توالى السرور به وانسجم
وجاد به الارض صوب الحيا	وجللى الظلام به بدر تم
فشكرا لخيّل وفلك دنت	بمستأصل الظلم ماجى الظلم
اذا حل فى بلدة امرعت	فطاب جناها وفاح المشم
وقام بأقطارها عدله	وصوب نداءه مقام الديم
اذا الخطب جيش نحو الورى	تصدى له عزمه فانهزم
سل الدهر عن بطشه بالعدا	تجب من وراء الدروب العجم
فتوح عظام جناها الزمان	لذى هم دونهن الهمم
نصحتكم ياملوّك الزمان	نصيحة من ليس بالمتهم
أنيبوا اليه ولوذوا به	تفوزوا وألقوا اليه السلم

والقصيدة تنظر الى قصيدة لابن برد ، فى مدح عمر بن العلاء ، وقد
اعجب بها المدوح ، فأجاز عليها بسبعين ألف درهم ، وهذا كاف فى حمل
الجراوى على النظر اليها ، يقول فيها :

فقل للخليفة ان جئته	نصيحا ولا خير فى المتهم
اذا ايقظتك حروب العدا	فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا يبيت على دمنة	ولا يشرب الماء الا بسدم
دعائى الى عمر جوده	وقول العشيرة بحر خضم
ولولا الذى خبروا لم اكن	لامدح ريحانة قبل شم

فهذا النظر واضح فى قوله :

اذا الخطب جيش نحو الورى

الى قوله :

نصحتكم ياملوّك الزمان	نصيحة من ليس بالمتهم
-----------------------	----------------------

(1) كذلك

واثر عودة المنصور اصابته وعكة فلما ابل منها قال الجراوى ، ضمن
المهنيين من الشعراء :

برء الامام حياة الخلق كلهم شكى فلا مقلّة الا اضر بها تجهّم الدهر لما ان شكا وبدا صحت بصحته الآمال وانتعشت اغاض عدلا على الدنيا والبسها وبث في كل اقليم هدى وندى لولا سياسته ما كان ملتئما والله يختص اقواما برحمته حاط الاله لنصر الدين مهجته	عم السرور به وانثالت النعم سهّد ولا قلب الا شفه الم ببرئه وهو طلق الوجه سبتسم وزاحمت زحلا في افقه الهمم نورا فلم يبق لا ظلم ولا ظلم فليس يوجد لا جهل ولا عدم شعب ولا كانت الاسباب تنظّم تجرى بحكمته الارزاق والقسم وعوفيت تلکم الاخلاق والشيم
---	---

وفي سنة 591 ، كانت الموقعة الكبرى التى انتصر فيها المنصور
بالاندلس انتصارا سار ذكره فى العالم الاسلامى ، بموقعة الارک فقال
الشعراء فى ذلك اشعارا كثيرة عمت الاندلس وكذلك قال الجراوى :

هو الفتح اعياء وصفه النظم والنثرا وانجد فى الدنيا وغار حديثه تميز بالاحجال والغرر التى وصيرت المرقى اليه صوارم	وعمت جميع المسلمين به البشرى فراقت به حسنا وطابت به نشرا اقل سناها يبهر الشمس والبدر كثير بها القنلى قليل بها الأسرى
واثره الصبر الذى لم تزل به لقد اورد الاذفونش شيعته الردى حكى فعل ابليس بأصحابه الالى اطارته شدات تولى اماتها واسلم مما ابلته جدوده من النيرات الزهر ضوعا ورفعته تعوذ بالركض الحثب من الردى راى الموت للابطال حويله ينتقى وقد اوردته الموت طعنة ثائر	حماة الهدى والدين سننزل النصرا وساقهم جهلا الى البطشة الكبرى تبرا منهم حين اوردتهم بدرا شريدا وانسته النعاظم والكبرا نجوم قلاع تزحم الانجم الزهرا وان لم يسموها سماكا ولا نسرا فلو سابق الارواح غادرها حسرى فطار الى اقصى مصارعه ذعرا وان لم يفارق من شقاوته العمرا

ولم يبق من أفنى الزمان حماته
حكمت أخت صخر في الرزايا نساؤهم
تضحضح في وقت من الدهر بحره
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا
يطير بأشلاء لهم كل قشعهم
فكيف رأى المفتر عقبى اغتراره
وكان يرى اقطار اندلس له
فسلاه يوم الاربعاء عن المنى
إذا عزلته الروم كانت نجاته
فتعسا له ما دام حيا ولا منى
بيمن الامام الصالح المصلح الرضى
معز الهدى عليه حامى ذماره
معان بامداد الملائك منزل
رأى السبل شتى فاتقاها تورعا
ومن قام للاسلام مثل مقامه
تحلى بصدق السر والجهر شيعة
له عسكر مجر من الصبر والتقوى
أغاث به الله البلاد وأهلها
يقصر فيه كل مثن وأن غلا
فلا زال بالنصر الالهى يقتضى
وللجراوى أيضا فيها :

وجرعه من فقد انصاره صبيرا
كما قد حكى أبطالهم في الردى صخرا
وقد ضاقت الآفاق من فيضه دهرا
هشيما طحينا في مهب الصبى يذرى
فما ثنت من نسر غدا بطنه قبرا
وكيف رأى الغدار في غيه الغدرا
متى يرم لم يخطئ بأسهمه قطرا
فما يرتجى مما تملكه شبرا
وقد أحرقت جمر المنايا به غدرا
وكسرا له ما دام حيا ولا جبرا
نضا سيفه الاسلام فاستأصل الكفرا
يجير على أعدائه البر والبحرا
من المعتل الاسمى مناوئه قسرا
وسار على المثلى فيسر لليسرى
يكن شكره فرضا وأمداحه ذكرا
حباه بها من يعلم السر والجها
يرد على أعقابه العسكر المجر
وصير غايات الفنوح له ذخرا
وأجرى السى أقصى نهايته الفكرا
بشائر يحصى قبل احصائها القطرا (1)

جاء الزمان به اغر محجلا
من كان فيها مجملا ومفصلا
الا اذا بلغوا السماك الاعزلا
راع الجزيرة ذكرها والموصلا
كالطير ظامئة ببادر منهلا

فتح مبين جل أن يتخيلا
بهرت عجائبه الخواطر فاستوى
لا يبلغ البلغاء غاية وصفه
دهت النصارى بالجزيرة وطأة
بكرت مصارعها العداة سريعة

(1) فيه نظر الى قول المتنبي :
تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره طو خلائقه شوس حقائقه
وهذه القصيدة وردت ابيات منها في البيان وذكرت كلها في الملحق المذكور .

وشقوا بيوم أوحد في جنسه
ناهيك منه انارة وان اغتدى
ما كذبت حملاتهم لكن رسا
واستحقروا وطأتهم لما دهوا
عدد المصرع منهم عدد الحصى
كم أجدل منهم أدل بباسه
جاعوا أسودا لاتنهه فائثوا
والصبح لم يطل على جنح الدجى
نهد الامام اليهم في ساعة
في جحفل لجب كأن جموعه
في السابقين الاولين كانهم
سابت اكفهم السيوف غمودها
من كل ذمر يمتطى من طرفه
فكأن صارمه وهامسات العدى
جمع ابن ريمند فكف جملحه
خافت بوارده المصادر حيرة
طاحت به هفواته والماء لا
ردت معالمه الخطوب مجاهلا
وتفرقت ايدى سبا اشياعه
لا نوا بشم جبالهم من زاخر
اجلاهم رعب اطار قلوبهم
خاموا وراء النهر حتى انهم
القت بين فيها المعازل طاعة

ومنها :

يا مورد الآمال بحر نواله
ومجرد الأفهام من صدا العمى
لما رجوت الله بلغك المنى

فاتت مناقبه الزمان الاولا
في أعين الكفار ليلا الريلا
قدامها اهل البصائر اجبلا
بأشد من وطىء الزمان واثقلا
هيهات أن يحصى وأن يتحصلا
ما هم أن ينقض حتى جدلا
يحكون في الحرب النعام المجفلا
من أفقه متجليا حتى انجلي
عز الحق بها فبز المبطلا
هضبات رضوى أو شواهي يذبلا
اسد تربب في الغباب الاثبلا
وكسا مجالهم السماء القسطلا
بحرا ويحمل في الحمائل جدولا
كف تدرج في الصعيد الحنظلا
عزم لو اعتمد الرواسى زلزلا
وعمى وكان القلبى الحولا
بد له من أن يفيض اذا غلا
وصفاه كدرا وجدته بلا
لا يعرفون من البسيطة مؤثلا
متلاطم الامواج قد ملأ الملا
واراهم معنى التخلص مشكلا
ظنوه مسلولاً عليهم منصلا
وانابة عجا لها ان تعقلا

عذب الموارد سلسبىلا سلسلا
ومفتحا بما كان منها مقفلا
واثابك الفتح الهنى الا عجلا (1)

(1) وردت في الملحق المذكور .

وهى قصيدة لا تقل جزالة عما قبلها — كما رأينا — وفي كلتا القصيدتين ،
لم يفتتح بخطاب الخليفة وتعظيم شأنه والتفويه بأعماله ، بل واجه الحادث
الخطير بادية ذى بدء ، وصار يشيد به ويكبر من أمره ، ويبذل في وصفه
طاقته ، ويفصح بكون اللسان عاجزا عن تصويره ، وبعد ما يشيد بأبطال
الاسلام ومواقفهم الخالدة في ذلك الجهاد ، يتصل بوصف المنهزمين من
اعدائهم ، ويبالغ في ذكر انهزامهم واجفالهم .

ثم يتصل بالخليفة المدوح ، فيذكر ابلاءه في الموقعة وما حشد
من رجال أبطال شداد ، وأنهم بجموعهم كالجبال المتراسة ، يحملون سيوفها
لا يغمدونها ، ويجولون بأفراسهم التي يحجب السماء غبار سنابكها .

ويتعرض للخصم فيصور جبورته وكبريائه فيما قبل ثم ذلته وخضوعه
فيما بعد ، وتفرق رجاله عنه أيدي سبأ ، فهم يجدون في الفرار ويقطعون في
ذلك الجبال ويخوضون الانهار .

وأخيرا يعود الى الخليفة ، فيمدحه بالجود المحقق للآمال ، وبالهدي
الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويبصرهم بعد العمى ، ويفتق
الافهام بعد قفلها ، وأنه لما توكل على الله حقق له النصر والظفر على
الاعداء .

ونلاحظ ان القصيدة فيها حس من لامية ابن حبوس التي مدح بها عبد المومن ،
وكان الجراوى حاضرا في ذلك الموقف ، وان لم يذكره عبد الواحد ، وقال
في الموقعة التي سبقتة ، كما تقدم ، اول شعره

على أن هذا الحس لا يشتد الا في بعض قوافيها ، والا فهي من الناحية
الفنية ، أجود من لامية ابن حبوس ، على اختلاف في الموضوع ، وفيها من
من الصور البيانية كثير من الجمال القولى ..

وبعد هذا يقول في حصار المنصور لمدينة طليطلة التي كانت قد اشرفت
على التسليم ولكن المنصور من على اهلها :

قد اصليت نارها العداة	وانجزت فيهم العداة
وعمهم بالدمار يوم	تقصر عن وصفه الرواة
في مشهد لا تزال تتلى	آياته وهى بينات

فتح مفاتيحه المواضى
ردت حمى الفونش مستباحا
ذلوا لأمر الاله قسرا
وغرقت جمعهم بحار
راوا لحزب الاله صبيرا
فحاولوا منهم انفلاتا
فلا تسئل عن بنات ماء

والعزيمات المؤيدات
بيض من الهند مرهفات
وهم أولو نجدة إبرة
امواجهها الخيل والكمة
والموت حفت به الجهات
وليس للخائن انفلات
ان صررت حولهم بزة (1)

وهذه قصيدة أخرى يبدو أنه مدح بها المنصور أيضا :

أدركت آمال الشريعة في العدا
وكففت من دون المدى جمحاتهم
وثنت عزائمهم عزائمك التي
وتضحضحت فرقا بحار جيوشهم
القوا بأيديهم مخافة صولة
واستسلموا إذ لم يروا تحت الثرى
ما جاءت الدنيا بمثللك ناصرا
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى
عم الورى عدلا وجودا فاغتنى
ما الجود مما كان في طبع الحيا
والنجم لو لم يسر في جنح الدجى
من حيث قابلت العيون جبينه
لم ترتو الأبصار من لائله
خلعت سريره عليه فاغتنى

وتركت نظم جموعهم متبهدا
من بعد ما راموا المزيد على المدى
أغنت عن الاسياف أن تتقلدا
لما أتاهاهم بحر جيشك مزبدا
تستأصل الأدنى بها والأبعدا
نفقا ولا فوق الثريا مصعدا
للدين منصور اللواء على العدا
وأعهم صفدا وأبعدهم مدى
هذا لهم ظلا وهذا موردا
لكن رأى منه المواهب فاقتدى
ورأى دليلا من هداه ما اهتدى
حسبت سنه نيرا متوقدا
الا وعادت نحوه تشكو الصدى
متجملا منها بأجل مرتدى

الى أن يقول :

لا يعدم الاسلام منك حياطة
وأراك ربك في بنيك كفاية
كمل السرور بهم وتم وعمهم

ورعاية وحماية وتفقد
ترعى المضاع وتجمع المتبددا
فضل الاهى وخص محمدا

(1) البيان العرب .

اهنأ أمير المؤمنين بانجم والله خصك بالكمال وشاء أن
 يبقى على الايام أمرك سرمداً رؤيا لامركم العلى يعزّه
 تقضى وطول بقائه متجدداً أوصى الى فتمت غير مضرع
 لوصاية منه وغنى منشداً (1)

وهى قصيدة كما نرى متواضعة فى أسلوبها مكررة لعدد من صور
 غيرها السابقة . ومن المبالغات السخيفة فيها ما فى الايات العاشر والحادى
 والثانى عشر .

وبعد الخليفة المنصور كان الشاعر الجراوى فى ركاب الخليفة محمد
 الناصر ابن المنصور الموحدى ، الخليفة الذى ظل ينشده اشعاره طيلة
 اربع عشرة سنة ، الى أن توفى قبل وفاته بسنة واحدة .

ومن الحق أن يسجل على شعره فى هذا الخليفة ، نوع من الفتور
 والنزول عن ذلك المستوى الذى كان فى أوجه أيام عبد المومن ، وفى لهجته
 الصاخبة ، ثم صار أيام يوسف يتألق تألق الاندلسيين المحيطين بذلك الخليفة ،
 وكذلك كان على عهد يعقوب قد جنح الى مسايرة الشعراء الذين كان
 المنصور معجبا بهم ، وكان على رأسهم ابن مجبر ، كما تقدم ، أما فى عهد
 هذا الخليفة ، فكان الفتور غالباً كما نجد فى هذه وقد بويح محمد .

لهجت بذكرك السن المداح أزرى نذاك بكل بحر زاخر
 هبت عليه عواصف الارواح بمحمد وزر الورى وبماله
 فى كل يوم ندا ويوم كفاح فرع سيحكى أصله ولقد حكى
 بمقاصد قد سددت وصلاح تأبى الخلافة من سوى اكفائها
 والجيد غير مقابل بمزاح عشيت بنوركـم البلاد فمن بها
 أغنى عن الاصباح والمصباح سكنت ببيعته القلوب ولم تزل
 تهفو من الاشفاق دون جناح عم السرور بها البسيطة كلها
 كالصبح فاض على ربى وبطاح

(1) من الملحق المذكور . ويؤكد كونها فى المنصور البيت السابع الذى يناظره قوله من أخرى فيه :
 بناصرها المنصور تاهت خلافة تناسبه فى حسنه ويناسب

لا زلت للاعياد تمنح بهجة يعرى سناها أعين اللماح (1)
وهكذا نشعر بفتور الشاعر في هذه الابيات وتكلفه بذلك الصور التي
طالما لاکها فيما سبق له وكذلك نجده يقول في أخرى بمناسبة هذه البيعة
من قصيدة طويلة كما يقول ابن عذارى :

صنع جميل جل عن ان يوصفا	نال الوجود به كمالا واكتفى (2)
هى بيعة احيا الاله بها الورى	وحما بها دين النبى المصطفى
سبقت قلوب الخلق أيديهم بها	ورجا الزمان بعقدها أن يسعفا.
كل يمد يد الضراعة راغبا	في نيلها مسترحما مستعطفا
جمعت صلاح الدين والدنيا معا	وغدا بها شمل العلى متألقا
ما من تقى مومن الا وقد	سرت له نفسا وهزت معطفا
لبى مناديهها بقلب مخلص	متبركا بحضورها متشرقا
أنسست مآثره مآثر يعرب	وسمت بقیس في العلاء وخندقا
فت المذائح فالبلوغ مقصر	ولو انه نظم الكواكب احرفا (3)
لازلت بالملأ العلى مؤيدا	ولصرف دهرک كيف شئت مصرفا

فهذه الابيات كليشى تطبع بها هذه المناسبات الرتيبة قلما نجد فيه
جديدا ثم يحاول أن يستوى فيقول هادرا في فتح منورقة عام 599 ، كما
في البيان لابن عذارى :

أطاعك صرف الدهر في مهج العدا	وأصدر عما شئت فيهم وأوردا
بعثت أمام الجيش جيش مهابة	أقامهم في كل أرض وأعدا
سعودك نبيل لو قصدت به السهى	لکان على بعد المسافة مقصدا
تركت بقايا السيف خلف حصاره	رمادا تهادته العواصف رمدا

- (1) وهى قصيدة تنظر الى سينية ابي تمام في أحمد بن المعتصم ، كما في هذه :
فرع نما من هاشم في تربة كان الكنى لها من الاعراس
بالمجتبى والمصطفى والمشتري للحد والحالى به والكاسى
- (2) تنظر الى قصيدة ابن هانيء في مدح المعز الفاطمى :
قد صار بى هذا الزمان فأوجفا ومحا مثيبى من شياىى احرفا
- (3) يشير الى البيت :
ليت الكواكب تدنو لى فانظهما
والقصيدة أيضا من البيان المعرب .

وأعمتهم عن رشدهم فسحة المدا
وفات مداه من أطال مقصدا
فكان أمير المؤمنين محمدا

جرى بهم الامهال شأوا مغربا
هو الفتحة أعبى من أطال مرجزا
تضى الله أن يحظى به أسعد الوري

وكذلك نجده يحاول أن يرتفع في أخرى قالها بمناسبة فتح ميورقة
واخذها من يد ابن غانية بنفس السنة كقوله في هذه الابيات :

فحسب أعاديك انقياد واذعان
ولا الاسد خفان ولا العصم ثهلان
فليس عليها للشقاوة سلطان
تمادى لها بالافك والزور اعلان
ليحسبها تجرى على الفكر انسان
مطيع لاحلام الكرى وهو يقظان
هلاك ومنجاة وربح وخسران
ومن حيث رام الحظ لاقاه حرمان
وكان له فيها مكان وامكان
الى نوب تنتابه وهى الوان
لقد طاح منه مارد الانس شيطان
ومن دونه عند الالباء سحبان
ولكن ذوو الاهواء صم وعميان
فأفرقتهم طغيانهم وهو طوفان
كانهم فى عالم الارض ما كانوا
على حالة لولا النبى سليمان
أثيحت عصا موسى له وهى شعبان
بملك به يزهى الوجود ويزدان
فيمن وأما حبه فهو ايمان
تخص به دون البرية عدنان
وفوز عظيم فى المال ورضوان
فأرضى المعالى منه حسن واحسان
فلله ما تعطى عيون وآذان

لك النصر حزب والمقادير اعوان
وما تعصم الاعداء منك حصونها
انابت الى امر الاله ميورقة
هنيئا لك الاعلان بالحق بعدما
غرائب سنتها السعادة لم يكن
فبعدا وسحقا لابن اسحق انه
سواء لديه من غباوة طبعه
فمن حيث رام العز جاءت ذلة
يرى الارض ذات الطول والعرض حلقه
ويهوى لقاء الموت لما أضافه
به لا بظبى بالصريمة أصفى
تصامم عن وعظ الزمان بقلبه
وكان له فيما تقدم زاجر
وهل هو الا من أناس تهافتوا
عصوا دعوة المهدي وهى سفينة
رغا فوقهم سقف السماء فأصبحوا
وما الجن ممن يروعى عن تمرد
ولما دهى من سحر فرعون ما دهى
لقد البس الله الخلافة بهجة
بأبلج أما شيم نور جبينه
تعم أياديه ولكن نجاره
مدائح في الحال عز ورفعة
تهلل وجهها واستهل أناملا
اذا ما تجلى أو جرى ذكر مجده

كان جميع الحسن خط بوجهه
اذا ما تروى ناظر من روائه
انا السابق المربى على كل سابق
وانى مع الاحسان عنكم مقصر
وما الشعر الا السحر غير محرم
وما كل نجم كالدرارى شهرة
سمودك من يرتاب فيها وللورى
كتابا له فى صفحة البدر عنوان
تمنى اليه عودة وهو ظمان
وللشعر ميدان رحيب وفرسان
ولو كان فى عونى زياد وحسان
والا فما تغنى قوافى وأوزان
ولا كلها فى رفعة القدر كيوان
عليها دليل كل يوم وبرهان (1)

وهكذا نجد الشاعر فى هذه القصيدة قد تأنق أبلى تأنق ، وبالى أقصى مبالغة ، وأبدأ وأعاد فى التمجيد والاشادة والتنويه ، فأفرغ كل ما فى جعبته من سهام الامداح التى طالما وجهها الى أغراضه ، طيلة نصف قرن تقريبا ، وانما لنحس به قد ركب الغرور بفنه فصار يبصق فى يده كالبحتري ويصيح ، مما يتفجر به ، فى الابيات الاربعة التى يتحدى بها ضمنا زملاءه فيقول انا انا ، وهذا شعرنا فدونكم الميدان فنتبارى ، والشعر هو السحر الحلال ولكن شعري عصا موسى « تلقف ما يافكون » واليكم البرهان ، فان كانت اشعاركم نجوما فشعري الدرارى منها وما كل قافية ولا وزن ، يضاهى القوافى والاوزان التى صفتها . ومع هذا يستعمل ذلك التواضع المصطنع فيظهر به أمام سيده :

وانى مع الاحسان عنكم مقصر
ولو كان فى عونى زياد وحسان
والحق انها عامرة ، بفضل ما فيها من نظر الى قصيدة ابن دراج التى قالها فى سليمان المستعين واستهلها بقوله :

هنيئا لهذا الدهر روح وريحان
وللدين والدنيا امان وايمان
وقصيدة له اخرى فى خيران العامرى ومطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران
وبشراك قد آواك عز وسلطان
وقد أدرك صفوان بن ادريس نظر الجراوى الى ابن دراج فى قصيدة له اخرى ، وكان نظره اليه فى البيت :

(1) القصيدة من الملحق المذكور الا البيت الاخير فهو من البيان العرب الذى اقتصر على ابيات ثمانية من القصيدة .

الا هل الى الدنيا سبيل وهل لنا سوى البحر قبر او سوى الماء اكفان

قال الجراوى فى تلك القصيدة :

وغدا على مشروعة رهن الردى فالجو قبر والهوى اكفان

وقد انطلى على بعضهم ، فاعتقد أن هذا البيت من بحر القصيدة التى نحن بصددھا ، مع أن هذه من الطويل وتلك من الكامل وبون بينهما (1) والملاحظ أن قصيدة الجراوى بدأت بقوله « لك النصر » وبدأت قصيدة ابن دراج فى خيران بقوله « لك الخير » فالبداية متشابهة .

وقال أيضا يهنئه بفتح منورقة :

شَاء الاله حمية الاسلام	فأعز نصرته بخير امام
بسمى خير الخلق والنور الذى	كفلت بدايته الى الانعام
جمعت ببيعته القلوب على الرضى	واستبشرت بمنال كل مرام
وصل السرور بها وصار مواصلا	للجد فى الانجاد والانهام
واعتز دين محمد بمؤيد	ماضى العزائم للشرعية حام
لولا انتظام امورنا بوجوده	لغدت مبددة بغير نظام
اضحت خلافته السعيدة للورى	وزرا من الاعداء والاعدام
نحر الزمان من الفتوح غرائبها	لزمانه المتهلل البسام
لا مثل فتح منورقة (2) فهو الذى	ابقى السرور لمنجد وتهام
مطلت به الايام حتى استنجزت	بسنان خطى وحد حسام
وبعزيمة مشهودة وعصابة	مشهورة التصميم والاقدام
جمع ابن غانية فكف جماعه	يوم ادار عليه كأس حمام
ناهيك من يوم أغر محجل	متميز عن سائر الايام
وعظت بمصرعه الحوادث عنوة	ناهيك من وعظ بغير كلام
فليهنىء الدنيا وجود خليفة	جزل المواهب سابغ الانعام
تغنيه عن قود الجيوش سمادة	تقتاد ما شاءت بغير زمام

(1) انظر مشاهير رجال المغرب حيث تحد « وله أيضا من قصيدة يظهر من صنيع صفوان أنها غير قصيدة الصابونى » فهذا « الاستظهار » ما كان الا لذلك « الانطلاء »

(2) بالاصل وكما فى « البيان المغرب » ميورقة ولكن المصحح من التاريخ أنها كانت « منورقة »

نيطت أمور الخلق منه بحازم
 سام الى الرتب التى لا فوقها
 ورث الخلافة عن خلائف كلهم
 لبست به الدنيا جمالا كنهه
 خير الاصول مشى على آثارهم
 ظهرت شمائلهم عليه ولم تنزل
 فكأنها دار السلام نعيمها
 يا عصمة الدنيا نداء مؤمل
 فارتقت ما قد كنت فيه كأنه
 فعسى أرى وجه الرضى فلطالما
 بالطبع حاجتنا اليك وهل غنى
 لازال سمعدك مسعدا متصرفا

متكفل بالنقبض والابرام
 نجل الاكابر من سلالة سام
 علم الهدى الهادى الى العلم
 اعى على الافكار والاهام
 خير الفروع وحاز أى مقام
 فى الشبل تظهر سيمة الضرغام (1)
 متابدد ودخولها بسلام
 صباحا يروحه من الايام
 طيف راته العين بالاحلام
 املت رؤيته مع الاعوام
 يلفى عن الأرواح للأجسام
 فيما تريد تصرف الخدام

ولاشك أننا لاحظنا على الابيات الاخيرة من القصيدة ، أن الشاعر
 صار يقصى عن البلاط وعن المجالسة بالسنوات الأخيرة (2) فتستولى عليه
 الالام .

وباستثناء النونية فما قلناه فى هذه الامداح، نقوله فيما تلاها، فهى لا ترتفع
 عن ذلك المستوى ، وتلزمه غالبا ، كما نجد فى هذه ، التى قالها سنة 604
 بمناسبة ابلال الناصر من وعكته التى أصيب بها فى مكناسة (بعد فاس)
 فعاد الى عاصمته ، وقد ارتدت اليه العافية ، فقال الجراوى :

اطلع البدر منك بدرا منيرا
 واتانا الزمان منك كمالا
 اول انت فى التقدم والسبب
 ملا الله كل قلب وعين

ملا السبعة الاتاليم نورا
 لم تشاهد له العصور نظيرا
 سق وان كنت فى الزمان أخيرا
 نضرة من كمالك وسرورا (3)

(1) هذان البيان غير واردين فى البيان ووردا فى الملحق الذى اقتصر على أبيات تسعة من القصيدة
 (2) بل ان بوادر ذلك ظهرت أيام المنصور حيث نجد الاشارة اليه فى قوله من قصيدة مدح
 تقدمت :

خليفة الله رحماكم لمقرب
 ناء وما ان نأى دارا ولا اغتربا
 (3) من قوله تعالى : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » .

- الى ان قال :

اين منك الملوك عزما وحزما	وندى فائضا وخيرا وخيرا
كنت في الغيب للخلافة اهلا	وخليقا بنيها وجديرا
شاء اسعادنا الاله تعالى	يوم تفويضه اليك الامورا
انما انت رحمة الله عميت	ساكنى الارض منجدا ومغيرا
اوجد الله منك للدين عزرا	ومعينا وناصرا وظهيرا

الى قوله :

يا امام الهدى ملأت جمالا	وجلالا عيوننا والصدورا
كل نور للشمس والبدر يبدو	انت اصل له ومنك استعيرا
دمت للدين عصمة وملاذا	ولاعدائه مبيدا ميرا

فهذه ان ارتفعت بشيء فانما هو تلك المبالغات التي يطرب لها المعجبون وقد تكررت مرارا فيما سلف من الامداح وكذلك الشأن فيما تلاها (1) كما قال في مطلع قصيدة طويلة يصفها بذلك ابن عذارى :

اضاء لنا بفرتك الزمان	والبسنا تقلبك الامان
وجاعتنا المنى متواليات	على نسق كما انتظم الجمان

وقال أيضا في مطلع أخرى طويلة كذلك :

شد الاله بكم للدين اركانا	وأذعنت لكم الايام اذعانا
وارتاض كل جموح في عنانكم	من بعد ما أعجز الرواض ازمانا

ومن شعر الجراوى في محمد الناصر ، قوله مرتجلا في وصف بعض ما أخضع من البلاد :

كانت من الشمس الصعاب فراضها	عزم فرض الراسيات وذلا
لبست حدادا من دخان حريقها	لها تخرم جمعها واستأصلا

هذه نماذج من أمداح الجراوى للخلفاء الموحدين ، ويمكن أن نلخص المثل العليا والافصاف التي ردها في ذلك بما يلى :

(1) وهذه الابيات واردة بالبيان .

الجود ، وهو عنده في المرتبة الاولى
السعد والاسعاد في جميع قصائده تقريبا
النسبة القيسية القرشية لهؤلاء الخلفاء
الفضائل لا يمكن أن يحصرها نظم ولا نثر
النور الذى تستمد منه الشمس والقمر
القدرة التى لا تعجزها النجوم لو طولبت منهم ، فالدهر فى ركبهم ،
والانس والجن والملائكة فى خدمتهم
الظفر والنصر يقدمهم والرعب من بعيد يقهر أعداءهم .

هذه هى العمدة التى اعتمد عليها مدحه الذى امتد نفسه طيلة خمسين
سنة أو يزيد ، وغالبها مطروق لشعراء المدح ، وفيهم — كما تقدم — ابن
حبوس ، الذى اعتمد على القدرة الفائقة والجود المفرط ، والفضائل عامة
بما فيها العلم ، لكنه لم يذكر قضية النسب القيسى ، الا عند هجو أبى
جعفر بن عطية ، ولا السعد والاسعاد ، أو النور الذى تستمد منه الشمس
وذكر الصفة الاخيرة فى قصيدته الجيمية ، حيث وجدنا ماجوج يشقى فى سده
ذعرا ورهبا منهم .

والجراوى يحتفل بالصور كثيرا كما نجد فى البيتين السابقين :
ان الامام هو الطبيب وقد شفى علل البرايا ظاهرا ودخلا
حمل البسيطة وهى تحمل شخصه كالروح توجد حاملا محمولا
بخلاف ابن حبوس المحتفل بالمعنى عموما ومن محاسن صنعه — كما
يقول ابن سعيد — قوله :

جادوا وصالوا وصادوا واحتبوا فهم مزن وأسد وأصقار وأجبال
ان سابقوا سبقوا أو حاربوا غلبوا أو يمموا وصلوا أو املوا نالوا
وقوله :

غزوا فما امتنعوا صالوا فما انتفعوا كروا فما دفعوا فروا فما فاتوا
ومن ناحية الاسناد ، فقد استعان الجراوى كثيرا بالقرآن ثم الحديث

والسنة النبوية ، على عكس ابن حبوس ، وركن الى الالفاظ أكثر من ركونه الى المعاني ، عكس ابن حبوس كذلك ، وكلاهما سخط على وضعيته التي انتهى اليها ، لكن هذا كان نثرا من الجراوى ، وشعرا من ابن حبوس ، وكلاهما هجا ، ولكن هجو هذا كان شخصا ، وهجو ابن حبوس كان من أجل السياسة وحدها وكلاهما يرتكب مبالغات لا يمكن أن تجد لها مبررا في ادعاءات الشعراء وتخريجات النقاد من جهابذة الكلام الادبى .

والعجب من الجراوى ، وهو فى شيخوخته ، ينظم عدة قصائد مطولة ، فى مناسبة واحدة ، وهى التهنة بابلال من مرض ، وكان عليه أن يأتى فى كل منها بشئ كثير او قليل ليس فى الاخرى .

واذا كان الجراوى قد زوحم بأبى بكر بن مجبر فى عهد المنصور ، فاننا نجده هنا قد زوحم بأبى زيد عبد الرحمن الفازارى الاندلسى كذلك ، وهو القائل فى هذه المناسبات ايضا :

شمس الضحى من سنا مراك مقتبس فأى قصد عليك اليوم يلتبس
وبهذا يبدو أن مدح الخليفة بالنور الوهاج ، الذى دونه نور الشمس ، كان مرغوبا فيه ، فأبدأ الشعراء فيه وأعادوا ، ولم يملوا بذلك .

هكذا كان الجراوى مداحا للخلفاء الموحدين ، أما فيما عدا ذلك ، من شعر ونثر فنى فنجد له فى الغزل بيتين قالهما وهو بتونس مجاريا غيره من الشعراء وهما : (1)

وعلوى الجمال اذا تبدى أراك جبينه بدرا أنارا
أشار بسوسن يحكيه عرفا ويحكى لون عاشقه اصفرارا

هذا ما حفظ للجراوى فى الغزل وهو أول ما نعرف عن شعراء المغرب فى هذا النحو منه بعدما عرف قديما فى الشرق ثم فى الاندلس .

أما الهجاء فقد كان الجراوى حطيئة عصره ، نال الناس بهجوه ، كما نال قبله بذلك الهجو ، فهجا من كبراء عصره القاضى أبا حفص عمر بن عمر الاغماتى وكان هجوه له يصل الى النيل من رجولته والخط من أدبه والشعر منه

(1) نفع الطيب بعد « زاد المسائر » لصنوان الذى جاء فيه انه استنطقه بذلك شاب بتونس .

على الخصوص ، اذ قال في ذلك (1) :

نبغت عمرة بنت ابن عمر هذه فاعتبروا احدى الكبر
قل لها عنى اذا ما جئتها قولة تترك صدعا في الحجر
هبك كالخساء في أشعارها او كليلى هل تجارين الذكر
فأجابه الاغماتى بأبيات مهذبة في ظاهرها ولكنها مقذعة في باطنها ،
مما تضمنه البيت الاخير منها وهجا الشيخ ابن الياسمين بقوله :

استت الحبارى ورأس النسر بينهما لون الغراب وأنفاس من الجمل
خذها اليك بحكم الوزن اربعة كالنعت والعطف والتوكيد والبذل
فلم يكتف أن يصوره تصويرا « كاريكاتوريا » حتى أضاف اليه الروائع
الكريهة .

وقال في هجو رجل كان اسمه خلوف :

زعموا ياخلوف أنك خلف صدقوا فيك من خلوف الوف
ولهذا دعوك بالجمع فردا جمع خلف بلاخلاف خلوف (2)

وقال في أهل فاس :

مثنى اللؤم في الدنيا طريدا مشردا يجوب بلاد الله شرقا ومغربا
فلما أتى فاسا تلقاه أهله وقالوا له أهلا وسهلا ومرحبا (3)

ولم يكن يكتفى بالهجو ، شعرا ونثرا ، بل كان طبعه يوحى اليه بالدس

(1) جاعلا اسمه عمرة ، بدل عمر ، مما جعل صاحب المشاهر يدعي أنه يريد بنتا له شاعرة
اسمها عمرة ، مع أنه يقصده نفسه بذلك ، كما يتضح من رد الاغماتى عليه بأبيات جاء
آخرها قوله :

بفاننا الحسود ولسنا كما يقول ولكن كما يعلم
بل هناك بيتان آخران من نفس القطعة صريحان في هذا القصد وهما :
قينة في فاس يدعى بعمير ذات حسن ودلال وخفسر
نصف السن ولكن نرتجى رد ما فات بتسويد الشعر
نظيها الفاسى عن الذيل والكلمة .

وفي الارهار أنه قال الابيات اثر انشاد الاغماتى ميميته الآتية في الخليفة يوسف .
(2) من زاد المسافر وقد علق المحقق عليه بأن المهجو هو ابوبكر بن خلوف أحد الفقهاء والمقرئين
الاندلسيين ناقلا عن التكملة في ذلك .

(3) ذكرهما ابن حلكا وذلك في ترجمة أبى يعقوب يوسف الموحدى كما ذكر فيها البيتين
اللذين نوه بهما .

والتعريض ، وهو في خفية عن الأبصار ، من ذلك أنه وجه الى الكاتب ابن عياش ، بأبيات حملها امرأة اليه ، بعد مقتل ابن الياسمين المذكور ، فلما قراها ابن عياش وجدها تعرض به هكذا :

هذا ابن حجاج تفاقم أمره وجرى وجبر لحد غايته الرسن
حتى غدا ملقى ذبيحا حاكيا للناس رقدته اذا هجر الوسن
فليحذر الكتاب ما قد غاله وأخص بينهم الفقيه أبا الحسن

وبهذا عرض وكان تعريضه مؤذيا بذلك الكاتب الذي كان يضاهى أبا جعفر ابن عطية في مكانته وسطوته وجاهه عند الدولة ، وبالرغم من من كونه بعث الأبيات مختفيا وراء الاستار ، فان ابن عياش عرف وجهتها ، وقال ، بعد ما سئل عن قائلها ، ياسبحان الله ؟ وهل صاحبها غير الكراوى ، الذى طبعه الله على أن لا يضيع فرصة من فرص الاذاية ؟ وكان ابن عياش مصيبا في هذه النسبة وقوله فيه يدل على شهرة الجراوى بالهجاء والاذاية للناس عامة ، وفيهم قومه ، كما سنرى بعد

وممن تعرض له من الكبراء ، ابن خيار الجياني ، الذى كان قد سعى في محنة ابن عطية الكاتب ، فقال فيه (1) :

ايا ابن خيار بلغت المدى وقد يكسف البدر عند التمام
فأين الوزير أبو جعفر وأين المقرب عبد السلام

ومن هؤلاء العظماء الذين نالهم بهجوه الوزير ابن يوجان ، فكان مما خاطبه به قوله (2) :

لقد كنت تحكى في التجهم مالكا وكانت بك الاحوال تحكى جهنما
فما أعظم البشرى بعودك خاملا وغيرك قد أضى النبيه المقدما

وهذا النوع من هجو رجال الدولة الكبار من كتاب ووزراء ، كان يتسم بالتذكير وسوء المنقلب ، كما تقدم في ابن عياش وابن خيار ، حيث ذكر الاول بذبحه ابن الياسمين ، وذكر الثانى بالمقرب ابن عبد السلام

(1) كما في « الغصون اليانة » ونسبها ابن ادريس في « زاد المسافر » لليكى الاندلسى الهجاء المفحش ولغيرها .

(2) الغصون أيضا ومات هذا المصدر الاستاذ الفاسى ، ويريد بمالك الملك المذكور في الآية « ونادوا يا مالك ليتض علينا ربك » .

الكومى الذى لقى مصرعه كذلك ، بعد ما كان حظيا مقربا لدى الخليفة
عبد المومن ، فلقى النكبة التى لقيها ابن عطية قبله مباشرة .

وأمداحه للخلفاء نفسها كان جانب كبير يعتمد على هجو خصومهم
كما رأينا فيما سلف .

أما هجوه لقومه بنى غفجوم ، فقولته :

يا ابن السبيل اذا مررت بتادلا	لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى	الا مجاوية الصدى لليوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم	لكنهم نشروا لواء اللوم
لاحظ في أموالهم ونوالهم	للسائل العافى ولا المحروم
لا يملكون اذا استبيح حريمهم	الا الصراخ بدعوة المظلوم
ياليتنى من غيرهم ولو أننى	من أهل فاس من بنى الملجوم

وهكذا نال من قومه ، وعرج على بنى الملجوم من فاس ، فأصابهم
في لمحة ، بكل مكروه ومذموم ، والغالب أنه نظر في سياقه هذا الى قول
الحماسى :

لو كنت من مازن لم تستبح أبلى	بنو اللقيطة من ذهل بن شياننا
اذا لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة ان ذو لولة لانا
لكن قومى وان كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر فى شىء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن اساءة اهل السوء احسانا
فليت لى بهم قوما اذا ركبوا	شنوا الاغارة فرسانا وركبانا (1)

وهذه الابيات كانت أول ما افتتح به أبوتام مختاراته الشعرية
للجاهليين وغيرهم ، وسماها « ديوان الحماسة » فقلده الجراوى ،
كما سنرى وفيما تقدم من شعره وجدناه قد استعان بأبيات من هذا الديوان .

وحينما نتناول بعد هذا لونا آخر من شعر الجراوى فهو اللون القاتم
الذى سبغ حياة الشاعر ، سبغتها الاخيرة ، وقد أكل عليها الدهر وشرب ،
وطال عليه الأمد ، وهو فى خدمة سادته الموحدين ، الذين كان فى ركاب
الاربعة الأول منهم ، عبد المومن ، فابنه أبى يعقوب يوسف فابن هذا ، أبى

(1) أما أبيات الجراوى دهمى فى نفع الطيب وازهار الرياض للمقرى وذكرت منها ثلاثة فى الغصون.

يوسف ، فابنه محمد الناصر .

كان الشاعر خلال هذه الحقبة الطويلة ، التي تمتد أكثر من خمسين سنة ، شاعر الخلافة ، كما سماه بذلك أبو بحر صفوان بن ادريس ، فكان لسان الدولة النطق في كل مناسبة ، والمسجل ، وحده لملاحمها وهاققها العديدة ، وهو ما لم ينتقد له مثيل ، في شعراء المشرق ، وليس له مثيل ، بالمرّة في شعراء الاندلس والمغرب ، خمسون سنة من القول ، تفنيه وتقضى على كل مداد يمهده ، مهما كان الانسان على قدرة خارقة للعادة ، ولكن الجراوى ، كان عليه ، أن يحقق المستحيل ، وأن يصمد للحوادث والاحداث ، بالرغم مما طرأ على موقفه من فتور ، يلوح لنا به في تلك القصائد التي قالها على عهد محمد الناصر ، بل وجدنا بعضا من ذلك حتى في عهد أبيه كما قلنا .

وفي هذه المرحلة ، نراه يلعن حظه العائر ، نثرا في كلمة ، قالها ، وهو يقارن بينه ، يوم كان مع عبد المومن ، بجبل طارق وهذا يطريه ، وبينه وقد انتهى الى أرذل العمر ، ولاصق أرذل الناس وسادتهم .

نعم في هذه المرحلة ، نصيخ الى الشاعر ، وهو ينشدنا في صوت متهدج كئيب (1) :

يا سيدى جاءتك رقعة شاعر	شهدت له الشعراء بالاحسان
لو أدرك النعمان في أيامه	لراى له فضلا على الذبيانى
أو كان يوما في بنى حمدان لم	تبهج بأحدها بنو حمدان
لكنه قد أدركته حرفة	أدبية مزجته بالعبدان
فقدأ مازة كل مصفوع القفا	صفر اليديين ممزق الأردن
فأذ نظرت الى قفاه حسبته	نبئت عليه شقائق النعمان

هذه النهاية التي بالغ في تصويرها ، هي النهاية التي كان ابن حبوس قد انتهى اليها ، الا أن الشاعرين مختلفان في طبعهما ؛ الشاعر ابن حبوس

(1) « زاد المسافر » أما كلمته النثرية فهي مذكورة في « الفصوص الياضعة » وفاب هذا المصدر الفاسى وهي بنصها « تعسا طول العمر الذى أخرنى لعاشرة هؤلاء الاندال ! وعهدى بالخليفة عبد المومن يقول لى في جبل الفتح : يا أبا العباس « انا نباهى بك أهل الاندلس » وهي كلمة قال مثلها المعز عن ابن هانى ، بالنسبة للمشرق .

سوداوى ثائر متمرد على القيم ، اذا كانت مثلها قد صدمته او وقفت حجرة
 عثرة في سبيله ، فهو اذ كانت كذلك يلقي عن عاتقه صخرة التحمل ،
 ويقذف بها على المجتمع ، بما فيه من خيرين وشريرين على السواء ، او
 ينسأب في غمرتهم ويداهنهم ويلبس جلدتهم اما الجراوى فيقف متضرعا حائرا،
 يستجدى طويلا ويستعطف ، وأخيرا يذرف عبرته ، وهو متحمل للهوان ،
 ظاهرا ، متلظ منه باطنا وتحسر على ما مضى ، مندما على ما وقع فيه ،
 ولا شك ان ذاكرته طرقتة ، بما لاقى النابغة من النعمان ، من هوان وبما لاقى
 المتنبي من الحمداني من حرمان وان تستر عنه ،، قالوا ان الابيات ، كانت له
 مع أحد المتبذلين ، ولكنها في الواقع لها أبعادها الحقيقية ، وبواعثها الداهية
 المريرة ، وكذلك القول ، في البيتين ، اللذين ، وقع بهما في أسفل قصيدة
 استجدها بها شاعر (1) :

يا من يجدى لمن يجدى أسرفت والله في التعمدى
 أنا أجدى الأناس طرا وأنت تبغى النوال عندى

الشاعر ، قالهما ، وقد أعوزته الحاجة ، وغاض معين النعمة التى
 كانت تفيض عليه ، من ذى قبل ، فأصبح آنذاك يستجدى الانام طرا ، فهذه
 العبارة في اللوحة الباهتة ، التى ترسمه ، شيخا محطم البنيان مهزق
 الاردان فقيرا صفر اليدين ، كما قال في تلك الابيات ، وذكرونا بما قال ابن
 حبوس عن الشاعرين ، اللذين عنى بهما نفسه :

بسطا الأيـدى حـتى منعما الطيـر الوقوعا
 واستماحا الشيخ ذا الكبـ مرة والطفـل الرضيعا

انها مأساة هؤلاء الشعراء الذين يتقدمون الى الافناء ، ويتخطون
 الاعتبار ، فيعلونها وهى تنزل بهم الى الدرك الاسفل فلا يجدون لهم نصيرا،
 لنفائتهم الذى كان جزاؤهم عليه جزاء وفاقا ، ولكونهم « يهيمون في كل واد »
 كما قال الله فيهم .

لقد قصر الجراوى مدائحه عليهم ولم يمدح غيرهم (2) ، كما فعل ابن
 حبوس الذى قصد بمديحه حتى من لم يسبق له معرفة به كابن الملح .

(1) زاد المسافر

(2) فيما نعلم وان ادعى انه صار يستجدى الناس طرا ، كما تقدم .

سوى هذه الموضوعات المتقدمة ، فللجراوى منظومة فى رثاء الحسين ،
والرثاء فى حد ذاته ، قليل فى أدبنا ، وأول ما يصادفنا منه هذه المراثية التى
أقامها الجراوى ، على مصاريع معلقة امرئ القيس ، بحيث جعلها مخمسة ،
بهذه المصاريع .

ومراثى الحسين بعد مضى الأزمان تقليد شيعى ، ما زال أصحابه
يقومون به ويحتلون المنابر لانشاد قصائده وخصوصا ليلة عاشوراء ، فى البلاد
المتشيعية ، بل كان هذا حتى فى غيرها ، وقد شاهدته بالقاهرة ، فى
سبعينيات هذا الرابع عشر .

أما تحويل مصاريع المعلقة الى هذا الموضوع ، فهو صنيع صوفى ،
حولوا به خمريات أبى نواس الى الذات القدسية ، كما حولوا غيرها
اليها ، والعلاقة بين التصوف والتشيع وثيقة ، وقد ألف فيها كتب حافلة .
وعلى كل حال فهذه مراثية الجراوى التى يقول فيها ، حسب الحروف
الهجائية التى أقام عليها المصاريع الأربعة التى تسبق مصراع التخميس ،
كما نرى :

خليلى دعوى برحمت بخفاء	ألا أنزلا رحل الاسى بفنائى
وهذا من الصبر الجميل بنائى	قفنا سعادانى لات حين عزائى
قفنا نباك من ذكرى حبيب ومنزل	
أيترك ربيع للرسالة سبب	تجىء به هوج الرياح وتذهب
ولا تنهمى فيه العيون وتسكب	وتظلع أعناق الذنوب وتذهب
يسقط اللى بين الدخول فحومل	
ديار الهدى بالخيف والحجرات	الى ملتقى جمع الى عرفات
مجارى سيول الغيم والعبرات	معرف هدى أصبحت نكرات
لما نسجتها من جنوب وشمال	
عذيرى من رزء بصبرى يعبث	ومن شائى فى عقدة الصبر ينفض
واى مصاب عهده ليس ينكث	كأنى اذا ما القوم عنه تحدثوا
لدى سمات الحى ناقت حنظل	
الا يا رسول الله صدرى توهجا	لمصرع سبط فى الدماء تفرجا
فعطلت جيد اليأس من حيلة الرجا	فتعسا لأقوام يريدون لى نجسا

يقولون لا تهلك اسى وتجمل
 على مثل ما امسى من الحب اصبح زناد فؤادى باللواعج تقدح
 ولو ان قلبى للتجلد ينجح لفاضت جفونى بالسواكب تطنح
 على النحر حتى بل دمعى محلى
 عهود مصابى امنى يد فاسخ ومحكمه لا يتقى حكم ناسخ
 فلو اشتكىه للنجوم البواذخ لعالت بنعى السبط صرخة صارخ
 فقالت لك الولايات انك مرجلى
 اقول لحزن فى الحسين تاكدا تملك فؤادى متبها فيه منجدا
 ولو غير هذا الرزء راح او اغتدى لناديته قبل الوصول مرددا
 عقرت بعيرى يا امرا القيس فانزل
 سهام الاسى هذا فؤادى فانفذى ففى المى بعد الحسين تلذذى
 ومن عبرتى والشكل اروى واغتذى ويا مقلتى من ان تشحى تعوذى
 ولا تبعدىنى من جنالك المعلى
 وركب اذا جاراهم البرق يعثر تذكرت فيه كربلاء فحيروا
 وغيداء لا تدري الاسى كيف يخطر بثثت لها بالطف ما كنت اضر
 فآلهيتها عن ذى تائم محول
 مجلى الاسى فى ملعب الصدر برزا وماطل ذاك الدمع وفى وانجزا
 وحاز الاسى من قلبى الصب مركزا فغاية هذا الحزن ان يتحيزا
 بشق وشق عندنا لم يحول
 غرائب فى عشواء ثكلى خابط وسهدى الى ورد المدامع فارط
 وللقلب فى مهوى الوجيب مساقط تعدت شجون فى القضايا قواسط
 على وآلت حلفة لم تحلل
 اما لعهود الهاشميين حافظ فبالطف يوم للرسالة غائظ
 على ثكله قلب الكريم محافظ فيامهجتى انى على السبط فائظ
 فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
 نجيع حفيد المصطفى كيف يسفك ورق بنيه بعده كيف يهلك
 فيما كربلا والكرب لى متملك ليكنيك منى ان ذكرك مهلك
 وانك مهبها تامرى القلب يفعل

أيا حسرتى يوم انتأوا وتحولوا الى كربلاء ماوى القلوب تنقلوا
 ليسبوا على حكم الضلال ويقتلوا فيارزهم صمم ومثلك يفعبل
 بسهميك فى أعشار قلب مقتل
 أيا فاسقا قاد الغرور شكائمه فأورد فى صدر الحسين صوارمه
 تهباً ليوم الحشر تجرع علاقمه فما لك منجى من خصومة فاطمه
 وما ان أرى عنك العماية تنجل
 تبرأ من قلب بلذته اعتنى وآل رسول الله فى شر مجتنى
 اذا ما اقتضوا وردا أحيلوا على القنا وعثرة حرب فى جنى روضة المنى
 غذاها نمير الماء غير المحلل
 عموا فى احتمال الرأس ياويح من عصى وخلوا حسينا فى الثرى متقمصا
 لكى يدركوا عند ابن حرب تخلصا كان سنا رأس الحسين على العصا
 منارة ممسى راهب مبتل
 فؤادى صرح بالجوى لا تعرض ويا دمع ذهب وجنتى لا تفضض
 ويا سهرى من طيب نومى تعوض فما عمر احزانى عليه بمنقض
 وليس فؤادى عن هواها بمنسل
 مصاب حسين رأس مال الفجائع فلا تك فى سلوان قلبى بطامع
 وقرطس بسهم العتب غير مسامع ثكلك من ناه عن الحزن وازع
 نصيح على تعذاله غير مؤتل
 الى الله من عبد على سيد بغى فغادره تحت العجاج ممرغا
 ينادى رسول الله فى أزمة الوغى اجرنى من باغ بعدوانه طغى
 علي بأنواع الهموم ليبتلى
 الا انه يوم على الطف آزف به نكرت لابن الرسول معارف
 وساعده قلب هنالك واجف فنادى ظلام الظلم والنحر راعف
 الا ايها الليل الطويل الا انجل
 ايا حادى المختار جلدى يمزق بعدوان قوم غيهم يتفرق
 وكيف تحن اليوم أو كيف تشفق قلوب عدى عن موقف الوعظ تزهق
 كجلمود صخر حطه السيل من عل

ايا امة الطغيان ما لكم حس على م بناء الدار ان هدم الاس
اترجون اصباحا وقد غابت الشمس وزل بكم عن دينكم ذلك الرجس

كما زلت الصفواء بالمتنزل

رويت وضج السبط فيك تعطشا فسقيتموه ظالمين دم الحشا
الا رب حقد في صدركم فشا فأغريتم للصارم العضب ارتشا
بجيد معم في العشرية مخول

قضى الله ان يقضى على القمر السها فراشة سوء زلزلت عصبة النهى
فشعر الحسين بالنجيع تموها ترى الدم في تلك الذوائب مشبها
عصارة حناء بشيب مرجل

بقايا ظلوعى فوق جمر الغضا تطوى ودمعى يسقى حر جمر فلا يروى
لرزه قضى ان يغلب الاضعف الاقوى وينزل اهل الفسق في اربع التقوى
نزول اليماني ذى العياب المحمل

فرمت به قلبا عن الصبر اجفلا تحمل من برج الجوى ما تحملا
ولا ناصر يعدى على جور كريلا على ان لي دمعا اذا ما تسيل
يكب على الاذقان دوح الكنهيل

لمثلك من رزء عصيت عزائيا واعطيت اشجانى قياد بكائيا
فلو اننى ناجيت طودا يمانيا لاذرف دمعا افضح الغيم هاميا
فأنزل منه العصم من كل منزل

لا تتحلن الدهر حب بنى علي واللو مراثيهم على كل محفل
عسى جدهم يوم الجزا ان يمد لى بغفر ذنوبى راحة المتفضل
فأظفر بالرحمى من الملك العلي

فيا سامعى هذا الرثاء ترحموا على مسرف قد طال منه التجرم
مؤخر سعى حبه متقدم عسى يتلقاه النبى المكرم
بوجه يرقيه لكل مؤمل (1)

وهكذا تنتهى القصيدة الخمسة ، المقامة شطورها على حروف

(1) من بحث الاستاد الفاسى « شاعر الخلافة الموحدية أبو العباس الحراوى » نقلنا عن مخطوط لشيوخنا سيدى جواد المقلّى رحمه الله واحسن مثواه .

المعجم ، المتكرر منها اللام والميم ، وربما كان التكرار الوارد بعد الياء من زيادة أدخلت غريبة على هذه القصيدة .، بدليل الشطرة :

فأظفر بالرحمى من الملك العلي
فهذا ليس من المعلقة المذكورة ، كما أن الشطره :
فيا سامعى هذا الرثاء ترحموا

هو من قبيل الاستعمال العامى أو الشبيه به ، مما لا يصدر عن مثل الجراوى ، وهو أجدر بأن يكتب على شواهد القبور وإذا كنا ممن يعجبون بالحاقيات القاضى عياض على رسالة أبى القاسم ابن الجد ، فائنا نعجب من الحاقيات الجراوى على مصاريع معلقة امرىء القيس ، فقد وفق فى هذا الى حد .، بالرغم من ظهور تكلف فى بعضه القليل جدا .

وسوى الشعر ، فللجراوى نثر — كما كان لابن حبوس — نلتمس نموذجا منه فى مقدمة تأليفه أو مجموعته الذى عنوانه ، بصفوة الادب وديوان العرب . وكان هذا الديوان عند أهل المغرب — كما يقول ابن خلكان — كالحماسة عند أهل المشرق ، وهو يضم أبوابا من أغراض الشعر ، هى المدح والفخر والمراثى والنسيب والوصاف والأمثال والحكم والملح وذم النقائص والزهد والمواعظ ، مرتبة ترتيبا زمنيا ، مما امتاز به عن مقلده أبى تمام ، الذى لم يراع شيئا من ذلك ، بل حتى الأبواب تداخلت أحيانا ، لكن هذا ذكر بعض المعاصرين بخلاف شاعرنا الجراوى فإنه لم يذكر منهم أحدا ، على أن الجراوى خالف الترتيب الزمنى فى شيء واحد اضطره الى ذلك تبركا بالجناب النبوى ، فافتتح كتابه بالامداح النبوية ، ثم تابعها بامداح أخرى ، جلفها متقدمة عليها .

وهذه مقدمة الديوان ، نأتى بها كنموذج من نثر الجراوى الفنى :
الحمد لله على آلائه الوافرة الاعداد ، المتصلة الامداد ، والصلاة على محمد رسوله الداعى الى سبيل الرشاد ، المنقذ برسالته من مهاوى الضلال والالحاد ، والرضى عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بالحق بعد ظهور الفساد ، الفائضة أنوار هدايته على الاغوار والانجاد ، وعن الخليفين الامامين ، المنصورين الناصرين ، المتكفلين لدين الله بالاعانة والانجاد ، المستولين فى كل مائثرة على الغايات والآماد ، والدعاء بتيسير

المهلول وتسهيل المراد ، ونجاح الاصدار والايراد ، لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، ابن سيدنا أمير المؤمنين ، ابن سيدنا أمير المؤمنين ، أبى يوسف عصمة الاسلام ، وكاشف الظلم والظلام ، البعيد مدى الهمم ، الجزيل الباس والكرم ، يبلى الزمان ولا تبلى مفاخره ، ويحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره .

جاءت به هذه الدنيا فلو سئلت شبهها لقاتل قياس غير مطرد
ماضى العزمات ، وكاشف الأزمات ، وكافل الامة وكافيها ، وناصر
الشريعة وحاميها

تقلد سيف الحق يمضى بحده على كل من ماراه حكم المصاحف
بهرت مناقبه الانوار ، وغمرت مواهبه البحار ، وصدقت سحائب جود
يمينه ، مخايل برق جبينه .

ما شام برق جبينه مسترفد الا استهلكت كفه أنواء
سنام الشرف وذروته ، ونخبة المجد وصفوته ، ومعنى الجود وسره ،
وشمس الزمان وبدره

عزيمة لم يعاينها بنو زمن وقدرة لا تراها العين في الحلم
ثمال المعتفين وموئل الخائفين ، ورحمة الله التي ورد الخلق زلالها ،
وتفنيوا ظلالها ، فله خلافته السعيدة لقد بهر جمالها ، وراقت غررها
واحجالها .

من كان مولده تقدم قبلها أو بعدها فكأنه لم يولد
خرق العوائد باسا وسماحا ، وحلما راجحا واسجاحا ، وأبر على
الملوك مضاء وتصميما ، وانشاء وتتميما

وجرى فقصر عن مداه في العلى اهل الزمان واهل كل زمان
بهرت آياته الالباب ، وأعجزت غاياته الطلاب ، وتحيرت في كنهه
الاهوام ، وقصرت عن وصفه السن الانام والاقلام

جلت عن المدح واستغنت فضائله والشمس تكبر عن حلى وعن حلال

لا زالت خلافته تروق حسنا وجبالا ، وتوسع البرية احسانا واجمالا
ولما فرغ العبد من جمع الكتاب ، المترجم بصفوة الادب ، ونخبة ديوان
العرب ، فجاء خالصا خلوص الذهب الابريز ، منفردا دون ما تقدمه في فنه
بالسبق والتبريز ، نفذ الامر المطاع باختصاره ، والاختيار من مختاره ،
وكتاب النخبة وان كان فيه بعض الطول ، فانه بما اشتمل عليه من غرائب
المنظوم ، وعجائبه غير مملول ، وقد احتوى هذا المختصر منه على جملة
كافية ، ولغليل المتعطش الى الادب شافية ، وبغرض المتمثل والمحاضر
وافية ، واثبت مدح النبي صلى الله عليه وسلم بكماله ، واقر في الديوانين
على حاله ، لم يذهب فيه الى الاختصار ، كما فعل في غيره من الاشعار ،
رغبة في كثرتة ، وتبركا بتفصيله وجملته ، وانما تلقى العبد الامر العالى
وامتثله ، ووقف جهد استطاعته عند ما حد له ، فان اصاب الغرض ، وطبق
المفصل ، فسهم سدده رامي ، وسيف انفضاه منتضيه ، وان تكن الاخرى فقد
استوفى جهده ، وأبلغ النفس عذرها ببذل ما عنده

نسأل الله دوام من دامت لنا به سوابغ النعم ، وشفانا بتعليمه
النافع ، واحسانه المتتابع ، من الجهل والعدم ، انه سميع الدعاء ، جزيل
المواهب والآلاء ، لا رب غيره ، ولا خير الا خيره .

فهذا الديوان اذن ، كان بأمر من الخليفة المنصور الذى نوه به
واشاد بأفضاله ، فهو أقدم مؤلف لنا كان صادرا عن امر مولوى للمغاربة ،
وقد كان المنصور يضع المنهاج لمن يأمرهم بالتأليف ، كما حصل منه
تجاه الذين نديهم للتأليف في شؤون الدين ، فهو اذن صادر عن الدولة ،
التي كانت لذلك العهد ما زالت مضطرة الى القول بعصمة الامام المهدي ،
وان كان المنصور في قرارة نفسه غير معتقد لذلك ، بل هم بابطاله ، كما
قال عنه ابنه المامون .

لهذا لا غرو أن نجد الجراوى ، يرضى عن هذا المهدي المعصوم ، وهو
الذى صب جام شتائمه ، على زميله الاغماتى ، حينما أخرج به بالقيام عند
سماع « اماديج » الامام أبى يعقوب يوسف بن عبد المومن .

هذا من ناحية الفكرة والداعى الى التأليف ، أما من ناحية التناول في
المقدمة ، فانه تناول شاعر ، لم يستطع أن يتخلص من فنه ، وينطلق في

نثره انطلاق ابن حبوس ، أو حتى القاضي عياض قبله ، والقاضي الاغماتي بعد هذا .

نلاحظ أن نثره لا يفتأ يتنفس بالشعر ، عندما تنحبس أنفاسه بالنثر (1)، وفي فقرات قصيرة قلائل ، بل أنه حتى في هذه الفقرات التي لا تتخلص من نقرات السجع ، نجد الشعر يتدخل فيها ، فقوله يبلى الزمان ولا تبلى مفاخره ، ويحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره « إنما هو بيت المتنبي » :

حلو خلأثقه شوس حقائقه تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره
وتقدم في مدحه له للمنصور ، أنه استغل هذا فقال :

فلا زال بالنصر الالهى يقتضى بشائر يحصى قبل احصائها القطرا
والبيت كما تقدم من رائيته التي قالها في الانتصار العظيم بموقعة الأرك ...

والابيات التي خلل بها نثره غالبها لابي تمام ، لأنه كان متأثرا به كما سبق منا القول بذلك ، ومن غير الغالب ، ما كان له ، أو لغيرهما ومن أبياته التي خلل بها نثره هذا البيت :

ما شام برق جبينه مسترفد الا استهلست كفه أنواء
فهو من قصيدة له في مدح المنصور وكذلك البيت المذكور بعده والآخر فيها من قصيدتين فيه أيضا .

ومن الاوصاف التي وردت في أمداحه قوله « المستولين في كل مأثرة على الغايات والآماد » فقد تقدم له :

وجرت معاليكم الى الامد السدى بعدت مسافته على الاسفار
وجريت في نصر الاله الى مدى يكبو وراعه فيه كل مجار
وقد كرر هذا المعنى كثيرا ، كما سبقت الإشارة اليه ، وكذلك قوله « بهرت مناقبه الأنوار ، وغمرت مواهبه البحار » تكرر هذا بشعره وهكذا نجد أغلب الصفات الواردة في المقدمة ، قد ترددت في أمداحه للخلفاء الثلاثة الأول .

(1) وفي « البيان المغرب » الجزء الثالث الذي ساهمنا في تحقيقه بجد بالصفحة 197 وصفه بالكانب الأريب .

والأسلوب كاد أن يخلص من الالفاظ العتيقة ، الا ما قل فيه ، من نحو « سنام الشرف وذروته » ونحو « ثمال المعتفين وموئل الخائفين » و « راقى غررها وأحجالها » وهذه الأخيرة أيضا ، تقدمت في بعض أمداحه ، وقوله « حلما راجحا واسجاحا » .

كان هذا كله عند الاشادة بالخليفة ، أما حينما انطلق الى الحامل على التأليف واختصاره ، فإنه تخلص من تلك الاشعار ، ينصها أو يضمنها ، ولم يرتبط الا بالاسجاع ، الى نهايتها ، ولا نجد فيها الا هذه العبارة « وابلغ النفس عذرها » وهى مقتبسة من بيت الحماسى .

ليبلغ عذرا أو يصيب رغبةً وبلغ نفس عذرها مثل منجح وبعد الجراوى نتصل بأديب آخر، هو أبو حفص عمر الأغماتى، المولود بها عام 530 والمتوفى باشبيلية عام 604 قبيل الجراوى ، المقارب له في سنه ، بنحو خمسة أعوام .

كان هذا الأديب أندلسى الأصل ، وهذا ما جعل الشقندى يعتبره من الأندلس ويفاخر به ابن المعلم الطنجى ، ولكن مغربيته لاشك فيها ، مولدا ومنشأ ، وقد ذكره كذلك ابن سعيد فى كتابه الفصون الياضة ، وعن ابن سعيد نفسه يروى قصة المفاخرة المقرئ فى نفح الطيب ، ولم يعقب عليها ، ولكنه فى أزهار الرياض نقل عن ابن البار أنه ولد بأغمات وأثبت له شعرا فى المديح وغيره سنذكره .

تقلد هذا الأديب مناصب قضائية وغيرها من شورى وافتاء ، وتقلب فى عدة عواصم ، كتلمسان وفاس وأخيرا اشبيلية ، وبالرغم من هذا المنصب الذى ورثه عن والده قاضى فاس ، وما كان يفرضه من تزمى وحفاظ على سمى معين ، فإنه شهر بالفزل ، الذى انتقد عليه ، فما ارعوى ، حتى أدركه الهرم ، فتصوف ، وصار ينظم قصائد سماها المكفرات ، كما فعل ابن عبد ربه ، فسماها المحصات ، يكفر بها عن تلك الغزليات ...

أما قصيدة المديح الذى اشارنا اليه ، فنحنى به ميمية قالها فى الخليفة الثانى يوسف بن عبد المؤمن يقول فيها :

الله حسبك والسبع الحواميم تغزو بها سبعة وهى الاقاليم

سبع المثاني التي لله قمت بها عليك من سرها نصر وتقديم
وانت بالسور السبع الطوال على كل الوري حاكم بالله محكوم

وهكذا يستمر في تلك السبع من السنوات والشهب والايام
ويستغل كل ذلك في مدح هذا الملك وهي تردد اصداء بمهمة لا يدركها
صاحبها على حقيقتها ، عند قومها الاول الشيعة في هذه السبعية التي
ركز عليها تركيزا مملًا وتطرف فيها تطرفا لا ندرك ولا يدرك هو نفسه
كنهه ، على التحقيق . فهذه السبعية هي في الواقع القاعدة الاساسية
للمذهب الاسماعيلي ، لان العدد السبعة عندهم يقوم عليه تسلسل غريب ،
يكون في نهايته الامام السابع اسماعيل ، فهو العدد الخفي ، الذي يضم
سبع فترات للانبياء والرسل آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ،
محمد بن اسماعيل (1) ، وكل واحد من هؤلاء أعقبه سبعة من الائمة ، واول
كل سبعة من هؤلاء هو الامام الصادق ، وهو صامت ولكنه ناطق ، وهو
رئيس وأساس وأصل ، وآخر كل سبعة من هؤلاء الائمة ، يعقبه اثنا عشر
نقيبا ، تنتهي الفترة النبوية بالآخر منهم ، لتبدأ بعدها فترة نبوية أخرى ،
وعلى هذا تكون الفترة السادسة قد بلغت نهايتها على يد الامام السابع
اسماعيل .

ثم يقول للخليفة :

عليك اهل الهدى والحق متفق عليك اهل الهدى والحق متفق
وكل جد مفاد من علائك من وكل جد مفاد من علائك من

وفي تحدثه عنه يقول :

فؤاده بضياء العلم منشرح فؤاده بضياء العلم منشرح
وكفه بطنها بالخير منهمر وكفه بطنها بالخير منهمر
العلم قيمته والحلم شيمته العلم قيمته والحلم شيمته

ثم يبالغ في وصفه بالقدرة والسلطان وينتقل الى وصفه بانه حقيق
بهذه الخلافة والامامة اذ يقول :

ان الخليفة سر الله ظاهرة آياته وهو عند الله معلوم

(1) في زعمهم الضال المضل .

فسلموا واخضعوا الآراء واتبعوا
الشرق والغرب من عرب ومن عجم
والبحر والبر من سهل ومن جبل
لطالبي العلم ما شاءوا بخدمته
سحب العلوم عليهم من سماحته
العين من نظر والاذن من خبر
يفضى أناسة وحلما عالما وله
تشدد فيمن عصى أو خان وطأته
ارادة فوق ادراك العقول لها
حتى اذا ما بدا منه الفجاء بدت
انظر خوانمها تفهم مبادئها
والحظ سماء علاها عبرة وكفى
ومنها ، كما بالازهار :

حكم الامام فما في الدين تحكيم
في كفه عودهم بالقبض معجوم
جميعها بزمم الراى مخطوم
غنى وعز وارشاد وتعليم
تهمى ففى بحرهما هم شرع هيم
لا نشبعان وباغى العلم منهوم
فى موضع الحق اقدام وتصميم
وفى الثقاف لذات الزيغ تقويم
فحسبها منه ايمان وتسليم
كالشمس ما دونها فى الجو تغييم
بالشرح ما ليس بالمفهوم مفهوم
من يسترق سمعها بالشهب مرجوم

للمسلمين أمير المؤمنين حمى
الدهر فى انفه من حكمه برة
العلم والدين والدنيا وساكنها
جزاء سعيك عند الله مدخر
عطفا على حر امداحى وان عجزت
ما علقوا لوراوا هذا « ثقفا » و « ألا
اذن لقال لراويه عليقة
وهكذا يقول :

فاجثوا على الركب الاعظم أو قوموا
فبها الحقائق لا لغو وتأثيم
ر المدح عنه وفيه العذر معلوم
من ذا يقاس به والمثل معدوم

ياسامعين امادىح الامام الا
خذ كأس لفظى دهاقا من مدائح
ندعو له بدلا من مدحه لقصو
عز الامام فلا تضرب به مثلا

(1) بعد هذا أم حبلها اذ نأتك اليوم مصروم
ولا شك انه استعان بها وخصوصا فيما يتصل بقوافيها مثل « بالقتب مخزوم » و « المحروم
محروم » و « الكتان ملثوم » و « قران معجوم » وبه « النفوس معلوم » و « بالحر
موسوم » (انظر الاغانى 113 من الجزء 21)

أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقه عليه من ربه بشرى وتسليم
صل بالصلاة عليه صدق مدحته ذاك الرحيق بهذا المسك مختوم

فهذه الابيات تطفئ عليها اللهجة الشيعية وفي نهاية القصيدة نجده
يصلى على هذا الملك مع ان الصلاة عند اهل السنة مخصوصة بالنبي وآله ،
الا أن الشيعة نراهم يصلون على أيمتهم باستقلال (1) .

فالمدح بالعلم ، مطروق في أمداح هؤلاء الخلفاء ، وعلى مقدمتهم
عبد المومن ، وعلى مقدمة الشعراء ابن حبوس . والمدح بالكرم ، هو ما برزت
فيه أمداح العربية منذ جاهليتها . وتقبييل الايادى كان معروفا ، وعلى عهد
العباسيين بصفة خاصة . والوصف بجمال الطلعة وكون العين لا تمل من
النظر اليها ، وأن صاحب هذا الجمال يفضي أناة وحلما ، كل هذا ما مله
المدح في الاسلام وفي عهوده الاولى . والاتدام والشدة على العصاة وقطع
دابرههم ، مما تغنى به المادحون لذوى الاخطار . ونفوذ الراى الى غور
الامور ، وأنها بعد تسليط الارادة القوية على غوامضها تصبح واضحة
للعيان ، كذلك مما لا يستحق الاشادة به . ورجم من يسترى السمع
بالشهب ، صورة قرآنية ، ردها الجراوى وغيره ، من شعراء الموحدين ،
بعد غيرهم . ثم الدعوة الى الانابة والبعد عن اختلاف الراى والتسليم لحكم
الامام ، وارد ذلك كله في القرآن الكريم . واخيرا المبالغات فى بسط السلطان
على الشرق والغرب والبر والبحر ما يطرب له الخالون ولا يأبه له المطمئون
الى انفسهم ، فلم يبق بعد ذلك شىء الا ابيات فى الافتخار من الشاعر بقصيدته
والاعتذار الى سيده الخليفة وطلب عطفه ...

وكأن الاغماتى لم يكن له نصيب موفور فى أمداح الخلفاء الموحدين ،
وهذا لا يضيره بالمرّة ، وكأن الجراوى أدرك هذا العجز منه ، وإن كان
الاغماتى لا يعترف به ، بل يفتخر بقصيدته تلك ، ويجعل غيرها دونها ، ويحقر
المادحين بسواها ، ولهذا وجدنا الجراوى يتهم عليه ، اثر انشاده لهذه
القصيدة ، فيقول الأبيات المعروفة :

(1) وفي القصيدة اشارات الى معلقة امرئ القيس ومعلقة عمرو بن كلثوم و « حجر » هو
والد امرئ القيس وهو وحده المسمى بهذا الاسم ، مضموم الحاء مسكن الحيم ،
وقد حسر علقمة النحل تحقيرا لشانه فى ميميته الشهيرة التى جعلها دون ميميته هذه .

نبغمت عمرة بنت ابن عمر هذه فلتعجبوا أم العبر
قل لها عنى اذا لاقيتها قولة تترك في الصخر اثر
هبك كالخساء في أشعارها أو كليلى هل تجارين الذكر
وكذلك نجد للاغماتى قصيدة ، في يوسف يمدحه بها ويهينه ببيعته
الثانية ، يقول فيها :

الا هكذا تبني العلا والمآثر وتسمو الى الامر الكبير الاكابر
نؤم لبيعات الرضى مطلع الهدى وحيث الهدايا تغلى والاوامر
فلا شك انه اخذ هذا المطلع من قول المتنبي في مدح سيف الدولة .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم في غير الصغير صفارها وتصغر في عين الكبير العظام
وبعد الخليفة يوسف نجده في ركاب ابنه يعقوب واسطة عقد البيت
الموحدى حيث يمدحه بقصيدة على اثر انتصاره في موقعة « الارك » فيقول
في تلك القصيدة : (كما في الفصون الياضة)

اطاعتك الذوابل والشفار ولبى أمرك الفلك المدار
ببشرى مثل ما ابتهجت رياض وسعد مثل ما وضح النهار
وفتح مثل ما انفتحت كمام وثقت عن صدور مها صدار
وآمال كما مدت ظلال وأفعال كما مدت بحار
وأعلام بنصرك خافقات لها في كل جو مستطار
ليهنئ أرض أندلس بدور من السراء ليس لها سرار

الى ان يقول في وصف الروم الاسبان :

وكم راموا الفرار من الرزايا ولكن أين من أجل فرار
تدار عليهم حمر المنايا بكأس فيه عقر لا عقار
اذا ما الليث أصبح في محل فما لطريدة فيه قرار

ونلاحظ على هذه القصيدة ان نفس الشعر فيها طويل وان الاسلوب
بالرغم من ارتفاعاته اسلوب شعري على الحقيقة لا يبدو عليه ذلك التكلف
والارتباك الذى تبدت به قصيدته الاولى فنك القصيدة كانت في أسلوبها

تبعّد في بعض الأحيان عن الأساليب الشعرية مثل قوله :
يا سامعين أماديح الإمام الا فاجثوا على الركب الاعظم أو قوموا
أما هذه فقد أسعفته شاعريته فيها فكانت مبالغاته مقبولة لا يابها
الذوق المعتدل .

وهذه أبيات أخرى في مناسبة مماثلة ، كما يبدو ولعلها قيلت من قصيدة
في مدح المنصور وهي ستة أبيات ساقها صفوان بن ادريس :
هكذا :

يزرع الله بسطوة السلطان	من لم يزعه واعظ القرآن
أخوان أما حكمة أو مرهف	هذى يمانية وذاك يمان
شدوا اليراعة بالحسام فانه	برهان من يعمى عن البرهان

الى أن قال في وصف الممدوح :

يهدى البرية مسيا أو مصبحا	فكأنما في وجهه القمران
---------------------------	------------------------

ثم قال في وصف الجلال :

يتعانقون اذا لقوا أعداءهم	يوم الكفاح تعانق الأخوان
ها انما ذاك التعانق بينهم	من شدة البغضاء والشنآن

فهذه الابيات المتأنقة ، على حين لم يكن موضع للأناقة ، ماذا نجد
فيها ؟

نجد البيت الاول يتضمن الماثور «يزرع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرءان»

والبيت الثانى منبثق عن الحديث « الايمان والحكمة يمانية » كل ما
هنالك ، انه وضع المهرف موضع الايمان ، ونسج على نفس المنوال
والبيت الثالث ، لأبأس به ، وان كنا لا نتصور الحسام يشد اليراعة ، الا
في المقصود منه لا في الصورة المتخيلة ، وهو لا يبتعد عن قصد أبى تمام
في قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب

الى آخر البيت من قصيدته المعروفة فانه متولد منهما ولا شك .
بل ان كل واحد من الابيات الثلاثة يغنى عن غيره في الفكرة ، ولا غناء في
الصورة يستحق الذكر والبيت الرابع ، فيه منتهى التصنع ، وهو معتمد
كل الاعتماد على « القمران » اللذين بحثت عنها القافية بادى ذى بدء
والبيت الخامس يصور الاعتناق بين الاعداء في شدته ، كأنه احتضان
الأحباب ، وهذا كان يكفى في وصف ضراوة الجلاذ ، ولكن الشاعر لم يكتف
بذلك حتى قتله شرحا ، في البيت بعده :

ها انما ذاك التعانق بينهم من شدة البغضاء والشنآن
والشعر اذا وضع على منضدة التشريح ، فقد حيويته واصبح جثة
هامدة ، وفي عداد الموتى .

اما النسيب فقد برز ادينا في غرضه هذا ، وانتزع اعجاب المعجبين
به كما نجد ذلك جليا ببعض الابيات التى قالها في هذا وكان الشقندى يشيد
به ويفخر على ابن المعلم ، ويتحداه ان يأتى أحد بمثلها من شعراء المغرب
قاطبة .

والواقع ان هذا الغزل ، بصرف النظر عن فنيته ، غزل تصرخ الجنسية
فيه صرخة صاعقة ، توجه اليها اعجاب المحرومين او المنهمكين ، لذات
الجنس ، فغزله هذا او نسييه ، ليس من ذلك النوع المذهب الذى نجده عند
ابن زنباع او عياض زميليه في القضاء والادب ، بل هو من ذلك النوع الشره ،
الذى يكاد يصل الى امرىء القيس او الفرزدق احيانا ، وهذه نماذج منه :

مشت كالغصن يثنيه النسيم	ويعدوه النسيم فيستقيم
لها ردف تعلق في لطيف	وذاك الردف لى ولها ظلوم
يعذبني اذا افكرت فيه	ويتعبها اذا رامت تقوم
وما حبى لها الا عذاب	عليه من نضارتها نعيم

قال ابن سميذ في الغصون ، وقد اشتهر قوله لها في الغرب
والشرق ، ولا غرو ان يشتهر بهذه الفتنة الجنسية عند المفتونين بها .
سوى هذا فان الصنعة محكمة في غزله ، قلما تخلو منها قطعة له .

ومن هذه القصيدة قوله :

أعذك يا سليمى من سليم	قتلت فتاهم وهو الزعيم
قتيل الحب لا يودى وعائى	له لا يفدى ولا فيه الخصوم
وما لي طالب بثرات قتلى	إذا قتل الغرام فلا غريم
الا ياظبية الحرم التى ان	رمىت سلمت والرامى كليم
بلى انت الغزالة فى سناها	فرايمها بعيدا ما يروم
فؤادى سار نحوك عن ضلوع	بها ياريم حبك لا يريم
ودادك صح فى قلب سقيم	كطرفك صح ناظره السقيم
إذا أعرضت تسود الأمانى	وإن أقبلت تبيض الهموم (1)

فهى أبيات صحراوية رشيقة بديعة بالرغم من بعض البهرجة فيها والبيت الاخير منها فريد فى بابه .

وقد تمكنت الصناعة من باقى الابیات ، وخصوصا التشبيه الضمنى منها ، وما يعرف بالمذهب الكلامى فيما قبل ومرمى القصيدة فى واقع الامر هو الفخر الذى يفصح عنه البيت الاول ، وهو :

أعذك يا سليمى من سليم	قتلت فتاهم وهو الزعيم
قتيل الحب لا يودى وعائى	له لا يفدى ولا فيه الخصوم
وما لي طالب بثرات قتلى	إذا قتل الغرام فلا غريم

والبيت الاخير من هذه مأخوذ من بيت اسحق الموصلى « وكم من دم قد طل يوم تحملت أوانىس لا يودى لهن قتيل وهذه قطعة دخلت عندهم فى كنوز المعانى (2) وهى قوله فيها :

هم نظروا لواظها فهموا	وتشرب عقل شاربها المدام
يهاب الناس مثلتها سواها	أذعر قلب حامله الحسام
سما طرفى اليها وهو باك	وتحت الشمس ينسكب الغمام
واعقب بينها فى الصدر غما	إذا غربت ذكاء اتى الظلام

(1) انظر « الزهرة » للصفهاني حيث ورد فيها : عليك سلام الله أما قلوبنا مرمى وأما ودنا فصحيح فلا شك ان الاغاني نظر اليه فى البيت قبل الاخير من القطعة الواردة فى « جذوة الاقتباس » .

(2) كما قال فيها ابن سعيد فى « الفصون الياقة » .

قد يعجب هذا الصنيع أولئك المتحذلقين في تصرفاتهم أو الغافلين عما
يجيش في ضمائرهم ، أما غيرهم فلا تبهرهم هذه الأصباغ ولا تحرك فيهم
ساكنها هذه الأصداغ ، حتى يكونوا كمن قال :

صدغ الحبيب وحالى كلاهـمـا كـالـليـالـى
على أن هناك أبيانا أخرى تروعا بجمالها ، وتأخذنا بتهذيبها ، كهذه
التالية :

من ذا يرى تلك الجفون ويسلم	هذا فؤادى احصدته الاسهم
شمس الضحى وأصاب فيما يحكم	ياغرة حكم الجمال لها على
هيهات دون العالم المتعلم	يحكى الجآذر جيدها ولحافظها
غصن عليه بلبل يترنم	وكان قامتها ونغمة لفظها

فهذه أبيات بصرف النظر عن الانباعية في الثانى والثالث منها خاصة ،
تبهرنا بجمالها ونعجب لتنسيق صورها وتصنيف معالم فتنتها وكذلك
الشأن في هذه الابيات البدوية الاعرابية ، التى يقول فيها :

وفي المغرب لا فى بنى الاصفر	مها القفر لادمية الهرمر
ومسرحها فى النقا الاعفر	بنفسى يعافير تلك الخيام
ويسلب فيها فؤاد الجرى	ملاعب يصبو اليها الحليم
غيارى متى بغمت تزار	وفيها الظباء بنات الاسود
به الشبل ناش مع الجؤذر	فخيس الهزير كناس الغزال
فرام به الحى لم يشعر	تخالسها نظرا تحتسه
بطرف غر وفؤاد برى (1)	وبالحظ يقدح زند الهوى

ولا شك أنه هدف فيها الى الغزل بهذه الجمليلات التى ذكرها بالمها
واليعافير والظباء ، ولم يكن قصده منها غير الغزل الذى لا يسيطر عليه
التصنع أو التحلية البديعية مما يشغل الناس عما عناه وان كانت لا تخلو
من مقابلات بالاضداد ، وكأنى به ذلك المخالس للنظرات المنبعثة عن غرام
وافتنان . . ومهما يكن ، فهذه الابيات ، على بساطتها وقلة عددها قد وفق
فيها الشاعر حتى ولو كان مقلدا بهذا الصنيع في جميلة ذلك الجمال البدوى

(1) انظر « ازهار الرياض » .

وان كان التشبيه بالبدويين قديما حاوله بشار ، في رائيه له خاصة ، ثم حاوله من بعده من الشعراء ، كالمتنبي في قصيدته البائية ، فكانت قصيدة حسنة ذلك الحسن ، الذي لا يحتاج الى تطرية عهدناها في غيرها ، وصدق المتنبي فيها اذ قال :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

والغالب ان الاغماتى نظر اليها ومطلعها :

من الجاذر في زى الاعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب
افدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

اذن فانظروا الى مها القفر ، والى يعافير الخيام ، سارحة في النقى
الاعفر ، فيه الظباء ، ولكنها بنات الاسود اذا بغمت زارت آباؤها الفيارى ،

وهكذا : فخيىس الهزير كناس الظباء ينتشئ فيه الشبل مع الجؤذر ،
وهذا اجمل ما في الصورة وبعد هذا تأنى ابيات في وصف الحب وفعله بأهله
وهى :

اغار على الصب من انبه	هو الحب من يطفه الهبه
ناى القلب عنى وشوقى معى	فلله امرى ما اعجبه
يحن فؤادى الى قاتلى	كذاك الهوى عند من جربه
ترق شمائل من ذاقه	وتلطف شمائل من هذبه
يجود لمسخطه بالرضى	ويطلب راحة من اتعبه
اذا شف قلبى غرام الهوى	دعا بالنعيم لمن عذبه

ونحو هذا القبيل قوله :

لقد لبست لتلبسنى نوار	شبابا ماؤه في القلب نار
شباب ماؤه في مقتلتيه	يجول وفي القلوب له قرار
حمى برد اللمى منها لاما	وبيض الهند والاسد الحرار
بايدى مقحمين على المنايا	بهم تحمى الحقائق والذمار
عواليهم استنهما الذرارى	تمور بسعدهم ابدا موار
تلوح مع الكواكب وهى نور	وتهوى للكئاب وهى نار

فوارس عندها للنقع ليل اذا أبدى ظبي (1) منه النهار
تغير على الحضارة من بعيد ومسكنها الفلاة لما تغفار
سبائى من فنائهم غزال عزيز القوم نابيه غرار
وله :

لله أحبابنا الالى سلفوا بانوا وما منهم لنا خلف
كرهت سكنى البلاد بعدهم وقد يكن بعض الجواهر الصدف (2)
وغير القصائد الغزلية ، فقد شهر الشاعر كذلك بنظمه للموشحات

ولكنه لم يحفظ له منها — كغيره — الا النادر ومن هذا قوله :
حسانة رخيصة عانقت منها البائنا
والنقى الرجراج واشواقى لحسانه
والملاحظ على غزل شاعرنا سواء فى أوزانه العربية العتيقة وفى
موشحه — أنه كان غزلا شهوانيا صارخا فى بعض الاحيان ، وهذا ما أخذ
به هذا الاديب . فابن سعيد يقول بعدما يقول : وكان فى غاية الظرف اذا
اقبل شمت رائحة الطيب منه على بعد ، واذا غسلت ثيابه لا يكاد يفارقتها ،
وكان منزله كأنه الجنة حتى وجد فيه اعداؤه مطعنا ورفعوا للمنصور انه
غير حافظ للناموس الشرعى بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه فى
العشق . ووافق ذلك ان روى ابن اخ له يده على امرأة وغصبها على
الدخول لمنزله وشهد بذلك عند ابي موسى بن امانة حافظ فاس جماعة فأمر
باحضار المذكور بعد صلاة الصبح وضرب عنقه .

بعد هذا الشعر نتناول من شعر الأغماتى الجانب الخلقى ، الذى
يشمل الايصاء بالتعلم وتتوى الله والزهد فى أوساخ الدنيا وهذه هى المرحلة
التي استراح عندها الشاعر ، وقد تراءى له المصير ملما بالنهاية الدنيا ،
فكان فيها الندم على ما مضى ، وكان فيها التكفير عن السيئات ، وكان من
هذا التكفير ، أبيات وعظية ، توصل بتلك الابيات الغزلية الغائنة ، فكان
شأنه فى هذا شأن ابن عبد ربه حيث وصل غزلياته ، بما سماه بالمحصات .

(1) هذه الكلمة غامضة فى الجودة التى نقلنا عنها هذه الابيات .
(2) من الجودة كذلك .

ومن هذه المكفرات أبيات وصلها بتلك الأبيات البدوية الاعرابية في
الغزل ، كما مضى ، يقول فيها :

بقلبك يا غافلا فانظري وعينيك غمضهما تبصر
إذا أرسل الطرف هام الفؤاد وبعض المرائى عمى البصر
وأفة قلب الفتى عينه فان ترع قلبك لا تنظر

أما ما قاله في الحض على التعلم والتقوى والزهد في الدنيا فنحو قوله :

العلم يكسو الحلل الفاخره والعلم يحيى الاعظم الناخره (1)
كم ذنب أصبح رأسا به ومذنب أبخره زاخره
ما شرف النسبة الا التقى أين تهيم الانفس الفاخره
من يلطب العز بغير التقى ترجع عنه نفسه داخره
أعرض عن الدنيا تكن سيدا بل ملكا فيها وفي الآخره

وهي أبيات كاد يحرق فيها الشاعر من تلك الصنعة التي وجدناه يتفنن
فيها من ذى قبل الا ما كان من الجناس في ذنب ومذنب والمقابلة بينهما
بالرأس والذنب .

وفي الزهد هذه الأبيات التي نظمها على بحر المتدارك ، ونظر فيها
ولا شك الى نونية لابي نواس ، وان كان ابتعد عن الغرض فكانت في الزهد
وهي :

أيها المفتخر بالزمن في هواه خالع الرسن
حبك الدنيا وزينتها فتنه عمتك بالفتن
ظلت والحالة شاهدة عاكفا منها على وثن
فاهجرنها ان زينتها زينة ثانت ولم تزن
خدعتك انها قبحت باطنا في ظاهر حسن
ولتقدم ما تسر به قبل طول البث والحزن
فكان آخرك ما برحت وكان دنياك لم تكن

(1) من الجذوة والازهار .

أما نونية أبي نواس فيقول فيها :

يا كثير النوح في الدمن سنة العشاق واحدة ظن بي من قد كلفت به بات لا يعنيه ما لقيت رشا لولا ملاحظته كل يوم يسترق له فاسقنى كأسا على عذل من كميت اللون صافية ما استقرت في فؤادي فتى مزجت من صوت غادية	لا عليها بل على السكن فإذا أحببت فاستكن فهو يجمونى على الظن عين ممنوع من الوسن خلت الدنيا من الفتن حسنه عبدا بلا ثمن كرهت مسموعه أذنى خير ما سلسلت في بدن فدرى ما لوعة الحزن حملتها الريح من مزن
---	---

وكذلك هذه الأبيات التى هى — كما يبدو — من قصيدة زهدية :

ولا تنسب الى كبر فهذا ولا تصحب أخا كبر وقدم ولا تحبب محابة بمدح وحاذر أن ترى في القوم راسا تراب كن هنا فعساك أن لا	ابوك الترب يخفضك انتسابا على النفس الأعادى والصحابا كفى بالمرء حوبا أن يحابا ولا تنس الذنوب وكن ذنابا تمنى أن تكون غدا ترابا
--	--

وهذه قصيدة أخرى التزم فيها طريقة أبى العتاهية في روحها وفي أسلوبها ، واختيار بحرهما من مطلع البسيط كما نرى :

يا راكضا في طلاب دنيا تنح يا عرضة لرام (1) لم تخش نارا هوى لظاها أعذر منك الفراش حالا تطلبها لا تنام عين من لك بالرى من شراب دعها فطلابها رعاع	ليس لمن تصرع انتعاش أسهمه بالردى تراش لمن له نحوها انحياش علمت ما يجهل الفراش عنها ولا يستقر جاش يشتمد من شربه العطاش طاشت بالبابهم فطاشوا
--	--

(1) أزهار الرياض نقلا عما ورد في « الأشادة » لبعض الاعلام في وصف الدين نثرا ثم شعرا هذا .

واظمأ لتروى وكن كقوم ماتوا بها عفة فعاشوا
 ليم يردوها فهم رواء وواردوها هم العطاش
 كأن آمالنا ظباء ونحن من حيرة خراش
 ان آمالنا انبساطا به لأعمارنا انكماش
 كأن آجالنا صقور ونحن من تحتها خشايش (1)

وبناء القافية على روى الشين مما يصعب على الشعراء وقلما
 وفقوا فيه ، وخصوصا اذا كانت الشين مضمومة كما هنا ، وقد حاول
 المتنبي هذا ومن مواقفه العلمية التى سجلها شعره ، ما قاله ردا على بيتى
 الزمخشري اللتين نال بهما أهل السنة ، وهما :

لجماعة سميت هواها سنة لجماعة حبر لعمرى موكفة
 قد شبهوا معبودهم ونخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة
 فرد عليها الاغماتى بأربعة أبيات ، وهى :

أجعلتم العلماء حمرا موكفة هذا لانكم اولو تلك الصفة
 أجهلتم صفة الاله وفعله ونسبتموه لغيره بالزخرفة
 واردتم تنزيهه فوقعتهم فى الشرك والاحاد والامر السنفه
 خالفتم سنن النبى وصحبه وتبعتم فى الزيغ أهل الفلسفة

ومن نثره قوله فى الفلاسفة اياكم والقدماء وما أحدثوا ، فانهم عن
 عقولهم حدثوا ، اتوا من الافتراء بكل اعجوبة ، وقلوبهم عن الاسرار محجوبة ،
 الانبياء ونورهم ، لا الاغبياء وغرورهم ، عنهم يتلقى وبهم يدرك السؤل ،
 « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول » « الدين
 عند الله الاسلام » والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام ، ما ضر من
 وقف عندهما ، ما جهل بعدهما ، خير نبى فى خير أمة ، يزكيهم ويعلمهم
 الكتاب والحكمة دلهم من قرب عليه ، واخنصر لهم الطريق اليه ، فما ضر
 تلك النفوس الكريمة ، والقلوب السليمة ، والالباب العظيمة ، ما زوى عنها
 من العلوم القديمة ، نقاهم من الاوضار والادناس ، وقال « كنتم خير أمة
 اخرجت للناس » كتابهم أعظم كتاب أنزل ونبيهم أكرم نبى أرسل ، السيد
 الامام ، لبنة التمام ، خير البرية على الاطلاق ، بعث ليتمم مكارم الاخلاق ،

(1) سبقه بهذا من قال : انا وفى أعمارنا قصر وفى آمالنا طول

انزل الكتاب اليه « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه » هو الشفاء والرحمة ، وفيه العلم كله والحكمة ، معجز في وصفه ، عزيز فسى رصفه ، « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » آياته باهرة قائمة ، ومعجزاته باقية دائمة ، ماذا اقول ، وقد بهر العقول ، حسبي ، حسبي ، « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي ، لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي »

هذه خطبة ما أشبهها في صنيعها بأسجاع الكهان ، فلا فكرة متسلسلة ولا لحمة متلاحمة ، وانما هي اسجاع تتخلها آيات تناسبها في جرسها ، ولا يتورع صاحبها من التكرار في بعض معانيها ، وصاحبها ان هدف بذلك الى تسفيه الفلاسفة وهم المعنيون بالقدماء أو اصحاب العلم القديم ، فهو بعيد كل البعد عن الالمام ، ببعض مسائلها ، حتى يستعمل نفس السلاح أو يركز الهجوم على قاعدة من تلك القواعد التي يعتمدون عليها ، ففرق كبير في ردوده بينه وبين ابن حبوس أو أبى تمام مثلا

ومن نصائحه النثرية قوله :

(هذه الدنيا ، حفظك الله كما علمتها ، فاعرض بحلمك عن جهلها ، وارغب بنفسك عن اهلها ، واذكر قبائح ابنائها ، واصرم وصل ابنائها (1) لا ترتع في روضهم ، ولا تكرع في حوضهم — وقل الله ثم ذرهم في خوضهم — واذا مررت باللاغين بذكر محاسنها ، اللاهين بحسن ظاهرها ، عن قبح باطنها فإله عن لهوهم ، ومر كريما بلغوهم ، مر المهتدى في سيره ، واعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره « فالسيادة والسعادة في نبذها لا في اخذها ، وفي تركها لا في دركها ، واللبك عن وصلها اليك ، وعليك بهجرها عليك ، واذكر قوله تعالى (ولا تمدن عينيك) وقوله تعالى (ولا تعد عينك عنهم) واحرص ان تكون منهم ، فزخرف الدنيا في نظر العين زين وفي نظر العقل شين ، فغمض عينيك تبصر ، ولا تملأهما واقصر ، جعلنا الله ممن نظر بقلبه وأبصر بلبه فاولوا الالباب والفكر المخصوصون بالذكر والعلم ارفع المزايا واوسع العطايا ، غاية المنال والمدرک ، من ناله أى شىء فاته ومن فاته أى شىء أدرك ، ولا علم الا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة ، فمن علمهما ، ونظر فيهما ، وعمل بهما ، نال غاية السعادة ، وادرك

(1) من ازهار الرياض كما اشرنا الى ذلك نقلا عن « الاشادة » .

منتهى السيادة . قال الله تعالى لنبيه الكريم (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) . هذه المزايا العالية والعطايا الواسعة الباقية لا ما نهت عنه الآية الثانية ، جعلنا الله ممن ابصر رشده وذكر مراده ووجه اليه قصده ورأى اول امره آخره وابتغى فيما آتاه الدار الآخرة بمنه وفضله آمين .

نفى هذه النصيحة عناصر مما سبق أن ذكرنا من أشعاره في الاخلاق والحكم والزهد ، مثل البيت :

اعرض عن الدنيا تكن سيدا بل ملكا فيها وفي الآخرة
ومثل البيت :

فاهجرنها ان زينتها زينة شانت ولم تزن
ومثل البيت :

بقلبك يا غافلا فانظري وعينيك غمضهما تبصر
ومثل البيت :

العلم يكسو الحلل الفاخرة والعلم يحيى الاعظم الناخره
واخيرا فان الرسالة منضمنة لكثير من الآي القرآنية ، ومستشهادة بأخرى ، كما أن فيها اشارة بالآية الثانية ، الى قوله تعالى ، بعد الاولى التي ذكرها « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين »

وبعد فرسالة القاضي ليست على مستوى رفيع من النثر الفنى ، فأغلبها تحليل لأشعاره أو مسنعين بنص القرعان أو مضمونه وعلى كل حال ، فان ما بيدنا من نثر القاضي الاغماتى ، لا ينبى عن رتبة عالية ، وان كان مترجموه قد اجمعوا على وصفه ببراعة النظم والنثر ، كما نقل المقرئ عن العزفى فى كتابه « الاشارة بذكر المشنهرين من المتأخرين بالافادة » وفيه أن محمد بن عبد الرحمن التجيبي يحليه الكاسب المجيد « وللناس فيما يعشقون مذاهب » .

والنتيجة أن الاغماتى شاعر الغزليات خاصة ، وحظه من مدح الخلفاء لا يصل الى ما كان عليه ابن جبوس أو الجراوى ، أما شعره فى الزهديات

فتغلب عليه طريقة أبى العتاهية ، وكأن الزهد لعهدده أصبح من الاغراض العامة فى شعرنا ولهذا وجدنا معاصره الامير سليمان الموحدى يفردله بابا خاصا فى ديوانه كما سنرى فيما بعد .

ولا شىء بعد الشعر يمكن أن يذكر به القاضى الاغماتى كأديب ، فخطبته التى عرضنا جانبها منها لا يمكن أن تنزله منزلا كريما فى النثر ، وهى بتلك الصفة من الفقر المذقع .

وبعد انتهائنا من الكلام على القاضى الاغماتى وأدبه شعرا ونثرا ، نتصل بأديب آخر كان يعاصره وكانت وفاته أوائل القرن السابع ، كما كانت وفاة الاغماتى والجراوى ، هذا الأديب هو (ابن عم المنصور الموحدى) ، أبو الربيع (1) سليمان بن عبد الله بن عبد المومن الذى تردد ذكره فى كتب الأندلسيين والمغاربة كالبيان لابن عذارى وهذا الأديب ، ولد كما يظهر بعد العقد الخامس من القرن السادس ، فنلقى بالمغرب والأندلس ، ثم اشتغل بمهام المناصب فى الدولة من مدنية وحربية (وهذه الأخيرة هى الصفة الغالبة على شاعرنا) وكان شأوه عظيما على عهد المنصور الذى حظى عنده ، بالخصوص ، وكادت أمداحه تقتصر على هذا الملك وان كان تعرض الى ما يتعرض اليه الرجال الكبار من جفاء السلطان وغضبته الملك ، اذ وجدناه س 581 بمراكش تحت جفوة المنصور . وقد قال فى تلك الحقبة كثيرا من الأشعار يستعطف ويسترضى بها المنصور ويعتذر اليه ، ويذكر ابن عذارى فى المرجع السابق كثيرا من المواقف الحربية والأدبية التى حفظها التاريخ وسجلت لهذا الامير ، ومهما يكن فقد ظل هذا الشاعر مرموقا من بيت الامارة فى النصف الثانى من القرن 6 وان كانت شهرته فى الربع الاخير من القرن السادس الى ان توفى سنة 604 أو 606 . ومن حسن الحظ جمع بعض رجاله شعره فى ديوان يعد أقدم ديوان للمغاربة جمعه محمد بن عبد الحق بن عبد الله الفسانى . وشعره فى مدح المنصور لا يختلف كذلك فى لهجته عن باقى الأمداح التى عرفت للشعراء فى الموحدين .

(1) أقام عليه دراسة بال بها درجة الماجستير الدكتور عباس الجراوى ، معتمدا على نسخة ديوانه التى يوجد أصلها بالخزانة العامة للرباط ، وقال انه لم يطلع على نسخة الاسكوريال التى تضاعفها ، ولا على نسخة اصطبلول التى هى أصعافها ثلاث مرات ، وبشرناها . (انظر مقاله المنشور بدعوة الحق ابريل ماى 65) .

أما ما عدا ذلك فشعره له طابعه — عندنا — في الغزل والثناء والزهد
والإلفاظ ووصف الرياض والشراب والعتاب والتشبيهات وما إليها . يقول
في إحدى القصائد التي مدح بها المنصور بمناسبة فتحه لمدينة قفصة
سنة 583 :

وجرت بسعدكم النجوم الطالع
حتى لضاقت بها الفضاء الأوسع
إن الأمور إلى مرادك ترجع
ملأ البسيطة نوره المتشعشع
نفسا تفديها الخلائق أجمع
بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
عزم إذا أمضيته لا يرجع
حتى حسبنا أرضها تتصدع
ما إن له إلا التوكل مفزع
يوما إذا أضحى الجوار يضيع
والخيل تردى والاسنة تشرع
حتف يخب به إليك ويوضع
إننا له ومضاء عزمك أسرع
فلجهله قد ظن ما لا ينفع
والأرض ننشر في يديك وتجمع
كيما يحم له الحمام الأشنع
فتحا يمد بمثله ويشفع
وبحسبه منك النصيب المقتنع
ولبست منه أنت ما لا يخلع
جعل الخلافة فيكم لا تنزع
ومن ادعاه يقول ما لا يسمع
والله يعطي من يشاء ويمنع
فإليك يا يعقوب تومي الأصبع
عين الزمان لوقته تنطلع
أنت الملاذ لها وأنت المفزع

هبت بنصركم الرياح الأربع
وأنت لعونكم الملائك سبقا
واستبشر الفلك الأثير تيقنا
وأمدك الرحمن بالفتح الذي
لم لا وأنت بذلت في مرضاته
ومضيت في نصر الإله مصمما
وكتائب منصورة يحدو بها
ملئت بها أرجاء كل تنوفا
من كل من تقوى الإله سلاحه
لا يسلمون إلى النوائب جارهم
لله جاشك والصورام تنتضى
كم من قصى الدار عاص قاده
لم يلف أرضا يستقر بظهرها
إن ظن أن قراره منج له
أين المفر ولا مفر لهارب
فمتى يفت يوما فاملاء له
أخليفة الله الرضى هنيته
وليهن هذا الفتح أنك فتحه
فلقد كسوت الدين عزا شامخا
إن الذى سماك خير خليفة
لكم الهدى لم يؤتته الأكسم
هيهات سر الله أودع فيكم
إن قيل من خير الخلائف كلهم
فلأنتم نخر الخلافة والذى
إن كنت تتلو السابقين فأنما

حسب البرية ان تكون امامها
جلت صفاتك ان يحيط بكنهها
فلتشتهى كل الجوارح انها
خذها امير المومنين مديحة
فالمدح منى في علاك طبيعة
جرر ملاءة عزة موصولة
واسلم امير المومنين لامة
وحماك من يحى بسيفك دينه
وعليك يا علم الهداة تحية
ونصيرها ان ناب امر مفضل
نثر يؤلف او قريض يجمع
اذن تصيخ لمدحكم او تسمع
من قلب صدق لم يشبه تصنع
والمدح من غيرى اليك تطبع
تعماء يحسدها السماك الرفع
انت المقدم والخلائق تبس
وكفأك ما يخشى وما يتوقع
يفنى الزمان وعرفها يتضرع

أتينا بهذه القصيدة كلها لأنها أحسن قصيدة مدح بها الامير ابن عمه
ال خليفة المنصور ، وهى كما تبرر أولا قصيدة عامرة ، ولكنها تدخل فى فنها
ما عهد للمداح قبله اذ فيها كثير من محفوظات الشاعر القديمة ، سواء
الجاهلى منه والاسلامى بله ما تقدم لشعراء الموحدين خاصة وعلى رأسهم
ابن جبوس والجرأوى . فالرياح تهب بنصر الخليفة ، والنجوم تطلع بسعده ،
والملائك تتسابق الى عونته ، حتى ضاق بها الفضاء ، كل ذلك ما لاكنه الالسن
ولفظته الاسماع عن شعراء الموحدين ، الاندلسيين والمغاربة منهم على
السواء . وكذلك استبشار الأفلاك بتحركانه وامداد الرحمن له بالفتح الذى
ملا الدنيا ، كل ذلك كان مما يطرب له هؤلاء وخصوصا ان وجهه بكونه على
مرضاة من الله بل ان هناك أبياتا قدت على غيرها ، مثل :

ومضيت فى نصر الاله مصمما

فقد تقدم للجرأوى قوله فى عبد المومن :

وجريت فى نصر الاله الى مدى

وقريب منه قوله فى ابنه يوسف :

وجرى الى الامد الذى لم يجره ملك ولم تصعد اليه ظنون

وقوله فيه أيضا :

حلت من العلى اسمى ذراها وجاريت النجوم الى مداها

أما قوله في البيت :

لا يسلمون الى النوائب جارهم يوما اذا أضحى الجوار يضيع
فهو مطروق جدا في شعر الجاهلية ، مثل :

لا يسلمون الى النوائب جارهم حتى يزل الشراك عن قدمه
وهذا البيت قد قيل في الجاهلية الأولى ، وفي حرب كانت بين الحميرية
والقيسية ، وهو يعبر عن الحياة القبلية والعصبية الجاهلية فان كان
لائقا بهؤلاء القوم ، فانه لا يليق مطلقا بهؤلاء الخلفاء ، حتى يمدحوا به ،
وهم في قصورهم الشامخة ، لا جوار لهم ، بل الحاشية حولهم .
وبهذا فان الأمير لم يوفق في مدحه للخليفة العظيم أو الخلفاء الموحدين
عامة ، بكونهم « لا يسلمون الى النوائب جارهم » فلم يبق بعد هذا
الا هذه الصخابة التي مللناها في امداح الموحدين ، مثل قوله :

اين المفر ولا مفر لهارب والأرض تنثر في يديك وتجمع
ان ظن ان فراره منج له فلجهله قد ظن ما لا ينفع
لم يلف أرضا يستقر بظهرها أنى له ومضاء عزمك أسرع
كم من قصى الدار عاص قاده حتف يخب به اليك ويوضع
مئت بها أرجاء كل تنوفة حتى حسبنا أرضها تتصدع

فلعلنا هنا على ذكر من قول الشاعر منشدا عبد المومن بجبل طارق :

اين المفر وخيل الله في الطلب

وكان قد ابتدا البيت بقوله :

ما للعدى جنة اوقى من الهرب

فسمع عبد المومن يقول « الى اين الى اين » فتمم الشاعر بيته ،
بقوله : اين المفر وخيل الله في الطلب

ولما اتم انشاده قال عبد المومن معلقا على القصيدة بقوله :
« بمثل بهذا تمدح الخلفاء » فكان على الشعراء بعدها ان يرددوا هذه النغمة
التي اطربت الخليفة حتى سئمنها منهم ، وفيهم ابن حبوس والجرأوى
والاغماتى أخيرا ، ومعه شاعرنا الامير سليمان الموحدى .

وهناك نماذج أخرى تنزل عن هذا المستوى كما في الهزمية التي هنا
بها المنصور بفتح افريقية ومطلعها :

ضاعت بنور ايبك الظلماء وتباشرت بقدومك الارجاء

وكنت قد اشرت في مقدمة الديوان الى ان الشاعر استعان في هذه
بقصيدة عبد الحق بن عطية في مدح الامير المرابطي عبد الله بن مزدلي :
ضاعت بنور ايبك الايام وكذلك الكافية التي انشدها على اثر موقعة
الارك الهائلة ، فهي كذلك لانقارن بقصيدة الجراوى في الموضوع نفسه ،
كما نرى في عرضها :

وغروب حدك في العدا ما افتكا
لنابى الاسلام ان تملكها
الا اليك من الخطوب المشتكى
حد الحسام فلم تشر الا بكا
ذى ان تصان وهذه ان تسفكا
وحملت ليلا للردى محلولكا
جعلوا دليل الفتح فيه عزمكا
لاك الشكيم كما تلاك المصطكا
جزعا وانكرت النياق المبركا
الى على خد طريح مبتكى
وشبا العوالى للمعالى مسلكا
ومنعت غايات العلى ان تدركا
بعد الذى قد ساءه فاستضحكا
قالت لك الاتدار فيها هل لك
الا ترى بك في البسيطة مشركا
ع رآك يوما في الوغى لاحبكا
قد سرها من قتلها ما سركا
الا النيمن والتبرك باسمكا
لم تدخر لخليفة الا لك
كالكون بوجد ساكنا مثيركا

عزمت جدك للهدى ما ابركا
غضبت وما للدين غيرك ناصر
شكت الثغور الخطب لما لم يكن
وتخاصمت مهج النفوس بها الى
والسيف اعدل حاكم يقضى له
قدت الهدى مثل الصباح تبلجا
بموحدين مصممين عدوهم
وبكل اشوش ان ثنيت عنائه
وبحيث انكرت الجياد مزاحها
اوطأتها هام الكما فلم تضع
وجعلت اطراف الاسنة مدرجا
فتركت غاية كل سبق مبدا
وملأت اسماع الزمان مسرة
اهنا امير المومنين بغزوة
وكائما آلت عليك اليمة
لو ان من صيرته جزر السبا
كرمت نفوس والحياة لذيدة
يعقوب يا شرف الخلافة لم ارد
ان الفتوح عظيمها وجسيمها
تطوى البلاد ولم تزل من غربها

هذي الشام برسلها ويكتبها نفرت اليك تيمنا وتبركا
لم يثنها بعد الديار عن التي جعلتك حلا للحجيج ومنسكا

فهذه القصيدة على العموم لا جديد فيها الا هذا التأنق التي ظهرت به في البيتين الثالث مع الرابع وقد أوتعها هذا التأنق في الفتور الذي نجده في هذا التشبيه بآخر البيت الثامن مما لا يتناسب مع عظمة الموضع وهوله . وليس بعد هذا الا صور مرددة في قصائد المادحين ولكن في البيت السادس عشر مع الذي يليه معنى لم نجده عند السابقين عليه وان كان تناوله في حد ذاته لا بدع فيه ، بل البدع في الصورة التي جعل فيها الشاعر هؤلاء الصرعى من الاعداء مسرورين والسباع تنهشهم وتمزق اجداثهم لان الذين صرعوهم كرام بانتمائهم الى هذا الخليفة فكانهم لذلك صرعا ، ولهذا فقد شاركوا الخليفة سروره بهذا الظفر بهم والنصر عليهم فالنفوس الكريمة تسخو بالحياة وان كانت لذيدة . ثم الابيات الثلاثة الاخيرة تضرب على نغمة احبها الموحدون وهي الحلم بضم الشرق الى الغرب . وفي تلك الموقعة بالذات كانت رسل صلاح الدين شاهدة بعد ما حملوا اليه كتبه .

وبعد باب المديح في الديوان يأتي باب الرثاء

والرثاء من الموضوعات القليلة التي تناولها شعراؤنا ، فكان المغاربة لم يكن في طبعهم هذا النوح والتوجع ييوجون به ويستبدون الدموع فيه ، ويظهرون بمظهر المهيض الجناح ، وان حاول صاحبه ان يحتاط لنفسه في هذا ، كما فعل أبو الربيع ، وهو يرثى أخاه ، حيث قال :

فلو غير محتوم القضاء أطعته لما كان مني للعزاء نصيب
وناب مناب الدمع فيك مهند خضيل برقراق النجيع خضيب

بل ان العربي نفسه حاول هذا ، فقال أبو ذؤب الهذلي :

وتجلدى للشامتين اريهم اني لريب الدهر لا أتضعض

وان امثل ما قاله الرجال في الرثاء والتأبين ، كلمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو يوارى فلذة كبده في التراب ، على كبر وشيخوخة منه « ان العين لندمع وان القلب ليخشع ، وانا بك يا ابراهيم لمحزون ، انا لله وانا اليه راجعون » .

ومهما يكن فان قلة قليلة من شعرائنا حفظت لهم مراثي في ذويهم ،
وكانوا على اتصال بالاندلس الذى قلده في أدبهم عامة أولهم أبو الزبيع
سليمان .. اذ لا نعرف من سبقه بالمراثي في أدبنا ، وثانيهم ابن رشيد في رثائه
لابنه محمد بتلك المراثية المؤثرة التى يقول فيها :

فان التفت فالشخص للعين ماثل وان استمع فالصوت للاذن طارق
وثالثهم أحمد بن شعيب الذى رثى جاريته صباحا بمراث ، يقول في
احداها :

لما ذهبت بكل حسن أصبحت نفسي تعاني شجو كل الانفس
وغير هؤلاء ، ان صدر عنهم رثاء ، فقد كانوا ماجورين فيه مامورين
او مواسين ، كما فعل ابن خبازة ، في العهد الموحدى الاخير ، وكان على
اتصال بالاندلس كذلك ، فقال قصيدته في رثاء ابن للوزير ابن الجد ، التى
استهلها بقوله :

أرجة الصعق يوم النفخ في الصور ام دكة الطود يوم الصعق في الطور
وكان هذا البيت ، يطلعنا على التكلف في هذا الرثاء ، ويكاد يقول
لنا — كما يقول المريب — خذوني ، خذوني ،،،

وكذلك الشأن في القصيدة التى رثى بها أبو عثمان سعيد الجزولي ،
ابن محمد الشيخ السعدى الملقب بالحران ، ومطلعها :

اتروى الامانى والامانى سراب وتغنى المغانى والمغانى خراب
فهذان الرجلان ، كانا كالمقنبي ازاء الرثاء ، مامورين او مواسين ،
ولم يكونا معبرين عن دخليتهما ، كما فعل الأمير أبو الربيع ، وبعده ابن
رشيد ثم ابن شعيب .

ولم يرتفع هذا اللون الا قليلا ، وفي العهد العلوى بنسبة خاصة ، الى
ان كان العصر الحالى الذى عمل فبه التقليد جدا فصار شعراؤنا يرثون ،
وتعلموا من غيرهم ذرف الديموع الساخنة وغير الساخنة ، كما تعلموا غيرها
من الفنون التى لم تنبع من منابعهم المغربية الاصيلية ، بل كانت تقليدا
للشرق في جانب والغرب في جانب آخر .

والنتيجة أن الرثاء غريب علينا ، عرفه أدبنا بعد ما عرف باقي
الموضوعات عند شعرائنا خاصة ، فكان أول الراثين أبو الربيع .

وهذا مطلع القصيدة البائية التي رثى بها أخاه ، وأشرنا إليها :

وان طال عمر فالحياة تريـب
ركونك منها للوفاء عجيب
وسهم الرزايا ما أراد مصيب
وصدري كما قد تعلمان رحيب
كما مر بالجمر الدفين هبوب
وتقصدي عمدا بها فتصيب
بكاد لاحداها الحديد يذوب
منونا لها في العالمين ديب
لها كان منى للعزاء نصيب
خضيل برقراق النجيع خضيب
فداء كما شقت عليك جيوب
سواه على حمل الخطوب حسيب
رمثني بما لا استطيع خطوب
سوى عبراتي والعزاء ضروب
فلول بخدي للدموع ندوب
لكنك أبا حفص الى تؤوب
فكيف و « زكار » عليك رقيب
ولكن غريب ما تقول غريب
« أجارتنا ان الخطوب تنوب »
تكل شمال دونـه وجنوب
لها بين أحناء الضلوع وجيب
وبين الأسى والصبر فيك حروب
على أحمـد الا عليك أذوب
تسح عليك رحمة وتصوب
بحيث يلذ الملتقى ويطيـب
سميع لما أدعو به ومجيب

بعيد مدى العمر الطويل قريب
وليس عجيبا غدرها بك انما
خليلي قلبى للخطوب درئية
اتانى نعى ضاق صدري بحمله
فمر بقلب لم تدمل قروحه
فحتى متى تبرى الرزايا سهامها
وحتى متى القى رزايا ممضة
جريت أبا حفص مليا فلم تفت
فلو غير محتوم القضاء اطعته
وناب مناب الدمع فيك مهند
فشقت قلوبا فيك لم ترض مثلها
ولكن قضاء الله حتم فليس لى
خطوب اذا قاومت أوكدت بعضها
فها أنا صبرا للحوادث لم أجد
مكان بسيفى للقراع وليته
فلو آب الف رحمة لمحبه
فتبصر ما القى ولست بآيب
غريب ولا كالحى يرجى لقاءه
بحيث شدا الكندي قبلك الفه
فيا عمر الادنى الي وقبره
يقولون لى صبرا ونار تلهفى
وكيف أبا حفص اطيع تصبرا
فان ذبت صبرا أو أسى ما علمتنى
فسقى ثراك صوب غمامة
واعطاك رضوان الذى انت جاره
وملا ذاك القبر نورا وانه

انها القصيدة المؤثرة الجزلة بأسلوبها الفائقة بمعانيها باقى مرآئيه ،
 أما تناوله لعناصرها فهو فى هذه القصيدة ، ينظر الى الحياة نظر المتأمل فى
 حقيقتها المعتبر فى مآلها ، فيقول انها لا أمان لها ولا بقاء لحالها فمداها
 وإن طال ، فهو وشيك النهاية قريب ، فهذه الحياة ، وإن طال حبل العمر
 فيها ، تبعث فى أصحابها الريب من أمرها . وهذه قضية مسلمة ، ولا
 عجب منها ، ولكن العجب انما هو من الانسان الذى تستهويه الحياة
 ويخلد الى وفائها الموهوم منها ثم جرد من نفسه رقيقين له كعادة العرب
 قديما ، وصار يبيثها ما يلاقى من مصائب فى هذه الدنيا ، مصائب تنرى
 واحدة بعد أخرى لا تنقضى ولا تمهله ، كأن صدره دريئة لسهام الرزايا .
 تتلقاها لا تحيد عنها ، وأفصح عن ذلك فى البيت بعده ، بأنه قد جاءه
 بما ضاق صدره عن تحمل نعيه ، وإن كان معروفا لهم برحابة الصدر وتحمل
 الأهوال ، لقد مر هذا المصاب الجلل بقلب لم تضمد جروحه ولم تدمل قروحه ،
 من مصاب آخر تقدمه ، فكان هذا بمثابة هبوب الرياح على الجمر
 الدفين ، الذى كاد أن ينطفى ويهدم ، لولا اشارة الرياح وشبها لتلك النيران
 من جديد ، وهنا ينفجر باللائمة على هذا الدهر ، فحتى متى يستمر فى تلقي
 الضربات القاصمة منه ، وحتى متى تبقى الرزايا تريش له السهام وتبريها
 فتقصده بها ، عامدة فى غير شفقة ولا رحمة ، انها لرزايا ممضة حقا فتاكة
 هدامة ، ولو سلطت احداها على الحديد لذاب من شدتها ولهيبها . ثم تمثل
 أخاه الفقيد فصار يخاطبه ، بأنه لو لم يكن حنفة قضاء وقدرنا وعلى
 الانسان أن يسلم أمره لهما لكان قد امتشق الحسام وأخذ له بالثار ، ولما
 كان له عزاء ولا سلوان عن هذه المصائب التى حلت به ولكان قد حل محل
 الدموع سيوف تتخزل دماء ، فكانت القلوب تشق من أجله ، كما شقت
 الجيوب من الحزن عليه ، والحسرة من فقده ..

ولكن قضاء الله حتم على كل أحد ، فليس له اذن ، الا أن يتحمل
 المصيبة فى صبر ، ويحتسب أمره لله ، الذى ليس له غيره حسيب ومع
 هذا فهي خطوب عظام ، لا يمكن أن تقاوم شدتها ، فلو حاول بعضا منها
 لرمته بما لا يستطيع تحمله ، وعلى هذا فهو لا يجد من نفسه الا
 العبرات منهمة ، فهي عزاءه الوحيد ، والعزاء ضروب وأنواع ، فهي بخده
 ندوب ، كما أن بسيفه ندوبا من قراع الأبطال وإن حبه لأخيه لشديد ، بحيث

لو كان الحب الجم يجعل الآلاف يؤوبون الى محبيهم رحمة بهم وشفقة ،
لكان أبو حفص أخوه يؤوب اليه فيبصر منه ما يعانى من آلام الفراق ، وما
ينجرع من مرارة فقدان ، ولكن هيهات ، وجبل زكار رقيب عليه ، لا يتركه
يغادر مكانه مع انه غريب بذلك الجبل ، ولكنه ليس كالغريباء، يعودن الى اهلهم
بعد الغربة والافتراق ، فيرجى منه اللقاء ، ولكنها الغربة الابدية واغرب
منها ، ما يقال فيها ، ومن قبل شدا امرؤ القيس فى مثلها
« اجارتنا ان الخطوب تنوب واني مقيم ما اقام عسيب »

فيأمر الأدنى الى قلبى ، البعيد مكانه عنى ، بحيث تكل عن قبره ، ربح
الشمال والجنوب ، التى تهب علينا من بعيد ، انهم يقولون لي صبرا ، وكيف
لي بالصبر أطيعه ، وبينه وبين الأسى حروب ضروس ، لا يهدأ أوارها ،
ولا تنطفى نار لظاها بين أحناء الضلوع الواجبة الخافقة ، فان ذبت صبرا
أو أسى ، فأنت عليم بأنى ما كنت لاذوب على أحد سواك ، وما كانت نفسى
تذهب عليه حسرات .

فسقى الله ثراك ، بصوب الغمام ، يسح عليك رحمة ويصوب ،
واعطاك رضوان الذى انت جاره ، وهو أبونا ، فيلذ لكما الملتقى
ويطيب لكما الانس ، وملأ ذلك القبر نورا من لدنه ، فانه سميع الدعاء
مجيب .

بهذا تنتهى المراثية ، التى ابدأت وأعادت فى التعبير عن هذا الحدث
الاليم ، على طريقة الاعراب ، تتخللها موعظة واعتبار ، وتتجاذبها تعاليم
الدين ، والرضى بقضاء الله ، ثم الدعاء بالرحمة والغفران ، والرضوخ
الى الصبر ، وان كان لا يطاق .

وله فى هذا الاخ قصيدة اخرى ، دون هذه فى تصوير الفاجعة ،
استهلها بقوله :

نعى المجد ناع فأبكى السما	واسبل دمعاً لها عندما
نعى اطيب الناس جرثومة	وخير ملوك الدنيا منتمى

الى ان يقول :

احقأ أبو حفص المجتبى الى جدث شخصه أسلمما

وملحمة أصبحت أيما
أقامت على قبره ماتما
حروب العدى الأعين النوما
عيون المها الصارم المخدما
لطمعن نحور العد للهدما
ويلبس ثوب الغنى المعدما
فقد أودع المطر المثجما
كفاه بأن ضمن المرزما
على حين كان ندى قد طما
فلم نأت في فعلنا مائما
بعلم النبى الذى علما (1)
ولا نتعدى لها معلما

فكم معرك قد غدا عاطلا
فلو أنها تستطيع البكا
فمن ذا ينبه أن أيقظت
ومن ذا يجرد أن أوقظت
ومن ذا يسدد فى مأزق
ومن ذا يجود على معشر
فلا تدع سقيا لبطن الثرى
وقل للفهام رويدا فقد
فقد أودعوا البحر فى رمسه
أما لو شققنا عليك الجيوب
ولكننا نأتسى فى الأسى
فنجعل آدابه شرعة

والأبيات الثلاثة الأخيرة فيها ضعف تركيب وفتور معنوى .

وبعد الرثاء يأتى النسيب ، وفى أوله هذه القصيدة البديعة لما فيها
من حوار وقص ووصف ، كما نجد عند ابن أبى ربيعة :

قفوا ساعة حتى ازور ركاها
واشكو اليها أن أطالت عتابها
والا فحسبى أن رأيت قبابها
على غير بين ما علمت سكاها
وحطت على البدر المنير نقابها
ويشكو النوى من قد أطار غرابها
ولكنها نار نريد التهابها
هى الخمر أرشفت الغداة حبابها
وعاقت على بعد المزار خطابها
لعلى أرى يوما الى كتابها
فقد زاد ما بى إذ رأيت جوابها

أقول لركب ادلجوا بسحيرة
وأملأ عيني من محاسن وجهها
فإن هى جادت بالوصال وأمعنت
وقفت بها اشكو واسكب عبرة
فأومت برخص من بنان مخضب
وقالت أيكى البين من قد أراده
إليك فخذها لاسلام مودع
فلا عجب أن قد سكرت وائما
ولما تناءت دارها ونباعدت
كتبت اليها اشتكى الم النوى
وكنيت أرى أن الجواب تعلل

وقد جعل ابن سعيد « الفصون اليبانة » الأبيات من مشهور غزله ،

(1) يشير الى ما قاله النبى وفعله عند وفاة ابراهيم ابنه ، وتقدم ذكر ذلك .

وذكر أربعة منها الثلاثة الاولى ، والرابع هكذا :

فقبلتها فوق اللثام فقال لى هى الخمر أرشفت الغداة حبابها
وعلى كل فهذا نسيب باهر : فيه توديع ولوعة ، وفيه حسرة وعتاب ،
وفيه تمل بالنظرة واختلاس لزمة العناق والقبل ، ثم فيه تراسل وتشك
بما يجد من لوعة النوى ووصف التجاوب منها وما كان له من انعكاسات
مفاجئة له .

ولكن لا شئ بعد ذلك فى وصف الحبيبة الا ما كان من « محاسن
وجهها » ورخص بنائها المخضب ثم العود الى الوجه بالبدر المنير وأخيرا
رضابها المسكر ، وكل ذلك لا يحمل جديدا ولا يبعث فى الصورة فتنة (1) بل
فيه فتور بنحو « واشكو اليها ان اطالت عتابها » .

نعم ان طابع القصة فيها ، ربما راق أولئك الباحثين عن القصة فى
أدبنا ، وهى على اختزالها فى الأبيات ، لها حبكة الاقصوصة وان لم يهدف
الشاعر الى اتقانها ، وهذا فى نظرنا ما يزيد اعتبارا ، عند الناقدین
الطلقاء فى نقدهم ..

وباب النسيب هو اوسع الابواب فى الديوان ، يشمل اغراضا عديدة ،
كما يضم اساليب متنوعة ، ومن الجديد فيه بالنسبة للأدب المغربى ولما سبق
من مراحل بالخصوص وصف مجالس الخمر وما يتبعها ، كما سنرى ،
وسبق منا أن أذعنا (2) فى سبيلها نماذج ، قارنا بعضها بما هو فى رباعيات
الخيام ، وغالب خمرياته ، كان ممزوجا بغيره ، ومرتبعا بالزمان والمكان ،
وما يعتورها فى تلك اللحظات ، التى يعتبرها خلصة .

يقول أبو الربيع فى هذا الغرض :

وتنبه ترى ديمة تمطر	ووجه الصباح لها يسفر
وكاند لكن كافوره	بدا فيه واكتتم العنبر
على حين فل الدجى مدبر	وللصبح فى اثره عسكر

(1) وحتى المكاتبات بين المحبين نجدها كثيرا فى شعر ابن أبى ربيعة المذكور .
(2) سابقين ، وأخبرنا بعد ذلك بتأليف الدكتور الجرارى فيها ، ولم نطلع على هذا التأليف

وبين الغمام ومطوره
 اذا التاح من برق ذا ابيض
 وللقطر في جيد غصن النقا
 وفي عاتق الروض من سيفه
 كأن الرذاذ على زهره
 وما عبق الروض طيبا لنا
 تنبه الى شرب مثمولة
 يدل صفاتها واشراقها
 لبابل في جفنه نفثة
 اذا ثناء أرسلها نظرة
 فيا عاشقين على رسلكم
 متى تستفيقون سكر من

من الروض كالحرب أو أكثر
 تأطر من غصن ذا اسمر
 لآل من الماء أو جوهرا
 نجاد ولكنيه أخضر
 يفت من المسك أو ينثر
 ولكنيه للحيا يشكر
 يطوف علينا بها جؤذر
 على أن من خده تعصر
 وللحسن في خده أسطر
 فتسكر اضعاف ما يسكر
 من الشرب سائكم أحور
 اذا فنيته خميره ينظر

هذه القصيدة تبدو فيها شخصية هذا القائد الحربي ، فانه بالرغم من كونه واصفا لجمال الرياض وأرج الأزهار ونسيم الصباح وغير ذلك من مباحج الطبيعة ، جعل ذلك الوصف قائما على ما اعتاده في خوض المعارك والحروب ، فالصبح عسكر يتعقب فل ظلام الليل وهو منهزم ، أو الدجى المدبر ، والمطر يسقط على الروض فيحدث أصواتا كأنها الاصوات التي تسمع في الحروب أو أكثر وان لم يوفق في هذا وثأنه كلمة أكثر . وهذا البرق يبدو وكأنه السيوف البيض تلمع ، وتتقاطر من هذه الاغصان مياه كدرة كأنها الرماح في سمرتها لما كانت تتحمله من غبار وأتربة . ولكنه رق بعد في جعل قطرات المطر على جيد غصن النقا لآلىء من ماء أو جوهرا وان كان ذكر الماء فتر من بهاء الصورة ، ثم عاد الى حاله ، فجعل على عاتق الروض من سيفه نجادا أخضر وهكذا وجدنا هذه الاوصاف حربية ، وهذا طبيعي ، فكل يصف ويشبه ، اذا كان صادقا في وصفه وتشبيهه بما يعتاده في حياته ، وبعد هذا نجده يرق مرة أخرى ، فالرذاذ على الزهر يفت مسكا أو ينثره ، والروض ما عبق طيبا الا ليشكر الحيا ، ثم يتوجه الشاعر الى رفيقه فيحثه على شرب معتقة من بد سائيه الجميل (1) وهذا

(1) ولعل الابيات المبدوءة بهذا مستقلة عن سابقتها ، كما نرى ان البيت السابع حقه ان يكون سادسا ، كما ان الثامن من حقه ان يأتي بعد المذكور سادسا وحقه ان يكون سابعا .

جديد عندنا لم تذكر صراحة في السالفين من شعرائنا ، كما ذكرها شاعرنا ،
وجعلها في صفائها واشراقها ، كأنها عصرت من خد هذا الساقى الساحر
بجماله البابلى ، والمذهل بنظراته ، ثم ينصح شربه بالمهل . فهذه الخمر
ان نفدت فان سكرهم سيستمر من نظرات ساقىها الجميل وبذلك فلن
يصحوا من سكرهم هذا .

ومن خمرياته قوله : داعيا الى المنادمة والشراب ، بعد ما ولى رمضان
واقبل شوال ، يغرى بالمعتق من الخمر ، وطالما اشتاق هو اليها ولهذا
يلح في طلبها ليكرع من كبار كؤوسها مع صحبه :

شوال يدعو بالشراب البالي	فأصخ اليه ولا تكن بالسالي
اني اليه لعاشق متشوق	فابعث الي به بغير مطال
واستعمل الكأس الروية واسقين	جلساءك الندمان بالعلال
حتى يخرروا راكعين وسجدا	لا يعقلون لسورة الجريال
وصل العبوق الى الصبوح ولا تكن	في شربه بالعاجز العطال
وانعم اخى في غبطة موصولة	لا تنقضي حتى الى الدجال
والدهر ياتي كلما تهوى على	ما تشتهي في سائر الاحوال

وكأنى بشوقى رحمه الله ، اطلع على هذه الابيات ، وهو بالديار
الاسبانية ، أو الديار التركية ، حيث ديوان الشاعر ، فقال قصيدته :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مستاققة تسعى الى مشناق

ومهما يكن فهذه خمريه عارمة ، تدعو الى السكر المطبق ، ولا تتورع
ان تقحم « الركوع والسجود » الى جانب التعبير العامي وهو « بالعلال »

ويقول من أخرى :

افدى الذى اهدى الكؤوس بكفه	وأراحني من هجره وعتابه
فمدامنى من كأسه ولحاظه	وننقلى برضاه رشف رضابه
فلئن سكرت لقد شربت مزاجها	من ريقه وجفونه وشرابه

ومن تأنفاته قوله في هذا الساقى الجميل الذى أسعفه بالوصال ، وأراحه
من الهجر والعتاب ، فكان له سكرات ، من لحاظه ورضابه وكؤوسه ،

دونها نشوتنا أبى نواس بقوله :

« لى نشوتان وللندمان واحدة شىء خصصت به من بينهم وحدى»

وكذا قوله : فى هذه الجميلة التى كانت تسقيه فصرف عنايته الى جمالها وقوامها وحليها وحركاتها ، وطباعها ، وما تبعث من فتن ويحذر من فتكات الحاظها ، ثم ينتهى الى تأنته فى تناول شرابه :

من لي بها مثل الغزالة منظرا	ماء الجمال يجول فى وجناتها
خودا ترى أن الوصال اساءة	وتعد طول الهجر من حسنها
سلت لواحظها علي سيوفها	فحذار ثم حذار من فتكاتهما
بهرت محاسن وجهها فكأنها	بدر الدجى يلتاح فى صفحاتها
والنجم يخفق فوق أطلعها ولا	كمقلد الجوزاء فى لباتها
وكانها لدن الفصون اذا انثنت	سرت ليان العطف من حركاتها
قامت تميس وكفها مخضوبة	بشعاع ما قد ضاء من كاساتها
وتشاركها فخصابها من راحها	لكنما الاسكار من لحظاتها
نفسى الفداء لها شريكة كاسها	فى لونها وصفائها وصفاتها

وهكذا رأينا أن هذه القطعة من أجمل ما واجهنا من خمريات الأمير أبى الربيع فمزج هذه الخمرية الانيقة حقاً بما زانها من التغزل فى هذه الفاتنة بجمالها ، الساحرة بفنونها ..

ومن خمريات قوله مخاطباً نديمه ليسقياه ، فينفيا الهم الجائم على صدره ، فهو عاكف عليها ، لا يصغي الى لائمه ، فهذا لا يفهمه كما تفهمه هذه الخمر المعتقة الشجيعة مثله ، أنه يحث الكاس ، مع هؤلاء الجميلات ، وظنه بالله جميل ، فهو ضامن بهذا النجاة لرفاقه ، يدعوهم فلا يضيعوا فرصة فى هذه الرياض اليانعة أغصانها الغناء بها وبعضا فيرها :

يا خليلي اشربا واستقياني	وانفيا الهم بنبت الدنان
أنزلاها درة كالآلى	وارفعها وردة كالدهان
خمرة تذكرنى عهد كسرى	وابن ساسان وعبد المدان
لست أصغى لعذول عليها	شان من يعذلني غير شان
فأنا وهى شج ما أردنا	فأهبا بالضنا عارفان

ان تشكا في ضناى فسلاها	او تشكا في ضناها فسلاني
من يحث الخمر في غير كبر	هائما بالغانيات الحسان
ويكون الظن منه جميلا	كل ما يلحقه في ضمان
فاغتبقيها يا خليلي ولاء	واغتئم نومة عين الزمان
حيث عود الروض عود فصيح	ومن الأغصان فيه مثنان
ومن الطير قيان عليها	ومن الزهر سنور القيان
واذا الشمس أوان الغروب	لونها احمر كالأرجوان
عندما تسقط في الماء نارا	يصعد الليل كمثل الدخان

فهذه قطعة خيامية ، مزج بها الفرع بالهموم ، والتمتع باللحظة قبل
اطباق المنون ، واشراك الخمر في تلك الأحاسيس ، التي تبادل صاحبها
وهذه كآبة في قوله حاضا على الشراب ، وقت الصباح ، لان الطير على
الجبال تغرد ، بدعائها الى الصبوح ، فاغتئم وانهض فانك ستنام طويلا
فهى نغمة خيامية كذلك :

أتاك بالصبح غريد على علم	يقول قم فاصطبح يكفيك لا تنم
أما ترى الليل قد مالت كواكبه	وقام للصبح داعيه على قدم
ولى وجيش بياض الصبح يطرده	فعل المظفر في أعقاب منهزم
لا تؤثر النوم في حال تضرن بها	لكم تنام طويلا بعدها وكم
وقد نصحتك في شرب الصبوح فلا	تضيع النصح انسى غير متهم

وقف في هذه القطعة ، موقف ابن التمار في قوله :

« أما ترى الليل قد ولت عساكره مهزومة وجيوش الصبح في الطلب »

ونحوه قول الرفاء :

« أما ترى الصبح قد قامت عساكره في الشرق ينشر أعلاما من الذهب »

وكذا يقول التنوخي :

« أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الليل كيف انصاع منطلق »

ومن تأنقه في الخمریات هذه القطعة التي كرر فيها ما سبق في قطعتين

سالفتين ، وهى فى منتهى التصنع خصوصا بالبيت الاخير منها فقال :

سقاني الراح سلسالا عتيقا وعوض من مزاج الماء ريقا
هلال يزدرى بالشمس حسنا فلا وجد المحاق له طريقا
اذا ما الشرب اعوزهم رحيق فمن اجفائه يستي رحيقا

ومن اجملها هذه القطعة التى مزج فيها الخمر بالغزل ، وزادها
جمالا هذا الوزن المترنح ترنح ذلك الشادن الغنج الآتى ذكره كما
نرى لطفنا بصورها لولا البيت الخامس منها الذى لآكه الشعراء كان
عندنا آخرهم الأغماتى :

الا يا صاح حث الكأ	س ثغر الصبح مفتر
ولا تبخل علي بها	فقد طابت لي الخمر
بكفى شادن غنج	يميل وما به سكر
انا السكران من مقل	ثوى فى حشوها السحر
ايا من قدده غصن	ومن صفحاته بدر
تحمل خصره دعصا	فيشكو ثقله الخصر
سبى قلبي وعذبه	فهل فيما أتى عذر
سينبىء لحظه عنه	اذا ما أشكل الأمر

فالقطة لا تقل جمالا ، عن خمريته التالية ، لولا البيت الذى
أثرنا اليه .

« تحمل خصره دعصا فيشكو ثقله الخصر »
فهو بدوى صحراوى .

وكذا قوله فى هذه التى تعرض فيها للربيع ، ولأمامه الغر بثمارها ،
العطرة بأريجها ، الزاهية بألوانها ، الغردة بطيورها ، ثم انتهى الى مجالس
الانس التى يديرها جميل :

لله يوم أينعت تمراته	سفرت لنا عن وجهها لذاته
وتهللت فرحا أسرة وجهه	ونباشرت بلقائنا وجناته
يوم من الايام الا أنه	رقت حواشيه وغاب وشانه

التي الربيع عليه حلة وشيه فتضوعت بنسيمها نفحاته
والطير تصفر في الغصون كأنها وتر تشوق قلوبنا نغماته
والانس مبثوث يدير كؤوسه رشا تغاير في الجمال صفاته
لم يدر شاربها لحسن جفونه أمدا له صرعه أم لحظاته

فالجمال يتجلى في هذه ، ببث الانسية فيها ، كما سبق في الأخرى ،
فاللذات كانت محجبة فسفرت عن وجهها ، وحسرت عن خمارها ، واليوم
قد تهللت أسرة وجهه ، فرحا وسرورا بهم ، ونباشت وجناته بلقائهم ،
والربيع قد القى عليه حلة وشيه ، والطير على أغصانها ، تصفر كأنها وتر ،
تشوق نغماته القلوب (1) .

بعد هذه نجد قطعة أخرى بداها بذكر حبيبته التي اتيح ان يتلاقى
معها بعد الفراق في يوم شكره . ثم شكر الفراق الذي به عرف فضل التلاق
وأخيرا عرض للشراب ، بما عرض به من قبل ، فقال :

لله يوم وجهه منهلل ملأ القلوب محبة وسرورا
بلقاء من سمح الزمان بقربه وشفى بتعجيل الاياب صدورا
فأدال من سمر الحداة حديثه وأدال من شجوى الطويل سرورا
لا ذنب بعد اليوم عندى للنوى أن صيرت وطن الحبيب مزورا
سبب البشارة باللقاء فراقه لولا الفراق لما رأيت بشيرا
فارفع شموسا من رحيق سلسل وإذا شربست فالتهن بدورا
في ود من الف الفار تدللا وسطا علي فما وجدت نصيرا

وهذه أخرى يقول فيها ان الجو قد طاب للمنادمة والشراب ، فيدعو
رفيقه للانغمار فيه ، ومصاحبة غادة جميلة ، تفوق البدر في جمالها والغصن
لذن قوامها :

الجو يبكي بدموع سجام والروض يبدى عند ذاك ابتسام
فأفضض من الدن لنا ختمه فأول اللذة فض الختام

(1) وان كان التعبير هنا خائنه ، حيث جعل الطير « تصفر في الغصون » وترا ، وتقدم لابن
زباج ما يفوق هذا ويفضله وهو :

والطير قد خفقت على أمانها تلقى فسون الشدو في أسلوبها
تشدو وتهتر الغصون كأنها حركاتها رقص على تطريبها

واعكف على حث كؤوس المدام
تصحو فما في فعل ذا من حرام
وقدها اللدن قلوب الانام
او قستها بالغصن أين القوام
في الحب لذة وفيه اكتتام

واسحب ذيول اللهو في لذة
ولا ترى الا الى نشوة
وهم بخود يستبي حسنها
ان قستها بالشمس أين السنا
وعاطها الكأس جهارا فما

ومثلها قوله في أخرى :

قد بدا جنح الظلام
عصرت من عهد حمام
لحظه حد الحمام
فسبى كل الانام

قم ادر كأس المدام
واسقينها سلسبيلا
من يدى احوى رخيم
قد حوى الحسن جميعا

وهي لا تختلف عن الاولى الا في اقتضاب هذه واطناب تلك .

وكذا قوله في ساق :

وكأس المدامة في راحتته
فخلت المدامة من وجنته

وساق يطوف علينا ضحى
وقد أشبهت راحته خده

فهذا الساقى في الواقع كتلك ما اتى به الا لهذا التشبيه الجميل ،
لا لجماله هو ليسحر به الشاعر .

ومن النسيب قوله في التلاقي بعد الافتراق (1) :

وسكن لوعة القلب الصديق
على نفسى بانلاف الهجوع
لهم كتألق البرق للموع
تحيرتها مساجلة الدموع
كما التقت الطباء لدى الشروع
فلم تخل المدامع من هموع
ومن فرح بهم يوم الرجوع

نقضى بينهم فشفى ولوعى
تقضى بعد أن قد كاد يقضى
دنوا فتألفت نار اشتياقى
تلاقينا على كأس فكانت
فلو ابصرتنا يوم التقينا
بكينا في الفراق وفي التلاقي
فيوم فراقهم أسفا عليهم

(1) ونبه من الحمریات ما نجد في البيت الرابع منها .

ويقول في تامل التلاق بعد الفراق :

وحسبه منه ما تحويه اضلعه	حسب الهوى من قتيل الحب مصرعه
فكلما رآه أبدته اضلعه	يروم كتمان ما يلقي أسى وضنى
كيف العزاء وأدنى البين أوجعه	قالوا تعز وقد بانوا فقلت لهم
فصار موضع من أهواه موضعه	أصاب سهم النوى قلبى فأثبنته
سقاء من صابه ما بت أجرعه	لا عذب الله قلبا بالفراق ولا
صمت عن العذل أذنى ليس تسمعه	لا تعذلونى فما أصفى لعذلكم
بعدا، وشملنى يعافيكم ويجمعه	وادعوا لنا فعسى من ثمت شملهم

والغالب انه نظر في هذه الابيات ، الى قصيدة محمد بن زريق البغدادي :

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
فهذا المطلع هو ما تضمنه البيت قبل الأخير ، أما الأخير منها ، فيحاذى
البيت الأخير من القصيدة المذكورة :

عل الليالى التى أضنت بفرقتنا جسمى ستجمعنى يوما وتجمعه
وعلى هذا فان البيتين الأخيرين من أبيات شاعرنا ، يفصحان بأنه
نظر فيها الى قصيدة ابن زريق والتزم وزنها وقافيتها تماما .

ويقول مبشرا بالعودة الى الحبيب :

قرب من العذب الشهى المورد	يا أم حفصة والمطي بنا على
ومسلم ان شاء ربي في غد	هل بلغتك الريح أنى قادم
مذ شط عنك مزارها لم ترقد	وممتع من ناظريك لو احظا
صرفت عن الامر الالهى الاوكد	لله أية عزيمة وسريرة
حر الهجيرة فى الفلاة الفد فد	فأنتك تنفخ فى الربى لم يثنها
وأغن كالظبى الغرير الاغيد	بأغر كالغصن الرطيب قوامه
بالرزمين وقرطها بالفرقد	فيئانة فرعاء تحسب عقدها
يا حسنه من عسجد فى عسجد	صاغت لها شمس الاصيل سوارها
هذى الزيارة لم تكن فى موعد	كيف امتنعت الوفا من وصلنا

ندعوك للقرى وأنت أيلة
تلك اللحاظ وان شربت سلافها
من يعشق الالفاظ غير مفند
عجا لساق منهما ومعربد

ونحو هذا يقول مبتهجا بورود كتاب بشر بابلال الحبيب من مرضه :

شفى ابلالكم حسر الغليل
وأنس وحشة أودت بنفسى
فضضت كتابكم فوقفت منه
فسرى ما بقلبي من شجون
وكدت اظير من شوق اليكم
واني والنوى تذف وسيرى
لاذركم مع الساعات ذكرى
وما لي حيلة أرجو دنوى
سأهدى ما بقيت لكم سلاما
وأبرا سقم مشتاق عليل
وما أبقت سوى جسم نحيل
على ما سر من خير جزيل
وكنكف ما بجفنى من همول
ومن وجد لبينكم دخيل
حثيث فى الحزون وفى السهول
تشوق لى الغدو وفى الاصيل
بها منكم سوى صبر جميل
كريح الورد أو ريا الشمول

فهذه أبيات تتضمن رسالة عائلية كذلك ، لا دخل فيها للنسيب

وهذه شكوى وحنين :

رمتنى صروف الدهر من كل جانب
فلو أن هذا الدهر ينصف شاكيا
ولو أنه يجرى على العدل حكمه
لقد غص لما أن رأى جمع شملنا
فما زال يسعى فى التفرق بيننا
فيا غائبا غص الزمان بقربه
لئن غبت عن عينى لشخصك حاضر
فشكت مؤادى بالسهم الموائب
لفرق ما بينى وبين المصائب
لجمع ما بينى وبين الحوائب
تزين لآليه نحور الكواكب
فلما نأى الفى أتى بالعجائب
فأسهمنى منه ضرب النوائب
مقيم بأثناء الحثى غير غائب

ويلاحظ فى هذه القطعة صورة مكررة ، فى المصراعين :

لقد غص لما أن رأى جمع شملنا
فيا غائبا غص الزمان بقربه

أما البيت ؛ فما زال الخ فهو ولا شك من قول أبى صخر :

عجبت لسمى الدهر بينى وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ونحوها قوله :

كيف التصبر والاشواق تزداد
والدهر قد عاق عن لقياكم حسدا
فكلما قربت منى دياركم
فالقلب في حرق والجفن في أرق
والدمع يزرى بقطر المزن وابله
فلو تركت ركبت الهول نحوكم
انني وان فاتنى عيد بربكم
اذ نلتقى حيث ثغر الروض مبتسم
يا قرب الله ذاك الروض ان به

والدار تنأى وما للوصل ميعاد
والبين جيش والافكار اجناد
ينأى المزار كأن القرب ابعاد
وللبلايل اصدار وايراد
وللجوانح ابراق وارعاد
وان وثى بي أعداء وحساد
حسبى بلقياك أعراس واعباد
والنهر مضطرب والغصن مباد
تالله ما شاء وارد ووراد

فما اصدق هذه الابيات وما ابدعها ، لولا هذا البيت المتصنع فيها
المفرط بمبالغاته :

والدمع يزرى بقطر المزن وابله وللجوانح ابراق وارعاد
ولولا هذا الفتور في البيت الاخير ، وقد لببت الصناعة بنهايته في رواد
ورواد :

ويقول في الربيع :

حي الربيع بما وشت ازاهره
ودبجت فوق متن الروض من حل
من نرجس ساحر الالفاظ ذى غنج
هذا يضاحك وقع الطل عن شنب
بما تضوع روض الزهر غب حبا
لا يحسب الناس ان الروض فاح لهم
وفي الشاء جزاء ما نظمت ولو
سرى مع الليل خيرى وربتما

ونظمت من اكاليل على الشجر
ونمقنه بألوان من الزهر
ومن اقحاق نقى الثغر ذى اثر
وذا يلاحظ عطف النهر عن حور
نأكد الشكر للنعمى على البشر
طوعا ولكنه يثنى على المطر
لم ينظم المدح في الاشعار لم يسر
لاقمى النسيم فؤادا اطيب الخبر

نلاحظ ان الابيات بدأت على نسج بديع ونظم لم ينخرم الا بنهاية البيت
الثانى عند قوله :

ونمقته بألوان من الزهر

اذ الضمير المستتر في نمقت عائد على الأزهار فيكون التعبير هكذا « نمقته الأزهار بألوان من الزهر ، فلو وقع الضمير محل الظاهر وهو الزهر ، لسلم التعبير بجلده البلاغى ، أما وهو كما هو فلا محل فيه للخروج عن مقتضى الظاهر ، ولزم « نمقته بألوان منها » والبيت الخامس ، وهو بها تضوع الخ ، يمهد للبيت السادس ، لا يحسب الناس الخ ، وهو قضية ردها الشاعر وسبق منها قوله :

وما عبق الروض طيبا لنا ولكنّه للحيا يشكر

وهذه التفاتة جميلة لو اقتصر في هذه الابيات ، ولكنه انطلق منها الى نفسه ، حيث جعل الثناء عليه جزاء ما نظم ، لأنه كما قال « ولو لم ينظم المدح في الاشعار لم يسر » فهذا وجوم ما اشد ما كنا عنه في غنى ، ونحن نمرح في هذه الرياض ، ونطير بخيالنا ، فنقع كالطيور على اكاليل من دوحها ، والطبيعة يضاحك بعضها بعضا وعراسها تتبدى في غنج فينبعث أرج العطر فوحا .

وقوله في قطر الندى ، متخلصا في ذلك الى بث شوقه واستعادة ذكرياته الجميلة :

وقطر الندى خاف على الحس وقعته	يحوك من الأزهار وشيا محبرا
وينظم اجياد الفصون فلا يرى	ويعلق أذن الآس قرطا مجوهرًا
لقد شاقنى أنس تقضى جميعه	ولم يبق للمشتاق الا تذكرا
الا هل لذاك العهد بالروض عودة	فنصهر غصن الوصل ريان اخضرًا
وعل صباه ان وجود بنفحة	يطيب شذاها ممسيا ومسحرا
وما لنسيم الريح عطر بطبعه	ولكن اتى من نحوكم فتعطرا

فهذه المناجاة التى باح بها البيت الأخير ، هى وحدها ما يناسب النسيب ، والافباقي الابيات لا نسب له فيه .

وقوله في حماسة مفردة :

وهيچ لوعتى ورقاء بانئت	على فنن ولم تطعمم رقادا
تردد نوحها في جنح ليل	وقد لبست دجنته حدادا

فقلت لها أمثلى أنت وجدا غرام حشاك يتتد اقتادا
فان قلت البعاد أثار شوقى فأين دموع من يشكو البعاد
فأبداهم لذى الشكوى جفونا أحرهم بلا شك فؤادا

بعد ما ننبه على قوله « بلا شك » لا يليق بلغة الشعراء وأساليبيهم
الخاصة ، التى جبلوا عليها وعهدنها فى أشعارهم قديما وحديثا ، فهذه
الآيات تذكرنا بمناجاة القاضى عياض لها بقوله :

أقمريّة الأدواح بالله طارحى أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقنتى من هديك رنة تهيج من برحى ومن برحاء
لعلك مثلى يا حمام فائنسى غريب بدى قد بليت بداء

وهذا يذكرنا بقول جهم بن خليفة ، كما فى الحيوان :

وقد شاقنتى صوت تمريرة طروب العشى هتوف الضحى
من الورق نواحة باكرت عشيّب أشاء بذات الفضى
تغنت عليه بلحن لها يهيج للصب ما قد مضى

ويمتاز قول عياض وسليمان بالخطاب الذى توجهها به الى هذه
الحمامة ، وكان المنتظر ان يخلق حوارا يتردد بينهما ، لكننا لم نسمعه
الا من طرف واحد هو الشاعر نفسه ، دون الحمامة التى ظلت غير آبهة
بهذا الخطاب ، ولا مجيبة عن ذلك الاستفهام ، وهنا قصور فى الخيال ،
وجنوح الى الواقع واخلاق اليه ، فانشطرت الصور الجمالية به ، فلم نبصر
الا نصفها ، وغيب عنا نصفها الآخر بخلاف هذا الحوار الذى نجده بينه وبين
وبين صاحبتة ، وقد جلل مفرقه الشيب :

زوت وجهها لما رأت شيب مفرقى وصدت بعطف عن وصالى مزور
فقلت لها ماذا يريبك من فتى ثوى الشيب فى فوديه كالانجم الزهر
والا كما انشق الصباح عن الدجى او ابتسمت لمياء عن وضح الفجر
فقتالت على غيرى فللشيب قولة نصح ولكن فى مخيلة الشعر
فان كان عذرا عن شبائك لم تكن تحوجك الحسنة قبل الى العذر
وهبنى هجرت الصب بعد مشييه فأنت أبعد الشيب تجزع من هجر
جزوعا من الهجران طفلا ويافعا وكهلا فما تنفك دهرك من زعر
فارسلت دمع العين عند مقالها واتبعت آها على ذاهب العمر

وقوله في بعض مناجاته :

أيا شجرات الواديين الى النقا
فحتى متى نمسى ويصبح شملنا
سقتك على شحط وان كنت نازحا
معذبتى حتى اذا شئت سلوة

بعين وسيم هل اليك رجوع
شتيتا وشمل الناس فيك جميع
غواد كأجفاني عليك هموع
أتت بفؤادي من هواك صدوع

وقوله في هيامه وما يقاسى من همومه :

وكم ليلة كالدهر طولا قطعتها
تعللى الارواح في ظلمة الدجى
واصبر محزونا على مضض الهوى

ونفسى في سم الخياط لها جذب
برؤياه في قرب وان لم يكن قرب
ولا مسعد يحنو علي ولا صحب

ويتصل بهذا قوله :

الا صف لي معاهد ام عمرو
بحيث الريح تعرفها اشتياقا
وبين الريح والروض انتساب
لامر ما تطابقت السجايا
ويمسى الجو مكتثا عبوسا

ودع عنك الرصافة والغميما
وحيث الروض تعرفه شميما
اذا هبت عليه ضحى نسима
كريم لم يثر الا كريما
فيضحى الروض مبتهجا وسيما

ومن هذا قوله :

«وشيين أيام الفراق مفارقي»(1)
فهما يرانى الناس قالوا صباية
فقلت لهم ما الامر ما قد طلبتم
ترادف طول البين صيرنى كما
وكل طرفى بالسهاد فليس لى
اذا هجع النوم ارسلت عبرة
اغالب نفسى كي أغوز بغفوة
سلام على من في فؤادى محله
وان حل أرضا غير أرض ومنزلا
سلام محب اقصدته يد النوى

وأنهكن من جسمى وابلين من عظمى
أضرت به ماذا اعتراه من السقم
الا فاسألونى تخبروا بعد عن علم
ترون وأبدى ما أسر من الكتم
منام ولكنى رقيب على النجم
وعفيت آثار الركائب باللثم
لعلى ارى فيها الاحبة فى الحلم
ومن عنده روحى وان بان عن جسمى
سوى منزلى ما ذاك الا على رغمى
بسهم فأدمى قلبه موقع السهم

(1) شطر البيت من شواهد الجناس فى البلاغة .

نلاحظ انه افنتح الابيات بشطرة من شواهد البلاغة للجناس ،
ثم استمر فى وصف حاله بصور تسودها البساطة فى الفكرة والتعبير ، وان
بدأ فى البيت الرابع يتأنىق ، « كما ترون » وثقلت تأنىقا فائرا باهتا بألوانه
المبتذلة وشفع ذلك بالبيت السادس فالسابع واخيرا استسلم للسلام
وكذلك يقول فى الوفاء ورعى المحبة ، وان كانت هذه الابيات
تحتويها مراسلة الاحباب :

لئن غاب عني شخصكم فوجبكم	لقلبي مقيم ما حييت على العهد
وما حال عما كنتم تعلمونه	من الشوق والتذكر والحب والود
وكيف ونفسي لا تحب سواكم	ولا ترعوى حتى تغيب فى اللحد
اذا لذ للنوام طرب منامهم	ارقت لما القاه من شدة الوجد
وكيف يلذ النوم من ظل قلبه	يروع فى كل الاحايين بالبعد
فلو اننى اعطى الخيار اتيتكم	وابلغتم بعض الذى لكم عندي
ولما الح البين بيني وبينكم	بعثت اليكم من سلامى على تصدى
تحية مشتاق تنوب منابه	لديكم فمنوا بالسلام وبالرد

فهذه فى الواقع مراسلة غرامية ضمنها هذه الابيات التى انطلق فى
نظمها على سجيته ولم يعتمد اية صنعة او حلية بديعية :

ويلاحظ ان بيتا منها نظر الى قول الشاعر :

فلو اعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان
على ان قوله :

ولما الح البين بيني وبينكم بعثت اليكم من سلامي على قصد

فيه ضعف ، لان قوله « بيني وبينكم » لا لزوم له ، وقد وصل
بالبين قبله ، ثم ان قوله « على تصدى » كذلك لم يات الا لسد ذريعة
القافية ويقول فى اخرى من هذا السبيل :

خيالك فى عينى وشخصك فى قلبي	فعهدى سواء فى البعاد وفى القرب
اعوج على دار عهدتك الفيما	ولو لم اجد دارا لعجت على قلبي
فالفيتها زهراء ناقعة الثرى	مفتحة الانوار عطرة الترب

عجبت لها أنى تضوع تربها
ولما أردت الكتب والشوق حافز
وما طويت أرض لنا من كرامة
على طول عهدك منك بالمنزل الرطب
علمت بأنى سابق الرسل والكتب
ولكننا طرنا بأجنحة الحب

والكرامة في البيت الأخير مراد بها كرامة الاولياء الخارقة للعادات
وهذه أخرى في السلام والتحية على بعد الدار والبشرى بقرب المزار :

سلام كما فاح النسيم مع السحر
على من له في القلب اشرف منزل
تحية مشتاق تكن ضلوعه
يود لو ان الريح تلقى اشتياقه
قطعنا بذكراكم بلادا بعيدة
فلما قضينا ما نرجى ثوابه
ثينا عنان الشوق نحو دياركم
لينتظم الشمل الشتيت بقربكم
وتبلغ آمال ونقضى ما آرب
فلا زلت في خفض عيش ونعمة
والا كما انشق الرياض عن الزهر
ومن هو مثل السمع عندي والبصر
من الشوق اضعاف الذي لاح للبشر
اليكم فتقضى عنه من حقكم وطر
وهان الذي نلقاه من تعب السفر
ولم يبق بعد الورد شيء سوى الصدر
وليس لنا حاد وهاد سوى الذكر
وتغنى أجفان أضربها السهر
وترتاح نفس من جوى الوجد والفكر
مجددة ما ان يغيرها كدر

فهذه الابيات واضح كونها عائلية ، لا تمت الى ما عرف في النسيب
بسبب ومن ناحية أخرى تدل على أن الشاعر توجه للحج وقضاء
ما يرجى ثوابه ، كما يقول ، وهى رسالة كذلك منظومة أشبه ما تكون
بالرسائل المرسلة المتحررة من قيود الصنعة ، الا ما كان من تشبيه مقتصد
جميل .

ونحوه قوله :

سلام كعرف المسك أو هو أطيب
على نازح ان كان أحسن منظرا
وفي كل يوم لى اليكم رسائل
وكننت جديرا ان أزور دياركم
فلا تحسبى يا دار من صرت بعدها
وانى لمن يشكو الهوى بمدامع
ولكنه الأمر المطاع تعينت
وكالوصل بعد الهجر أو هو أعذب
من النجم في عينى فالنجم اقرب
من الرجل وفدا أو من الخيل موكب
مع الريح أسرى أو على البرق اركب
أجنبها عن اختيار اجنب
لها بين اثناء الجيوب نصب
اجابته والدهر بالناس قلب

سقى بلدا أمسبتهم خير مزنه غمام كعيني دائم الدهر تسكب
الم تعلمى يا غابة النخل انه لنا منك فى تلك الخيلة ريرب
وان لنفسى والهوى يبعث الهوى على اثره منهن شخص محبيب
فهذه مراسلة جميلة رقيقة ، تفوق سابقتها فى فنها الرفيع ، نكتفى
بها أخيرا (1) .

ومن الحنين قوله :

الا ليت شعرى هل ترى عيني النقا بعين وسيم والنخيل مكمم
وهل ترين عيني الرياض وحسنه وهل اسمعن فيه الطيور ترنم
وهل اجلسن تحت الاراقة ساعة بحيث يفىء الظل والنهر مفعم
وهل ترجعن أيامه اللاء قد خلّت وهل أنعمن فيه كما كنت أنعم
احن اليه صبوة وتشوقى مؤالفه والقلب بالالف مفرم
فلم ترعيني منظرا مثل حسنه ولم تر الفا كالذى كنت أعام
فروى ثراه دميمة مستهله وجاد على مغناه رعد مززم
رعى الله عهد للصبا فى ظلاله اذ الدهر مغض والعواذل نوم
ورعيا لايام تولت حميدة متى ذكرتها النفس فالعين تسجم
ولا زال معمور المعاهد أهلا بمثل الالى بانوا كما كنت أعلم
معاهد كانت لي أشت قطينها صروف زمان بالتشتت يعلم
الى الله اشكو شوقه فلعله يمن بمرآه وشيكا وينعم
واذ رمقي فى عنفوان شبابه وعمري للذات عمر مقسم
فلم يبق من تلك اللذاذة فى الحشى مع الدهر الا الوجد والوجد يسقم

ويلاحظ على القصيدة ، وفى قافيتها بعض الضعف فى نسجها ، كما
فى قوله : « ولم تر الفا كالذى كنت أعلم » مع « بمثل الالى بانوا كما كنت أعلم »

زيادة على ما فى هذا من عيب الايطاء ونحو قوله :

« وهل أنعمن فيه كما كنت أعلم » مع « يمن بمرآه وشيكا وينعم »

وتقوله :

(1) ولوحظ فى البيت الأخير منها أنه رفع اسم أن ، وقد فصل عنها ، على سبيل الشدود
والسماع .

« صروف زمان بالتشتت يعلم » .

فاذا استثنينا هذا فالقصيدة منطلقة على طبيعتها لا تعمل في أسلوبها ولا تأنق فكان الشاعر عبر بخالص صدقه وبسيط لهجته .

ومن الحنين أيضا قوله :

أدموع جفونك تنسكب	وغرام ضلوعك يلتهب
فكان شئوнок تصرمه	وكان الدمع له حصب
أذيب حشاي على شحط	هلا ومزارك مقترب
عجبا ان ذبت عليك ومن	عجبي ان ذبت هو العجب
لم لا وقد ارتحلوا بك عن	من كان تشوقه الحجب
فلئن طلت بكم ابل	صبر فسترحل بي نجب
تحتز مشافرها بيرة	ويعض غواربها قتب
تخدى فيحش ركائبها	لتذكركم سبر خب
حتى ليسرى بمقدمها	حمص وبمؤخرها حلب
احداة الركب حذار هذا	رفان الركب به عرب
أرواح الناس لهم وبهم	ان هم نهبوا او هم وهبوا
معسول لقاحهم عسل	وشهي رضابهم ضرب
وقوام قدودهم اسل	ولحاظ جفونهم قضب
يمشون كأنهم القضا	ن وحشو مآزرهم كضب
فعلام انكب عن عرب	عرب منهم لهم هرب
لم انس غداة منى رشا	يرمي الجمرات ويحتسب
وقد اشتمل الصماء ببر	دته ارنسوه فيحتجب
كالشمس قد اشتملت بسحا	بتهها وكبردته السحب
عجبا يرجو الحسنات ومع	صمه بدماي مختضب

هذا البحر من البحور التي اثارها كما نقدم ، الحصرى بداليتها الشهيرة ، وافتنن به المتصوفة ، فنظموا عليه أناشيدهم ، التي نجد منها عندنا ، منفرجة النحوى الجزائرى ثم التازى المغربى ، وكلتاها افتتحت بالحديث الشريف « اشتدى أزمة تنفرج » .

ويلاحظ على تصيدتنا هذه ، بعض الصور التى كررها الشاعر فى قصائده ، مثل :

عجبا ان ذبت عليه ومن عجبى ان ذبت هو العجب
وقد تقدم :

غريب ولا كالحى يرجى لقاءه ولكن غريب ما تقول غريب
ونحوه قبله :

وليس عجيبا غدرها بك انما ركونك منها للوفاء عجيب
اذن فالعجب من غدرها عجيب كذلك ، وهو تأتى مقبول لا تكلف فيه ، مثل تلك المحسنات التى نجدتها فى القصيدة ، كالتشبيه بالاضرام والحصب ، والجناس بين نهبا ووهبا ، والرضاب والضرب ، والعرب والعرب ، ثم هذه المقابلة المعنوية بين الضلوع تلتهب والدموع تنسكب ، مما سبق ابن زيدون اليه فى نونيته بقوله :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
وقوله فى اشجانه ولوعاته :

اهاجت لك الاشواق تلك المصانع	غدا ساكنوها فهي تفر بلا تسع
وقد كنت أبكي البين قبل وقوعه	فكيف بكائي اليوم والبين واقع
وغير سجال حرب دمع ومقللة	يصول عليها الدمع والطرف خاشع
يشب أوار الشوق بين جوانحي	فيصبح خدى احرقته المدامع
وكل يبكى طرفه قدر وجده	فدام على اثر المطي ودامع
تفرق شمل ضاق صدرى بحمله	وصدرى كما قد يعلم الناس واسع
فيأمانعي أن أشتفى من رضا به	أتلنى من التوديع ما أنت مانع
فأنك لا تدري اذا شطت النوى	وسارت بنا الركبان ما الله صانع

وهذه فى الواقع افتر قطعة له ، فى هذا الصدد ، فماذا نتصور فى الحرب السجال بين دمع ومقلة ، الا أن يكون تمويهها لصول هذا على نلك وكيف نتصور احراق المدامع خد الشاعر ، الا أن يكون ذاك لتثبيت هذه المبالغة للدموع الحارة المنبعثة عن شبوب الشوق بين جوانح الشاعر ؟

ثم هذا العمد الى الجناس فى دام ودامع ، دعى الى قوله « وكل يبكي طرفه
 قدر وجده » ثم لا يخفى ما فى تبيكة الطرف من تعمل متصنع وبعده هذا
 الاضطراب فى العبارة التى أفسدت المقصود حيث يقول « تفرق شمل ضاق
 صدرى بحمله » فالضمير عائدا على الشمل مفسد له ثم تأتى هذه
 السخافة ، زيادة على كونها لا محل لها ، بعد ما تضمنته الاببيات
 السالفة ، فهذا اضطراب فى السرد ، وعود الى التوديع :

فيامانعي أن أشتفى من رضا به أنلني من التوديع ما أنت مانع
 ويقول فى الطيف :

بأبى والله طيف طرقتا سلب النوم وأهدى الأرقا
 دله فى ظلمة الليل على مضجعي دق فؤاد خفتا
 ركب الهول فأحيا دنفا فرعى الله خيالا طرقتا
 ترك الصب على حال ردى مقلا غرقى وقلبنا محرقا
 أشكر الله كفانى وصله والرضى عني وقرب الملتقى
 ومبيتى معه يجمعنا لحف العز وأبراد التقى
 ليس شيء غير رشفى شنبنا يحسد الدهر عليه المنطقا
 والتثامي وردة الخد الذى يخجل البدر اذا ما اشرقنا
 يا خليلي أفي ذا حرج أم جناح فأجابا صدقا
 ثم قالا بحنان ان يكن شملكم بعد ائتلاف فرقنا
 جمع الله قريبا بينكم وكفى من فرقة ما يتقي
 وقوله :

أيها الحادى بنا نحو منى خذ على نفسك كي لا تفتنا
 اترك الجزع يسارا لا تنر ربنا يفتك فينا الأعينا
 وانح عن حى رماة كلهم طالما سقوا نجيعي الدمننا
 بسيوف بين الحاظهم ظاهروا الهند بها واليمننا
 وقدود حشوا أبرادهم نازعوا الخط بها لدن القنا (1)

(1) لابن جبر معاصره قصيدة على الوزن القافية يهني فيها حجاجا اجتمع بهم فى مكة
 يا ونود الله فرتم بالسيوف نهنيئنا لكم أهل منى
 ولكم بالحيف من قلب شج لم يرل حوم التوى يشكو الفنى
 ما ارتضى حاحة الصدر له سكتنا مندبه قد سكتا

فإذا قيل جمال فهم
لم يغيبوا الطيف غنى انما
ما لظبي منهم لم يصمني
كالهلال كالقضيبي كالطلا
لاح بدرا في دجى لمتيه
غرني في حبه اسعاده
آه من وجد عليه لم يدع
لم ازل اخفي هواه فلقد
ولعمري مذ نأى ما أبصرت
فرعى الله ديارا حلها

وإذا قيل غرام فأنما
غيبوا عن مقلتي الوسنا
بسهم اللحظ حتى طعنا
ان نبدي أو تثني اورنا
وانثني فوق كتيب غصنا
فحسبت الأمر فيه هينا
موضعا في القلب الا سكنا
صار ما أخفيت جهدي علنا
بعده عيناي شيئا حسنا
وسقى تلك الريا والدمنا

سقنا هذه الابيات ، اسنحسانا لها أولا والا فان الطيف فيها ذكر
عرضا وفي بيت واحد من القصيدة ، وهذه أخرى في الطيف أيضا :

حنانيك اني قد نويت رحىلا
بعثت فؤادى شافعا فلعلني
وما كنت اختار الوداع لو انني
أقول اذا هب النسيم غدية
سل الريح لم فاح الغداة نسيمها
أم الركب أجرى من حديثك لفظه
وللطيف اذ يسرى بشخصك كلما
الا كيف زرت الصب في فاحم الدجى
فقصر ليالي ما أردت وصالكم

فهل تأذن لي في الوداع قليلا
أنال به فيما رغبت قبولا
أخير لكن ما وجدت سبيلا
على كبدى الحرى عليك بليلا
أجرت على مفنى الحبيب ذيو لا ؟
أدار بها الحادى عاي شمو لا ؟
بعثت بها عند الرقاد رسولا
وقد كنت في وجه الصباح بخيلا
وان كان ليل العاشقين طويلا

وهكذا نجد الابيات ، قد تناولت الوداع تم الحزين الى الحبيب ،
وتخلصت بعد ذلك الى الطيف الذى هدفتا اليه هنا ، وكذلك نجده في هذه
القصيدة ينحى على الطيف فيقول :

الشوق يزداد اذ تدنو بك الدار
ما باختيارى نأت بي الدار يا أملى
ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة
ولا نظرت الى شئ فأعجبني

فهل على الشوق أعوان وأنصار ؟
وليس غير دنوى منك أختار
الا وفي النفس من نذكاركم نار
مذ فارقت وجهك المحبوب أبصار

وان نفاعت به عن الفه الدار
 كأن آناءه في الطول أعمار
 سهدا والفي أشجان وأفكار
 وليس للسهد عن عيني أقصار
 منكم وطيف حبيب النفس زوار
 بكم وعندى له في ذاك أعمار
 وكيف يعرقني والنوم فرار
 آمال نفس لها في الحب آثار
 من الرقيب فتخفى منه أسرار
 كانت وتقضى أمانى وأوطار
 نمت بعرف نسيم الزهر أسحار
 وما تغنت على الأشجار أطيّار

الله يعلم أن القلب عندكم
 وأن ليلي طويل لا انتضاء له
 الفت فيك « ألوف » رعي أنجمه
 وكيف يقصر ليلي بعد نأيكم
 ما ضر طيفكم لو زارني بدلا
 لكنه ضن لما أن رأى كلفى
 الذنب للنوم لا للطيف يا سكاني
 سقيا لايام وصل قد بلغت بها
 ونلت ما أشتى فيها ولا حذرا
 وسوف ترجع أيام السرور كما
 عليك مني سلام يا « ألوف » كما
 ما حن صب إلى لقيا أحبته

وله أيضا في ذلك :

ما للحبيب لدينا
 أحب منه إلينا
 منا ومنه علينا
 وأنت تعلم أيننا (1)
 يا أمطل الناس دينا

يا أيها الطيف خبر
 وأنه ليس شيء
 واقرا السلام عليه
 وقل له غاب قلبي
 فاردد على فؤادي

ومن قوله في المنجاة وذمام الاحبة :

يوم العذيب وواصلوا الوخدا
 ومضى يحث ركابهم قصدا
 ومن العجائب مهجة تهدي
 ألف الغرام وحالف السهدا
 يحيون من أودى بهم وجدا

رحل الاحبة واستقلت عيسهم
 لما حدا الحادي بهم في سحرة
 أهديتهم نفسي ليولو نظرة
 فسروا وما قضا لبانة عاشق
 ما ضرهم لو أسعفوا بتحيرة

(1) وهكذا أكثر الشاعر من ذكر الطيب لدرجة أنه صار يمثله في البيضة فيخاطبه كما في هذه الأبيات الأخيرة ، مع أنه يتحدث عنه لا إليه كما قال الشاعر :

نقمب للطيف مرتاعا فأرقى فقلت أهى سرت أم عادى حلم
 والحديث عن الطيف إسلامي كما نظن وأقدم ما نعرفه منه أبيات لجعفر بن عتبة الحارثي
 من محضرمي الدولتين .

لم يبق منه بعادهم الا صدى
يا ظاعنين وبين اثناء الحشى
لا تحسبوا انى كلفت بغيركم
ما ذاك من شيم الكرام واننى
ان كان هذا الدهر حالف صرفه
وتعصبت لفراقنا أيامه
فالله يخلف ظنه ويدلنا
ويتيح للصب المشوق لقاءكم
وله هذه الابيات التقليدية :

قدحته أنفاس الهوى زندا
قد خيموا وان انتحوا نجدا
وجدا وأنى خنتكم عهدا
ارعى الذمام واحفظ الودا
فينا البعاد واظهر الحقدا
وتجمعت لقتالنا جندا
وصلا وينظم شملنا عقدا
عجلا فيضحى عيشه رغدا

الا صف لي معاهد أم عمرو
بحيث الريح تعرفها اشتياقا
وبين الريح والروض انتساب
لامر ما تطابقت السجايا
ويمسى الجو مكتئبا عبوسا
اطل في وصفها وخلاك ذم
وسلنى عن مهى نجد تجدني
ومن عجب الأمور اكون ليثا
والقى الجيش فى الفلوات وحدى
ولكن واحد والجيش خلفي

ودع عنك الرصافة والغميما
وحيث الروض تعرفه شميما
اذا هبت عليه ضحى نسима
كريم لم يثر الا كريمما
فيضحى الروض مبتهجا وسيما
وذكرنى بها العهد القديمما
خبيرا ما أردت به عليمما
لدى الهيجاء ثم أخاف ريما
فأوسعه ويوسعنى كلوما
تسلم مهجتي وغدا سليما

هذه الابيات تبدو عليها الكلفة ، وتعتمد الصنعة فى بعض أبياتها ،
كهذا التقابل فى قوله :

ويمسى الجو مكتئبا عبوسا فيضحى الروض مبتهجا وسيما

وهو يذكرنا بقول ابن زنباع :

فعميت للأزهار كيف تضاحكت بكائها وتبشرت بقطوبها

وكأنى بفرض الشاعر من هذه الابيات ، يكمن فى البيت الاخير منها .

وقد أنصح عن ذلك من قطعة أخرى بهذه الابيات :

عجبا نراع لهجر آرام النقا وتخاف من سطواننا اسد الشرى
لا غرو أن صرع الكمي مقرطق ان سل ابتزسل جفنا احورا
ان كنت ترهب صارما من جفنه فارهب بقامته الوشيح الاسمرا

وهذا معنى قيل على لسان هرون الرشيد ، في جوار ثلاث له ،
تضمنتها أبيات ثلاثة هكذا (هي للعباس بن الاحنف) :

ملك الثلاث الأنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك الا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

ثم تردد على هذا شعراء فيما بعد مثل سليمان بن الحكم الاموى
الخليفة وكلهم صاغ المعنى حسب منحاہ ، الى أن كان الشاعر ابن حمديس
الصقلی ، حيث قال هذا البيت الذى قلده مباشرة كما نظن (1) :

فلا غرو أن لانت لظبي عريكتى انا صائد الضرغام والظبي صائدى
ومن ذكرياته قوله :

أرقت لبرق لاح من نحو أرضهم فبت اشتياقا للحبيب أسامره
الح وميضا فاستطرت تشوقا وأيقظ ما يسرى من البرق سامره
فذكر أيام الكثيب واذ به تلاعبنى غزلانه وجئـاذره
واذ لا نرى من لا يصدق قوله علينا ولا فينا تمثى أوامره

(1) قال سليمان :

عجبا يهاب الليث حد ساسى واهاب سحر فواتر الاجفان
واقارع الاموال لا متهيبا منها سوى الاعراض والهجران
وتملكنت نفسى ثلاث كالدمى زهر الوجوه بواعم الابدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى من فوق اغمان على كئيبان
حاكمت فيهن السلو الى الرمي نقضى بسلطان على سلطان
هذى الهلال وتلك بئت المشتري حسنا وهذى اخب عص البان
فابحن من قلبي الحى وتركنى في عز ملكى كالاسير العاسى
وفي « الانيس المطرب » أن امرأة حميلة خاطبت العلوى وهو يحاصر احدى مدن الشام
بأبيات منها :

نقتل الابد ثم تقتلنا البيض المصونة أوجهها وخدودا
وسياتى ان المنصور السعدى قد قال أبياتا في هذا المعنى أولها :
« طرقت حماء والاسود حوادير »

واذ شملنا في غبطة متألق
 غلله ما نبهت يا برق من شج
 ولله ما اذكرتنى من احبه
 اثرت خلال الدجن ضوئا كأنه
 فلم ادر خفقا من فؤادى منكم
 اظنك مثلي قد اطلعت عتابه
 ملوما على من لو تبدى لأصبحت
 الا في ضمان الله من ليس راحمي
 كفاني كتما للذى بي ان ارى
 فالأ اكن أمشى اليه وداده
 عدما حسودا أو رقيبا نحاذره
 لسهد بعينيه وشوق يخامره
 على أننى في كل حالى ذاكره
 اسرته لفت عليها غدائره
 ولم تدر جهلا ما الذى أنا ساتره
 وقل بما لم يبد للناس عاذره
 عواذله في الحب وهي عواذره
 ولا عاذرى في أن تبوح سرائره
 أجنبه حتى كأنى هاجره
 فحسبى ما تلقى اليه ضمائره

لاشك أن هذه القصيدة الجميلة الرصينة قد صيغت على نمط قصيدة
 ذى الرمة :

وقفت على ربع لمية ناقتني فما زلت أبكي حوله واخطبه

وهي قصيدة طويلة نجد من أبياتها هذه :

تمشى به الثيران كل عشية
 فابديت من عيني والصدر كاتم
 كما اعتاد بيت المرزبان مراربه
 بمغروق نمت عليه سواكبه
 وازور يملو في بلاد عريضة
 تعاوى به ذؤبانه وئعالبه

فأبياتنا بدوية ، تذكر ومض البرق لاح من أرض الحبيب ، فأرقه ذلك ،
 ثوصار يتذكر أيام الكثيب الذى لاعتبه غزلانه وجآذره فيه ، وأنه نعم
 بغياب الواشى ، وجمع الشمل في غبطة ، وعدم رقيب ، ثم توجه بالخطاب
 للبرق ، فاستعظم ما ذكره من ذكريات الحبيب ، وان كان على ذكر منه
 دائما ، وأنه اثار خلال الظلام نورا ، فشابه ذلك أسرة الحبيب لفت عليها
 غدائرها ، ثم تابع خطابه ، حيث قال له : اظنك مثلى قد اطلعت عتابه وان
 عاذره قليل منه هذا ، وهو كاتم للواعجه التى لو أفصح عنها لاصبح عاذله
 عاذره ، ثم التفت الى الحبيب فقال الا في ضمان الله حبيب لا يرحمنى
 ولا يعذرني ، فكفى بى كتمانى للواعجى ، ونظاهرى بهجران ذاك الحبيب
 الذى ان لم ابد ودادى له ، فحسبى ما تحدثه به ضمائره نحوى .

ومن هذه الاشعار البدوية الصحراوية قوله :

قف العيس نبك الدار بان قطينها	ونسأل عنها أين سار ظعنها
ديار تبكىنا فتبكي مطينا	كأن شئون الدمع مني شئونها
تساجل في سح الدموع اذا التقت	عيوني على آثارها وعيونها
وقد حلفت لا نلتقي ابدا لها	على سنة حتى تراهم جفونها
وكم من مصيف في البلاد ومربع	ولكن لاوطان النفوس حينها
سأركب نحو الظاعنين وان نأوا	بحار فلاة والمطي سفينها
قلأص يخبطن الظلام فترتمي	بها أرض نجد سهلها وحزونها
الى خير قوم يشرعون اذا التقوا	رماح عيون ما يبيل طعنها
عيون حياة النفس بين لحاظها	وان كان في تلك اللحاظ منونها

فيكاء الديار معروف في أقدم ما روى لشعراء الجاهلية ، ثم قلد في الاسلام ، وهو يصور الحياة البدوية المنتجة ، ولكن الجديد في قطعنا هو تبكية الديار للمطية ، ومساجلة عيونها عيون صاحبها في سح الدموع وكونها قد تقيمت طبيعة الانسان حتى في نطقه فحلفت بادراك اللقيا والرؤيا ، وكأن الشاعر هنا استوحى من قوله تعالى : « قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » فالمطي مسخرة له كما سخرت الشياطين لسليمان فبلغته مقاصده ، وبعد هذا لا نجد الا هذا البيت :

وكم من مصيف في البلاد ومربع
وقوله في الوداع :

وقائلة أين الترحل سيدي	وتترك قلبي من هواك مصدعا
فقلت لها مهلا فلسست بترك	لقولك ما أرجو به ان أرفعا
اذا ما أردت العزم لم يثن عزمي	رخيم يسوم العزم ان يتمعا
فلو نزعنت نفسي عليها محبة	لما كنت يوما عن سبيلي لأنزعا
أبى الله الا ان أوفي عهده	وابني مجدا لا يزال مرفعا
فلما رأى الا انتشاء وانني	عزمت بكى خوف النوى ثم رجعا
وقال رعاك الله مالي حيلة	سوى انني ادعو لنرجع مسرعا

فلله ما اشجى حبيبا رايته تميل مآقيه عشية ودعا
ولله ما أندى ازارا بفضلـه مسحت له يوم التفرق مدمعا

فهذه أبيات على بساطة أسلوبها ، محكمة في صنيعها ، مصورة لخلجات
ونوازع عزماته ، وهى بالفخر فى الهمم أشبه منها بوناء التوديع وقوله :

تقول ابنتي الصغرى غداة رحيلنا وأدمعها كالقطر بل هي أسرع
حنانك هذا البين حتم وقوعه علينا فما ينفك منه تروع
وشدت على حضني كفى مشوقة وقالت ابي تمضي ؟ فما لى أرجع ؟
فدعني أسر أأخذو ركابك حيث ما تسير وأرضى كي أراك وأقنع
بنية كفى من بكائك واصبرى ولا تجزعي ان البكا ليس ينفع
فقاتلت على اسم الله فأرحل مصاحبا وسر فى أمان الله لا نبا بك مضجع

أما هذه ، فما أحرها وأشد تأثيرها فى النفس ، وتصديعها للقلوب ،
لا تضاهيها الا تلك المقدمات التى نجدتها لابن دراج فى مدح العامرى

ويقول أيضا فى الوداع :

طمت من دموعي للفراق بحور وأجج ما بين الضلوع سكير
وودعت قلبي يوم ودعت صاحبي فله أحناء خلت وقصور
وناديته يا قلب رفقا فقال لي حنانيك أنى نحوهن أسير
فثق بجميل الصنع ممن علمته اذا شاء أمرا فالعسير يسير
عسى الله يقضى للمحبين أوبة فتشفى قلوب منهم وصدور
فكم من قصي الدار أمسى بحزنه فأعقبه عند الصباح سرور

وهذه تطفح فى البيتين الأولين ، بما عرف فى لغة الشعراء من مبالغة
اتباعية ، ثم يأتى الحوار بينه وبين القلب جميل ينتهى بالموعظة وقوله :

يا مززع البين فى ترحالك الأجل وانت لاه بحب البين مشتغل
انى لأعظم أن نمضي وتتركنى والدمع يهوى ونار الوجد تشتعل
فلا تروع فؤادا أنت ساكنه بالبين منك فانى واله خبل
لم يدر قومك ماذا فى ترحلهم من الذنوب ولو يدرون مارحلوا
سروا بزعمهم ليلا وما علموا بأنهم فى فؤادى حيثما نزلوا

لم يغن فيك اطراحي من وثقت بهم سيان ان اسعدوا في الحب او عذلوا
اذا رجعت الى دار وليس بها ذاك الحبيب لمن اشكو ومن اسل ؟
ويلتقى الحزن والداجي فيذكرني حسنين من مقلتيه الكحل والكحل

فهذه ابيات جميلة في تعبيرها ، متمكنة في تصويرها ، لولا البيت الاخير
الذى عمد الى الصنعة البديعية بتشبيهه ، ونسى لوعة صاحبه ويتصل بهذا
قوله :

ولما ثنينا للقاء ركابنا وقام على اعجازنا الشوق حاديا
طوت ما رات من مهمة ومغارة وقطعت البیداء هضبا وواديا
كان لها عند اللقاء موارد تروى بلقيها نفوسا صواديا
وما كان الا ان انيخت بمورد اتيح لها بين فراحت كما هيا
لقاء وتوديع معا في اعتناقة كأن لم يكن ذاك التلاقي تلاقيا
اذا نحن اجهدنا اليكم ركابنا فكانت صروف الدهر عنكم عواديا
اخا البين ان شئت الوصال تمنه فلم يبق الا ان تراهم امانيا

وهذه كذلك قصة محبوبة بارعة ، وان سلك في تصويرها مسلك
الاعراب الرحل ، حيث توجه بنصف ابياتها الى الحديث عن الركاب
والحادى بالبیداء .

وكذلك قوله في هذه الأبيات التي تأتى في بعضها :

قف بالحجيج فان ذاك الموقف واسألهم بمأثم ان يعطفوا
وانشد هؤلاء ان عرفت مكانه بين القباب وما اخالك تعرف
عند التي رمت الجمار غديسة وبناتها بدم القلوب مطرب
نفسى الفداء لها وان لم تبق لي قلبا يذكرني بها ويعرف
يا صاحبي كن عاذلي او عاذرى بي من نوى الاحباب ما لا يوصف
لم ادر طعم الموت حتى جاعني نبأ بنرحال الاحبة يوجف
نفروا غداة منى وقد نادى بهم حاد على شرف الثنية يهتف
يانازحا حنت ركائب بينه لم يثنها منى اسى وتلهف
ليت الذين نأوا بشخصك قد ونوا وعلى جفائك ليتهم لم يوجفوا

ومن قوله في الحب :

الحب دق فلا تدري حقيقته فمن يرد فيه لا يقدر على الصدر
وجل عن أن يرى يخفى ممكنه في القلب مثل كمون النار في الحجر
أن تقدحوا زنده تظهر شرارته أو تتركوه خفى عن أعين البشر
وهذه الابيات أجمل وأدق من تلك التي قالها الأغماتى في الموضوع ،

واقصر فيها على مفعول الحب (1) :

أغار على الصب من أنبه هو الحب من يطفئه الهبه
الى آخر الابيات الستة ، وان كان المصراع الثانى هنا أبلغ ما في
الموضوع ويقول لمن يسائل الدمن ، ناصحا اياه بالاعتلاع عن ذلك :

رفقا عليك فكم ذا تسأل الدمن وكم تجدد في مغناهم الحزنا
من ذا أجابته عن أحبابه دمن فيما دعا أو أصاغت نحوه أذنا
لو كان شخص أجابته الديار لما تبدى من الوحش والشكوى لكان أنا
فلا تسائل طولاً ما بها سكن فما تفيدك إلا الهم والشجنا
فما مسائل دار غاب ساكنها إلا كمستفهم عن روحه البدنا

وهذا معنى بسيط على بداعة صياغته وتسلسل حججه وأفكاره
وله مجيزاً هذا البيت لأحد كتابه :

الفت بتلييت السهاد وعلمت براغيثها جنبى حسن الثقلب
فقال شاعرنا :

ولا خلاف العيس نطوى بها الفلا لتبلغنا الاوطان بعد التغرب
فتبعد من اوطاننا ما نحبه وتدني من الاوطان غير المحب
عجبت لدار ليس بيني وبينها من البعد ما يعيب مطيى وأركبي
جرينا لها حتى اذا ما تقاربست وقفنا فلم تبعد ولم تتقرب

(1) وقد ورد في « الزهرة » وصفه من قول امرأة « حل والله عن أن يحمى ، وخفى عن أن يرى ، فهو كامن كمن البار في حجرها ، أن قدحته ورى ، وان تركته توارى » وفي طوق الحمامة « الحب أوله هزل وآخره حد ، دقت معابيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالماناة » .

نطوف فلا ندنو كائنا حوائم جواذر همت بالوقوع بمشرب
وفي عرفات اليوم للناس مطلب وليس كحجي في الديار ومشربي
فؤادي هديى وادلجى مناسكى ودمعى جمارى والمطي محصبي

وهكذا لا نجد في هذه الاجازة ما يجمع بينها وبين البيت السابق الا بحسن التقلب ، ثم ان فيها نفحة صوفية تشبه ما عرف به شعر ابن الفارض ، وخصوصا في الابيات الاربعة الاخيرة ، لما فيها من غممة لا تستبين مقاصدها ويقول في بعض صروف الدهر :

الا رب يوم قد ختمنا أخيره بأطيب مما قد فضضناه أولا
اتى مدبرا من بشره وسروره باضعاف ما قد جاء من قبل مقبلا
وتم بنحجيل على بدء غرة فكان كما شئنا أغر محجلا
ويقول في معركة زوارق :

وزوارق تحت الظلال حسبتها حلبات خيل تهتدى بمقدم
مرحت ومن رثى المجاذف نقعها من كل أشهب في السباق وادهم
حملت بها الفتيان ملء عنانها حمل الكمي على الكمي المعلم
فظننت ان الحرب حرب مسالم لا حرب مضطفن ولما أعلم
حتى انتت عند الاصيل كماتها مخضوبة حلق الدروع من الدم

ومن الحق ان يقال ان هذا الوصف دون ما عرف فيه لابن هانئ
الاندلسي أو ابن حمديس الصقلي ، وخصوصا البيتين الاخيرين :

فظننت ان الحرب حرب مسالم لا حرب مضطفن ولما أعلم
حتى انتت عند الاصيل كماتها مخضوبة حلق الدروع من الدم

فهذا الاسلوب فيهما لا يختلف عن المعهود في كلام الناس عامة ، لا فضل فيه على كلام العوام ، الا بكلماته الفصيحة المعربة

والابيات لا علاقة لها بالنسيب المعروف ، فهي تصف الزوارق ، كأنها حلبات خيل في تدافعها وكان رثى المجاذف غبارها ، قد انبعث من سناكبها ، وقد حملت بها حمل الكماة فتيانها فظننت أن تلك المعارك سلمية ، ولم أعلم أنها حرب على الحقيقة ، الا بعد أن عادت أبطالها عند الاصيل ، وقد خضت بالدماء حلقات دروعها .

وبعد فأننا نلاحظ عليه أنه غالبا يرتكز على الحقيقة في تناوله لباب
النسيب في مدلولات الفاظها ، وان كان التشبيه سيخصص له باب فيما
سنرى بعد . وغزله أو نسيبه لا يصل الى المستوى الذى عليه غزل القاضى
أبى حفص الاغماتى ، بل الفاظه في عمومها ، مستعملة في حقائها ، وغالبا
ما يكون المجاز فيها مستعارا من السابقين ، لدرجة ان أصبحت دلالاتها
عرفية ، وبذلك كان حظ نسيبه من الخيال حضا ضئيلا وقليل ما نجده يعنى
بالمحسنات البديعية وهى له

نعم انه قد تستهويه بعض الصور البديعية ، ولكن ذلك يتضح من
الحلية اللفظية أكثر من غيرها ، مثلا نجد يقف عند كلمتى العاذل والعاذر
فيكرر ذلك في شعره ، كأن يقول :

يا صاحبي كن عاذلي أو عاذري من نوى الأحباب ما لا يوصف
ويقول أيضا : كما سبق :

ملوما على من لو تبدى لأصبحت عواذله في الحب وهى عواذره
كما أنه يقلد بنحو قوله :

أيها الحادى بنا نحو منى خذ على نفسك كى لا تفتنا
فقد قلد — ربما — نونية لابن جبير ، وكذلك نجد في الديوان ، تصائد قلد
بها مهيأرا ، مثل

يا خليلي بذى الأثل قفنا وسلا ربهم كيف عفا
ومثل هذه :

بأبي والله طيف طرقنا سلب النوم وأهدى الأرقنا
ومثل :

نام من أهوى وأرقني ونفى عن مقلتي وسني
فقصيدة مهيأرا ، المشار إليها أولا ، كان النظر فيها الى تسعة أبيات ،
أولها :

سل طريق العيس من وادى الفضا كيف أغسقت لنا راد الضحى
الشيء غير ما جبرننا نفضوا نجدا وحلوا الإبطا (1)

والثانية مطلعها :

من عذيرى يوم شرقي الحمى من هوى جد بقلب مزحا
والاولى ، نظر اليها ايضا في القصيدة المذكورة اخيرا ، خصوصا
الابيات منها :

نظرة عادت فعادت حسرة قتل الرامي بها من جرحا
رجع العاذل عني آيسا من فؤادى منكم ان يفلحا
لو درى - لاحملت ناجية رحله - فيمن لحاني ما لحا

وكما في الجاهلية والاسلام فقد عرفت لدى الشعراء قصائد أو مقطوعات
ينذرون فيها لنوقهم نذرا ما اذا بلغتهم مرادهم ومن هؤلاء الاخيرين أبو دهب
الجمحي ، يقول أبو الربيع :

اذا يممت نحو الاحبة ناقتي واعملت السير الحثيث وخبث
وعرست يوم النحر في ذلك الحمى ورويت من لقبا الاحبة غلتي
دعوت لها الرحمن بالخصب دائما وأن تبلغ الآمال فيما أحببت
وأعفيتا من كل سير ورحلة وأطلقتها ترعى الكلا حيث حلت
كفاء لما أولت ولست ببالغ جزاء الذى أهدت الى وأسدت
فقلت لها يئاق بلغت فارتعي على رغد أو فاذهبى فتولت
وقالت كفاني قد قضيت فريضتي فنفسى الى مرأى المعاطن حنت

فهذه على العموم أبيات تقليدية ، لا حيثة للبيت الثالث في شطره
الاخير لانه يناسب الانسان أكثر من مناسبته هذه الناقة :

دعوت لها الرحمن بالخصب دائما وأن تبلغ الآمال فيما أحببت

(1) انظر بقية الابيات التسعة ، في تعليقنا عليها بالديوان الذى نشرناه .

وعلى العكس نجد مما هو من النسيب ولم يذكر في بابه (1) ، قوله :

مقلّة من دمعها في غرق	وفؤاد من جوى في حرق
عجبا للماء والنار معا	كيف لم يختلفا في الطرق
أى صبر لعميد قلبه	أقصده طائشات الحق
في سبيل الله نفس صبة	بقيت منها بقايا رقيق
شد ما لاقت من الوجد بمن	دونه شمس الضحى في الرونق
بدر تم اطلعت صفحته	من سنه قمر في غسق
كيف اذ لاح لاجفانى لم	يعشها ضوء سنه المشرق
كلما ابصرته عوذته	خيفة العين بررب الفلق

نتصل بعد النسيب بباب من أبواب الديوان ، ظهر في أدبنا الفصيح لأول مرة (كما في علمنا) واستمر موضوعه في عاميتنا ، وهو الالغاز ، التي عرفت قديما في الأدب العربي ، واشتهر بها في العهد الاسلامي الاول الشاعر ذو الرمة .

والالغاز في عاميتنا كانت تضاهي في نشاطها ما عرفت به مصر من « الفوزرة » ، فهي تعتمد على الذكاء في اكتناه الغامض من العبارات والوصاف شأنها شأن الرياضات الفكرية التي تستدعى طويل التفكير واناة فنى الاستنتاج يتحلى بذلك من يزاو لعبة « الشطرنج » ، او أية لعبة من باقى الرياضات الفكرية . والالغاز مرتبطة بالتشبيه ، ولهذا وجدنا أحدهما بازاء الآخر في الديوان ؛ اذ كل تشبيه لم يذكر فيه المشبه بما عرف به . فهو من الالغاز كما نجد له امثلة في كتاب التشبيهات لابن الكثانى الاندلسى .

وقبل ان ندخل في بابنا مباشرة ، نود ان نطرق له بنموذج من الغاز الشاعر غيلان ذى الرمة ، يقول في بعضها من قصيدة :

وسقط كعين الديك عاورت صاحبي	اباهها وهيأنا لموقدها وكرا
مشهرة لا يمكن الفحل أمها	اذا نحن لم نمسك بأطرافها قسرا
أخوها أبوها والضوى لا يضرها	وساق أبيها أمها اعتقرت عقرا
قد انتجت من جانب من جنوبها	عوانا ومن جنب الى جنبها بكرا

(1) بل ذكر في باب التشبيه لما فيها من صوره .

فلما بدت كفنتها وهي طفلة بطلساء لم تكمل ذراعا ولا شبرا
فقلت له ارفعها اليك واحيها بروحك واقتته لها قتنا قدرا
وظاهر لها من يابس الشخت واستعن عليها الصبا واجعل يدك لها سترا
ولما تنمت تاكل الرم لم تدع ذوابل مما يجمعون ولا خضرا
فلما جرت في الجزل جريا كأنه سنى الفجر أحدثنا لخالتنا شكرا

فالسقط النار التى تسقط من الزند ، الاعلى الذكر وهو المراد بأبوها
والاسفل الانثى وهو المراد بأمها فالزند هذا نمسك بأطرافه ، وأخوها المقارن
أبوها والضوى النحافة ، وساق أبيها أمها ، لانهما من شجرة ، وانتجت
تدحت ، والعوان القرصة المقدوحة بخلاف البكر ثم يقول :

وقرية لاجن ولا انسية مداخله ابوابها بنيت شزرا
نزلنا بها لا نبتغى عندها القرى ولكنها كانت لمنزلنا قدرا
يريد قرية النمل وابوابها مداخله اى مخالفة ، وبنيت شزرا على غير
استقامة فهي معوجة .

ومضروبة فى غير ذنب بريئة كسرت لأصحابى على عجل كسرا
يريد بالمضروبة الخبز ، اذا اخرجت من الملة وهو الرماد الحار ،
تضرب ليسقط عنها ذلك الرماد .

وسوداء مثل الترس نازعت صحبتى طفاطفها لم نستطع دونها صبيرا
يعنى بالسوداء الكير ، والطفاطف لحم الخاصرة

وأبيض هفاف القميص اخذته فجئت به للقوم معتبطا ضميرا
يريد بالابيض مؤاد الشاة وهفاف القميص ما فوق مؤاد الشاة من
جلد ، والاعتباط ان تذبح الدابة من غير علة ، وهو المقصود فى البيت
التالى :

وأبيض قد شققت عنه قميصه فقدمته للقوم مهتظما ضميرا
ومقرونة منها يديها برجلها حملت لأصحابى ووليتها قترا
مكنية لم يعلم الناس ما اسمها وطئنا عليها ما تقول لنا هجرا
وان ظلمت لم تنتصر من ظلامه ولم تبد نابا للقتال ولا ظفرا

والمقرونة أى القرنة ، وهى دويبة صغيرة فى ظهرها نقط ، تكنى أم حبين أو أم جنين ، وهذه الكنية ، هى المعنية بقوله مكنية لم يعلم اسمها وهكذا تستمر هذه القصيدة الواقعة فى تسعة وستين بيتا ، تاتى بالالغاز التى لا تخرج عما صادفه الشاعر فى رحلته هذه التى قصها وهى بطريقة تحوم حول عرض واحد وتدور على محور يعتمد عليه من يحاول فك السلسلة من الالغاز وقد عرف الاندلس ، من الشرق ، الالغاز فى الشعر ، كما نجد فى اقدم مصدر فى هذا ، وهو كتاب العقد ، لابن عبد ربه ، فقد تعرض له ، فى اللؤلؤة الثانية ، أو أواخرها ، وهى فى الفكاهة والملح ، فنقل فى باب اللغز ، ما حكى عن لغثة أبى عطاء السندى من أن الحمادين الثلاثة ، اجتمعوا مع بكر بن مصعب ، فى مجلس بالكوفة ، وأنهم استدعوا ابن عطاء ، ليجعلوه يلثغ فى الكلمات التى تحتوى تلك الحروف ، فسأله حماد الراوية :

يا أبا عطاء ، كيف علمك باللغز ؟

قال : حسن ، يريد ، حسن

فقال له :

فما صفراء تكنى أم عوف كأن سويقتيهما منجلان

فقال أبو عطا ، زrada ، يريد جرادة ...

ثم قال له حماد :

أتعرف مسجدا لبني تميم فويق الميل دون بني إبان

قال ، هو فى بني سيطان ، يريد شيطان ...

ثم قال له حماد :

فما اسم حديدة فى الرمح تسمى دوين الصدر ليست بالسنان

قال ، زز ، يريد ، الزج

بعد هذا صار ابن عبد ربه يذكر الغازا ، منها للمامون العباسى ،

فى خاتم ، ثلاثة أبيات ، أولها :

وأبيض أما جسمه فمدور نقى وأما رأسه فمعمار
وأخرى له في أرنب ، أولها :

لهوت بذات رأس ذى التياث كرفع الاصبعين على الثلاث
ثم ذكر له أبياتا ، تناول فيها النمل ، باسم الثور ، وموضع الردف
من الفرس ، باسم القطاة ، وبطن الحوافر ، باسم النسور ، والسيف ،
باسم العجوز ، والجلد الذى يعمل منه غمد السيف ، ببطن الكلب ، وعبرة
« صار كلبا » يريد بها ضم كلبا ، من صار يصور ، أخذا من الآية « فصرهن
أنيك » أى ضمهن اليك ، والصخرة ذكرها باسم الأتان ، والبكرة ، باسم
العقاب التى تطير من غير ريش ، وأخيرا ، ذكر كلكلة العقاب .

انى رأيت عجوزا بين حاجبها ونابها حبشى قائم رجل
له ثلاثون عينا بين مرفقه وبين عاتقه فى رجله قزل
فى ظهره حية حمراء قانية فى ظهرها رجل فى ظهره رجل
قال : العجوز الناقة ، والحبشى الذى بين حاجبها ونابها الاسود
الحابس بالخطام .

وله ثلاثون عينا بين مرفقه وبين عاتقه مئاقيل كانت مصورة فى عضده .
وفى ظهره حية برنس فيه تصاوير بعضها داخل بعض .
وهو ما عناه بالبيت الاخير من أبياته .

وأبياتا فى القلم ، لعديدين من المحدثين ، ختم بها كتابه المذكور .
وقد لاحظنا أن المامون ارتكن فى الغازه الى مترادفات الالفاظ ، فعمى
بغير المشهور منها ، كما استغل الاشتراك فيها .

أما غيره ، فقد اعتمد على الاوصاف ، وهذا ادق وأغمض ما فى
الالغاز

وكما هى عادة الاندلسيين فى تقليد المشاركة ، فقد شاعت الالغاز
بينهم ، وكان منها ما يقوم على التشبيه ، الذى يحذف منه المشبه وأداة

التشبيه ، من ذلك قول ابن هذيل في المروحة :

ومصرونة في خلقتها ان صرفتها
على أنها شبه المجن ودونه
لها لطف أنفاس الصباح ورقة
وقوله في المذبة :

وقائمة في يدي قائم
يميلها نفس المستقل
وتحسبها كجناح غراب
وقوله في الشمعة :

وقائمة تسبي العقول بحسنها
بكت بدموع كالجمان فأصبحت
لها جسد من خالص التبر جامد
تألف منها الضد بال ضد فاغتدت

وهذه الأخيرة ، لعلها نظر اليها شاعرنا ، عند الغازه في الصلاة

ومن الغاز الاندلسيين ، ما كان يروج بين ابن زيدون والمعتمد ابن
عباد ، كقوله :

انا ظرف للهو كل ظريف
انا كالصدر في الاحاطة بالرا
سل عن الطيبات فهي فنون
أى حسن بقى بحسنى محمو

وكقوله :

ان لارض والسماء واللماء
هى بعض اسم من أحب ولاء
علينا أذمة لا نندم
وبتكرير بعضها يستقيم

ولابن زيدون طرق أخرى غريبة فيها . وقد باراه المعتمد ابن عباد في
هذه فكانت بينهما تلك الابيات المطيره .

مثل :

اظفر كما أنت ظافر بكل غاو منافر

ومثل :

شعر من محض وده لك في علم طيره
فهى مهمما زجرتها لها لم تخبر بغيره
وسنرى لهذين البيتين صدى فيما يأتى لشاعرنا في سجلاسة .
ومن مطيراتها ، قوله :

صدق لنا فال السمه تظفر على الكلمه
وقوله :

أنت ان تغز ظافر فليطع من ينافر
وغير هذه من الابيات العديدة التى ترددت بين الشعاعين العظميين
ولابستها قصائد كثيرة نظمت حولها .

وبعد فهذه نماذج من الفاظ أبى الربيع ، يقول في الصلاة ، (التى
يقال فيها قد قامت الصلاة ، أى أصحابها : اقم الصلاة لدلوك الشمس)

وقائمة أبدا دهرها	وما هي والله بالقائمة
يصيح بها الناس مهما أنت	وما ان يخافون من لائمه
وما هي انيس ولا هي جن	ولا هي غرثى ولا طاعمه
ولا هي شخص ولا هي روح	ولا هي يقظى ولا نائمه
وليست تكل لطول القيام	فخبر فديتك ما القائمة

ومن ذلك قوله في جبل درن :

يا عجباً من برك دهره	وهو عظيم الجسم متمد
له عيون جملة تنهمي	من غير حزن وهو مريد
وهو لعمري منصت مطرق	وأبيض الرأس ومسود
وخلقه في ذا الورى معجب	ليس له من صنفه ند

ويقول فيه أيضا :

وشامخ الانف الا أنه جبل لم تدر ذروته ما حافر الفرس
منع تلوح لنا بيضا نواجذه كالليث يكثر عن أنياب مفترس
نمشي ضحى وكأنا في مناكبهِ نمشي من الفزع الملتف في غلس

(وزاد أحد كتبه في هذه الابيات فقال :

فكنت موسى وكان الطور تصعده وكانت الشمس فيه آية القبس)
والواقع أن هذه الابيات خرجت عن معهود الالغاز ، اذ هي واضحة
في كونها تصف جبلا الا يكن جبل درن ، فغيره كجبل الشيخ مثل . (اما
آية القبس الواردة في بيت الكاتب ، فهي « سأتىكم منها بخبر أو أتىكم
بشهاب قبس لعلكم يصطلون » أو « لعلى أتىكم منها بقبس أو اجد على
النار هدى » .)

ويقول في سمك الشابل :

ما اسم اذا ما شئت الغازه في أحرف البيت اذا فتشا
بل يكتم الاول عنه فان اتيت بالثاني اليه وشا
ويقول في مدينة سجلماسة :

بيت حلم أتيته	اشتكي طول هجره
أرق العين من به	نأثما خلف ستره
ما لقطر كتمته	اعتناء بقدرة
كيف لم يدن من شج	يتغنى بذكره
أسأل الشعر عليه	هو أدرى بسره
أى أبيتك الذى	حل الفى بشطره
قال ان شئت علمه	صحف النصف تدره

وعلى هذا نصحف كلمة « بيت » سينا والحاء من « حلم » جيما
و « تيت » من أتيته سينا والهمزة منه ألفا وهاء الضمير منه كذلك هاء
التانيث فينتج من هذا الشطر : بيت حلم أتيته كلمة « سجلماسة » .
فهذه الالغاز في الامكنة المذكورة ، ندل على أنه قالها وهو بالمغرب ،

ولم تجد له الغازا في بلاد غيرها ، كالاندلس التي تقلب فيها ، مدة طويلة ولا في غيرها كبلاد الجزائر التي ولي منها بجاية ، كما تقدم .

بعد الالفاز اتى باب التشبيه وله علاقة بالاول حينما تسقط أداة التشبيه ويملؤها حذف المشبه ، فكلا البابين يتصلان في غاياتهما بمجرد الشكل ، اذ التشبيه حلية من الحلى التي تكون عليها صور التعبير الفني ، ولعل اهتمام الناس آنذاك بالاندلس والمغرب ، كان منصبا على التشبيه ، الذى تفنن فيه الشعراء بالاندلس وكان فارسهم بالقرن الخامس ابن خفاجة ، وهذا الانصباب لا يستغرب منه ، فلقد كنا بالمغرب ن نصب على دراسة الاستعارة ، ونترك ما عداها من بحوث البلاغة .

وانطلاقا من هذا الشكل ، لابد ان نجد في هذا الباب ما يتداخل وباقى الابواب من الديوان ، وفعلنا نجد مثلا للخمريات فيه نماذج كثيرة ، وقد سبق ان باب النسيب كان قد تضمنها مع غيرها ، بل اننا وجدنا بعض (1) النماذج قد ذكرت بهذا الباب ، وسبق انها ذكرت نفسها بباب النسيب ، مثل الأبيات :

أبدت لنا وجه المسرة كاسه	لله يوم قد تكامل أنسه
وتلفعت بالدجن فيه شمسه	خلعت كمائمها الازاهر بهجة
قد ظل يحسده عليه أمسه	نلنا به كل المنى فلذاك ما
جسم ولكن المدامة نفسه	فاعكف على تراب المدام فيومنا

أما باقى الخمريات الواردة في التشبيه ولم نكن واردة في النسب ، فهي :

ريح الصبا فأنار الزهر والورقا	انظر الى دورحة التفاح مال بها
كأنها أنجم قد فرقت فرقا	والنبت من حولها تبدو أزاهره
ليسألوه فألقى بينهم ورقا	كأنها ملك طاف العفاة به
تهدى السرور وتنفى الهم والأرقا	فاشرب على حسنهما صهباء صافية

(1) الأبيات الآتية تمتاز كذلك بالنسيب في كون الكأس تدى وجه المسرة وأن الازاهر مبتهجة تخلع كمائمها ، وأن الشمس قد تلفعت بالدجن وأن هذا اليوم قد حسده أمسه ، وأنه جسم والمدامة نفسه .

جعلنا القطعة من الخمریات ، لنداء البيت الاخير منها ودعائه الى
الشراب ، وان كانت قيلت في دوحة تفاح ، التي اعتمد عليها هذا التشبيه
بادىء ذى بدء ، فكأن هذه الدوحة ، ما أتى بها الا لتكون مادة خامة ،
ينحت منها هذا التمثال العجيب .

ومما لا علاقة له بالتشبيه وذكر في بابہ ما كتب به الى ابن عم له ،
يقول :

اليوم يوم الجمعة يوم سرور ودعه
وشملنا مفترق فهل ترى أن نجعله

يريد على مجلس الشراب ، فأجابه هذا :

اليوم يوم الجمعة وربنا قد رفعه
والشرب فيه بدعه فهل لنا أن ندعه

وما ورد فيه من خمریات قوله في يوم أنس :

ومل أنس لا نظير لحسنه في روضة معدومة النظراء
جمعت به شنى الازاهر فاقتطف ورد الربيع ووردة الصهباء
من قهوة حمراء نحسب ضوءها قبسا تبدى في دجى الظلماء
صبغت بياض الكاس اذ حلت به فكأنها خذاك عند بكاء

وقوله فيها :

قالوا الذباب وقعن في مشروبنا حاشاه من وقع الذباب وحاشا
لم يستبح حرم العقار وانما لما أضاء لها سقطن فراشا

وقوله في ساق :

وساق يطوف علينا ضحى وكأس المدامة في راحته
وقد أشبهت راحه خده فخلت المدامة من وجنته

أما ما هو من النسيب ولم يذكر في بابہ فقوله :

مثلة من دمعها في غرق وفؤاد من جوى في حرق
عجبا للماء والنار معا كيف لم يخلفنا في الطرق

أقصدته طائشات الحـدق
 بقيت منها بقايا رـمق
 دونه شمس الضحى فى الرونق
 من سناه قمرا فى غسق
 يعيشها ضوء سناه المشرق
 خيفة المين برب الفلق
 أى صبر لعميد قلبه
 فى سبيل الله نفس صبة
 شد ما لاقت من الوجد بمن
 بدرتم اطلعت صفحته
 كيف اذ لاح لأجفاني لم
 كلما أبصرته عودته

وقد تقدم فى النسيب طرق الشاعر للوفاء الذى يتجلى به نحو أحبائه ،
 فمن هذا قوله هنا :

بينى وبينك ود لا يغيره
 وان تكن غبت عن عيني مذ زمن
 كما تناول فى الباب السالف الرياض والامطار ونحوها ، ويقول هنا
 فى ذلك وهو جميل بديع :

بين الرياض وبين الجو معترك
 ان اوترت قوسها كف السماء رمت
 فتح الشقائق حرجاها ومغرمها
 فاعجب لحرب سجال لم تثر ضررا
 من أجل هذا اذا هبت طلائعها
 بيض من البرق أو سمر من السمر
 نبلا من المزن فى درع من القدر
 وشي الربيع وقتلاها جنى الثمر
 نفع المحارب فيها غاية الظفر
 تدرع النهر واهتزت قنا الشجر

هذه أبيات جميلة وأجمل ما فيها البيتان الثانى والثالث ، وان كان
 القاضى عياض قد سبق الى مضمون الثالث فى البيتين المعروفين :

انظر الى الزرع وخاماته
 كتائبها تجفل مهزومة
 تحكى وقد ماست أمام الرياح
 شقائق النعمان فيها جراح
 ويتصل بهذا قوله فى وردة :

خذها اليك كوجنة العذراء
 عطرية الانفاس يملأ عرقها
 نثر السحاب لآلئها منه على
 وكأنها رقم الندى اوراقها
 ثم التأم فرائدا فى صحنها
 من غير ما خجل وغير حياء
 متنشق الندماء والجلساء
 اوراقها لكنها من ماء
 رقم الحباب غلالة الصهباء
 فكأنها خذاك غيب بكاء

فإذا استثنينا بيت التقديم ، فإن هذه الصور كلها قد مضت في الرياض
والزهر إلا ما كان من التشبيه أخيرا بالخد الباكي المورد . وقد تقدم في النسب
خطاب الديار والدعاء لها بالغيث والسقيا ، وهنا أيضا يقول :

امنزلنا الاسنى سقيت وعمرت معاهدك العليا بكل سرور
لكم ليلة نلنا الأمانى سوافرا لديك ومنعنا بكل حبور
ولا زلت محفوظا من الخطب أهلا تفدى بأحداق لنا وصدور

كما عرج على الشيب في بعض أبياته المذكورة في النسب ، وهذه
أخرى فيه :

اقول وقد لاح المشيب بمفرقي الا اكرم به ضيفا وخلا وصاحبنا
لبشرى أتت نحوى وان كنت قد مضى شبابي وما قضيت منه مآربنا
ويقول فيه أيضا :

حل وفد المشيب بالرأس مني فتبدلت من سواد بياضا
أى بشرى أتت السى ولكن لم أتم من الصبا أغراضا

وكان الاندلسيون أكثر الناس استعمالا للكتابة كخرقة تتزين بها
مبانيهم وقصورهم بصفة خاصة ، كما كانوا ينمقون بها حلهم وملابسهم ،
وقصة ولادة بنت المستكفى بالله معروفة بأشعارها التى كانت مكتوبة
على جانب من حلتها ، وهذا كله ما فعله شاعرنا ووجدناه فيما بعد ماثلا
في مباني المرينيين الذين قلدوا فيها الاندلسيين ، وضمنها مدارسهم العديدة
ومساجدهم الجامعة وفي العصر السعدى بلغ أوجه فيما كتب على قبيه
وابوابه وأبهائه ، مما تردد صدها قويا فيما بعد وفي أيام المولى اسماعيل
وعلى قصوره بعاصمته وعلى ابواب هذه (واقتصر هؤلاء جميعا
على المباني عامة) .

أما شاعرنا سليمان ، فنجد مما كتبه (لا محالة) على دار
لهم قوله فيها وكانت بمراكش :

رماك الله يا دار الكرام وجادك بالحيا صوب الغمام
ومتع فيه أعواما طوالا على نعم وخير مستدام
أرى مراكش الحساء تزهى وحق لها على دار السلام

كان الأرض شخص وهى وجهه وأنت بوجهها وضع ابتسام
تقول لأهلها لما أتوها قدمتم فادخلوها بالسلام
أقيموا آمنين بخير حال فعندى للعلا أسنى مقام

فهذه الستة الابيات ، لا تشبيه فيها الا فى الرابع منها ، وهو :

كان الأرض شخص وهى وجهه وأنت بوجهها وضع ابتسام
(ولا بأس به) وان لم يكن من البداعة فى سنامها ، اما كون مراکش
الحسناء تزهى ، فهذا مما تنوسيت فيه التشبيهات واقترب بابتذاله الى
حقائق المدلولات ، فصار البحث عن الاستعارة المنبثقة من التشبيه فى ذلك ،
كالبحث عن الاموات لا يشعون أيان يبعثون ويبقى بعد هذا البيتان الاخيران،
وهما مقتبسان من القرآن « ادخلوها بسلام آمنين » أى الجنة ، وما اقرب
ان يشبه بهذه .

ونحو هذا قليل فيها كثيرا ، من ذلك :

لمراكش فضل على كل بلدة فلم تر عيني مثالا من مثابه
وما هى الا جنة قد تزخرمت ولكنها محفوفة بالمكاره
فهذا أيضا من الحديث « الجنة حفت بالمكاره » ويقول فى شخص غره
حلو كلامه :

كم من شريف القول قد غرنى بقوله والفعل منه وضع
لا تصنع المعروف الا لمن رأيت أهلا لشكر الصنيع
ولم اكن اغلط فى مثله لكن دهننى ثقنى بالشفيع

فهذا كلام مغسول مجرد من كل زينة ، تتزين بها عرائس الاشعار ،
ولا أدري أين موطن التشبيه منه ، اللهم الا أن نعود الى الخلقة الاولى
لمدلول الكلمات (وما فى مكننا أن نشهد خلقها حنى ندعى ما يدعيه بعض
المتحكمين) عن الشقندى فى الفصوص الياضعة انه قال : اذكر انه شفع له فى
شخص مليح الكلام ، فولاه واحسن اليه ، فاتى بالقبايح ، فذكر أمره وانا
حاضر ، ثم قال فيه ، فهذه اذن من وحى الساعة ويقول فى اهدائه خوخة :

ارسلت نحوك يا خليلي خوخة قد جمعت فيها الصبا والشمائل
لونى ولونك اذ تطل فجاءة فأراع عن حذر عليك وتخجل

فالبيت الثاني بديع والتذكير فيه ، والبيت الاول لا يفهم على حقيقته
اذ التائيث لائح في قوله « اذ تطل فجاءة » فالاطلال من التوافذ ونحوها
مالوف من ربات الحجاب ، وقد عرفت العربية في أشعارها بالخصوص هذا
الصنيع من اطلاق التذكير على التائيث ، منذ أن اتصلت بالفارسية التي
لا تفرق بينهما في الضمائر والاشارات والصفات (فكأن شعراءنا تابعوها في
عدم التفرقة ، بل تابعوها حتى في الغزل المذكر الذي عرف به الفرس قديما)
ويبدو أن الشاعر نظر الى ابن زيدون وقوله في تفاح :

انتك بلون الحبيب الخجل تخالط لون المحب الوجل
ثمّار تضمن ادراكها هواء أحاط بها معتدل
ومما جاء في باب التشبيه قوله في خصة الماء (أو ما يعرف في الشرق
باسم فسقية) :

انظر اليها وقد سالت جوانبها بالماء سيلا خفيفا دمه يكف
كانها مقتلتي يوم الوداع وقد لاح الرقيب فلا تجرى ولا تقف
وكتب على لسان حلة زرقاء :

انظر فاني سماء بدر مطلعته مني الجيوب
وفي مهمما نظرت معني مبتدع زاهر عجيب
بدرى لا يعتريه نقص وأنجمي ما لها غروب

والبيت الاول فيه صورة معروفة للشعراء ، كقول ابن زريق :

استودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الازرار مطلعته
ومن شواهد التلخيص :

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر ازواره على الثمر

فكون الوجوه الصبيحة تبرز كالاقمار والبدور من فتحات الحال المزرة
مثلا ، هذا شيء مطروق جدا ، انما البداعة آتية من الانسجام بين زرقتها ،
كالسماء ، وبين مطلع البدر من جيوبها ، وهذا البدر لا يعتريه نقص
(وهذا مطروق كذلك) ، ويبدو أن نجوما كانت مصورة على هذه الحلة
ولذلك قال « وأنجمي ما لها غروب » فالابيات ، على العموم ، أنيقة ، وان

لم يكن في تشبيهها بدع عظيم .

ويقول في الضرابين للنقود :

وفتية مما أداموا الضراب لا يفهم السائل فيهم جواب
كانمما وقع مناقيشتهم في أكلب الضرب نباح الكلاب

وهذا التشبيه في الواقع أتى به الجناس في اللفظ ، فلم نجد به ما
بين المعنيين من نسب ولهذا كان التكلف باديا عليه .

وقوله أيضا في خطاب قبة :

قبة المجد والعلا والفخار ساكنوها على المنى باختيار
تنشد الفازلين أهلا وسهلا ادخلوا آمنين أسعد دار
متعوا اللحظ من أجل رواء واهنئوا الأمن في أعز جوار
كيفت أسعدى ليمناى وقتا حط فيه قواعدى وأزارى
وبنتني المنى بيمين يمين منظرأ رائعاً ويسر يسار
فانما ان نظرت قرة عين وانما ان حللت دار قرار

فهذه أبيات لا تشبيه فيها بالمرّة ، ولا طرانة في وصفها أو في انشادها
وما نطقت به من جمالها وهناء فيها واختيار الطالع لبنائها فكان نظرها
رائعا ونعيمها مريعا ، فهي قرة العين ودار القرار ، مما تتصف به الجنة
ووارد في القرآن الكريم عنها ..

ويقول في قبة بناها أخوه :

ايا قبة العلياء حل بك المجد وحل بك التوفيق واليمن والسعد
وقرت بما تهواه فيك عيوننا وأنجز في لقيا أبي حفص الوعد
وحالفه فيك السرور مخيما اذا ما أتى وفد قفا اثره وفد
ولا زالت الأقدار تخدم امره على وفقه والدهر في ملكه عبد

فهذه الابيات لا شئ فيها يستحق الالتفات ، فالقبة العالية ، حل بحلول
صاحبها فيها التوفيق واليمن والسعد ، كما ظهر اليمن والاقبال في ذلك اليوم
وعيوننا قريرة بما تهوى بانجاز اللقيا لابي حفص ، حالفه السرور وتواردت
عليه الوفود ولا زال القدر يخدم امره والدهر عبدا في ملكه ، فأين شغوف
التشبيه في هذا كله ؟

وبعد فإن التشبيه عمود الشعر ، وأساسه الاول ، وكان شعائنا وما زالوا ، يدلون بقدرتهم عليه ، وتمكنهم من ناصيته وقدما قال غيلان ذو الرمة : اذا قلت ككأن ولم أجد لي مخرجا فقطع الله لساني .

ثم كان عبد الله بن المعتز أمير الشعراء في التشبيه ، الذي كان يعد على رأس فنون البديع ، و ألف فيها عبد الله المذكور ، تأليفه الذي يعد اول تأليف في هذا الباب .

وفي الاندلس جاء ابن خفاجة ، ليتلقى راية التشبيه باليمين ، فكان بطل الابطال في هذا الميدان ، بصفة خاصة .

ولا غرو أن يكون التشبيه بهذه الدرجة العالية في سلم الشعر العظيم ، كما قال الشاعر ، لأنه يدل على خصب في الخيال المبدع ، وعلى قوة التداعي في المعاني ، واستجابتها لصاحبها عند الحاجة اليها ، وبقدر ما يسجّم الشاعر بينها ، بقدر ما يكون ماهرا في ربط بعضها ببعض ، على طريقة التخيل .

ومن المؤلفات التي ألفها الاندلسيون في التشبيه الشعرى كتاب التشبيهات من اشعار اهل الاندلس لابی عبد الله محمد بن الكنانى الطبيب ، من رجال القرن الرابع وأوائل الخامس ، وهو كتاب طريف (1) .

(1) مقد قسم كتابه ثلاثة أجزاء جعل الاول ابوابا ، أولها في السماء والنجوم والقمرين ، ثم ابلج الصبح ، فالرياح ، فالبرق والرعد ، فالسحاب والمطر ثم الربيع والزهرة ، ثم الورد خاصة ، فتغريد الطيور بالرياض ووصف الحمام ، ثم الانهار والجداول والمياه المندفة والاجنة ، ثم القصور والبساتين والصحاري والاشجار ، فالنواير والارحية ، ثم المأكولات من الفواكه وغيرها ، ثم الشراب وأوصاف الخمر ، تتلوها صفات الكؤوس والاعتداح ، ثم السقا والندامى فالقيان والمغنين ، فادوات الطرب من عود وطنبور وغيرها ثم وصف الشعر نفسه .

وبعد هذا يأتي الجزء الثاني من الكتاب أول باب في الحسن ، فوصف الشعر ، بالسواد والشقرة ، ثم ما يخص اصداغ القيان وعذار القلمان ، فاشراق الوجه والخدود والخيال ، ثم فتور العيون وغنجها ، ثم الخفور وطيب رضاها ، فالنهود فالتدود ومشي العذارى والفواير من النساء ، ثم الحديث ، مالمصور والارداق ، فالعناق والوداع ، يتلو ذلك البكاء ، فخفق الاقنعة والقلوب ثم طول الليل والنهار ورعى النجوم ، ثم الطيف والخيال ، فالنحول والهزل ، ثم النيران ، فالشتاء والصقيع ، فقطع المغاوير وصفات الابل النسي يمتطيها المسامر كذلك ، ثم الشراب ، ثم البحر والسفن ، ثم القنص والطرده ، ثم الحيات والهوام ، ثم الحيوول ، فالسيوف فالرماح ، فالقسي والتبال ، فالدرود والبض ، فالنجانيف والرايات والطبول ، ثم وصف الحروب والطعان والمعارك والفتوح والجيش ثم الرؤوس والملوبين ، ثم الخوف والهلع والمهابة . وبالجزء الثالث وصف الدواة والقلم والصحيفة ، مالسكين والجلم ، ثم المذبة والمروحة ، مالجود والكرم ، فالبلخ ، ثم الخوان والاكلة والطينيلين ، وهجو النساء والمغنيات ، ثم الثقل والكاذبين والمنافقين .

بعد باب التشبيه بديوان أبي الريبس ، باب العتاب والاعتذار
والشكوى ، وهو عبارة عن مقطوعات ، تنراوح بين بيتين وثمانية الى
جانب قصيدتين أطولهما تسعة وعشرون بيتا ، وأقصرهما أحد عشر بيتا ،
يقول في الأولى :

عيل صبرى لهموم لا تطاق	شردت نومهما عني المأق
وجدت صبرى خلوا واسعا	فأصارتها لها مأوى فضا
فغدا أنسى عنى نافرا	مستحشا برحيل وانطلاق
زندها أورى بقلبي شررا	صدعته بالتهاب واحتراق
أضرمتها زفريات صعدت	بذما نفسى الى حد التراق
فهو لا ينفك منها فى عنا	مثل عان حل فى أسر الوثاق
أتمنى أن أرى لى حاجة	معها وهى تبارى فى السباق
أو ترى عيناي شيئا ترتضى	بوفائى أو على غير وفاق
لينها اذ نخذتنى غرضا	حملت قلبى منها ما اطاق
عجبا كيف بقائى معها	وإنابى نزع وسياق
كلما رمت أسلى النفس عن	ما دهاها انطبقت أى انطبا
وأبت إلا نفا را دائما	أو هلاكا بانفطار وانشقاق
ليس من عشق ولا من سقم	أشكر الله ولا فرط اشتياق
مقسما أن لا ينى فى طلبى	كل مطلوب ففى حكم اللحاق
أنا ان قاومتها جرعنى	غصص الموت كربها المذاق
وشدا مستهزئا ينشدنى	« من لنا بعد افتراق بتلاق »
وانبرى مستأنفا عادته	من مجيرى منه قد ضاف الخناق
لا لجرم والذى أسأله	فرجا مما أقاسى والاق
فأليه المشتكى من جور	وبه منه اعتصامى واعنلاق
وبولانا الامام المرتضى	فاتح كل انسداد وانفلاق
ومجلي كل خطب فادح	بالعتاق الصفر والبيض العتاق
فهو يعدنى عليه وكفى	بأمير المومنين منه واق
فأقضى الدهر ما أقرضنى	وأذيق الدهر ما كان اذاق
وأجازيه جزاء حسنا	وأريه ما أرانى من مشاق
ويكون الشكر منى ديدنا	ما دعت ورق على غصن وساق

كيف لا أفعل هذا وأنا صادق حبي ما فيه اختلاق
ومديحي فيه قد يعرفه من ببغداد ومصر والعراق
نال مما يشتهي آماله ووقته خيفة العين الاواق (1)

وقد حاول الشاعر ان يتجلى فيها ببعض المحسنات البديعة ، لكنها
بدت فاترة باهتة غير رائقة للذوق الفني ، مثل قوله :

فهو لا ينفك منها في عنا مثل عان حل في أسر الوثاق
وقوله :

او انا ارضيته او رضته عله يرضى تمادى في الشقاق
وقوله :

ومجلى كل خطب فادح بالعقاق الصفر والبيض العقاق

واخيرا يأتى البينان ، اللذان يحمل أولهما غرابة في عطف العراق على
بغداد ، ولا تجيز هذا الصنيع الا القواعد الجافة ، التى تقول بعطف العام
على الخاص ، ويحمل آخرهما معنى عاميا مبتذلا ، وكأنه انصت الى بيت
عرفه من شواهد النحو فى النداء ، وفيه « ياعدى لقد وقتك الاواقى »

اما القصيدة الاخرى ففيها نفحة من الشعر ، وحرارة من العاطفة
المشوبة ، وان لم تكن متقدمة ملتبهة ، وهى :

كلوم فى الحشى بمدى الزمان	وقد ترم الأوانى والمغانى
وقد كان المجن تجاه وجهى	ولكن حاد عن طرق الطعان
اذا كان المحارب لي زمانى	فما يغنى مجنى أو سنانى
ومن اى الجهات أظن سلما	اذا حوربت من جهة الأمان
فيا مستفهما عن كنه حالى	كفانى ما أشرت به كفانى
اذا ما شئت تسلينى فزرنى	فقد فهم الشكاية من رآنى
وان كنت الخبير بها ولكن	لسان الحال أفصح من لسانى
فيازمى النغافل والتفاضى	ويا عهد التواصل والتدانى
بعدت فصار وصالك لي حديثا	يحدثه فلان عن فلان
تغالطنى الحوادث فيك حتى	اشك وان رأيتك فى العيان

(1) هذه القصيدة وجهت الى يعقوب المنصور ضمن ما وجهه اليه من اشعار .

وهكذا نرى أن أجمل ما في القصيدة هو البيت الأخير منها ، وإن اكهم
ما فيها هو البيت الأول منها ، وما عدا هذين غيتفاوت في الحسن ، وإن كان
البيتان :

فيازمن التغافل والتغاضي وياعهد التواصل والتداني
بعدت فصار وصلك لي حديثا يحدثه فلان عن فلان

يثقل أولهما بالترادف في التغافل والتغاضي والتواصل والداني ، ويتزمت
الثاني برواية الحديث عن فلان وفلان .

على أن التكرار عند الشعراء والكتاب ، لا يعد من مساوى فنهم ،
فالتزيين بهذا مطلوب لهم ، خصوصا ان كان في احدى الكلمتين فضل ما ،
يتحقق في المعنى أو في مجرد اللفظ ، اذ الموسيقى الصوتية في فن الادب
لا تغفل أهميتها عند الادباء ولهذا نغبط حقهم ، اذا ما أخذناهم أخذ عزيز
مقتدر بهذا التكرار ، وهم يقصدون به التجميل والاحسان .

فالشاعر يئن من آلام هذه الجروح التي أصيب بها من شفار الزمان ،
وحطم له كل ما لديه ، فتعرض لكل رام ، وقد تجرد من كل واق ، وما يغنى
المجن والدهر هو الذى يقصده بسهامه ، وأين يجد له الامان ، اذا كان
محاربه من يحيره ، فيامستفهما عن الحال ، كفك ما اشرت به ، فان شئت
أن تدرك ما انا عليه ، فزرنى تفهم شكاتى ، فانك لو كنت خبيرا بالامور ،
لكن حالتى تجعلك تدرك الحقائق أكثر وأعمق ، لقد تمنيت السلامة غير
دار بأن الضر قد يكمن في بعض ما يتمنى الانسان ، فيازمن التغافل عنا ،
لقد ابتعدت عنا كثيرا ، فصرت مجرد حديث يتنقل من هذا الى آخر ، وتنمرت
لنا فلم تغض عنا لحظة ، وأصبحت الحوادث تترى ، نغالطنى في حقيقتك
الاولى ، فكأنها كانت حلما من الاحلام .

والى جانب القصيدتين فهناك قطع تتفاوت في عدد أبيانها وفي قيمها
الفنية ، منها :

عذيرى من دهر الح كأنما علي له دين وحن اقتضاؤه
فياليت شعرى ساقط لا لعلة اينفع او يجدى لدبه ارضاؤه
وما الناس الا السيف صين بغمده ليحمد في يوم النزال مضائه

يريد في هذه أن يتنفس الصعداء ، ولكنه ينفث نفثته المصدورة ، من هذا الدهر الذى لا يفتأ يصيبه بثتي المصائب ، كأنه يطالبه بدين له عليه طال المطال فيه ، فهو يستحنه ويقتضيه ، فما يدرى كيف يتخلص منه ، وهو الذى خانته حظه ووقع من حالك ، لا لعله تسبب بها ، ولا لجريرة أوجبت عليه تحمل احنها ، فلهذا هو يائس من النجاة ، ومن أن يرضى عنه الزمان ، بعد ما حاول ارتضاه فلم يجده ذلك شيئا ولم يعنه ، على تحصيلها باد في بيتها الأخير أنه توجه بها الى المنصور معتذرا بمكانة القربى التى تستجيب لأصحابها عند المكاره وكذلك نجده يسنعطف - أيضا - يعقوب المنصور ، بعد المحنة التى تعرضت فيها بجاية للسقوط فى يد ابن غانية ، وكان الشاعر عاملها فيقول :

يا كعبة الفضل التى حجت لها	غز الشام وتركها والديلم
طوبى لمن أضحى يطوف بها غدا	ويحل بالبيت العتيق ويحرم
ومن العجائب أن يفوز بحجة	من بالشام ومن بمكة يحرم
حاشا أمير المومنين فأنسه	أحنى على رحم دعته وأرحم
اليوم تغفر للجناة ذنوبها	فعسى أكون بفضل عفوك منهم
هبنى جنيت اليس تعلم أنه	نحن الالى نجنى وأنت المنعم
والفضل يظهر بالنقيض لحاكم	بينى وبينك أذ نسيء فتعلم
من ابن يعرف قدر اغضاء الفتى	لولا المسىء له ولولا المجرم

فهو يناديه ، ويشيد بمكانته ، التى جعلت الشام يتجه اليه ، بغزه وتركه وديلمه ، وكان ذلك واقعا فى تلك الجماعات التى حجت اليه وفيها ابن حموية السرخسى ، الذى لازم المنصور ، وحضر معه موقعة الأرك الشهيرة ، وكتب عنه وعن رجاله ، مذكرة ، يعتبر ما حفظ منها سجلا هاما عن المنصور ، وأيام من عهد ابنه الناصر ، والشاعر ، وهو يثن تحت وطأة تلك الجفوة ، يذكر المنصور ، بما يسخو به نحو هؤلاء الغرباء الذين حجوا اليه ، فهو يمكنهم من التمتع بحضرته ، فهم يطوفون به بالبيت العتيق ويحرمون ، شأن الحجاج يطوفون حول الكعبة فيكونون محرمين ثم محلين . أما هو فقد أقصى عنه ، على قربه منه . فياللعجب ، أن يفوز من أتى من الشام بحجه ، ويحرم من بمكة مقيما من ذلك الحج ، فيطوف البعيد منها بكعبتها ، ويحل ويحرم ببيت عتيقها ،،،

ان امير المؤمنين لن يحره نى من عطفه ، وانا ابن عمه ، فهو احرى
على رحمه وأرحم لهم ، واليوم ، تغفر فيه ذنوب المذنبين ، فعسى
ان اكون ممن تشملهم هذه المغفرة ، فهبنى جنيت ، فأنت الذى تعودنا منه
الانعام ، على جنايتنا ، فلولا الاساءة ما كانت المغفرة ففضل الانسان بمواقفه
من الحلم ، تجاه المسيئين اليه ، وبهذا النقيض يكون الحكم بينى وبينك ، أسىء
فتحطم .

ويقول أيضا في استعطافه :

رضاك امير المؤمنين فائنسى	أعالج بين العذر والذنب مشكلا
أبرئ نفسى ان علمت خلوصها	وأعتبها أن لم تفز بك أولا
الا فى ضمان الله نفسى من الردى	اذا كنت لي فى زلنى متأولا
وفى حفظه من كل سوء أخافه	اذا كنت لي حرزا حريزا ومؤلا
ومن جاء فى اخلاصه مترضيا	فقد جاء من تقصيره متصلا

ففى هذه أيضا بيته شجواه ، وأنه فى دوامة العذر والذنب وأنه يرىء
نفسه حيث يعلم خلوصها ، ويعاتبها لأنه مجفو مقصى عنه ، ولا ضمان له
ولا امان ، الا اذا التمس له المنصور عذرا ، وتأول ما وقع فيه ، فحمله
محملا حسنا ، فانه ان كان حافظا لزمته راعيا جانبه ، فقد أمن من كل ما
يخشى ، ومن قصده يطلب رضاه ، فقد بان تنصله من كل ما يرمى به من
سوء ، وكل ما اتهم به من تقصير .

وكذلك يقول فى هذا الغرض :

أمير المؤمنين نداء عبيد	رجا عتبك فى الزمن القريب
فسخطك قد أذاب النفس سقما	وما لي غير عفوك من طبيب
فلا تقطع رجائى واعف عني	فدتك النفس من كل الخطوب
وهب عظمت ذنوبى ما أرادت	اليس رضاك أعظم من ذنوبى
اذا كان الظهور حسيب غبرى	فان رضاك عني هو حسيبى (1)
فما نقص الكرامة منك عيب	اذا وفرت بالعتبى نصيبى

(1) انظر ما وقع فى هذه الحادثة للساعر ، الجزء الثالث من البيان المعرب ، ص 146 - 149
سحقيق « هويدى ميردا » وساهمة ابراهيم الكتانى ، ومحمد بن ساويب ، العبد الفقير

وهذه لا تختلف عن سابقتها ، فى الشكوى من الجفاء والسخط الذى أضناه ، فهو يرجو العفو ، وإن عظمت زلته فعفوه أعظم ، وحسبه رضا وحده وله غير هذه أبيات ، يصح أن نعدّها حكما مجردة مثل قوله :

عشرات اللسان بالمرء تودى أن يرى رأسه سقيط الحسام
ويرى بارئنا وإن هو يوما عثرت رجله بصم الرجام

وأخيرا يأتى الباب السابع فى الديوان ، وهو باب الزهد ، الذى يمثل نهاية المطاف فى حياة الأمير أبى الربيع ، الذى كان ، كما صورته تمام التصوير باب النسيب ، ولهذا نجد فى البيان المغرب ، فقرة لاشك أن كاتبها كان معاصرا له ، فيها دعاء من هذا الكاتب لشاعرنا بأصلحه الله وعفا عنه ، فمن قصائده الزهدية ، هذه الدالية :

ياراقدا ملء عينيه يهدئه	لين القرائى وعين الله ترصده
لو كنت تعلم فوز الغانمين غدا	ياراقدا ليله ما كنت ترقده
وكيف ترقد لبلا أو تلذ به	وأنت تجهل ما يأتى به غده
مهد لجنبك فى التقوى بخشينه	فليس شئ سوى التقوى تمهده
اليس ترحل عن حال وسركها	فاجن لنفسك منيما ما تزوده
فسوف تجزى بما قدمت من عمل	وزارع الخير فى الدنيا سيحصده
يارب راقد نوم حشو مضجه	شوك القتاد ولكن لا يسهده
أغفى على غير وعد من منبهه	مع الصباح ويوم الحشر موعده
يوم الندامة لو بغنى ندامته	مبيض الوجه فيه أو مسوده
والمرء من كثرة التسأل مشغفل	يقيمه هول ما يلقي ويقعده
حتى يقول طويل العمر وافرّه	ياليته كان ذاك اليوم مولده
قد كان أحمد عمر المرء أطولّه	فاليوم أقصر عمر المرء أحمده

وهكذا فانه فيها يوقظ ذلك النائم ملء جفنيه فى فراشه الوثير ، لا يبالى بما يرتكب من المعاصى ، وعين الله تراه وترصده ، وهو لا يرعوى فلو كان يعلم فوز الفائزين بالطاعات ، يوم المغنم الاكبر ، لما كان يستنيم الى ملذاته ، ويخلد الى مرقدّه ، يقضى به طول ليله وكيف يرقد ليله ، ويلذ له نومه اليوم ، وهو يجهل ما يأتى به الغد ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

اني ناصح لهذا الغافل ، فليمهّد لنفسه المسكينة ، بما ينجيها ، من عذاب القيامة ، فلا يحد عن تقوى الله وخشيته ، والعمل على مرضاته ، فليس ما يمهّد به الانسان لنفسه ، الا التقوى ، والا فانه سيرحل عن هذه الدار وهو ينوء بالاوزار ، فليجنن لنفسه ما يزودها به من اعمال الابرار ، فكل سيجزى بما قدمت يداه ، وزارع الحسنات لابد ان يحمدّها مع الاخيار .

رب رائد على سريرته والشوك ملء حشيتة ، يشك جنبه ولكنه لا يحس بذلك ، ولا يسهده ألمه ، فقد أغفى على غير موعد من منبهه مع الصباح ، ولكن الموعد يوم يحشر الناس عراة حفاة ، يوم الندامة لو تغنى الندامة ، ويوم ينال كل انسان جزاء ما قدم في هذه الدنيا ، من خير أو شر ، ويوم يكون الانسان منهمكا في تسأله ، مشتغلا بالاجابة عن نفسه ، فياهول ما يلتقى في موته ، حتى يتمنى طويل العمر في الدنيا وافر النعيم فيها ، ان لو كان مولده ذلك اليوم الذى كان فيه ترابا .

لقد كان أحمد الاعمار في الدنيا ، اطولها ، أما اليوم ، فأحمدّها أقصرها

وهكذا يأتى هذا البيت الأخير ليؤكد معنى البيت سابقه ، وهو صنيع للشاعر ، سقنا أمثلة منه ، فيما سلف ذكره .

ونحو هذه القصيدة قطعة أخرى يقول فيها :

يا غافلا عن ذكر مولاه	وذا هلا عن شكر نعماه
وراعى في غبه لا هبنا	قد كطت بالنوم عيناه
يا عجبا تكثر مصيانه	وتدعى أنك تخشاه
فعد عن ذكر الصبا جانبنا	وارج الذى تأمل رحماه
في يوم لا قوة الا به	ويوم لا راحم الا هو
رب اذا ما شئت أن تهتدى	لقدره فاقرا « هو الله »

فهذه قطعة عليها مسحة المنصوفة ، في وزنها ومغزاها ، يبتدئها بخطاب الغافلين وتنبههم من ذهولهم ، عن شكر نعم الله الوافرة فهم راعون في غيهم ، لا هون عن ذكر ربهم ، قد كطت جفونهم بالنوم العميق ، واصطحبوا الغفلة عن الله ، الذى يرعاهم برعايته .

ومن هذا يخاطب نفسه :

يا نفس حسبك ما فرطت فازدجى	عن الذنوب فان القبر مثواك
خافى الاله لما قدمت من زلل	واعصى هواك فان الله يرعاك
ان الهوى قلما تجدى هواته	وهو الذى عن سبيل الرشداقصاك
لشدهما تعلمين الفرق بينهما	ما كان احراك بالاجدى واولاك
الى م تلهين عن قولى مغالطة	وتوقنين بأنى غير افاك ؟
اصغى الي فما فى الارض من احد	القي اليه صريح النصح الاك
توبى الى الله ان الله يقبلها	واسعى بجهدك فى تحسين عقبك

يخاطب نفسه ، وينصحها بأن تكف عما فرط منها ، فتزدجر عن ارتكاب الذنوب ، ولتذكر القبر الذى ينتظرها ، فيكون مثواها الاخير ولتخش الله ، فئما قدمت من ذنوب ، ولتعص الهوى الذى يعمى الابصار ، فان الله ، لا تخفى عليه خافية ، فهو يرعاها ويرقب أعمالها ان هوى الانسان لا يجديه فى شىء ، بل هو الذى يقصى صاحبه عن سبيل الهدى والرشاد ، ولشدهما يدرك الانسان الفرق بين هواه ورشده ، فما احراه واولاه باتباع ما يجديه .

فالى متى تبقين لاهية غافلة عن نصحى ، لا تدركين انى اصدقك النصيحة ، لا اكذبك فيها فأصغى الى ، فانه ما فى الارض احد اخلص فى ارشاده واصدقه قولى وامحضه نصحى غيرك .

فتوبى الى الله توبة نصوحا ، فان الله يقبل توبتك ، واسعى بجهدك فى تحسين عقبك وكذلك يخاطبها بقوله :

ستعلم نفس قد قضى الله نجبها	بأية ما كانت تجاهر ربها
وما المرء الا نائم طول دهره	اذا ما انقضى عمر الحياة تنبها
اعاتب نفسى طامعا فى ارتجاعها	ولو كنت ذا يأس لخلت عتبا
ولكننى أرجو لها من فضله	الى العمل الارضى يقلب قلبها

وهى ابيات عليها طابع أبى العتاهية ، الا ما كان من البيت الاخير منها ، فانه فيه يجمل ظنه فى ربه ، ويجعل قلبه فى يده ناظرا الى الحديث « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك »

وهذه قطعة أخرى يقول فيها :

عاتببت نفسي ولو كانت موفقة
الست عالمة يا نفس موقنة
نأتى من الذنب قدرا ليس نجعله
لم يكف أنا من الدنيا على خطر
حتى غررت بآمال مزخرفة
هلا أقميت على حال تكون بها
وان قوما أعانتهم ذنوبهم
فقالن النفس لما عوتبت عجبا
فاسترحم الله ان القوم كلهم
لكان لي ولها من نفسها حكم
ان الحياة وان طالت بنا حلم
عض الانامل في عقباه والندم
والعمر ينفد والأيام تنصرم
وجودها ان نرم تحصيله عدم
كالفائزين ومن لي أن أكونهم
على السلامة في الدنيا لقد سلموا
تالله ما سلموا مني ولا عصموا
كانوا بحالتنا لكنهم رحموا

فهو هنا يعتقد حوارا بينه وبين نفسه ، ويتحدث عنها بأنه عاتبها ، فلم تأبه له ، ولو رشدت لكان لها وله حكم عليها لقد قال لها في عتبها ، الست يانفس عالمة موقنة ، بأن الحياة ستنتهى ، وأنها وان طالت حلم من الاحلام ، لا حقيقة لها اننا نرتكب من الذنوب ، ما لا جهل لنا في ارتكابه من معصية ، واننا ستنالنا به ندامة واية ندامة ، نعض الانامل من أجلها الم يكفك أننا على خطر من الدنيا الفانية ، وأن العمر فيها ينفد وشيكا ، والأيام تنصرم انصراما هائلا كلا ، انه ما كفك ذاك ، حتى صرت تغترين بالآمال الخادعة المزخرفة ، وهى لا وجود لها من الواقع ، فوجودها ان حقتت في تحصيله عدمها ، فالفناء هو الحقيقة الماثلة ، ولا وجود للبقاء ، فهو ظل زائل ، وسراب ناكل فهلا أكون قد سلكت طريق النجاح ، وأقميت على حال الرضى والفلاح ، فأصبح بذلك من الفائزين ، ومن لى أن أكونهم ؟

لقد أذنبت كثيرا ، وليتنى كنت من أولئك القوم الذين انتهوا الى رشدهم وأقلعوا عن ذنوبهم ، التى أعانتهم على السلامة في الدنيا ، فسلموا من خطر ما كان سيصيبهم في الآخرة .

هنا قالت له النفس ، وقد طال عنابه لها : عجبا منك ، تقول ، انهم قد سلموا ، فوالله ما سلموا من تلك الاخطار ، ولا عصموا من امر الله ، فاطلب الرحمة منه ، فالقوم كلهم كانوا مثلنا بحالتنا ، لكنهم استرحموا فرحموا .

ويلاحظ عليه ، أنه تكلم عن النفس فجعل لها نفسا في البيت الاول :

عائبت نفسي ولو كانت موفقة لكان لي ولها من نفسها حكم

ذلكم ان كلمة النفس في الشطرة الثانية ، ما هي الا ضمير ، يدعى ضمير النفس ، يقوم مقام الضمير تماما وهو مضاف اليه ، حينما يتحد في الفاعلية والمفعولية او نحوها ، مما له نعلق بالفعل ، كما نجد ذلك في قوله تعالى : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » فنفسها هذه ليست بمعنى النفس ، بل هي تقوم مقام الضمير الذى اضيفت اليه .

فهذا الاسلوب في الزهديات هو الذى عرفناه في الشرق منذ اربعة قرون خلت في شعر أبى العتاهية الزاهد الذى — كما هو معلوم — كان لا يتكلف في صياغته ويختار له هذه الاوزان الخفيفة ، وقد ذكرنا فيما سبق نموذجا آخر من هذا القبيل — فيما عرضنا — للقاضى أبى حفص السلمى ، وهناك اديب آخر من هؤلاء الذين عاشوا في اواخر القرن السادس واول السابع — وكان في ركاب الدولة — هذا الاديب هو ابن خبازة الفاسى المعروف بميمون الخطابى وسننكلم عنه فيما بعد حين التعرض له .

اما نثر سليمان الموحّد فنلتمسه فيما حفظ له من توقيعات واجابات قليلة نجدها بالفصوص اليناعة وغيرها . وهى لاتنم عن نثر فائق له . ولو اطلعنا على اختصاره للاغانى لكائنات مقدمته ضمن نماذجه النثرية .

وبعد ما تعرضنا لادباء كانوا ضمن شعراء الدولة الموحدية ، في عهدها الاولى ، نتعرض لأدبيين عظيمين ، كانا على رأس كتابها في عهدها الاول كذلك نعني به عهد الخليفة الاول ، عبد المؤمن بن علي .

لقد عمل هذان الأديبان ، للدولة المرابطية ، كاتبين ، كما كان ابن حبوس شاعرها ، وكما كان أبوهما من كتابها أو على رأسهم بعد علي بن يوسف ، وهما يختلفان عن ابن حبوس من حيث نسبهما الذى يرجع الى أصل أندلسي ، وكان ابن حبوس ينتمى الى أصل بربرى .

هذان الأديبان ، هما أبو جعفر ابن عطية وأخوه أبو عقيل ابن عطية ، مؤسس الترسى السلطاني ، لهذه الدولة ، بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة على هذه البلاد ، وهى في أوج عظمتها وشامخ سيادتها .

لقد اتصل أبو جعفر بهذه الدولة ، وهى لما تزل توطد لصرحها ،
وتعمل على تمكين قواعدها ، وترسيخ دعائمها فى الداخل فنال الخطوة
العظيمة لدى الخليفة الاول ، وعد أول وزيرها بالمعنى الصحيح ، فألقيت
اليه مقاليد الدولة ، فكان وزير قلمها بلا منازع كما كان مستشارها فى تسير
أمورها المدنية ، وتحريك دواليبها الادارية ، وهو فى العقد الرابع من عمره ،
وانضم اليه أخوه ، وهو حديث السن لما يسلمح عقده الثانى من عمره القصير
ولسوء الحظ لم تطل خدمة هذين الكاتبين الخطيرين فى هذه الدولة ،
التى اطاحت رؤسهما ، فى غير ما شفقة أو رحمة أو رافة ، ومع هذا فقد
خلفا عدة رسائل سلطانية ، كانت كما قلنا النموذج المثالى الذى احتذاه
من بعدهما ، مما جعل عبد المومن يأسف بمرارة وحسرة ، لما فرط منه ، نحوهما ،
وخصوصا أبا جعفر الذى ذهبت الكتابة بذهابه ، كما يقول هذا الخليفة
القاسى وقومه الفلاظ الأكباد .

حقيقة ان السياسة لا ترحم ، ومن واجبنا أن لا ترحم ، اذا كانت
مصلحة البلاد تتعرض للاختلال بهذه الرحمة ، ولكن درء المفسد وجلب
المصالح ، فى بعض الاحيان ، كان تحقيقهما ، بأقل مما وقع لأبى جعفر
وأخيه أبى عقيل ، الذى أخذ بذنب الاخ الأكبر ، ولم يكن له دخل فيه ، أو
يذكر له دخل فى ذلك .

ونحن هنا لانقف موقف المحامين عند الدفاع ، فلنترك التحقيق لرجال
من المؤرخين ، ولنلتمس فقط ما كان له صداه الأدبى فى هذه المحنة أولا ،
وفى تسير شؤون الدولة ثانيا ،،،

لقد استعطف أبو جعفر ، هذا الخليفة الصارم ، برسائل تضمنت
الشعر الى جانب النثر ، فكان منها قوله :

تالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخبرات بطيئة ،
حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفت لأدم من السجود ، وقلت ان الله تعالى
لم يوح ، فى الفلك لنوح ، وبربت لقدار ثمود نبلا ، وأبرمت لحطب نار
الخليل حبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على
الطين ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذها ، وأغفريت على العذراء
البتول فقذفتها ، وكنبت صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظاهرت الاحزاب

بالقصوى من العدو ، وذهمت كل قرشى ، واكرمت لأجل وحشى كل حبشى ،
وقلت ان بيعة السقيفة لا توجب امة الخليفة ، وشحذت شفرة غلام
المغيرة بن شعبة ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة ، وقتلت
تقاتلوا رغبة فى الابيض والاصفر وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر ،
وغادرت الوجه من الهامة خضيبا ، وناولت من قرع سن الحسين قضيبا ، ثم
أتيت حضرة الامام المعلوم لائذا ، لقد آن لمقاتلى أن تسمع ، وتغفر لى
هذه الخطيئات اجمع ، مع انى متترف ، وبالذنب معترف .

فعفوا امير المؤمنين فمن لنا برد قلوب هدها الخفقان
والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته .

هذه الرسالة من حيث الصياغة والشكل ، تنظر الى رسالة للجاحظ
وجهها الى محمد بن عبد الملك ابن الزيات ، يقول فيها :

والله لو كنت ابتلعت مزار بابك ، وأبطلت نمر الباطل ، ووردت
الفظائع كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كل
شطرنجى لك ، ورفعمت من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلت المروج كلها حمى (1)
وكنيت صداق المرادين ، وبرسام الاولاد ، ومسخت جميع الجوارى فى
صورة أبى رملة ، ورددت شطاط خلقك الى جعودة أبى حثة ، وكنيت اول من
سن بيع الرجال فى النخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحولت
اليك عقل أبى دينار ، وطبعت على بيان ماثويه ، وأعنت على موت المعتصم ،
وغضبت لمصرع الافشين ، واستجبت للديك الابيض الا فرق ، وأحببت
صالح بن حنين ، وأحوجتك الى حاتم الريش ، وكان أبو الشماخ صديقي ،
والفارسي فى شيعنى ، لكان ما تركبنى به سرفا ، ولكنت فى هذا العتاب
متعديا .

فالجاحظ فى هذا يورى بشخصيات معاصرة ، بعضها معروف ،
كالافشين وبابك وصالح بن حنين وحاتم الريش ، وبعضها غير معروف لنا
كما يورى بأعراف معاصرة كذلك ، مثل تبرك العامة لعهد الديك الابيض

(1) من « رسالة فى الجد والهزل » ومنها اقتبس ابن زيدون كذلك . وقد وردت فيها بعض
كلمات غامضة مثل « نمر الباطل » هكذا وبلا نقط و « صداق المرادين » وفى نسخة
« جدام المرادان » كما ذكر عبد السلام هرون .

الا فرق ، ولعل هذا انتقل اليها فيما ينتقى من الديوك لذبحها قربانا على
الزوايا المغتمية الى مولاي عبد القادر الجيلاني دفن في بغداد ، فالغالب أن
ذلك اتى اليها من العراق ،،،

وليس فيها من الشخصيات التاريخية بالنسبة الى الجاحظ الا شخصية
« مانويه » المتنبىء الفارسي في القرن الثالث للميلاد . أما رسالة ابي جعفر
فهى مليئة بالتوريات التاريخية ، والقصصية القرآنية وغيرها من آدم الى
قدار ثمود ، عاتر الناقة ، الى نار ابراهيم ، التى جعلت بردا وسلاما عليه ،
ثم شجرة اليقطين ، التى نبتت على يونس ، بعد أن نجاه الله من غم
الحوت الذى التقمه ، ثم ايقاد هامان على الطين ، وما لابس ذلك من
أثر الرسول موسى فنبذها ، ثم افتراء بنى اسرائيل على مريم ، الى ان انتهى
الى المرحلة التاريخية المعروفة ، منذ البعثة المحمدية ، فصحيفة القطيعة التى
سطرها كفار قريش ضد النبى عليه الصلاة والسلام معروفة بالسيرة ومظاهرة
الاحزاب بالعدوة القصوى ، حيث كان أعداء الاسلام يستعدون لمحاربة
النبى فى غزوة بدر ، ثم ذكر وحشى الذى قتل حمزة ، فى غزوة أحد بعدها ،
ثم تعرض لبيعة السقيفة ، التى بويع فيها أبو بكر ، وما قال المعارضون
فيها ، الى غلام المغيرة ، الذى طعن عمر بخنجره ، ثم حصار عثمان بداره ،
الى ما قيل فى تلك الفتنة التى كانت بحروب علي ومعاوية من قولة جائرة ،
وهى تقاتلوا رغبة فى الابيض والاصفر ، وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر »
الى أن انتهى الى قتل علي باعتلاء سيف ابن ملجم هامته ، فخضب الوجه
بدمائها ، ثم ما كان من اليزيد وهو يفرع سن الحسين بقضيب ، لما وضع
رأسه بين يديه .

فهذه أحداث أولها قرآنى قصصى وبعدها أخرى تاريخى ، ذكر ما يتصل
بالنبى فى القرآن أيضا ، وغيره استقل به التاريخ وحده وقد أورد أبو جعفر
ذلك كله متسلسلا حسب الزمان ، وابتداء — كما قلنا — من آدم ، حين
أبى ابليس من السجود له .

والرسالة من الناحية التاريخية ، فيما يخص عقيدة الموحدين ،
نفى أن يكونوا شيعة الراى ، فهى تنبرأ من الطعن فى بيعة ابي بكر ،
والشيعة على هذا الطعن ، فهم يرون أنه غصبها عليا ، الذى كان أحق

بها ، وتخلف عن البيعة أولا ، كما تتبرا من قتل عمر ، وعمر اعدى عدو
للشيعة ، أما ذكر المهدي بالامام المعصوم ، فمع أن المهدوية وعصمة
صاحبها وليدة الشيعة ، ولكنها فكرة استغلت وحدها لندعيم الدعوة التي
قام بها ابن تومرت ، وما كان لها من نتيجة الاطاحة ، بالمرابطين ، واقامة
دولة الموحدين ، فهو استغلال سياسي طالما تردد ذكره عند الموحديين
وادبائهم ، وفي مقدمتهم أبو جعفر وأخوه ، كما سنرى بعد في النماذج التي
سنأني بها من رسائلهم .

ومما استعطف به أبو جعفر أبيات شعرية وجه بها طفلا له الى
ال خليفة افتتحها بقوله :

عظفا علينا أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج	وعطفة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلها غرض	ورحمة منكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن سطو حوادثه	بمن أجارته رحاكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة	بنصره لم يخف بطشا من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من درن	والطرف ينهض بعد الركض في سنن
أنتم بذلتهم حياة الخالق كلهم	من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم	كلنا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفرأخ الورق من صفر	لم بالفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابغة	والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وهي أبيات معروفة في كتب التواريخ والنراجم ، كالبيان المعرب
وروض القرطاس والاحاطة ، ويلاحظ عليها أنها تنظر الى ابراهيم بن المهدي
يخاطب بها ابن أخيه ، المامون بن الرشيد ، معذرا اليه في قبوله البيعة في
خلافته ، منها هذا البيت :

برئت منك وما كافيتني بيد
فلا شك أن بيت أبي جعفر :

ونحن من بعض من أحبت مكارمكم
منبثق من بيت ابراهيم بن المهدي المذكور ، وهي مذكورة في اشعار
اولاد الخلفاء ، وفي كتاب تاريخ بغداد

وقد علق عبد المؤمن على أبي جعفر بالآية « الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » ، وهو ما فعله ابن أبي عامر تجاه المصحفي فأجابه :

الان يا جاهلا زلت بك القدم تبغي النكرم لما فانك الكرم
والى جانب ما قلنا من نظر أبي جعفر الى رسالة الجاحظ وقصيدة
ابراهيم بن المهدي ، فقد نظر فيهما الى الرسالة الجدية لابن زيدون يستعطف
بها ابن جهور وقصيدة ابن عمار يستعطف بها المعتمد بن عباد ، ونظيره
من حيث المضمون الى ابن زيدون اقوى واعظم ، فقد بدا تورياته بآدم ،
ثم نوح ، ثم هامان وموسى واعتداء بنى اسرائيل في السبت فعقر ناقمة
صالح والشرب من النهر الذي ابتلى به طالوت وقود ابرهة الفيل الى
الكعبة الى الصحيفة التي علقت بالندوة الى بيعة العقبة واستنفار قريش
لغيرهم في غزوة بدر ثم الانخزال بثلاث الناس يوم أحد ، والنخلف عن صلاة
العصر في بني قريظة ، ثم الافك على عائشة ، ثم الانفة من اماره زيد بن
اسامة أول خلافة ابي بكر ، بعد الزعم من كون بيعة الخليفة الاول كانت
فلتة ، فمحاربة ابي شجرة لخالد بن الوليد ، والفتك بعمر ثم عثمان الى
التضييق على الحسين بن علي في وقعة الحرة ، مما نسب الى يزيد بن
معاوية ، ثم رجم الكعبة ، فتصليب عبد الله بن الزبير اثر ذلك ، ايام
عبد الملك بن مروان .

فهو اذن قد بدأ بالقصص القرآني وأشار بالنص الى بعضه في القرآن ،
ثم انتهى الى السيرة وما حدث فيها من أحداث كان آخرها حديث الافك ،
ثم اتصل بما وقع ايام الخليفة الاول وما قيل في بيعته الى اغتيال عمر
معثمان الى ما كان نحو الحسين وموقعة الحرة بعده ، ثم عبد الله بن
الزبير . والغالب ان ابن زيدون نظر الى رسالة الجاحظ في الجد ، فنسج على
منوالها في رسالته الجدية ، ونظر الى هذه ابو جعفر .

وبعد ما تناولنا من اثر ابن عطية نماذج من نظمه ونثره ، في غير
رسائله السلطانية ، نتصل بنماذج من هذه الرسائل التي سنذكر فيها
ما حبره ، وهو كاتب لعبد المؤمن وما سطره وهو ما زال يعمل في الجندية ،
وعلى تقليده السابق الذي كان عليه ، وهو يتولى الكتابة عن الملك المرابطي

اسحاق بن على ، بعد أخيه تاشفين .

وهذا النموذج ، هو الوحيد الذى بأيدينا ، يمثل ما انتهت اليه الرسائل الانشائية بالعهد المرابطى ، ومسطرا من قبل كاتب مغربى النشأة والدار ، لأنه كنب الرسالة هذه ، على اثر نهاية هذه الدولة ، فكان يعمل بالجنديّة من ضمن المرتزقة الرماة ، كما يقول عبد الواحد المراكشى وابن البار فى كتاب « اعيان الكتاب » ولا يوجد من هذه الرسالة الا فصل اولها مثبت بالكتاب المذكور وبالإحاطة لابن الخطيب ، ونفع الطيب للمقرى ، هكذا :

كتابنا من وأدى ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى الممهور القديم « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » فتح بهر الانوار اشراقا ، وأحدق بنفوس المؤمنين احداقا ، ونبه للأمانى النائمة جفونا واحداقا ، واستغرق غاية الشكر استغراقا ، فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ولا لحاقا ، جمع اشتات الطلب والأرب ، وتقلب فى النعم اكبر منقلب ، وملا دلاء الأمل الى عقد الكرب .

فتفتح تفتح ابواب السماء له وتبرز الارض فى اثوابها القشب وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتنطعوا الكفر معنى واسما ، وأملى الله لهم تعالى « ليزدادوا اثما » وكان مقدمهم الشقى وقد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب لهم الشيطان من حبالاته ، فأنته المخاطبات من بعد وكثب ، ونسلت اليه الرسل « من كل حدب » واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذى قادهم الى ذلك وأوردهم تلك المهالك ، وصول من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام « آناء الليل واطراف » الايام ، لبسوا الناموس اثوبا ، وتدرعوا الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله لهم للتوفيق بابا .

(ومنها فى ذكر التائر) فصرع بحمد لله لحينه ، وبادرت اليه بوادر منونه ، وافته وافدات الخطيات عن يساره ويمينه ، وقد كان يدعى أنه بشر بأن المنية فى هذه الايام لا تصيبه ، والنوائب لا تنوبه ، ويقول فى سواه قولا

كثيرا ، ويخلق على الله افكا وزورا ، فلما عاينوا هيئة اضطجاعه ، وأوا
الاسنة على أضلاعه ، ونفذ فيه من امر الله تعالى ما لم يقدرُوا على
استرجاعه ، انهزم ما كان لهم من الاحزاب ، وتساقطوا على وجوههم
تساقط الذباب ، واءطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب ، ولم تقطر كلومهم
الا على الاعقاب ، فامتألت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الأجال بانقراض
آمادهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم الا من خر
صريعا ، وسقى الارض نجيعا ، ولقى من الهنديات أمرا فظيعة ، ودعت
الضرورة باقيهم الى الترامي في الوادي ، فمن كان يؤمل منهم الفرار ويرتجيه ،
ويسبح طامعا في الخروج الى ما ينجيه ، اختطفته الاسنة اختطافا ، وأذاقته
موتا ذمعا ، ومن لج في الترامي على لججه ، ورام البقاء في ثبجه ،
قضى نحبه شرقه ، والوى بذقنه غرقه ، ودخل الموحدون الى البقية الكائنة
فيه يتناولون قتلهم طعنا وضربا ، ويلقونهم بأمر الله هونا وكربا ، حتى
انبسطت مراقات الدماء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقتها حمرة
الشفق على زرقة السماء ، وظهرت العبرة للمعتبر ، في جرى الدماء مجارى
البحر

وهكذا نجد في هذه الفصول الاعتناء بترصيع الالفاظ
والاحتفال بالصنعة البديعية والبيانية ، والاطالة بما يجعلها أحيانا لا طائل
تحتها ، فالتكرار فيها لا يأتي الا بالنشوة الإيقاعية ، في نحو « بهر الانوار
اشراقا ، وأحدق بنفوس المومنين احداقا ، ونبه للأمانى النائمة جفونا
واحداقا » . فالاسلوب الشعري المتأنق فيها متحكم بجناسه وتشبيهاته وطباقه
واستعاراته وكناياته . فهذه « مراقات الدماء على صفحات الماء تحكى
حمرتها على زرقتها حمرة الشفق على زرقة السماء »

ثم التضمينات والاقتراسات تعددت من القرآن والاشعار والامثال ،
فمن القرآن :

« وأملى الله لهم تعالى ليزدادوا اثما » فهذا من قوله « انما نملى
لهم ليزدادوا اثما » وكذلك نجد « ونسلى اليه الرسل من كل حدب » من
قوله تعالى : « وهم من كل حدب ينسلون » كما أن « آناء الليل واطراف
الأيام » لم يغير فيه الا النهار ، فجعل بدله الابام ، طلبا للسجع والجملة
« وأخذهم الله بكفرهم » من قوله « فأخذهم الله بذنوبهم » وكذلك النعير

بقضى نحبه ، تعبير قرآني « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » وهذا الانتظار أدى معناه بادئا ، فيمن كان يؤمل الفرار منهم ويرتجيه ، الى آخر ذلك القصد وقوله « ويلقونهم بأمر الله » بعد « يتناولون قتلهم » انما هو من قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بأمره » .

ومن الاشعار جاء بيت أبي تمام ، ثم قال : « لبسوا الناموس أثوبا ، وتدرعوا الرياء جلبابا » فهو من قول الشاعر في فقهاء المراتبين .

اهل الرياء لبستم ناموسكم كالذئب ادسج في الظلام العاتم
ثم قوله « ولم تقطر كلومهم الا على الاعقاب » اخذه من قول الحماسي :

فلسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على اقدامنا تقطر الدما
ومن التعابير العتيقة ، التي سارت مسرى الامثال ، قولهم « شد عقد الكرب » وهو الحبيل الموصول بالرشاء ، الملولى على خشبات الدلو المعروضة ، وقولهم « يتساقطون تساقط الذباب على الشراب » ، فمن هذا وجدنا في الرسالة قوله « وملأ دلاء الأمل الى عقد الكرب » وقوله « وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب »

ومهما يكن فالرسالة لم تكن قد اتخذت طقسا بعينه في هذه الدولة الناشئة ، بل كانت على النهج الذي سلكته الرسائل السلطانية للدولة المراتبية في عهودها الأخيرة ، التي تولى فيها أبوجعفر وأخوه مهمة الكتابة السلطانية ، ومع هذا فقد ظلت هذه الطريقة معمولاً بها في الدولة الموحدية ، ولم يضاف اليها الا الديباجة الخاصة بالقباب المهدي المعلوم المعصوم .

وهذا طبعي ، بالنسبة الى عبد المومن خصوصا ، فانه لم يقبل على هذا الكاتب ويصطفيه من بين العسكر ، ليحله محل الوزارة والصدارة في الكتابة ، الا بفضل تلك الطريقة المراتبية ، التي سحرت ، فجعلته ينحى عن كاتب كان من بين الرجال المصطفين للمهدي ويتوجه بكليته الى هذا الكاتب المراتبي ، فيحله محله ، ثم يزيد في حظوته ، وهو بعد ذلك ابن الكاتب جعفر ، الذي قتل بسيفه آنفا .

والرسالة المذكورة ، لم يحفظ الا بنصول منها ، ومع ذلك فهي من الطول

البالغ ، الذى لم يكن المقام يقتضيه ، ولا كان صاحبا أبوجعفر يدركه ، فقال فيها « وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة » فهو كما يدعى اختصر ولم يطل ، وان كان عبد الواحد المراكشى — مثلا — يعتبرها من الطول بمكان ، فاختصر على الفصول واعتذر بأنه لم يسأت بنصها كاملا ، لها فيها من الطول .

فهذا النص يسجل كون الرسائل السلطانية ، كانت قد جنحت الى الطول ، فى العهد الاخير للدولة المرابطية ، بعد كانت فى اوائلها تقتصر على ما يؤدى المعنى فى اسلوب يتسم بالبساطة غالبا ، فقد كان ابن القصيرة كاتب يوسف بن تاشفين ، على طريقة قدماء الكتاب ، من ايثار جزل الالفاظ وصحيح المعانى ، من غير التفتات الى الاسجاع التى أحدثها متأخرو الكتاب ، الا ما جاء فى رسائله عفوا من غير استدعاء ، كما يقول عبد الواحد فى كتابه المعجب .

فلما كان عهد ابنه علي ، وجدنا على رأس كتابه محمد بن أبى الخصال ، الذى كان آخر الكتاب — كما يقول عبد الواحد — واحد من انتهى اليه علم الآداب ، فحصر طريقه بسياج من الاسجاع ، التى اقامها على جميع الحروف ، ولم يستثن حتى أثقلها جرجسا ، فوجدناه يكتب لصديقه ابن بسلام « وصل من السيد المسترق ، والمالك المستحق ، كتابه البليغ ، واستدراجه المريغ »

فما أثقل حرف الغين فى هذا ، وما اشد الكلفة فى كلمة المريغ ، التى لم نألفها من غيره ، واستمر هذا التصنيع ، موغلا فى سبل متشعبة ، لا تزيدنا النجعة الا طولا على طول ، والحضارة تأخذ بيده وقد أسلم اليها القياد ، يستهديها فتهديه الى طريقها اللاحب .

لهذا فلا عجب ان نجد هذا الطول قد انتهى الى مداه ، وان الدولة التى ورثت هذه الحضارة ، قد سلكت طريقها أمما دائما فالتطور الحضارى هو الذى أملى بهذا الطول ، وتنكب سبيل الإيجاز ، وقد سبق له نظير فى الدولة الأموية التى كانت لأول أمرها تسلك نهج الإيجاز ، ثم صارت تتجه نحو الاطناب تدريجيا ، الى ان كان آخر كتابها ، عبد الحميد ، يطيل طولا يبالغ فى وصفه ، حتى قيل ان الرسالة التى وجهها عن مروان الجعدى الى أبى

مسلم الخراسانى ، كانت لطولها تحمل على جمل ،،،

وبعد فهذه هى الفصول التى عنيها ، نأتى بها كلها ، على طولها ، مقتصرين عليها ، كنموذج من رسائل أبى جعفر للسلطان ، يقول بعد الديباجة التى لم نعثر عليها ، والغالب أنها لم تكن مختلفة ، عما وجدناه فيما سطره من رسائل سلطانية فيها تلاها .

وهذا كتابنا اليكم — عرفكم الله من عوارف نعمه أفضل ما تتعرفون . وسقاكم من معين حكمته ما لا تصدعون عنه ولا تنزفون . وأولاكم من رحمته ما تحافظون على شكره وتعكفون . وجعل لكم بالايمن والعمل الصالح ودا لا يصدفون عن رعايته ، وحفظ غايته ، ولا تصرفون . من حضرة مراکش — حرسها الله — ونحن نشكره سبحانه أن جعل الامر المبارك قطب المصالح . وملتقى الفواتح . ومرتقى المطامح . فالخيرات بمحيطة محصورة . والمسرات على عهده بسيطة مقصورة . والقوى فى خدمة مقاصده معضودة منصور . وما تجريه الأقدار . ويأتى به الليل والنهار . فالى تمكينه يستبق ومن عجائب مكنونه ينطلق .

وقد كان فى الامر الذى عرفناكم بثلجه ، وأطلعناكم على سواره ومبهجه ، ما اجتليموه من مستوضح الفتح ومجتلاه ، ووعيتم من معجزاته ما أورده الحق وتلاه ، ورأى به الكافة أن عدو هذا الامر السعيد تولى ما تولاه ، وتلقى سعى شره وتصلاه ، واستمر البحث بعد ذلك على أوليته ، وأشرف الفحص على يقين المطلب وجليته ، ويكون ذلك المستطير من مخباه ، المستدير على مسقطه ومكباه ، الى جانب الموحدين انتسابه ، وعليه لا عليهم سعيه واكنسابه ، نشأت لهم بين الخجل والوجل حالة التناصح والتعاب ، ووحشة التباحث والتطالب ، وان كانت موداتهم الوثيقة موصولة الحبال ، مبنولة الفلال ، مجبولة على الالتحام والاتصال ، لها الوفاء والصفاء ، والقديم الذى لا يلم به الدروس والعفاء .

تم يقول أبو جعفر فى احدى رسائله النى كتبها عن عبد المومن الى طلبة سبنة . وهى من أولى رسائله فى هذا العهد من أمير المومنين — أيده الله بنصره . وأمده بمعونه . الى الطلبة الذين بسبنة . وجميع من فينا من

الموحدين خاصة وعامة . — وفاتهم الله وسددهم — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله مولى الرغائب . ومسني الآمال والمطالب . وقابل توبة التائب . فحمده بما يتعين من حمده الواجب . ونصلى على محمد نبيه العاقب . وعلى آله وصحبه أولي المفاخر السنية والمنائب . ونصل الرضى على الامام المعصوم . المهدي المعلوم . المحرز شرف المبادئ والعواقب . المجلي بنوره الثاقب . حجب الظلام الواقب .

وكتبناه اليكم — كتب الله لكم شكرا موالى معادا . وتوبة تجعلونها قاعدة لأعمالكم وعمادا . وصلاحا لا يفارق بحمد الله نماء وازديادا . من حضرة مراكش — حرسها الله — وقد وصلنا بحمد الله على أتم أحوال الظفر واليمن . وعدنا اليها تحت ظل السلامة التامة والامن . بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها . واطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها . والصاق أنوف الكفرة المرتدين برغامها . وقطع دابر القوم المجرمين في هذه الجهة وما انتظم في نظامها . ونال الغزاة في هذه الحركة الميمونة من الأجور . والمغنم الموفور . والفضل الذي ينشر عليهم أجنته يوم النشور . ما لا يتمكن لأحد من البشر وصفه على حال . ولا يتأتى لمخلوق نعته على استيفاء واكمال . فطوبى ثم طوبى لمن حضر في سبيل الله فأحضر وأخلص نيته في غزوه الميمون بمبلغ ما استطاع وقدر . وتساعدت جوارحه في تخليص ما اكتسب من هذه الفضائل وادخر وان النعمة — وفقكم الله — بهذه الفتوح العبيمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الامر العزيز ودان . ونزيا بطنه البهية فازدان . فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهدي — رضى الله عنه — العجيب العجاب . وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب . ودرت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب . الى آخر الرسالة وهي في بشارتها لاهل سبته تحمل اليهم تهديدا ضمنا اذا ما عاودوا ثورتهم ضد الموحدين تلك الثورة التي كانوا قد ثاروها سنة ثلاث وأربعين فأخضعهم عبد المومن ولكنه لم يكن يطمئن اليهم . فكان يتخذ الخطات اللازمة من ان يعودوا مرة أخرى الى ثورتهم تلك . .

فهذا أسلوب بلنزم الفقرات القصار المسجعة ، وفيه من الاقتباس

القرآني « قابل توبة التائب » واطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها «
و « قطع دابر القوم » وفيه بعد ذلك و « توبوا الى الله جميعا » و « توبة
نصوحا » و « التمسك بعصم الايمان » و « كفى به شيذا » « فان خير الزاد
التقوى » « واتمروا بينكم بالمعروف »

ففى هذا نجد اقتباسا من أسلوب القرآن وكلماته ، ثم نجد الآتيان
بنص الآى كما هو فى القرآن ، وهو النمط الذى سارت عليه رسائله
وهى تختلف طولا وقصرا ، فمنها ما يقع فى صفحتين ، ومنها ما يقع فى نحو
العشر صفحات من القطع الصغير ، ولا تختلف اسلوبا عن هذه
وبعد تعرضنا لآبى جعفر ابن عقبة ، ونماذج من رسائله ، نناول نماذج
لاخيه أبى عقيل فيما حبره من رسائله السلطانية .

وأبو عقيل الذى أخذ بجريرة أخيه ، لا يذكر الا ازاء هذا الاخ ،
ولا يعرف عنه الا ازهاق روحه ، وهو حديث العهد بسلخ العقد الثانى من
عمره ، وان كانت قد سجلت له رسائل سلطانية ، لا تقل كثيرا فى قيمتها
الأدبية . عما هى عليه من رسائل أخيه أبى جعفر .

فمن هذه الرسائل رسالة أمر بكنبها ، اثر فتح قسنطينة ،
وإنابة يحيى بن عبد العزيز ، صاحب بجاية الى التوحيد وهى موجهة
الى طلبة تلمسان ، ومن فيها من الموحدين ، بدأها — كالعادة من كونها
من أمر المومنين ، ثم الحمد لله والصلاة على نبيه وآله ، ثم الرضى عن
الامام المعصوم المهدي المعلوم ، ثم ذكر كون الكتاب صادرا من حاضرة
بجاية ، والفتوح نظرد ، هكذا :

أما بعد فالحمد لله الذى وسعت رحمته كل شيء على العموم
والاطلاق . وجمعت عصمته اهل الاجتماع على طاعنه والاتفاق . وامت نعمته
تماما على أبلغ وجوه الانظام والاتساق . والصلاة على محمد نبيه المبعث
لتتميم مكارم الأخلاق وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازين اولي البواء
الى مرضاته والاستباق . والرضا عن الامام المعصوم . المهدي المعلوم
علم الأعلام ، وذخيرة الايمان والاسلام . وبدر الكمال والتمام . الطالع
بأشرف مطالع الاشراف . الفارع عند نطاوول الرؤوس والاعناق . الجامع
أشتات الفضل واجناسه على الاستبفاء والاستغراق .

وهذا كتابنا اليكم — كتب الله لكم فيها خولكم النماء والزيادة .
ويمكن في تمكينكم واصلاح شؤونكم الانالة والانفاة . وبسط في أرجائكم
اليمن والسعادة . من حضرة بجاية — حرسها الله — عن أحوال ترتب
صلاحها على أفضل وجوده . وفتوح نتابع افتتاحها في قريب المعمور وبعيده .
وبشائر ينزه بشرها وسماحها عن الجرى على معتمد الدأب المالسوف
ومعهوده . وآيات بينات أغنى تجليها واتضحها عن كل برهان ووجوده .
« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » في المستولية محصى العادة ومعهوده ،
نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر ، وعمى الابصار والبصائر ،
تعظيم ما نشاهد ونعاين عونا يعين وينهض ، وعملا يتخلص بشكر الآله
الباهرة ويمحض ، وقوة لا تنتكث بالعجز عن أداء حقوقه ولا تنقض.

وقد تقدم اعلامكم — وصل الله سروركم ، وضاعف شكوركم ، —
بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسر مرامها بحولته
واقنتداره ، ونور ظلامها بأضواء هذا الامر السعيد وانواره ، وصير أباطحها
وأكامها من مواطن أوليائه وأنصاره ، وكيف كانت صورة الحال في درجها ،
وتصرف الانتقال من محصها الى عرجها ، ان أبا زكرياء يحيى بن العزيز
بالله بن المنصور بن الناصر وجميع أخوته ، وقرابته وخؤولة حين أتاهاهم
الرائد الذي لا يكذب أهله ، وانتحاهم القائد المبيح وعمر المنتحى وسهله ،
لم يكن لهم بد عن التولى عن قرارهم ، والنخلى عن أقطارهم وأوطانهم ،
لأمر قضى الله فيه لهذا الامر المبارك بخبر قضائه ، وشأن طوى الخيرة درج
تضمنه واقتضائه ، فكان مأهم الذي اعتقدوا منعه وحصانته ، واعتمدوا
ثقتهم عليهم وأمانته ، بلد قسنطينة — عمره الله — لكونه بحيث لا ينال بقدرة
مخلوق ، واين يستعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مرموق ،
وكانت جمل من عساكر الموحدين حين احتلال الجملة المذكورة فيه ، واعندادهم
في عداد من يحويه ويؤويه ، بجهة القلعة — حرسها الله — على اثر فتحها
الميسر ، ونيل أجرها على الوجه المتخير ، فأنهض منهم بعون الله الى تلك
الجهة من رجب الخير في انهاضه ، وحض على خدمة هذا الأمر وأغراضه ،
فحين ألم الناهضون المذكورون — وفقهم الله — بجهات قسنطينة — حرسها
الله — فتح لهم الفتح الذى تقدم اليكم ببيان القول فيه واعرابه ، وأورد
عليكم ابداع القدر في تقريبه واغرابه ، وعلمتم كيف انهزمت له جموع الضلال

واحزابه ، وحل الموحدون هناك — وفقهم الله — بساحة ذلك القطر وذراه ، وغشية منهم ما غشيه وعراه ، وما ترك القطا به أن يقطم كراه . وكان التخيم الملاصق ، والتدويم المراهق ، والحق يتجلى ، والنصر يتولى ، من اظهر الطائفة العزيزية ما يتولى ، الى أن صرف الله الباب القوم المذكورين الى قبلة الاصابة ، وأراهم أن النجاة في جانب هذه العصابة ، والحياة في قرارها الذى هو مقر قرار اليمن والمثابة ، فاتفق رأيهم ، على انفاذ جماعة منهم ، فيهم أخو أبى زكرياء وشيوخ صنهاجة وقسنطينة معتمدين بهذه العروة الوثقى ، مستسلمين للامر الذى لا يقابل بعناد ولا يلقى ، سائلين من التامين والابقا ، ما يدوم خيره للمحق السائل ويبقى ، ووصلت الجماعة المذكورة ، الى هذه الحضرة المحروسة ، يسعى أهلها بين يديها ، ويعرف القصد عما لديها ، وانتهت ما تحملته من المخاطبة ، وأملته لها ولمن وراءها من حسن العاقبة ، فمن الله على جميعهم ، بتيسير مطلبهم ، واجمال مقبلهم ، وصدروا الى مرسلهم تتهلل اسرتهم ، وتتجمل بحلل العافية والنعمة الصافية كرتهم ، فأتوا قومهم على تطلع الى بشراهم ، وتمتع بطيب ذكراهم ، وأعلموهم بالصنع الذى عرفهم تعظيم صنع الله وأدراهم ، فراوا أجمعين أن الله سبحانه سنى لهم بفضله غاية ما طلبوا ، ورزقهم من حيث لم يحتسبوا ، ووهبهم من ايواء الفضل وقبوله فوق ما استوهبوا ، حين لم يكن لهم منجى الا الذى نزحوا عنه وغربوا ، وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن الامر وتحققه ، وتعرف سنة هذا الامر المبارك وعظيم خلقه ، وخرجوا عن آخرهم فرحين بفضل الله ورحمته الواسعة ، مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة ، ودخل القطر من أمناء الموحدون وغزاتهم — وفقهم الله — على أحسن حال ، وأكرم اقبال .

وأنتم الله نعمته بهذا الفتح المحيط ، والصنع المبسوط ، اتماما بلغ الآمل غاية مأموله ، والسائل كافة مسئوله ، فذلك القطر هو الطرف الاعلى ، والرابط اللاحق الاولى ، ورأس الجسد الذى استتبع بعضه بعضا واستتلى . وبه انعقدت روابط هذا الاقليم العظيم وقواعده ، وفقدت ضرر من كان ينوى الضرر فواقده ومعه متأتى جمع شمله وضمه ، وامساك شأنه كله وعزمه ، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمه .

والله نسأله بشكر هذه النعم المتظاهرة عوناً ممدوداً ، وحولاً بمعائد

المعونة الربانية معقودا ، وقوة تلقى من حمدنا الى كل جديد منها جديدا ،
بمنه والسلام عليكم ورحمة الله .

وكتب في العاشر من شعبان سنة سبع وأربعين وخمسمائة

لقد تعمدنا الانيان بهذه الرسالة كلها ، لأنها تمثل لنا ما كان عليه
اسلوب أبى عقيل ، وهو حديث عهد بانشاء الرسائل الديوانية كما أنه كان
حديث العهد بالشباب الذى أطل عليه ، وهو فى هذه السن المبكرة ،
التي لا تعدو سبع عشرة سنة .

والرسالة ، كما رأيناها ، يسيطر عليها تصنع الكتاب ، بصفة خانقة ،
جعلها لا تتنفس الا بهذه الالفاظ المتكلفة أحيانا فى زنتها المعتمدة على قواعد
الصرف والاشتقاق ، دون الالتفات الى مجريات الاستعمال للغة ، فهذا
المبتعث ، بدل المبعوث الذى كان ينطلق من الحديث « بعثت لاتمم مكارم
الاخلاق » وهذا « المتوازيين » بدل المتأزرين ، كما تقضى به الآية « أزره
فاستغلف فاستوى » ثم استعمال « أين » مرادفة « لحيث » مع أنها قد
تخلصت الى الاستفهام فى الاستعمال ، وبذلك اعتيرت قراءة ابن مسعود
« ولا يفلح الساحر أين أتى » شاذة فيه (1)

نفى هذا من الاقتباس القرآنى « وسعت رحمته كل شيء » « وان
تعدونعمة الله لا تحصوها » و « غشيه منهم ما غشيه » فهو اقتباس
من آيات ، واتيان باحداها على ما هى عليه ، كما أن قوله : « كذب الله لكم
فيما خولكم النماء والزيادة » انما هو من قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى
وزيادة » وغير هذا كثير (2) .

(1) ومنه « المراهق » اذا المألوف « المرهق » كما فى القرآن « ولا ترهقنى من أمرى »
ويسوغ « المراهق » من رهق الثلاثى الوارد فى القرآن كذلك أما ما جعله يستعمله ، فهو
مناسبته للملاحق ، مع ان المراهقة صارت فقهية وزيادة على هذا فهو يفرط فى استعمال
المترادف ، مثل الاجتماع والاتفاق والانتظام والاتساق وغير هذه . وكذلك نحدد تصنيعه
يستكره كلمات على الاستعمال مثل « المحوط » و « المتأتى » ، بفتح الميم ، وغير ذلك
مما يواحه الناشئون أولا . سوى هذا فالوان البديع متفشية بأوسع مفاهيم الكلمة .

(2) التصمين سائد فى نحو : « تمت بعينه تماما » و « آيات بينات » ، و « عمى الإبصار
والبصائر » و « معتصمين بالعروة الوثقى » و « عرفهم تعظيم صنع الله » و « رزقهم
من حيث لم يحتسبوا » و « يسعى أملها بين يديها » و « كرم الكتاب ختامه » فهو مبدق
من « ختامه مسك » وكذلك ما تقدمه جله « قرأنى » .

بالإضافة الى الاقتباس القرآنى ، فهناك آخر من الحديث فى قوله :
« المبتعث لتتميم مكارم الاخلاق » فلا شك أن الوصف من الحديث « بعث
لائم مكارم الاخلاق » ومنه « الرائد لا يكذب أهله » .

كما أن فيه من الأمثال العربية « وما ترك القطا به ان يقطع كراه »
فهو من المثل « لو ترك لقطا لنام »

فأبو عقيل على يفاعه شبابه ، له استعمال متميز بعض الشيء عن
استعمال أخيه ، كما رأينا ، فى هذين المثالين وبالجملة ، فاننا اذا استثنينا
مسألة العصمة فى المهدى المعلوم ، نجد طريقة الاخوين فى الانشاء
السلطانى ، قد شقت طريقها عبر التاريخ الذى قطعه الدول المتعاقبة على
المغرب فيما بعد ، وخصوصا ما صدر عن اكابر كتابها وجهابذة منشئها ومن
الالفاظ التى عاشت فى مدلولها حتى يومنا ، لفظة « الحركة » فى عامتنا ، فقد
تقدم فى قول أبى جعفر « ونال الغزاة فى هذه الحركة الميمونة من الاجور ،
والمغنم الموفور ، والفضل الذى ينشر عليهم أجنحته يوم النشور ، ما لا يمكن
لاحد من البشر وصفه على حال » ومن تلك الالفاظ كلمة التخيم ، فقد ورد
فى رسالة أبى عقيل الأنفة ، قوله « وكان التخيم الملاصق ، والتدويم
المراهق ، والحق يتجلى والنصر يتولى من اظهار الطائفة العزيزة ما يتولى »

وهذا نموذج آخر له : ولم نزل أعزكم الله منذ وادعنا تلك الجهات
المذكورة بمقربة من أنسا — عمرها الله — نصل السير حتى انتهينا الى تينمل
— كرمها الله — فعرفت النفوس المومنة مناهها . وأبصرت سناء العصمة
وسناها . فى محلها المقدس ومغناها . ورأت فى متبواها المعظم ومثواها .
شخص الكرامة ومفزاها . وشاهدت بين قبره المنعم ، ومسجده المكرم ،
روضة الجنة يسحب ظلها ، وبقطف جناها . وتمت هذه الزيارة والحمد لله ،
تماما على السى هى أحسن ، وانتهاء الى ما يعز من مرضاة الله ويتعين .
واغننا لما ينضح قصده الجميل ويتبين . وسار الموحدون أعزهم الله بعد
الموادعة الكريمة . ونيل البركات العميمة . وقد تخلصت النفوس من
الشوب . واستنبلت بالنوبة النصوح قبل التوب . وتنقت من الذنوب والخطايا
كما ينقى بالماء دنس النوب . واستمر السير — أعزكم الله — وقد أرسلت
الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، ومسخرات بحكمه وحكمته . وجاءت

المزن الغوادي . كما تمثى البزل مثقلة الهوادي . فسحت في الحواضر والبوادي . وجادت على الربوة والوهدة والقنة والوادي ، ووصل الموحدون — أعزهم الله — الى هذه الحضرة — حرسها الله — وقد نشرت بساطها الأخضر ، ونمقت بسيطها الانضر ، ودخلوا — والحمد لله — على ما أملوه من السلامة ، والكرامة ، واحلتهم تلك الأجور المنظمة ، والمقاصد المغتنة ، محل الإقامة ، ودار المقامة ، وكان الوصول — أعزكم الله — في الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظم واختتمت السفارة باختتامه ، واشرقت الآمال والاعمال بلياليه المشرقة وأيامه ، وظهرت في تلك المساعي الجميلة ، والمناحي الجزيلة ، بركة صيامه ، وقيامه .

وخاطبناكم أعزكم الله — بهذا الكتاب ، على جهة الاقتضاب والالماع بهذا العجب العجائب ، والفتوح التي هي محارة العقول والالباب ، والا فالأوصاف مقصرة عن نعتها ، والالسنة معبرة عن عظمتها بصمتها ، فاستبشروا بما بشرتم به من هذه المنح التي أنطقت الجهاد ، وخرقت المعتاد والله يجعلكم ممن تنعم بنعمها ، وتعرض لنفحات رحماها ، وآتى نفسه تقواها وزكاها ، وهو خير من زكاها ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب في الثامن من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة (1) .

ورسالة أبى عقيل فيها نفحات من فن النثر ، وان لم تخل من الاتكاء على المترادف في تزيين صورها ، ولكن السجع فيها لم يستكره على طغيانه، كما ان الاقتباس اصاب مكانه غالبا ، وان كان الضعف يطل من نحو قوله « وآتى نفسه تقواها وزكاها ، وهو خير من زكاها » وفيه من تلك المبالغات الموحدية في تقديس صاحبها متل قوله : « وشاهدت بين قبره المنعم ، ومسجده المكرم ، روضة من رياض الجنة » . فهذا مما اختص به الجنب النبوى ، كما في الآثار ، وضمنه بلفظه هنا ، ويلاحظ في الرسالتين ، تكرار في العبارة مثل وتمت تماما على أبلغ وجوه الانتظام ، مع قوله : « وتمت تماما على التي هي أحسن ، وفي هذا اقتباس قرأنى . ونادرا ما يقتبس من غير القرآن والحديث . وعلى الجملة ، فقد كان منتظرا أن يصبح أبو عقيل من المع

(1) وهذا الفصل من رسائله الطوال يقع في اثنتى عشرة صفحة من « مجموع رسائل موحدية » ذكرت فيها كثير من البقاع الجنوبية .

الكتاب ، لو لم تتخطفه يد الجلابد وهو فى سن الثالثة والعشرين رحمه الله .
ويعد فلم يعرف عن أبى عقيل الا نثره ، وفى الرسائل السلطانية
خاصة ، اما أخوه أبو جعفر ، فقد عرف بقرض الشعر ، الذى تقدمت
أبيات فى محنته ، وكذلك عرف له فيها هذان البيتان ، المذكوران فى نفع
الطيب وفى غيره :

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا فى ليل من السخط حائر ولا اهتدى حتى أرى للرضى صبحا

ويلاحظ أن للنايعة ريحا فيهما

ولابن شهيد نحو هذا فى قوله :

أنوح على نفسي وأندب نبلها

ولأبى الوليد ابن زيدون :

الم يان أن يبكي الغمام على مثلي

ويقول صاحب روض القرطاس فى حقه « وله شعر رائع حسن »
ثم وصل هذا بقصة مساجلة شعرية وقعت بينه وبين عبد المومن ، وهى أن
فتاة أطلت من شباك ، باحدى دور مراکش ، وكان عبد المومن ومعه ابن
عطية مارين بالطريق ، فقال عبد المومن :

(قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت)

فأجاز ابن عطية :

(حوراء ترنو الى العشاق بالقتل)

فقال عبد المومن :

(كأنها لحظها فى قلب عاشقتها)

فأجاز ابن عطية :

(سيف المؤيد عبد المومن بن علي)

ومن أوصافه الشعرية ، ما وردت فى هذه القصة — وان كانت نثرا —

مما يدل على قريحة قابلة مستجيبة

قال : كما نقل عبد الواحد عن حفيده عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره ، وفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطيّاره ، وتكامل من كل جهة حسنه ، وهو قاعد في ثبة مشرفة على البستان ، فسلمت وجلست ، وجعلت انظر يمنة وشأمة ، متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان ، فقال لي يا أبا جعفر ، أراك كثير النظر الى هذا البستان ، قلت يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله ان هذا لمنظر حسن ، فقال ، يا أبا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ قلت ، نعم ، فسكت عني ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرض العسكر أخذى أسلحتهم وجلس في مكان مطل ، وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة ، وكتيبة اثر كتيبة ، لا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها ، جودة سلاح وفراة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى ذلك التفت الى وقال : يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك .

وبعد ابني عقيل نتناول التأليف الادبي ، وفي مقدمته ثلاثة كتب في الجغرافية والتاريخ ، مع تفاوت في تناول ، وأولها كتاب الادريسي محمد الحمودي المولود 493 . وقد تلقى تعليمه من علماء سبتة التي كانت تطفح بهم على ذلك العهد كما تقدم ثم رحل الى الاندلس ولاشك أن كانت رحلته الى الاندلس في طلب المزيد من العلم ويظهر انه أقام زمنا طويلا بقرطبة لانه احتفل بوصفها أكثر من احتفاله بغيرها احتفالا خاصا في كتابه الجغرافي ومن ثم استمر في رحلته اتجاه الشمال حيث زار اقطارا من أوروبا ، مثل فرنسا وانكلترا ثم عاد الى الشمال الافريقي ومنه انتهى الى مصر فالشام والجزيرة العربية ، وعامة آسيا الصغرى . وأخيرا نراه ينتهي به المطاف الى جزيرة صقلية عند صاحبها الذي كان بهتم بالعلم ووجهه النرماندي والذي ألف له كتاب الجغرافي « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . وبدهى من (اختراق الآفاق) انه يعنى الوصف الجغرافي ، بقدر ما يعنى الرحلات ، الا انه لم يعتن خاصة الا بوصف الارض ومسالكها .

وللشريف الادريسي أيضا مؤلفات أخرى في العقاقير والنباتات لكنها غير معروفة العين كما ان له ديوان شعر ولكنه أيضا ضاع ولا نعرف عنه

شيئا معرفة يقينية ، وان كان محمد رضى الشيبى يذكر فى محاضراته التى القاها فى مصر سنة 1960 بالمعهد التابع للجامعة الغربية ما يفهم منه انه اطلع على هذا الديوان ، فهو يقول : ان من اطلع على ديوانه يعنى الشريف الادريسي يدرك مدى تأثير الشعر ببيئته الصقيلة ،، شأن شعر الادريسي فى ذلك شأن شعر (عبد الجبار) ابن حمديس وغيره من شعراء صقلية البارزين ، ومهما يكن فاننا نعرف عن الادريسي بعض أبيات قليلة من شعره فى ذلك قوله :

دعنى اجل ما بدت لى
لابد يقطع سىرى
سفينة او مطية (1)
امنية او منية
وقوله :

ليت شعري اين قبرى
لم ادع للنفس ما تش
وخبرت الناس والار
لم اجد جارا ولا دا
فكأنى لم اسر الا
ضاع فى الغربة عمرى
ساق فى بحر وبحر
ض لى خير وشعر
راكمافى طى صدرى
بميت او بقفر
وقوله :

ان عبا على المشارق ان ار
وعجيب يضيع فيها غريب
ويقاسى الظما خلال اناس
ويقول فى قصيدة يمدح بها :

وليل كصدر أخى غمة
وبدر السماء بدا فى النجوم
قطعناه حتى بلغنا النجاح
كما لاح فى الناس بدر السحاب
وبقول فى قصيدة أخرى فى المدح كذلك :

ومن قبل ان امشى على قدم المنى
سعى قلمي فى المدح سعيا على الرأس
هذه النماذج الشعرية ان وثقنا عندها فانها لا تدل دلالة واضحة

(1) الابيات مبنية فى « الوانى بالوفيات » .

على موهبة شعرية ، ثبت أن الشاعر كان ذا عارضة قوية في الشعر
أما الأبيات الثلاثة الأخيرة فإنها تدل على حبك للقول مطلقا وعلى الذكاء
أكثر مما تدل على الشاعرية نفسها .

وبعد ما أتينا بنماذج من شعر الشريف الإدريسي ، نتوجه الآن إلى
نثره . ونثره الفني نلتمسه في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » ثم خلال أوصافه
في الكتاب . أما المقدمة فيقول في ديباجها :

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه توفيقى

الحمد لله ذى العظمة والسلطان ، والطول والامتنان ، والفضل
والانعام ، والآلاء الجسام ، الذى قدر فحكم ، وراف فأنعم وقضى فأبرم ،
ودبر فأتقن ، وذرا وبرأ ، فأحسن ما صورا (1) ، فاتصلت بالعقول معرفته ،
وقامت في النفوس حجته ، ووضح للعيون برهانه ، وظهر الألباب قدرته
وسلطانه ، الهادى إلى سبيل حمده تفضلا وإرشادا ، والدال على ارتباط
النعم به قولا واعتقادا ، جاعلا عجائب مخلوقاته ، وبدائع مصنوعاته ،
سبيلا إلى معرفته ، وسلمنا إلى علم قدمه وأزليته ، وإن في بعض ما خلق
لعبرة لأولى الأبصار ، وذكرى لذوى الخواطر والأفكار . فمن آياته خلق
السموات والأرض ؛ فأما السماء فرفع سمكها ، ونظم سلكها ، وزينها
بالنجوم ، وجعل فيها الشمس والقمر آيين يستضاء بهما في الليل والنهار ،
ليعلم بمجاريهما تعاقب الدهور والأعصار ، وأما الأرض فبسط مهداها ،
وأرسي أطوادها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، وأسكنها خلقهم فبواهم
أملاكها ، وأجرى لهم أفلاكها ، وعرفهم مسالكها ، وعلمهم ———
منافعها ومضارها ، وهداهم إلى السير فيها برا وبحرا ، وسهلا ووعرا ،
كل ذلك منه جللت قدرته بحكمة وتدبير ، ومشينة وتقدير ، فتعالى من هذا
ملكه وسلطانه ، وصنعه وبرهانه .

فإن أفضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الأفكار والخواطر ،
ما سبق إليه الملك المعظم ، روجار المعتز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك
صقلية ، وإيطالية ، وانكردة وقلورية ، أمام رومية ، الناصر للملّة

(1) زبدت الألف للإطلاق في السجع ، كما في القافية . ومنه « ويطون بالله الظنونا » .

النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وتقضا ، وصرف الأمور على ارادته ابراما ونقضا ، ودان في ملته بدين العدل ، واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ، وقام بأسباب مملكته أحسن قيام ، وأجرى سنن دولته على أفضل نظام وأجمل قوام ، وافتتح البلاد شرقا وغربا ، وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بعدا وقربا ، بما يحويه من جيوش متوفرة العدد والعدد ، وأساطيل متكاثفة متناصرة المدد ، صدق فيها الخبر الخبر ، وتساوى في معرفتها السمع والبصر ، فأى غرض بعيد لم يصل اليه ولم يخطر عليه ، وأى مرام عسير يحظى به لم يتيسر لديه : اذ الإقدار جارية بوفق مبتغياته وارانته ، والسعادات خادمة له ومتصرفة على اختياره في حركاته وسكنانه ، فأولياؤه أبدا في عز قعسرى شايع ، واعدائه في ذل وبوار متتابع ، فكم مراتب فخر شيد أركانها ، وكم مزايا همم أطلع أقطارها ، ونور أقطارها ، وصير حدائقها روضا زهيا ، وغرسا زكيا ، ثم جمع الى كرم الاخلاق ، طيب الاعراق ، والى جميل الأعمال ، حسن الخلال ، مع شجاعة النفس وصفاء الذهن ، وغور العقل ، وفور الحام ، وسداد الراى والتدبير ، والمعرفة بتصاريف الأمور ، من نهاية الفهم الثاقب ، ومراميه كالسهم الصائب ، ومقفلات الخطوب مستفتحة لديه ، وجميع السياسات وقف عليه ونوماته يقظلات الانام ، وأحكامه أعدل الاحكام ، وعطاياه البحار الزواجر ، والغيوث المواطن .

أما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات ، فلا تدرك بعد ، ولا تحصر بحد ، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الاوفر ، وضرب فيه بالقدرح المعلى ، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة ، وابتدع من الابتداعات الغريبة ، ما لم يسبقه أحد من الملوك اليه ، ولا تفرد به ، وها هى ظاهرة للعيان ، واضحة الدليل والبرهان . ومسيرها فى الامصار ، وانتشار ذكرها فى جميع النواحي والاقطار ، أغنانا عن ذكرها مفصلة ومتنوعة ، والاتيان بها متفرقة لا مجتمعة . مع اننا لو ذهبنا الى وصفها ، وأعملنا الفكرة فى تسطيرها ورصفها لبهرتنا آياته المعجزة معانيها ، المتعززة مراميها ، ومن الذى يحصى عدد الحصى ، ويبلغ فيه الى الفرض الاقصى ؟

فمن بعض معارفه السنية ، ونزعانه الشريفة العلوية ، انه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته ، وأطاعته البلاد الرومية

ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفي أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار فى الاقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون ، وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ، ويرجع اليه ، ويعد منه فطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله ، مثل كتاب العجائب للمسعودى ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى ، وكتاب أبى القاسم عبيد الله ابن خرداذبه ، وكتاب احمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب خانناخ بن خاقان الكيماوى ، وكتاب موسى بن قاسم القردي ، وكتاب احمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب اسحاق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطيموس الاقلودى ، وكتاب أرسىوس الانطاكى . .

فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا ، بل وجده مغفلا ، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه واخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علما ، أكثر مما فى الكتب المذكورة . فلما رأهم على مثل هذه الحال ، بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة ، جمعا وافرادا ، فما اتفق فيه قولهم ، وصح فى جمعه نقلهم ، أثبتة وأبقاه ، وما اختلفوا فيه الفاه وأجازه . وأقام فى ذلك نحو من خمس عشرة سنة ، لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته ، الى أن نم له فيه ما يريده .

ثم أراد أن يستعلم ، يقينا ، صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها ، فأحضر اليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حدد شيئا فشيئا ، مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها ، حتى وقف على الحقيقة فيها . فأمر عند ذلك أن بفرغ له من الفضة الخالصة ، دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم ، فى وزن اربع مائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها مائة درهم ، واثنى عشر درهما . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ، ببلادها واقطارها ، وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها ،

ومجارى مياهها ، ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة ، والاميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة . على ما يخرج اليهم ، ممثلا في لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئا ، ويأتون به على هيئته وشكله ، كما يرسم لهم فيه . وأن يؤلفوا كتابا مطابقا لما في أشكالها وصورها ، غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها ، وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ، وأنهارها ومسافاتها ، ومزروعاتها وغللاتها ، وأجناس بنائها وحواصلها ، والاستعمالات التي تستعمل بها ، والصناعات التي تنفق بها ، والتجارات التي تجلب اليها ، وتحمل منها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها ، وحيث هي من الأقاليم السبعة ، مع ذكر أحوال أهلها وهيأتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب .

« بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق »

وكان ذلك في العشر الاول من يناير ، موافق لشهر شوال ، الكائن في سنة ثمان وأربعين وخمس مائة ، فامتثل فيه الامر ، وارتسم الرسم ... واذن فهذا الكتاب يضم جميع انواع الجغرافية ، من طبيعية وتجارية ، وزراعية وصناعية وبشرية ، زيادات على معلومات أخرى اجتماعية وثقافية .

وهي دراسات بحق حافلة بالمعلومات جامعة لأشتات التفاصيل ، وقد ترجم الكتاب الى عدة لغات أوربية ، أما النسخة العربية الأصلية ، فقد بوشر أخيرا طبعه ، طبعة تمتاز بالتحقيق والتمام ، باهتمام المعاهد الجامعية الإيطالية ، المخصصة للدراسات الشرقية ، وهو على وشك الانتهاء منه .

ويلاحظ على هذه المقدمة ان صاحبها لم يشفع الحمدلة بالصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كما هو المعتاد في ذلك العصر وما بعده من العصور الإسلامية ، وسبب ذلك واضح في أن الكتاب ألف لملك لا يومن بالرسالة المحمدية .

على أن المقدمة ضمنها بعض الآى القرآنية ، ولم يشر الى قرآنيتهما

طبعاً ، للسبب السالف ، مثل قوله : « لعبرة لأولي الأبصار » « فمن آياته خلق السماوات والأرض » « فرفع سمكها » « وأخرج منها ماءها ومرعاها » فهذه وأردة بألفاظها القرآنية ، إلى جانب أخرى تصرف فيها ، مثل « وذكرى لذوى الخواطر والأفكار » بدل « لذكرى لمن كان له قلب » ومثل « فأما الأرض فبسط مهادها وأرسي أطوادها » بدل « والأرض دحاها » ،،، والجبال أرساها .

والمقدمة في فنها ، يسودها السجع ، وإن لم يعمها كلها ، حيث نجدتها تتخلص منه في مثل « وذرا وبراً فأحسن ما صور » إلا أن زدنا ألفاً بعد صور ، كما هو في نحو قوله تعالى : « وتظنون بالله الظنونا » « فاضلون السبيل » لهذا الغرض وهو مسموح به في السجعات كالكوافي الشعرية وأسلوبها ، عموماً ، أسلوب مشرق غير متكلف ، واضح ، يزيد في وضوحه ، ما يستعمل من عطف تفسير ومرادفات خفيف المؤنة في محسناته مقتصد في جناسه وطباقه ، قصير الفقر مزدوجها غالباً ، لا يختلف في هذا عن أسلوب عياض ، إلا في تجنب التوريات والأشعار إلى أحداث التاريخ ونحوها ، وكذا غريب اللغة والآثار ، والكلمة الغريبة هي « تعسرى » بمعنى الضخم انعظيم ولعلها كانت رائجة لعهد ، ويصح أن يعد في أساليب العهد المرباطى ، فهو لا يصور العهد الموحدى وإن أدركه ولعل الأديسى لم يعايش الموحدين في وطنه ، وحتى لو كان ذلك ، فإن من شأن هذه المقدمات عدم الانصياع لظروفها الزمنية ، اللهم إلا ما كان من كتبها التي يكون لها مساس بالدولة وسياستها .

وعلى كل حال ، فأسلوبه في المقدمة ، كما ذكرنا ، وليس بيدنا بعدها ، إلا ما ورد في داخل الكتاب ، وهو غالباً ، منطلق كما سنرى .

فهذه نماذج من أوصافه للبلاد التي زارها ، من ذلك قوله في مدينة القيروان :

أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا ، وأكثرها بشرا . وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وانتقنها بناء وأنفسها همما ، وأربحها تجارة ، وأكثرها جبابة ، إلى أن يقول : فسلط الله سبحانه وتعالى العرب عليها ، وتوالت الجوائح بها ، حتى لم يبق فيها إلا أطلال

دارسة ، وآثار طامسة .

وبعد ما يصف طرابلس يقول :

« الا ان العرب أضرت بها وبما حولها ، من ذلك واجلت اهلها ،
وأخلت بواديها وغبرت أحوالها ، وأبادت أشجارها ، وغورت مياهها » .

ويقول في وصف قرطبة :

« ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الاندلس وأم مدنها ، ودار الخلافة
الاسلامية بها وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أبهر
من أن تستر ، واليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ،
واعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى
في الملابس والمراكب ، وعلو الهمة في المجالس والراتب ، وجليل التخصيص
في المطاعم والمشارب . مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائف ، ولم تخل
قرطبة قط من أعلام العلماء ، وسادة الفضلاء ، وتجارها مياسير لهم أموال
كثيرة ، وأحوال واسعة . ولهم مراكب سنية ، وهمم عالية . وهى
في ذاتها مدن يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة سور حاجز .
وفي كل مدينة ما يكفيها من الاسواق والفنادق والحمامات ، وسائر
الصناعات : وفي طولها من غربيها الى شرقيها ثلاثة أميال الخ .

ويقول في وصف مدينة أغسات :

مدينة يكنفها جبل (درن) ، فإذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج
النازلة بالجبل فمسيل ذوبانها الى المدينة . وربما جمد به النهر في وسطها
حتى يجتاز الاطفال عليه ، وهو جار فلا يتكسر لشدة جموده . وهذا شيء
عابناه بها غير ما مرة ، الخ

ويقول في وصف مراكش :

ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الاقصى لانها
كانت دار اماره لمثونة ومدار ملكهم ، ومسلك جمعهم ، وكان بها أعداد قصور
لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة ، وأزقتها واسعة ، ورحابها فسيحة ،
ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة . وكان بها جامع بناه

أميرها يوسف بن تاشفين فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة تركوا ذلك الجامع معطلا مطلق الابواب ولا يرون الصلاة فيه وبنوا لانفسهم مسجدا جامعاً يصلون فيه بعد ان نهبوا الاموال وسفكوا الدماء وأباحوا الحرم ، كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالا .

ويقول في فاس :

وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ، ولاهله اهتمام بحوائجهم ومبانيهم ، وجميع آلاتهم . ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الاسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها . وفواكهها كثيرة وخصبها زائد . وبها في كل مكان حمامات فيها عيون نابعة ومياه جارية وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب الزينة . وبخارجها الماء مضطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مؤنقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة وفي اهلها عزة ومنعة .

ويقول في مدينة سبتة :

فأما مدينة سبتة ، فهي تقابل الجزيرة الخضراء ، وهي سبعة جبال صغار ، متصلة بعضها ببعض ، معمورة ، طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل . ويتصل بها من جهة المغرب ، وعلى ميلين منها جبل موسى ، وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير ، وهو الذى كان على يديه افتتاح الاندلس في صدر الاسلام . وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج ، يتجهز به الى ما جاور سبتة ، من البلاد ، لكثرة الفواكه بها ، ويسمى هذا المكان بليونش . وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد .

وبلى المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى جبل المينة . واعلاه سور بناء محمد بن أبى عامر ، عندما جاز اليها من الاندلس ، واراد ان ينقل المدينة الى اعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من بنیان اسوارها . وعجز اهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالمينة ، فمكثوا في مدينتهم ، وبقيت المينة خالية ، وأسوارها قائمة . وقد نبت خطب الشعراء فيها . وفي وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة ، لكنها لا نجف البتة . وهذه الاسوار التى تحيط بمدينة المينة تظهر من عدوة الاندلس لشدة

بياضها . ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم ، لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها ، إلا من ناحية المغرب ، فإن البحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولا يبقى بينهما إلا أقل من رمية سهم . والبحر الذى يليها شمالا ، يسمى بحر الزقاق والبحر الآخر الذى يليها فى جهة الجنوب ، يقال له بحر بسول ، وهو مرسى حسن ، يرسى به فيكن من كل ريح .

وبمدينة سبتة مصيد للحوت ، ولا يعدلها بلد فى إصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى « التن » الكبير الكثير ، وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ، وهذه الرماح لها فى أسنتها أجنحة بارزة ، تنشب فى الحوت ولا تخرج ، وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال . ولهم فى ذلك دربة وحكمة ، سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان ، الذى لا يعدله صنف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا ونقبه وتنظيمه . ومنها يتجهز به الى سائر البلاد ، وأكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان ، لأنه فى تلك البلاد يستعمل كثيرا . ومن مدينة سبتة الى قصر مصمودة فى الغرب ، اثنا عشر ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر ، نشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها الى بلاد الاندلس ، وهى على رأس المجاز الاقرب . الى ديار الاندلس ، ومن قصر مصمودة الى مدينة طنجة غربا عشرون ميلا .

ومدينة طنجة قديمة ازلية ، وأرضها منسوبة اليها ، وهى على جبل مطل على البحر ، وسكنى أهلها منه فى مسند الجبل الى ضفة البحر ، وهى مدينة حسنة لها أسواق وصناع وفعلة ، وبها انشاء المراكب ، وبها اقلع وحط . وهى على أرض متصلة بالبر ، فيها مزارع وغللات ، وسكانها برابر ينسبون الى صنهاجة .

ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الاعظم ، آخذا فى جهة الجنوب الى أرض نشمس (1) . وتشمس كانت مدينة كبيرة ، ذات سور من

(1) حيث يوحد الآن حرايب « لكس » فى الضفة المواجهه لمدينة المرائش التى ببيت بعد ثلاثة مرون من هذا التاريخ .

حجارة ، تشرف على نهر سفدد ، وبينها وبين البحر نحو من ميل ، ولها قرى عامرة بأصناف من البربر ، وقد أفنتهم الفتنة ، وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم .

ثم يقول متصلا بهذه المدينة الخربة :

ومن تشمس الى قصر عبد الكريم وهو على مقربة من البحر ، وبينه وبين طنجة يومان ، وقصر عبد الكريم مدينة صغيرة ، على ضفة نهـر « لكس » ، وبها أسواق على قدرها ، يباع بها ويشترى ، والأرزاق بها كثيرة ، والرخاء بها شامل .

وبعد تعرضه للقصر الكبير هذا ، يتصل بمدينة أصيلا فيقول :

ومن مدينة طنجة الى مدينة أزيلا ، مرحلة خفيفة جدا ، وهي مدينة صغيرة ، وما بقى منها الآن الا نزر يسير ، وفي أرضها أسواق قريبة . وأزيلا هذه ، ويقال أصيلا ، عليها سور ، وهي متعلقة على رأس الخليج المسمى بالزقاق . وشرب أهلها من مياه الآبار .

وعلى مقربة منها في طريق القصر مصب نهر سفدد ، وهو نهر كبير عذب ، تدخله المراكب ، ومنه يشرب أهل تشمس التي تقدم ذكرها . وهذا الوادى أصله من ماعين ، يخرج من بلد دنهاجة ، من جبلى البصرة ، والماء الثانى من بلد كتامة ، ثم يلتقيان ، فبكون منهما نهر كبير . وفي هذا النهر يركب أهل البصرة ، في مراكبهم بأمتعتهم ، حتى يصلوا البحر ، فيسيروا فيه حيث شاعوا .

ومن هنا يتصل بمدينة البصرة فيقول :

وبين تشمس والبصرة دون المرحلة ، على الظهر . والبصرة كانت مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالحصين ، ولها قرى وعمارات وغللات ، وأكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب بها كثيرة . وهي عامرة الجهات ، وهواؤها معتدل ، وأهلها أعفاء ، ولهم جمال وحسن أدب .

وعلى نحو ثمانية عشر ميلا منها مدينة بابا قلام ، وهي من بناء عبد الله بن ادريس ، بين جبال وشعار متصلة ، والمدخل اليها من مكان واحد ، وبالجملة انها خصيبة كثيرة المياه والفواكه .

ثم يتصل بمدينة قرت (كرت) فيقول :

وعلى مقربة منها مدينة قرت ، وهى على سفح جبل منيع ، لا سور عليها ، ولها مياه كثيرة وعمارات متصلة ، وأكثر زراعتهم القمح والشعير وأصناف الحبوب ، وكل هذه البلاد منسوبة الى بلاد طنجة ومحسوبة منها (1) .

ويقول فى سلا :

ومدينة سلا الحديثة على ضفة البحر وكانت فى القديم من الزمن مدينة سلا على ميلين من البحر ، وموضعها على ضفة نهر أسمير الذى يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة ، وهناك قصبة فى البحر ، وأما شالة القديمة فهى الآن خراب وبها بقايا بنيان قديم .

وسلا الحديثة على ضفة البحر منيعة لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته وهى مدينة حسنة حصينة فى أرض رمل ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج ونصرف لاهلها ، وسعة أموال ، ونمو احوال . والطعام بها كندر ورخيص جدا ، وبها كروم وغللات وبساتين وحدائق ومزارع. ومراكب أهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الاندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع ، وأهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ، ويتجهزون منها بالطعام الى سائر بلاد الاندلس الساحلية ، ترسى المراكب بها فى الوادى الذى قدمنا ذكره وتجاوز المراكب على قمه بدليل

يقول فى فضالة ترده المراكب من بلاد الاندلس وحائط البحر الجنوبى ، فتحمل منه اوساقها طعاما : حنطة وشعيرا وفولا وحمصا ، وتحمل منه أيضا العنم والمعز والبقر . ومن فضالة الى مرسى أنفى 40 ميلا ، وهى مرسى مقصود نأتى اليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير ...

وبقول فى لشبونة « ولشبونة على نحر البحر الاعظم وعلى ضفة النهر من جنوبه . وقبالة مدينة لشبونة حصن المعدن وسمى بذلك لانه عند هيجان

(1) هذا نص مفيد يحدد ما كان عليه إقليم طنجة من الاتساع لذلك العهد .

البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فاذا كان زمن الشتاء قصد الى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به الى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الارض ، وقد رايناه عيانا ، ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه ، كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة لشبونة بموضع قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغررين الى آخر الابد .

وذلك انهم اجتمعوا ثلاثة رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركبا حملا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيم لاشهر ثم دخلوا البحر فى أول طاروص الرياح الشرقية فجروا بها نحو من أحد عشر يوما فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروث قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم فى اليد الاخرى وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوما فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما لا باخذه عد ، ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر اليها ، فقتصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلدها وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما الى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها الى عمارة وحرث فقتصدوا اليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى احيط بهم فى زوارق هناك فأخذوا وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار فرأوا رجالا شقرا زعرا ، شعور رؤسهم شعور سبطة وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى سألهم عن حالهم ، وفيما جاعوا ، وابن بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا وأعلمهم أنه ترجمان الملك

فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم ، أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان ، بالامس من أنهم اقنحموا البحر ، ليروا ما به من الاخبار والعجائب وبقيفوا على نهايته . فلما علم الملك بذلك ضحك وقال : للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهرا ، الى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة نجدى .

تم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيرا ، وإن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم ، الى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جىء بنا الى البر ، فأخرجنا وكفننا الى خلف ، وتركنا بالساحل ، الى أن تصاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الاكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء ، وأصوات أناس ، فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا احدهم : اتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : ان بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقال زعيم القوم : وأسفى ؟ فسمى المكان الى اليوم « أسفى » .

فهذه النماذج نراها تختلف قوة وضعفا في استعمال الحلية البديعية ، فأكثرها استعمالا لها ما يتصل بالقيروان وطرابلس وقرطبة ، وأقلها ما يتصل بفاس وسلا ومراكش ، وما عدا هذه خال من تلك المحسنات تماما ، وهو ما يوصل بوصف أغمات وفضالة ولشبونة وما تضمنته من قصة خروج المفررين منها .

وهذه المحسنات لا تتعدى المحسنات اللفظية ، فليس فيها طباق مثلا بالمرّة ، بل فيها سجع وفيها جناس ، كما في قوله « غيرت أحوالها وغورت مياهها » و « أيسرها أموالا وأوسعها أحوالا » و « سعة أموال ونمو أحوال » و « دارسة وطامسة » و « وحسنة وحصينة » و « ودار ومدار » و « محنية ومبنية » .

على أن هذه الصنعة لم تكلف أسلوبه أية كلفة ، فهو كما قلنا سابقا أسلوب شديق مشرق ، واضح يستعين على وضوحه بما سلف من عطف تفسير ومرادف ، وغالبا ما يأنى بالنفصيل بعد الاجمال ، كقوله : « أضرت بها وبما حولها ، وأجلت أهلها ، وأخلت بواديها وغيرت أحوالها ، وأبادت أشجارها ، وغورت مياهها » و « نجارها مياسير ، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة » وقوله : « فتحمل منه أوساقها طعاما : حنطة وشعيرا وفولا وحمصا » وبالرغم من أنه يتعرض للأوصاف المتشابهة ، فإنه يتحامى

فيها التكرار ، ويخالف بينها ، كقوله كما نقدم في وصف القيروان « أم أمصار وقاعدة أقطار » مع قوله في وصف قرطبة « قاعدة بلاد الاندلس وأم مدنها » ويقول واصفا سلا « سعة أموال ونمو أحوال » مع قوله في القيروان « أيسرها أموالا وأوسعها أحوالا » وقوله في قرطبة « مياسير لهم أموال واسعة وقوله في سلا « ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها » مع قوله في مراكش « وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة » وقوله فيها وكان بها أعداد قصور ورحابها فسيحة ومبانيها سامية مع قوله في فاس « ضياع ومعايش ومبان سامية ، ودور وقصور » سوى هذا فقصر الفقر حظ شائع بين هذه الألوان والتي سبقت فيما مضى بالمقدمة .

ويلاحظ عليه في قصة المغررين ، أنها خالية من كل زينة ، وأنه استعمل فيها لفظتين عاميتين ، وان التمس لهما أصل في الفصح ، وهما « الطاروس والتروش » فالغالب أنه أتى بالقصة ، مروية بالفاظها الأولى ، وهو صنيع معروف في كتب تواريخنا ، كما في الكامل لابن الأثير والبيان العرب لابن عذاري ، قديما ، ومحاضرات التاريخ الاسلامي ، للخضري ، حديثا ، وبذلك نتوقف في الاعتماد على أسلوب القصة هذه عند حكمنا على الشريف الإدريسي .

بعد كتاب الإدريسي يأتي كتاب آخر ، يختلف بعض الاختلاف عن الاول ، اذ فيه الجانب التاريخي قوى جدا ، بل أنه في قصد صاحبه يعد في التأليف التاريخية ، بخلاف كتاب الإدريسي ، فهو كتاب جغرافية وصفية ، على طريقة ما تقدمه من كتب المسالك كما أن الجانب التاريخي فيه أسطوري يدل على قلة البضاعة التي كانت لصاحبه ، وعلى عدم تبصر بناموس الكون والخلقة ، وكتابنا هذا تقويم للبلدان وخططها وما الى ذلك ، تقويما علميا في اقله ، وان لم يخل من بعض الاساطير ، التي كانت مسلمة القبول لتلك العهود التي سلف ذكرها فيما قدمناه عنه .

لقد انتهى الإدريسي من كتابه في العقد السادس من السادس ، وتلاه عندنا مؤلف آخر من تأليفه في العقد الثامن ، عند نهايته ، من نفس القرن وان كان الإدريسي معروفا باسمه وموطنه ونسبه للناس ، فان هذا المؤلف لا يعرف عنه شيء ، والغالب أنه كان من مراكش السف

كتابه ارضاء لوزير من وزراء الخليفة الموحدى الثالث ، أبى يوسف يعقوب المنصور ، الذى ردد ذكره كثيرا فى هذا الكتاب ، ودعا مرارا دعاء المقربين منه ، وأشاد بعمله أحيانا ، كذلك ، كما ندد بمن يناوئونه ، مما يدل على انه كان من كتاب الدولة ورجالها المقربين ، وان لم يعرف عنه الا كتابه ، ولم يعرف عن هذا الوزير الا اسمه الذى ذكره هو ، ولم نر لغيره ذكرا له .

فالكتاب اذن ، كان بايعاز من هذا الوزير ، كما كان كتاب الادريسي بايعاز من ذلك الامير ، ولكنه يختلف عن كتاب الادريسي فى أمور ، ان اسلوبه ، باستثناء المقدمة ، لا اثر فيه للسجع ولا لحنية بديعية أخرى ، وانه يخله ببعض الابيات الشعرية القليلة ، كما يفعل البكرى ، الذى نقل عنه منها ، وانه يطيل فى ذكر القضايا التاريخية ، لدرجة ان ان القارئ يجد نفسه ، ينسى هدف الكتاب عندها ، بل ان المقدمة التى وضعها المؤلف نفسه ، تجعله يشعر بأنه مقبل على كتاب فى التاريخ ، وهذا وان كان البكرى ، قد سبقه اليه ، فوجدنا فى كتابه بعض التواريخ ، التى يعد كتابه مصدرها الاول ، الا انه لم يطل طول هذا المؤلف فى بعضها ، اما الادريسي فانه لا يتقف عند التاريخ الا وقفات قصيرة جدا ، فيها اشارات وايماءات ، وليس فيها سرد لقصة ، الا ما كان منه ازاء الفتية المغررين

وهناك جهة اختلاف أخرى فى الموضوع ، فكتاب الادريسي يعد كتاب جغرافية لعالم ذلك الزمان ، فهو كتاب جغرافية للعالم قبل كل شيء اما كتابنا هذا ، فلا ينعدى افريقية الشمالية ، مضافا اليها ، مكة والمدينة ، اللتين زارهما ، حاجا كما يبدو ، فقد ابتدا بهما ، ثم عرج بعد ذلك على مصر ، فأطال فى ذكر مدنها ، كما شفعها بتاريخها الفرعونى ، ومآثره ، التى على رأسها الاهرام ، وان لم يشاهدها عن كثب واستمر مغربا يذكر السواحل ، كما يذكر الدواخل والصحارى ، بمدنها ومحاصيلها واهاليها ، الى ان انتهى الى المغرب الاقصى فتجرد له ، واوغل فى جنوبه ، اذ انتقل من السوس الى السنغال ، ومن ثم الى غانة ، التى رجع القهقرى منها الى « افريقية » حيث القيروان وغبرها وفى هذا الجزء اعتنى بذكر المسافات ووصف الطرق الوعرة ، ولكنه فى ذلك كله كان ناظرا ، ولم يكن مشاهدا ، ولهذا وقع فى بعض الاخطاء التى لا نقرها الخريطة الجغرافية ، مثل ذكره لنيل مصر ، فى غربى القارة السوداء .

فما عنوان هذا الكتاب ؟ انه « كتاب الاسنبصار في عجائب الامصار »
الذى لم يتردد ذكره في كتب تواريخنا الا نادرا ، كما نجد في كتاب روض
القرطاس لابن ابي زرع ...

وقبل ان ندخل الى صلبه ، لنعرض منها بعض النماذج ، نعرض
مقدمته الواردة ، كما يلى :

الحمد لله عالم الاسرار ، غافر الاضرار ، الواحد القهار ، العزيز
الجبار ، المنزه الذى لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار نحمده حمد معترف
بوحدانيتها ، ونشكره شكر مغترف من بحر نعمته ، متقلب فى ظل رحمته ،
ونصلي على نبيه سيدنا محمد المبعوث بالآيات الباهرة ، والبينات القاهرة ،
الاخذ عن النار بالحزات ، الداعى الى سبيل ربه بالآيات البينات ، وعلى
آله الاخيار ، واصحابه الابرار ، صلاة باقية الى يوم الدين ، ونرضى عن
نجله الاظهر ، وسليله الأبر ، الامام المهدي الذى جدد رسم الدبن بعد البلى ،
وجاهد فى سبيل الله حق جهاده وابلى ، والى طريق الحق دعا النقرى
والجفلى ، وعن الخلفاء الراشدين ، ائمة الهدى ، ومصابيح من رشد
واهتدى ، ونوالى الدعاء لخليفته المبارك الاسعد ، سيدنا امير المومنين
يعقوب بنصر تتصل اسبابه بسعادته ، وفتح يسوقه القدر فوق ارادته .

وبعد لما كان العلم انفس ما يقتنى ، واشرف ما به يعتنى ، لم يزل
ينقله خلف عن سلف ، ويحمله ذو شرف ، عن ذى شرف ، وجب ان يكون
افضل ما يهديه مهدي ، او بمستهديه مهدي ، رغبة فى الاتسام برسمه ،
والارتسام والدخول فى رعيته ، والاستئثار بحياسة مآثر من تواريخ الامم ،
وسير العرب والعجم ، اذ كان المرء يقف منها على اخبار من غير ، وآثار
من ذهب ودثر ، ويشاهد ممالك ذهبت وبادت ، كأنها عادت الى الحياة
او كادت .

لم يبق شئ من الدنيا اسر به الا الدفاتر فيها الشعر والخبر
مات الذين لهم فضل ومكرمة وفي الدفاتر من اخبارهم اثر

وقديما وضع الناس التواريخ ورتبوها ، ودونوا الاخبار وكونوها ،
حرصا منهم على نظم فرائدها وتقييد شاردتها ، وما زال واضعوه يتقلبون بين
اقلال واكثر ، واسهاب واختصار ، وكلهم يجرى على طريقة الى غايبة

يضيفها ويبسّطها ، كثيرا وما خلد خدم العقلاء ملوك أزمقنتهم بالتوارخ المؤلفه ، والتواليف المزخرفة ، تفننا لمسرّاتهم ، ونرضيا لمبرّاتهم ، ولولا ذلك لم يحصل الآخر على علم الاول ، ولا عرفت أخبار الملل والدول ، ولذلك رايت الشيخ الاجل المعظم الاغر الاسنى ، الامجد المكرم ، أبا عمران ابن الشيخ الارفع ، المرحوم ابي يحيى بن وقتين ، أدام الله علاهم ، ووصل مجدهم وسراهم ، قد أبر على الفضلاء فضلا ، وأربى على النبلاء نبلا ، وزاد على اهل زمانه فى العلم والحلم ، وغبطة بالعلم ووصل العلماء ، ومراضاة الفقهاء ، وكانت همته السامية الى طراف الاخبار ، وايتار اهل الآثار ، الى أن سادت بذلك الرفاق ، وامتلأت بحديثه الآفاق ، ونازعنى الرغبة والنصدى لشكر النعمة الى أن اطرز باسمه كتابا يجمع بين الاخبار والصحائف ، وياخذ بطرفى شرائد الطرائف ، متضمنا بذلك احسانه ، راجيا بذلك فضله وامتنانه ، بمنه حسبما أردته ، ولما اتفق وصفه على على ما اخترت ، سميته بكتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، بعد أن قصدت فى أكثره التحقيق ، واطرحت فى مستودعه التلفيق .

ننظر الى نسج المقدمة ، فنلاحظ هاهله فى بعض أطرافها كما فى قوله : « المبعوث بالآيات الباهرة ، والبيّنات القاهرة ، الآخذ عن النار بالحجرات ، الداعى الى سبيل ربه بالآيات البيّنات » .

فنجد فى هذه الفقرة الآيات البيّنات تتكرر مرتين ، وان فرق أولا بين الموصوف وصفه بوصف آخر ، وهو قوله « الباهرة » ثم أتم هذه الصفة « البيّنات » مقام اسم موصوف بصفة أخرى ، وهى « القاهرة » وانتهى أخيرا الى وضعهما « بالآيات البيّنات » ولا خفاء ، فى ضعف الافتتاح بالحمد « لله على الاسرار ، غافر الاضرار » . فالحمد على الاسرار ، غامض الاغوار ، والوصف بغافر الاضرار ، بدل الذنوب انما اقتصره هذا السجع ، الذى امتد حبله بالراء فيما بعد ، وكان أحق بمكان « غافر » فى هذا ، كلمة « كاشف » هكذا « كاشف الاضرار » كما هو فى القرآن الكريم « كاشف الضر » او « كشفنا عنه ضره » ، و « فكشفنا ما به من ضر » و « كشف الضر » مما تردد ذكره كثيرا فى كتاب الله السدى كان يحفظه المؤلف بلا ريب .

ثم أن الوصل بكون الله « لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار » فيه ما فيه من هذا السهاد القابض لليدين ليلا ونهارا ، فالكلمات لا ترتاح الى معانيها ، مجاورا بعضها بعضا ، أو منكئا بعضها على بعض ، كمعنى القبض على معنى السهاد ، واطافة هذا الى الليل ثم النهار ، فهو في الليل معقول للناس ، حيث النوم والسبات فيه ، أما النهار ، فانما هو عندهم معاش ، كما في القرآن كذلك ، فالسهاد الذي هو الارق ، لا يصور في النهار عادة ، وان جعل بمعنى اليقظة فلا ينسجم مع الليل عادة للناس ، وقد جعل لهم لباسا وسكنا . وكان المؤلف في هذا استند على كونه تعالى « لا تاخذه سنة ولا نوم » فتصرف هذا التصرف المبرك ،، كما رأينا في نفي القبض عن السهاد ومن هذه الهللة نجد كلمة « الدخول » في قوله « رغبة في الاتسام برسمه ، والارتسام والدخول في رعيته » قد أحدثت نفورا في السياق ، فهي لم تات الا لتجلب الينا السجعة في « رعيته » انسجاما مع كلمة « رسمه » السابقة ، وكان في الامكان قبول ذلك عن صفاء خاطر ، ولكن الارتسام قبلها أزعجها ، ولا حاجة اليه ، الا ما فرضه الرغبة في الجناس به مع « الاتسام » قبله ، ولولا ذلك ، لكان الكلام بدونه ، هكذا « رغبة في الاتسام برسمه ، والدخول في رعيته » لا ضيق فيه ولا عثر في سيره .

هذا ما يتصل بالنسج ، اما الموضوع ، فواضح من المقدمة ، أن المؤلف هدف بها الى أن يبين قصده وهو التاريخ اساسا ، فبناء على البلدان ، بدل أن يبينه على الدول وذكر ملوكها وتسجيل أحداثها ، فذكر بعضا من ذلك في سياق ذكره للبلاد

فأما تعرضه لمصر ، ففيه كثير من الخرافات التي كانت لعهد تحاك حول القديم ، نعى الفرعوني منه بصفة خاصة وهو على كل حال لا يعنينا هنا .

وأما تعرضه للمغرب ، فهو خال من هذه الخرافات ، لانه لم يتناول من قضاياها الا ما كان متصلا بتاريخه الاسلامي ، وهذا معروف مسجل تسجيلا دقيقا في تواريخنا المغربية والمشرقية ، وفي مقدمة هذه كتاب الكامل لابن الاثير .

ففى هذا الجانب ، نأتى مثلا بقصة هجرة ادريس الى المغرب وتأسيس

دولته به ، ثم اغتياله من قبل العباسيين ،،، وهذه القصة قد اجمع عليها المؤرخون في تفاصيلها ، وأقدم ما بيدنا في تسجيلها ، كتاب مقاتل الطالبين لأبى الفرج الاصبهاني صاحب الاغانى والمتوفى اواسط القرن الرابع ، فهي لا تختلف عن غيرها ، وعما ذكره صاحبنا الا في جزئية او اثنتين منها سنذكرها والقصة الواردة في كتابنا ، هكذا ناقلنا عن أبى الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى :

أن ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه انهزم في وقعة فخ سنة 169 (تسع وستين ومائة) فاستتر مدة ، والح السلطان في طلبه ، وضاعت عليه المذاهب ، ورغب في الهروب من بلد المشرق ، فخرج مع راشد ، وكان من موالى العلويين ، واصله من البربر ، ليثويه في قومه ، ويامن من عدوه ، وكان راشد عاقلا شجاعا ايدا ، ذا فهم ولطف وحزم ، فخرج به في غمار الحاج ، وغير زيه والبسه مدرعة من وحش الثياب ، وصيره كالغلام يخدمه ، وان امره او نهاه أسرع . فسار به مستخفيا من موضع الى موضع ، حتى قربا من بلاد افريقية ، فترك الدخول به في بلاد افريقية ، وسار به الى بلاد البربر ، حتى انتهى الى بلاد فاس وطنجة ، فنزل به في مدينة ولىلى ، وكانت مدينة رومية قديمة ، بطرف جبل زرهون في الغرب منه ، ونسبى الآن تيسرة ، فنزل بها على اسحاق بن عبد الحميد الاوربى ، وكانت أوربة آنذاك من أعظم قبائل بلاد المغرب ، وكانت لها مدن كثيرة ، منها مدينة سكوما ، وكانت على مقربة من فاس ، وكانت مدينة عظيمة لم يكن بالمغرب أعظم منها ، يقال ان موسى ابن نصير ، لما دخل بلاد المغرب ، نازل مدينة سكوما ، وحاصرها حتى افتتحها عنوة ، واخذ فيها سبيا كثيرا ، وكتب الى امير المومنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يقول له : قد بعثت اليك بسبى مدينة سكوما وهو مائة الف رأس . فكتب اليه الوليد بن عبد الملك : ويحك ، اظنها من بعض كذباتك ، فان كنت صادقا ، فهذا حشر الامم ..

وكذلك يقال ، انه قتل فيها ما لا يحصى له عد ، وكان اسحاق بن محمد الاوربى معتزلى المذهب ، فوافقه ادريس على مذهبه ، واقام عنده ، وامر اسحاق قبيلته بطاعته وتعظيمه ، وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد امير المومنين ، فوصله خبره ، فغمه ذلك ، فشكا ذلك الى يحيى بن خالد .

فقال له : أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين ثم أرسل الى سليمان بن جرير الجزيري ، وكان رجلا من ربيعة متكهما ، ممن يرى رأى اليزيدية ، متعصبا لآل أبى طالب ، وكان جلدا شجاعا ... الى أن قال : فارغبه يحيى بن خالد فى المال ، ووعدته عن نفسه وعن أمير المؤمنين بمواعيد عظيمة ، ودعاه الى قتل ادريس ، والتطف فى امره ، فأجابه الى ذلك ، وأعطاه مالا جزيلا ، ودفع اليه قارورة فيها غالية مسمومة ، ووجه معه رجلا من ثقاته ، فانطلق سليمان مع صاحبه ، فلم يزالا يتغلغلان فى البلاد ، حتى وحلا الى ادريس ، وكان ادريس عالما برياسة سليمان باليزيدية ، فلما وصل اليه قال ، انى جئت بك بنفسى وحملتها ما حملتها عليه ، لمذهبى فيكم اهل البيت ، فجئتك لا فى حاجة اليك ، الا لانصرك بنفسى ، فسر ادريس بقبوله ، وقبله احسن قبول ، فاحسن نزله ، واكرم مثواه ، وانس به ، فكان سليمان يجلس فى البربر ، ويظهر الدعاء الى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتج لاهل البيت كاحتجاجه بالعراق ، فأعجب ذلك ادريس منه ، ومكث عنده مدة ، وهو يطلب الغرة فيه ويترصده الفرصة فى امره ، فدخل عليه سليمان ، ومعه القارورة ، فلما انبسط اليه ادريس وأخلى له وجهه ، قال له سليمان : جعلنى الله ، فداك هذه القارورة فيها غالية رفيعة اوصلتها معى ، وأعلم انه ليس ببلدك طيب ، فجئتك بها ، ووضعها بين يديه ، ففتحتها ادريس ، وشمها وتخلق بها ، وقيل ، اخرج سكيئا ، وقطع به تفاحة ، وأعطاه النصف الذى يلى الجهة المسمومة من السكين ، ثم انصرف سليمان الى صاحبه ، وقال له ، قم ، قد تم مرادنا ، وقد كان أعد فرسين فركباهما ، وخرجا يطلبان النجاة ، (الى آخر القصة) .

لقد أورد أبو الفرج ، ناقتا ذلك ، عن أحمد بن عبيد الله بن عمار ، وهذا عن نفس الرجل الذى نقل عنه بواسطة آخرين ، صاحبنا اعنى به علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال هذا : حدثنى أبى وغيره من اهلى ، وحدثنى به أيضا علي بن ابراهيم العلوى ، قال : كذب الي محمد بن موسى يخبرنى ، عن محمد بن يوسف ، عن عبد الله بن عبد الرحيم بن عيسى (ثم ساق القصة) وفيها زيادة أن ادريس وصاحبه نزلا بمصر ، على رجل من موالى بنى العباس ، وإن ادريس قد أفضى اليه بأمرهما ، فهيا لهما الرحلة الى آخر القصة ، وبلغ الرشيدة خبره ، قال الاصفهاني :

فقال النوفلي خاصة في حديثه ، يعنى المروى ، وخالفه علي بن ابراهيم (الذى روى عنه سلفا) وغيره ، ثم انساق على نحو ما وجدناه في مؤلفنا ، ولكنه لم يذكر ما ورد عن راشد ، من أنه كان من موالى العلويين ، وأصله من البربر وهذا الوصف مهم ، ولابد أن يكون ، كما ذكر مؤلفنا ، فالثقة في الرجل ، الى هذا الحد ، وكونه بهذا الاخلاص ، كل ذلك يفترض أن يكون هذا الرجل من موالى البيت الفاطمي ، ثم الاتجاه الى البربر ، يفترض كذلك أن يكون الرجل منهم .

ولم يرد في قصتنا الأخيرة ، ذكر لاسحاق الاوربي المعتزلى ، وهى قضية مذكورة في غيرها ، ولها أهمية في هذا الاعتزال الذى ذكر مؤلفنا ، أن ادريس انساق اليه هذا المذهب ، بسبب من اسحاق نفسه ، وأن كان الواقع أن الزيدية والاعتزال بينهما وشائج قوية ، وأن عبد الله والد ادريس كان من رجال الاعتزال ، فلا شك أن ادريس كان معتزليا قبل أن يلقي اسحاق هذا ، فالمذهب اذن ربط بين الرجلين قبل لقائهما في المغرب ، الذى كان قد انتشرت فيها الواسلية بدرجة قوية (1) .

كما أنه لم يرد في القصة الأخيرة ، أن ادريس كان على معرفة بسليمان الشماخ ورياسته في الزيدية ، قبل أن يقدم عليه ، بل ذكر فيها أن سليمان مت الى ادريس بمذهبه ، وأنه أى ادريس ، أنس به بعد ذلك واجتباه .

هذا نموذج من الجانب التاريخي البحث الذى وجدناه في الكتاب ، ويليهِ نموذج آخر في قيام العبيديين بالمغرب ، لا يقل عن هذا ، كما أن فيه معلومات عن البرغواطيين وعن حاميم ، ذكرها البكرى في كتابه الجغرافى ، بنصوصها الأدبية الشعرية ، مما يدل على أن صاحب الاستبصار تقصى البكرى ، تقصبا عظيما ، في الموضوع ، وفي المنهج كذلك الذى خلط بكثير من قضايا التاريخ .

وبعد هذا نسوق نماذج من وصفه للاقطار ومدنها ، كما يلى :

مدينة تلمسان ، مدينة عظيمة قديمة ، فيها آثار كثيرة أزلية ، تنبىء أنها كانت دار مملكة لأمم سالفه ، وهى في سفح جبل أكثر شجره الجوز ،

(1) انظر ما كتبناه في رسالة المغرب العدد 136 تحت عنوان « كيف أسس المولى ادريس مملكته » .

وكان لها ماء مجلوب من عمل الاوائل ، من عيون تسمى « بوريط » بينها وبين المدينة ستة أميال ،، كانت تلمسان دار مملكة زناتة ، وحواليها قبائل كثيرة ، من زناتة وغيرهم من البربر ، وهى كثيرة الخصب رخيصة الاسعار ، كثيرة الخيرات والنعم ، ولها قرى كثيرة ، وعمائر متصلة . ومدن كثيرة ، ترجع الى نظرها .

وبعد ما يستمر فى وصف جهاتها وغلاتها ومياها ، يقول :

ومدينة تلمسان ، مدينة علم وخير ، ولم تزل دار العلماء والمحدثين ، وكان هذا المغرب الاوسط قد تملكه العلويون من بني ادريس ، وأمرهم مشهور ، وتملكوا بلاد الاندلس وتسموا بالخلافة .

وهكذا نراه قد انتهى هذا الوصف بلحمة تاريخية عن الادارسة .

ويقول فى مدينة فاس :

هى اعظم مدينة من مصر الى آخر بلاد المغرب ، ثم يقول فيها : ومدينة فاس مدينتان كبيرتان مفترقتان ، يشق بينهما نهر كبير يسمى بوادى فاس ، يدور عليها سور عظيم ، وبين المدينتين قناطر كثيرة ، وتطردها فيها جداول ماء لا تحصى ، تخترق كلتى المدينتين تسمى بالسوانى ، لابد لكل دار من ديار المدينتين منها ، وفيها عيون كثيرة لا تحصى عددا ، وفيها من ارحية الماء نحو 360 (ستين وثلاثمائة) رحى ، وهى فى المزيد ، وربما وصلت 440 (اربعمائة) ، والنهر الذى يخترق مدينة فاس ، ينبعث من عين عظيمة لها منظر عجب ، فيها نحو 60 (الستين) فوارة ، فى دائرة ، يجتر منها هذا النهر الكبير ، بينها وبين المدينة نحو 10 (عشرة) أميال ، فى بسيط من الارض ، يكاد لا يتبين جرى الماء فيه ، لاستواء أرضه .

ومدينة فاس محدثة ، أسست عدوة الاندلس فى سنة 192 (اثنتين وتسعين ومائة) وعدوة القرويين فى سنة 193 (ثلاث وتسعين ومائة) فى ولاية ادريس بن الفاطمى ، ومن ذريته بفاس الى اليوم ، ونحن فى سنة 587 (سبع وثمانين وخمسمائة) (1) .

(1) المؤلف يكتب بالارتام . أما الكلمات الموصوعة بين هلالين فهى منا .

ومدينة فاس اليوم فى نهاية العمارة والصلاآ ، قد بنيت أكثر جئاتها الملاصقة لها دورا ، وأضيفت إليها ، وفيها اليوم 3 (ثلاثة) جوامع للخطبة ، جامع عدوة الاندلس ، وهو جامع كبير متقن البناء ، يقال ، ان ابن عامر زاد فيه ، وجامع عدوة القرويين ، جامع كبير ، أكبر من جامع الاندلس ، وزيد فى هذه المدة فى هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر .

وبعد ما يطيل فى وصف هذا الجامع ، وما زيد فيه من أبواب ، فى حدود سنة سبع وثمانين وخمسمائة يتصل بالجامع الثالث « بقصبة السلطان » جامع شريف معظم فيه الخطبة ، وأحدثها فيه هذا الامر العزيز (يريد يعقوب المنصور) — أدام الله اعتلاه — وبعد ما يفيض فى ذكر محاصيل المدينة وغلانها وما تمتاز به كل عدوة عن الاخرى ، يقول فيها :

وهذه المدينة قصبة بلاد المغرب ، بل وبلاد المشرق والاندلس ، لا سيما فى هذا الامر العزيز ، أيد الله دوامه ، ومنها يتجهز الى بلاد السودان والى بلاد المشرق ، ومنها يحمل النحاس الاصفر الى جميع الآفاق .

قال الناظر ، هذه الدينة العظيمة ، لما كانت على هذا الوضع المتقدم ، وفاضت عليها بركة الواضع لها ، وهو ادريس بن ادريس العلوى الفاطمى رضى الله عنه ، نرب على هذا اتساع مكاسب أهلها ، ، (واستمر واصفا لذلك) ثم نعرض للجانب التاريخى فقال :

وكان فيها من الولاة الملمين ، رجال عظماء ، عقلاء فضلاء ، بادروا الى مخاطبة الخليفة ، أمير المؤمنين رضى الله عنه ، وتساعدوا مع الوالى المتصرف بها ، فأدخلوا الموحدين ، أعزهم الله ، يوم الاثنين فى العشر الاول من ذى الحجة سنة 540 (أربعين وخمسمائة) وسلمت املاكهم واموالهم ، وما زالت أحوالهم تنعم ، واموالهم تتزايد ، مع الامن والدعة والسكون ، فى ظل هذا الامر العالى بهدى الله ثم قال وذكرنا أنه كان فى الدولة اللمتونية رجال فضلا علماء حلماء ، وشهريهم فيها أغنت عن ذكرهم . وبعد كلام طويل اسنطرد فذكر وادى وانسيفر فقال : وهذا الوادى هو المعروف بأمر الربيع ، وهو مثل وادى سبو ، ولو عاينه اولو الامر ، أدام الله نصرهم ، لأحدثوا عليه قنطرة ، على قوس واحد ، مثل قنطرة السيف المشهورة ،

وبمثل هذه الآثار تفتخر الملوك ، فهي من أعظم منافع البشر ، (وعاد الى فاس فقال) : وبالقرب منها أيضا قلعة يقال لها قلعة زيد ، فيها مسجد ، يقال ان عقبة بن نافع بناها ، وفي سياق هذا الذكر تعرض لبلاد تازا ، فقال :
وقد بنى ببلاد تازا في هذه المدة ، مدينة الرباط ، يريد رباط تازا وهي المدينة المعروفة ، التي قال فيها :

واسست هذه المدينة من نحو 20 سنة ، في حين توجه الخليفة ، الى فتح بلاد بنى الناصر (يريد بجاية) وشيدت سنة 568 مدينة الرباط على الطريق المار من بلاد المغرب الى بلاد المشرق ، وتسمى مكناسة نازا ، وانتهى الى ذكر جبال الريف ، فقال عن جبال غزار وفيه خشب الارز العتيق وبعد كتاب الاستبصار الذي لا نعرف مؤلفه حتى الآن ، نتوجه الى كتاب آخر ، معاصر وان تأخر عنه شيئا في الجملة ، كما اختلف عنه في المضمون ، لانه كتاب تاريخي ادبي في عموده ، ثم انه جغرافي في هامشه ،

وبعبارة ، انه كتاب يصح أن يوضع ضمن الكتب التي نكون « دليلا » للبلاد ، تتناولها من جميع نواحيها ، ثقافة واسعة عنها ، تضم التاريخ والجغرافية وتاريخ الرجال ، والمستوى العلمي والادبي الذي كان لعهدهم .

على أن المؤلف لم يكن مجرد عارض ، بل كان يتدخل بشخصه في نقد بعض المواقف والآثار ، بل كان يبرز بنفسه في ذلك الميدان وهو شخصية هامة فذة ،، يعتمد عليها في فرع خاص من الأدب ، ذلك الفرع هو التاريخ ، اما هذه الشخصية فهي لابی محمد عبد الواحد ابن علي التميمي المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، والكتاب هذا هو اقدم مرجع لنا مغربي يعتمد عليه كل الاعتماد في التاريخ العام لهذه البيئات التي تضم الشمال الافريقي عامة والاندلس ، فحتى الآن ليس بيدنا مرجع آخر في تاريخنا السياسي اقدم من هذا المرجع الذي ضم الى جانب التاريخ جغرافية هذه البلاد وخطوطها في كتابه الذي قال في صاحبه المستشرق الروسي كرانسكوفسكى في كتابه « تاريخ الادب الجغرافي العربي » انه العالم العربي الوحيد الذي اجتهد في ان يفصل بين منهج الجغرافيا والتاريخ ، ويكرر هذا في حق **عبد الواحد المراكشي** الذي وهم فيه المستشرق

الاسباني سيكودى لوثينا ، فاعتقده الشيخ عبد الواحد الذى نقل عنه أبو الفدا والقلقشندي . حقيقة ان الناس اهتموا بالتأليف في التاريخ قبل عبد الواحد ، ولكن تأليفهم كانت لا تتجه الى التاريخ السياسى بل كانت تتجه غالبا للتراجم .

وعبد الواحد المراكشى هذا لا نعرف له الا هذا الكتاب ولا نعرف عن شخصيته الا ما ذكره هو نفسه عنها في هذا الاثر الوحيد الذى بيدنا فهو في هذا الكتاب يقول حينما يتحدث عن مراكش في القسم الجغرافى : (وبهذه المدينة اعنى مراكش مسقط راسى ، وهى اول ارض مس جلدى ترابها ، وكان مولدى بها لسبع خلت من ربيع الآخر سنة 581 (احدى وثمانين وخمس مائة) ، في أيام أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي ، ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة اعوام الى مدينة فاس ، فلم ازل بها الى ان قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هناك ، مبرزين في علم القرآن والنحو ، ثم عدت الى مراكش فلم ازل مترددا بين هاتين المدينتين ثم عبرت الى جزيرة الاندلس في اول سنة 603 (ثلاث وست مائة) فأدركت بها جماعة من الفضلاء من اهل كل شان ، فلم احصل بحمد الله من ذلك كله الا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم ، وعلومهم ، انفردوا دونى بكل فضيلة ، ولا مانع لما اعطى الله ، ولا معطى لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم) .

وفي مكان آخر من كتابه ينص على انه لازم بقرطبة عالما جليلا واديبا كبيرا نال منه الاعجاب والتقدير جدا ، ذلك الاستاذ هو ، الاديب والعالم الضليع أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى ، فلقد اتصل به عبد الواحد بقرطبة سنة ست وست مائة 606 وكان له اثره الفعال فيه ، فلازمه سنين يستفيد من علمه الواسع وادبه الغزير ، وهو حينما يصفه بكثير من الاعجاب والتقدير يقول : (واعانه على ذلك طول عمره) اذ توفى عن ست وتسعين سنة كما بنص على انه في هذه المرحلة كان — كما ورد في قصة له مع ولده — من جملة ما قرئ عليه نسخة من ديوان المتنبى وكانت نسخة جيدة لاستاذه الحميرى . وفي زيارته هذه للاندلس ، اتصل بوالى اشبيلية ، الامير أبى اسحاق ابراهيم بن يعقوب وزير أخيه الناصر فكان هذا يخصه بكثير من الحظوة ، وكثيرا ما كان يتردد عليه ، كما

كان يقول له : « والله انى لاشتاق لرؤياك » ، وفى اول مقابلته له انشده قصيدة مدح ذكر منها بعض الأبيات ستأنى لنا ، فبها بعد ، كما انه اتصل بأمرأ آخرين من الموحديين مثل الامير يحيى بن يوسف بن عبد المومن ، ويوسف بن محمد الناصر الخليفة الذى حضر بيعته العامة بمراكش سنة عشر وست مائة ، فكان هذا يلقاه وبختلى به كما ذكر هو نفسه مؤرخا لذلك سنة احدى عشرة وست مائة ، وبالجمله فقد انصل الرجل بالبلاط الموحدى وصار يهتم اهتماما زائدا ، بالسياسة وأحداثها ورجالها ، ولكننا نجده سنة أربع عشرة وست مائة ينرك المملكة وكان بالاندلس فيتوجه الى الشرق بعد ما ودع صاحبه والى اشبيلية السابق الذكر ، فركب البحر من الاندلس وتوجه الى تونس ، الى قد أقام بها مدة من الزمن ومنها ركب البحر الى الاسكندرية فوجدناه بمصر سنة 617 هـ ، ثم وجدناه بالحجاز سنة 620 حيث كان يؤدى فريضة الحج ثم اتجه الى بغداد فانقطع الى الدولة مرة أخرى حيث وجد بها وزيرا من وزراء بنى العباس حملة على تدوين اخبار المغرب وجغرافيته ووصف احواله وصفا مفيدا ، وبذلك الف هذا الكتاب ، كما يقول ، غير مستعين فيه بغيره (الا من سبقوه بالتأليف فيما كان متصلا بالاندلس) ، وطبعا فانه أرخ للاندلس وأمرائها لان الاندلس فى ذلك الوقت كانت لما تزل معتبرة ، جزءا من المملكة المغربية . وبذكر المستشرق الروسى فى موضع آخر من كتابه أن المراكشى استقر بمصر ، وكان بها اثناء حملة الصليبيين على دمياط ولا يفوت المؤلف وهو بالمشرق أن يذكر عن نفسه انه لم يستفد شيئا من المعارف فى مقامه بهذه البلاد ، التى كانت آنذاك تعج بالاحداث ويقول هذا فى كتابه الذى انتهى منه سنة 621 هـ ولا ندرى بعد ذلك هل استفاد من المشرق أم لا ، كما يجهل تماما عنه كل شيء فبها بعد فلا ندرى بالضبط سنة وفاته ولا المكان الذى توفى به ، فنجد مثلا مرجعا واحدا يذكر انه توفى سنة نيف وعشرين وست مائة ، ثم نجد هذا المرجع نفسه فى طبعته الثانية يذكر انه توفى سنة نيف واربعين وست مائة هذا المرجع هو الاعلام لخبر الدين الزركلى ناصا فى الاخير على اعنماده على ما ذكره اسماعيل باشا البغدادى من أنه توفى عام 647 وهو حجة .

والكتاب بالرغم من كونه مرجعا هاما من مراجع التاريخ المغربى فان صاحبه يعلن فى صراحة انه لم يسبق له فيما قبله ان الف ، وانما كان

عمله هذا استجابة للرغبة التي أبداهها الوزير ، فهو يقول في آخر القسم التاريخي من كتابه :

(وهذا اصلحك الله منتهى ما بلغ من اخبار المغرب وسير ملوكه ووزرائهم وكتابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة ، وقد تقدم بسط القول عما يقع من التقصير أو الخلل ، مع أن أصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به ، وإنما بعثته عليه الهمة الفخرية اعلى الله رتبها ، فما كان من احسان فالى تلك الهمة العلية ، نسبته وعنهما منبعثه وما كان من غير ذلك فاغضاؤها يستره ومسامحتها تغمره ، وقد رسم مولانا حرس الله مجده ان يضاف الى هذا التصنيف ذكر اقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عددا ، من لدن برقة الى سوس الاقصى ، وذكر جزيرة الاندلس ، وما يملكه المسلمون من مدنها

وقد رأينا ان المؤلف انما ألف هذا الكتاب استجابة لرغبة هذا الوزير وتعريفا ببلاده وناربخها تعريفا يمكن أن يستفيد منه هذا الوزير ، وبذلك يقول في مقدمته .

(وبعد ، أيها السيد الذى توالى على نعمه ، واخذ بضبعي من حضيي الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه ، وقضى احسانه الى ومحبته التى جبلت عليها ، بأن النزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه ، فانك سألتني بواك الله اعلى الرتب ، كما عمر بك أندية الادب ، ومنحك من سعادة الدنيا والآخرة أوفر القسم كما جمع لك التدبير والقلم ، املاء اوراق تشتتل على بعض اخبار المغرب وهيئته وحدوده وأقطاره ، وشيء من سير ملوكه وخصوصا ملوك المصامدة بنى عبد المومن ، من لدن ابتداء دولتهم الى وقتنا هذا ، وهو سنة احدى وعشرين وست مائة ، وأن ينضاف الى ذلك نبذة من ذكر من لقيته أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وانواع اهل الفضل ، فلم أر بدا من اسعافك ، والمسارة الى ما فيه رضاك ، اذ هى الغابة التى أجرى النها والسفينة النى أنابر ابدا عليها ، ولوجوب طاعتك على من وجوه بكثر تعدادها ، فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتني اليه واستغفنه واعتمدت في كل ذلك عليه ، فهو الموئل والملاجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، هذا مع انى اعذر الى مولانا ، فسبح الله في مدته ، من

تقصير ان وقع بثلاثة أوجه من الاعتذار :

فأولها ضعف عبارة الملوك وغلبة العى على طباعه ، فمهما وقع في هذا الأمل من فتور لفظ ، أو اخلال بسرد ، فهو خليق بذلك ، والوجه الثانى انه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شىء أعتمد عليه واجعله مستندا كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصا فلم يقع الى لحد منها تأليف أصلا خلا ائى سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها . وهذا المجموع لا اعرفه الا سماعا . والوجه الثالث أن محفوظاتى في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت أوجبت ذلك هموم تزدهم على خاطر ، وغيوم تستغرق الفكر . فرغبة الملوك الاصغر من اجراء مولانا اياه على جميل عادته ، وحميد خلقه من التسامح والتغاضى ، لازال مجده العالى يرفع الهمم ويعتد الذمم ويوصل النعم ويعمر ربوع الفضل والكرم .

هذا اسلوب من نثره الفنى ، نستشف منه انه لم يكن يخلف كثيرا عن تلك الاساليب التى كانت موجودة عند المتأنيين من كتاب عهده ، فهو يلتزم السجع ، وقلما يتخلص منه ، ولكنه سجع مقبول ، وصنعة غير متقلة بتلك الزينة البديعية من تلاعب بالالفاظ الجوفاء ومن بورية واقتباس ومطابقة مثلا ، كما كان عليه الحال لعهدده وخصوصا في الشرق ، ثم انه مع ذلك يجعل اسلوبه — بالرغم من ذلك التأنق — خفيف الروح بالتزامه للجمل القصيرة وتوزيعه الفقرات ، وبذلك كان اسلوبه في هذا الكتاب اسلوبا شائقا ، فريدا عند معاصريه . فهو يختلف كثيرا عما عهد في كتب التاريخ في الشرق ، فاذا قارنا بين هذا الكتاب وبين كتاب « الفتح القسى في الفتح القدسى » للعماد الاصفهانى ، فاننا نجد البون شاسعا بين الاسلوبين ، على انه لم يلتزم حتى هذه الحلية البديعية بهذه الزينة الخفيفة البسيطة الا في مثل هذه المقدمة وما يتبعها من أوصاف لبعض المدن المحببة لديه ، وما يطرى به بعض الرجال ، أما فيما عدا ذلك فانه يرسل كلامه ارسالا ويسرد الحوادث والتراجم سردا لا تعمد فيه ولا صنعة ، مع جودة رصف .

وبعد فان علينا لزاما أن نلقى نظرة جزئية على القسم التاريخى من كتاب المعجب ، فنرى انه الى جانب التاريخ السبائى ينضمّن تصوير الحالة الأدبية بالاندلس خاصة وبالبلاد الموحدى عامة ، وان كان في اشانه بالنصوص

الأدبية اقتصر أو كاد على ما صدر عن الاندلسيين ، ولم نجد للمغاربة إلا بيتين لابن حبوس وقطعة نثرية من مذكرة له كما سلف ، بالإضافة الى قصيدة قالها رجل من بجاية وأنشدها على قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين ، أو أنشدت له ، ذكر استهلالها ، في ستة وعشرين بيتا ، ثم علق عليها بقوله : « وهى طويلة ، هذا ما اخترت له منها ، ولم أورها في هذا الموضع ، لأنها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها وهو قول ابن تومرت لأصحابه « لا يزال الامر فيكم الى قيام الساعة » فأنى عبد الواحد بهذه الابيات وصفا للفكرة المذكورة .

كما أنه ساق بعض العبارات التى أثرت عن الخلفاء الموحدين فى مناسبات شتى وسجل نموذجا من خطب جمعهم فيما سنرى قريبا .

والى جانب هذا كله ، فله نظرات صائبة فى النقد ، مثلا ، يقول فى الحصرى : كان هذا الرجل — أعنى الحصرى الأعمى — أسرع الناس فى الشعر خاطرا ، الا أنه كان قليل الجيد منه ، بعد ما وصفه بأنه كان « على سهولة الشعر خاطره وخفته عليه » . ويقول فى ابن حبوس : وكانت طريقته فى الشعر ، على نحو طريقة محمد بن هانىء الاندلسى ، فى قصد الالفاظ الرائعة والقعاقع المهولة ، وإيثار التقعير ، الا ان محمد بن هانىء كان أجود منه طبعا ، وأحلى مهيعا .

ويقول فى أبى الربيع سلیمان الموحّد « تفقدت شعر السيد أبى الربيع واختلف على كلامه ، ورأيت بخطه أشعارا نازلة عن رتبة الشعر جدا ، فعلمت أن ذاك الأول ليس من نسجه » يشير بالأول الى كونه من شعر كاتبه ابن عبد ربه ، الذى قال فيه سابقا : ولأبى عبد الله هذا اتساع فى صناعة الشعر .

وعبد الواحد يتسم بالنزاهة فى ذكر حقائق التاريخ ، ولهذا فهو لا يفض من قدر المرابطين ، بل يصفهم بالتشبهت برجال الادب وخصوصا منهم كتاب الاندلس ، الذى يجعل بلاط يوسف وابنه على يزخر بهم فيضاهون بنى العباس فى ذلك

وفى نطعيمه لحوادث التاريخ بالنوادر والفكاهات ، كان يشبه الى حد بعيد المسعودى فى كتابه مروج الذهب ، وزاد عليه أنه تدخل بنفسه

فى هذا المرسح ، كما فعل فى تعرضه لشيخه أبى جعفر الحميرى ، وما كان ينشده اياه من أشعاره ، فيلهج بها ويشدد احسانه لها ، ثم يأتى بقصة ، انشاده بيتين من شعره ، وترسم ابنه عصام فى نظمه بيتين على غرارهما وتعليق الاستاذ على ذلك بما سنرى .

وفى الكتاب نجده ، يأتى بفصول قيمة جدا ، على ما فيها من اختصار ، تتصل بسير المصامدة واخبارهم ، وقبائلهم واحداثهم العامة .

ومن المفيد ان نذكر هنا ما اتى به فى اقامتهم للجمعة وفى الصيغة التى كانوا يلتزمونها فى خطبة الجمعة ووصف طقوسها بدقة ، فيقول :

فأما صفة احوالهم وخطبتهم فى جمعهم فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة فى القبلة ويخرج معه خواص حشمه وبركع ركعتين ثم يجلس فيقرأ قارئ قدر عشر آيات حسن القراءة حسن الصوت ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا النى يتوكأ عليها الخطيب فيقول قد فاء الفىء (تحول الظل) يا سيدنا أمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين) يريد بهذا القول استئذانه فى صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ثم يناوله ذلك الرجل العصا ، فاذا جلس الخطيب فوق المنبر اذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين ، أصواتهم فى نهاية الحسن ، قد انخبوا لذلك من البلاد ، ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فاول شىء يقول ، الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادى له ، ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد ان محمدا عبده ورسوله ، ارسله بالحق بشيرا ونذيرا ، بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فلا بضر الا نفسه ولا يضر الله شيئا ، أسأل الله ربنا ان يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه ، فانا نحن به وله ، ثم يتعوذ فيقرأ سورة (ق) من أولها الى آخرها ، ثم يجلس فاذا قام الى الخطبة الثانية قال : الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ونبرا من الحول والقوة اليه ، ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه الذين انبعوه ففاتوا الانام جدا وعزما ، وأنفدوا وسعهم فى نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاء وصدقا وحزما ، وعلى الامام المعصوم المهدي المعلوم أبى

عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسنى الفاطمى المحدى الذى ايد بالعصمة فكان امره حتما ، واكتنف بالنور اللانح والعدل الواضح الذى يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلما ولا ظلما ، وعلى وارث شرفه العميم قسيمه رضى الله عنه فى النسب الكريم المجتبى لوراثته مقامه العلى ، الخليفة الامام ابى محمد عبد المومن بن على ، وعلى ابى يعقوب ولى ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص ، اللهم وارض عن المجاهد فى سبيلك ، المحيى سنة رسولك الخليفة الامام ابى يوسف امير المومنين ابن امير المومنين ابن امير المومنين . وعلى الخليفة الامام ابى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين . اللهم وانصر ولى عهدهم الطالع فى أفق سعدهم القائم بالامر من بعدهم الخليفة الامام امير المومنين ابا يعقوب ابن امير المومنين ابن امير المومنين ابن امير المومنين ابن امير المومنين . اللهم كما شددت به عرا الاسلام وجمعت على طاعته قلوب الانام ونصرت به دين نبيك محمد فاقض له بالنصر المقرون بالكمال التام ، اللهم كما اجتبيت من الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين ، فاجعله من المقتفين لآثارهم المهتدين بمنارهم المقتبسين من انوارهم ، اللهم وايد الطائفة المنصورة والجماعة اخوان نبيك ، وطائفة مهديك الذين اخبرت عنهم فى صريح وحيك ، انهم لا يزالون ظاهرين على امرك الى قيام الساعة ، وامدهم وكافة من انتظم فى سلوكهم من انصار الدين وحزبك الموحدين بمواد النصر والتمكين والفتح المبين واجعل لهم من عضدك وتأييدك اعز ظهير ، واكرم نصير . ثم يدعو وينزل فيصلى فاذا فرغ دعا الخليفة بنفسه ، وأمن الوزير على ما تقدم .. وهنا . تنتهى هذه الخطبة

فهذا الوصف مهم ، يتصل بالنشاط الادبى بعد التاريخ والحضارة المغربية ، وفيه تفصيلات انبثقت عن معاصرته ومشاهدته قلما نعثر عليها اما الجانب الجغرافى الذى ذيل به الجانب التاريخى ، الذى يشمل الاندلس والمغرب ، بمعناه الواسع ، فيتناوله باختصار غالبا ، ومن النادر ما يفسح له صدر قلمه ، ومن هذا القبيل ، وصفه لمدينة فاس ، التى قضى فيها باكورة شبابه ، وهو عاكف على حلقات التعليم بها .

وهكذا نجده يقول فيها : (ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما

اضطرب امر القيروان كما ذكرنا بعث العرب فيها واضطرب امر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت أبى عامر وابنه محمد بن أبى عامر ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة ، فنزل اكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غابة الحضارة واهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم ، وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك ، فانه ليس بالمغرب شئ من انواع الظرف واللباقة في كل معنى الا وهو منسوب اليها وموجود فيها وماخوذ عنها ، لا يدفع احد هذا القول من اهل المغرب

ويقول في مدينتى تونس وقرطاجنة :

(ولم تكن تونس هذه في قدم الدهر على أيام الافرنج مدينة وانما بنيت في اول الاسلام ، بناها عقبة بن نافع الفهري لمصلحة رآها وانما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قرطاجنة ، بينها وبين تونس نحو من اربع فراسخ . وهذه المدينة اعنى قرطاجنة هي كانت حاضرة افريقية أيام الروم ، ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيته لهم وفرط جبروتهم ما يعجب منه من تأمله ، ويعتبر فيه من وقف عليه

ويقول في القيروان :

(وهى كانت — اعنى القيروان — دار المسلمين بافريقية منذ الفتح ، لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يولون عليها الامراء من قبلهم الى ان اضطرب امر بنى العباس واستبدت الاغالبية بملك افريقية بعض الاستبداد

وبعد ذلك يأتى بقصة عيث الاعراب بالقيروان سنة 444 ويذكر هجرة اهلها الى الاندلس والى المغرب ، وان عقبا منهم ما زال معروفا بفاس ، كما يذكر في خراب القيروان بيتين لابى عبد الله محمد بن شرف القيروانى وهما :

ترى سيئات القيروان تعاظمت فجلت عن الغفران والله غامر !
تراها اصببت بالكبائر وحدها ألم تك قدما في البلاد كبائر ؟

الى غير ذلك مما ورد في هذه البلاد الافريقية والاندلسية ، التى عرف بها تعريفا شاملا لذلك الوزير الذى ألف باسمه الكتاب .

واخيرا نتصل بشعره ، وهو كما بالكتاب المذكور ، فنجد من قصيدته
التي مدح بها ابا اسحاق الموحدي ، هذه الابيات التي يقول مادحا اياه —
وكان صديقا له — فيها :

لکم علی هذا الوری التقدیم	وعليهم التفویض والتسلیم
الله اعلاکم واعلی امره	بکم ، وانف الحادین رغیم
احییتهم المنصور فهو کأنه	لم تفتتده معالم وعلوم
ومحابر ومنابر ومحارب	وحمی يحاط وأرمل ویتیم

ونفيها أيضا يقول :

يذر الصليب صغيره وكبيره
فيها جذاذا والعلوج جثوم
الى أن يقول :

فكأنما حمص جمالا سارة	وكأن أبراهيم أبراهيم
وأرى طيلطلة كهاجر اثرها	سيزفها الأذفونش وهو ذميم
ويحرق الاعداء فيما أضمرت	ويجوب نار الحرب وهي جحيم

هذه الابيات لا تدل على مكانة عالية في الشعر ، وليس فيها من خيال
ولا من تعبيرات بلاغية بديعة ، كما أن ما حاوله من تأنيق لم يسعفه بل
اننا نجده في الببت الرابع نستهويه أجراس الحروف فيتشبث بهذه الحاء
التي يأتي بها في المحابر فتسلمه الى المحارب فتسلمه هذه الى الحمى ومنها
الى يحاط ، فتكررت الحاء أربع مرات كما تسلمه أوزان الكلمات في ذلك
البيت بالذات بعضها الى بعض في المحابر والمنابر والمحارب ، وهو نفسه
يشعر بهذه المنزلة المتوسطة في شعره فيتعذر — بالرغم من اشادة
أستاذه — عنها في تواضع وكما حصل ذلك في هذين البيتين :

يا من له كناس	من المتييم قلبه
ما انت كاسمك فمح	وانما انت قلبه

فهذان البيان كذلك ، ان دلا على شيء ، فانما يدلان على بعض الذكاء
في استغلال هذا القلب ، الذي يصير فتحا حتفا كما نرى وهو شيء كان
متعارفا جدا بين شعراء الاندلس على الخصوص كما عند ابن زيدون مثلا .

وقد ارتجل البيتين ، وهو بمجلس شيخه ، الذى كان يستدعى منه ذلك كعادته ، وكان فى المجلس زميل فى الطلب يدعى فنحا فلما انشأ البيتين ، طرب الاستاذ لها ، والتفت الى ابنه — وكان يدعى عصاما — وقال له : هذا والله الشعر ، لا ما تصدعنى به طول نهارك ، ان كنت تقول مثل هذا والافاسكت ، فلما كان من الغد — كما يقول — قال لي رحمه الله ، أعلمت ما صنع عصام أمس ؟ قلت ، لا ، قال ، كان كما قالوا فى المثل « سككت ألفا » ، لم يزل أمس يعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد ، أخذ معنى بيتك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه ، جملة ، فقال :

سبى فـؤادى خـشـف فتوتى اليوم ضـعـف
سموه فـتـحـا مـجـازا وفى الحقيـقة حـتـف

ما زاد فيه اكثر من المجاز والحقيقة ، فقلت أنا ، هذا والله احسن من شعري ، فتغير لي وقال ، يا بنى ، دع عنك هذه العادة ، فان اسوا ما تخلق به الانسان ، الملق وتزيين الباطل ، سيما اذا اضاف الى ذلك الحلف الكاذب ، والله انك لتعلم ان هذا ليس بشيء والا فقد اختل ميزك ، وما اظن هذا هكذا . وبهذا يكون عبد الواحد على مستوى من الأدب لا يصل اليه لا الاديسى ولا صاحب الاستبصار .

وبعد فقد كان الادب فى المغرب ، قد استوفى خصائصه كلها ، بنهاية القرن السادس ، سواء فيها الشعر والنثر ، وقد ذكرنا فى المضامين رجالا عديدين ، وبقي علينا أن نذكر رجلا آخر ، كان فى النثر من المؤلفين فى التراجم ، ولكنها تراجم رجال لم يتسموا بالعلم ، كما فعل القاضى عياض ، ولا اتسموا بالادب ، كما فعل بعض الاندلسيين ، وعلى رأسهم ابن ادريس ، بل كانت لهم صفة خاصة ، قد تجامع بينهم وبين العلم او الادب احيانا ، ولا تجامع بينهم احيانا اخرى .

انهم رجال التصوف ، بصفة خاصة ، رجال التصوف فى السلوك ، اكثر منهم رجال تصوف فى الطقوس والسموت .

اما المؤلف فيهم ، فهو ابن الزيات والكتاب الذى يعنينا منه هو كتاب « التشوف الى رجال التصوف » .

وابن الزياد هذا ، هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى التادلى ، ترجم له أحمد بابا التنبوكتى فى كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ناقلا فى ترجمته هذه عن الحضرمى ، الذى حلاه بالشيوخ الفقيه القاضى الأديب ، ثم ذكر بعد نبذة فيه ، أن كتابه التشوف ، حدث به الاستاذان الفاضلان ، أبو القاسم ابن الشاط ، وابن رشيد ، عن قاضى الجماعة ، أبى عبد الله محمد بن علي الشريف ، عنه اذنا .

وهذا الاهتمام يبرز ما كان لكتابيه من شغوف ورواج فى الوسط العلمى والأدبى ، لذلك العهد ، الذى كان المؤلف فيه ما زال حيا يرزق ، ياذن له ، فى تلقينه للناس ، والتحديث لهم فيه ، على طريقة مثبتة تقليدية عرفت بين رجال الحديث ، بصفة خاصة ، ثم شاعت بين غيرهم .

ولا عجب من هذا فان الوسط المغربى ، منذ القاضى عياض ، الذى تعرض للمتصوفة ، فى كتبه ، وكان يرأسل بعضهم ، وبصفة خاصة ، كان له اتصال بالصوفى الأندلسى ، ابن العريف الألمرى الصنهاجى (1) فكان يردد أصداء التصوف ورجاله خاصة ، والزهاد عامة .

وقد كان من هؤلاء الأخيرين ، أبو حفص الاغماتى ، وأبو الربيع الموحدى ، بل جنح الى طريقهم حتى الجراوى الشاعر ، الذى نجده يخمس معلقة امرئ القيس ، موجهها اباها ، الى مدح الرسول عليه السلام . وهى طريقة للمتصوفة ابتدعوها فى عدة قصائد ؛ لأبى نواس وغيره .

بل ان الأمداح النبوية نفسها ، النى اعتنى بها الجراوى فى حماسته اعتناء خاصا ، فجعلها فى الواجهة الاولى منها ، والتى لم يختصر مما ورد فيها ، كما اختصر فى غيرها ، ما انتعشت انتعاشا بالغا ، الا على يد المتصوفة . ويكفى فى هذا المجال البوصيرى سلطان الأمداح النبوية ، فيما بعد ، والذى ما مدح ببردته وهمزته ، الا بعد أن تصوف ، ولزم عقر داره ، منكبا على أمداحه العظيمة .

وبعد فلنعد الى كتاب التشوف ، لنلقى عليه نظرة ، فى نسجه وفى ترتيبه . لقد بدا بالمقدمة النى نجده يقول فيها :

(1) كانت بينهما صحبه ومكاناب ، كما فى « تاريخ الفكر الأندلسى » لبالنثيا ترجمة مؤنس

فانه لم يخل زمان من ولي من اولياء الله تعالى ، يحفظ الله به البلاد والعباد ، وكانت طائفة منهم عظيمة بأقصى المغرب ، أهملت أخبارهم ، وجعلت آثارهم ، حتى ظن من لا علم له بهم ، انه لم يكن منهم بأقصى المغرب أحد ، وانه استغرب أن يكون به ولي أو وتد .

وهيهات ، هيهات ، ليس الامر كذلك ، فاطلب تجد ، وكيف يكون ذلك كذلك ، وقد جاء في الصحيح من فضل أهل المغرب ، ما لا يدفعه دافع ، ولا ينازع في ثبوته منازع ، كمثله ما روينا من طريق مسلم بن الحجاج ، بسنده الى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » (ثم ذكر رواية أخرى عن سعد كذلك) : لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق » و « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق في المغرب » ...

وذكر بعد سوقه للروايات المختلفة ، أن أبا بكر الطرطوشي نزيل الاسكندرية ، قال في رسالته المشهورة التي بعثها الى السلطان بمراكش : والله لا أعلم ، هل أرادكم بذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أو أراد أهل المغرب ، لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين ، والاعتناء لآثار من مضى من السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، فشرعوا بهذه الآثار شرفا ، وشغفوا بهذه المفاهيم شغفا .

والرسالة التي أشار اليها ابن الزيات ، كانت موجهة الى يوسف ابن تاشفين ، كما يبدو ، لانه الذي كانت له صلات قوية بالشرق ، وكان له صيت ذائع فيه ، خصوصا بعد الظفر العظيم الذي ناله ، بمعركة الزلاقة . وقد توفي الطرطوشي عام عشرين وخمسمائة بعد يوسف بعشرين سنة .

وبعد ما يستطرد المؤلف ، بأشياء لا نهما ، يقول :

ولما خفي على كثير علم من كان بحضرة مراكش ، من الصالحين ومن قدمها من اكابر الفضلاء ، رايت أن أفرغ لذلك وقتنا ، أجمع فيه طائفة ادون أخبارهم ، وأضيف الى ذلك من كان من أعمالها ، وما اتصل بها

من أهل هذه العدو الدنيا ، وربما ذكرت من قدم مراكش وما اتصل بها ،
وان كان من غيرها ، اذا كان مماته بها ، وذكرت من هو من أهل هذه
العدو ، وان كان مماته بغيرها .

فالكتاب ، اذن ، زيادة على كونه خاصا بالمتصوفة ، يركز على أهل
مراكش وأعمالها بالذات ، ويتناول غيرهم من الاندلسيين في غير ذلك ،
لكونهم توفوا بها وقد حلوا فيها (1) .

واسلوب المقدمة ، اسلوب مشرق ، يجنح الى الجاحظ ، في نحو قوله :
« وكيف يكون ذلك كذلك » وقوله « أهملت أخبارهم وجهلت آثارهم »
« وهيهات هيهات ، فاطلب تجد » .

وقبل أن يقف وقفة لغوية ، عند كلمة الصوفية ، افادنا بكون كتابه
« مشتملا على اضراب من افاضل العلماء والفتهاء والعباد والزهاد
والورعين ، وغير ذلك من ضروب أهل الفضل ، فان اسم الصوفى يصدق
على جميعهم » .

وهكذا نجده يعمم في اطلاق كلمة الصوفى ، ولكننا نستغرب منه
اهمال القاضي عياض في كتابه ، ومع ذلك فان الرواية عنه وردت بالكتاب ،
كما نجد في ترجمة عبد العزيز التونسي .

وكذلك نستغرب منه أنه لم يذكر فيه ، شيخ المتصوفة بالمغرب آنذاك ،
وشيخه بواسطة ، أبا العباس السبتي ، مع أنه قد أفرد بالتأليف الذى
سماه « مناقب الشيخ أسى العباس أحمد السبتي » وفيه يقول :
سمعنا من فقرائه وأصحابه الذين شاهدوا بركته ..

وبعد فقد قال المؤلف :

صدرت هذا المجموع بسبعة أبواب لازمة ، هى كالدخل اليه : الباب
الاول فى صفة الاولياء ، الباب الثانى فى حفظ قلوبهم وترك النكير عليهم ،
الباب الثالث فى محبتهم ، الباب الرابع فى زيارتهم ومجالستهم ، الباب
الخامس فى حسن الثناء ووضع القبول لهم فى الارض ، الباب السادس فى

(1) كما وجدنا فيها بعد يفعل مؤرخها وتاضيها العباس بن ابراهيم ، رحمه الله .

اثبات أحوالهم ، الباب السابع في اثبات كرامتهم ، ويشتمل على حملة فصول

هذا هو ترتيب الكتاب الذى قال فيه صاحبه :

قد شرعت في تصنيف هذا الكتاب شهر شعبان المبارك من سنة سبع عشرة وستمئة ، ولم أتعرض فيه لأحد من الأحياء . وأكبر من في وقتنا هذا ، ممن هو حي الشيخ الصالح الصوفى أبو محمد صالح بن ينصار بن غفيان الدكالى ثم المجارى نزيل رباط آسفى ، وهو الآن لا يفتقر عن الجهاد والمحافظة على المواصلات والأوراد ، ومن كلامه « الفقير ليس له نهاية إلا الموت » فهذا أحد المغاربة ، الذين ورد ذكره عرضا ، وخارج تلك الأبواب .

أما غيره من الذين ورد ذكرهم ضمن التراجم السبع والسبعين والمائتين ، فنذكر منهم بعض من اتسموا بالعلم خاصة ، مثل الشيخ أبى عمران الفاسى ، صاحب الشهرة العظيمة فى القيروان والأندلس ، بعد المغرب والذي يعود له الفضل فى تأسيس أعظم دولة مغربية ، فى القرن الخامس .

ومثل وجاج بن زلو اللمطى ، من أهل السوس الأقصى ، أخذ عن أبى عمران المذكور ، ثم عاد إلى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطيين ، لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه .

ووجاج هذا هو الذى كتب إليه شيخه أبو عمران ، ليختار من تلاميذه من يبعثه مع إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم الكدالى أمير صنهاجة إلى الصحراء بهذا الكتاب :

أما بعد إذا وملك حامل كتابى هذا ، وهو يحيى بن إبراهيم الكدالى ، فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم شرائع الإسلام ، ويفقههم فى دين الله ، ولك وله فى ذلك الثواب والأجر العظيم ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

فلما سلمه الأمير يحيى بن إبراهيم هذا الكتاب ، انتدب لذلك تلميذا له هو عبد الله بن ياسين الجزولى ، مؤسس الدولة المرابطية بعد .

ومثل أبى محمد صالح بن عبد الله ابن حرزهم الفاسى ، عم أبى الحسن علي المشهور ، كان أبو محمد قد رحل إلى الشرق ولقي أبا حامد

الغزالي ، فأخذ عنه ، ثم عاد الى فاس ..

ومثل أبى عثمان سعيد بن ميموناس الرجراجى ، جد أبى عبد الله محمد بن ياسين ، فقيه المصامدة لعهد المؤلف .

ومثل أبى الحسن على بن حرزهم ، السالف الذكر ، وهو ابن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن حرزهم الفاسى ، كان فقيها عالما حافظا ، قال : اعتكفت على قراءة احياء علوم الدين للغزالي ، فى بيت مدة من عام ، فجدت المسائل النى تنتقد عليه ، وعزمت على حرق الكتاب ثم بعد ذلك تأملت تلك المسائل ، فوجدتها موافقة للكتاب والسنة .

كان قدم مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة ، للقراءة عليه والاخذ عنه ، فدخل عليه أبو الحسن وهو على سريرته ، فجلس أبو الحسن تحته ، ثم قال للامير أهكذا كنت تفعل مع من كنت تتعلم منه ؟ قال : نعم ، فقال له أبو الحسن انزل الى مكانى وأكون أنا فى مكانك ، وهكذا ينبغي أن يكون المتعلم مع المعلم . فأجابه الامير الى ذلك ، فنزل عن سريرته وجلس عليه أبو الحسن ، فلأزمه وأخذ به سلوك طريق الآخرة .. وساق المؤلف اخبارا عنه فى العلم والزهد وغيرهما .

ومثل أبى شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى ، من أهل بلد أزمور ، ومن أشياخ أبى يعزى المشهور ، كان فى ابتداء أمره معلما للقرآن الكريم .

ومن أخباره التى رواها أبو موسى عيسى الجزولى النحوى ، أن والى أزمور أراد قتل جماعة من أهل بلده ، فجاءه أبو شعيب شفيعا فيهم ، وكان أسمر اللون ، فلما رآه الوالى انتهره ... وبعد محنة امتحن بها ، أمر أن يرد عليه ، فلما جاءه شفعه فى قومه .

وساق له أخبارا كثيرة ، وهو المعروف ضريحه بمدينة أزمور ، حتى عهدنا هذا ، بمولاي بوشعيب .

ومثل أبى يعزى يلنور بن مسمون ، كان قطب عصره وأعجوبة دهره والى الناس فى مناقبه ، روى عن أبى علي الصواف ، أنه قال : رأيت أخبار الصالحين ، من زمان أويس القرنى ، الى زمننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبى يعزى وشيوخه كسرون ، مذكور بعضهم فى هذا الكتاب .

ومن ولده أبو علي يعزى الذى يكنى به أبوه ، خلف أباه فى مكانه ، ولحق بالأولياء ، فكانت له شهرة تدانى شهرة أبيه ... ودون هؤلاء فى الشهرة كثيرون ، مثل أبى عبد الله مالك بن مروان اللجوسى الأيلانى ، وأبى محمد يرزجان الجزولى الفقيه المالكى أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن ياسين ، فقيه المصامدة لعهد ، وأبى عبد الله محمد بن اسماعيل الهوارى ، من أغمات وريكة ، كان على سنن أهل الفضل والدين ، نسخ كتب الأحياء ، فعمل به ، وأبى عبد الله البيهقى الكماد ، من سبته ؛ وأهل الفضل والدين ، وأبى عبد الله التاودى ، من أهل فاس ، كان معلما من أصحاب أبى يعزى ، وأبى الربيع سليمان الصنهاجى ، المعروف بالتلمسانى ، شيخ أبى بكر المعروف بالمواق وأبى العباس أحمد المعروف بالحصار ، وكان وثاقا بمدينة سلا ، وأبى علي سالم بن سلامة السوسى أصله من تارودنت ، درس الفقه بفاس وبأغمات ، واستقر بسجلماصة . وأبى علي يغمور بن خالد اليرصجى ، تلميذ أبى عبد الله محمد بن ياسين الفقيه ، وكان مدرسا للفقه ، ثم اعتزل الناس ، وأبى عبد الله محمد ابن الأمان الجزولى المعلم ، من مراکش ، وأبى محمد وين يوفن ، تلميذ الفقيه يغمور بن خالد ، وأبى بكر يحيى بن محمد بن وزرج ، أخذ عن أبى بكر بن العربى ، وهو شيخ أبى الحسين ، المعروف بابن الصائغ ، كان من أهل العلم والعمل ، وأبى عمران موسى بن اسحاق الوريكى المعلم ، من أهل مراکش ، صاحب أنا العباس بن الجباب وغيره ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله المعلم ، أصله من داي من بلاد تادلا ، وأبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن مومن المرادى ، من أهل أغمات وريكة ، امام الفريضة بجامعة ، وأبى العباس أحمد بن عبد السلام الدكالى ، من أهل العلم والعمل . وأبى العباس أحمد بن عبد الصمد الصنهاجى الجباب ، كان من أهل المعرفة بعلوم الاعتقادات ، وأبى محمد عبد الرزاق الجزولى ، كان من كبار المشايخ ، وأبى عبد الله محمد بن علي الفندلاوى ، المعروف بابن الكتانى ، من أهل فاس ، وكان آخر أئمة المغرب ، كما يقول المؤلف ، فيما أخذه من علوم الاعتقاد ، عن أبى عمرو الاصولى ، وأبى محمد يسكر بن موسى الجراوى الغفجومى ، من تادلا ، ثم نزل فاس ، تفقه على أبى خزر ، ومثل أبى ابراهيم اسماعيل ابن وجمانن الرجراجى ، كان من أكابر العلماء ، وأبى علي عمر بن عمران السماطلى ، كان فقيها ، وأبى الحسين يحيى بن محمد الانصارى ،

عرف بابن الصائغ ، من اهل سبتة ، وابى تونارت ولجوط الهنتيفى ، كان فقيها فاضلا ، وابى وجاج عفان بن اسماعيل المطماطى ، كان من ائمة العلم بالقرآن ، وابى الصبر أيوب السبتى ، وابى علي وتبير بن يرزيجن الرجراجي ، تلميذ أبى عبد الله محمد بن ياسين الفقيه ، وابى محمد عبد الله بن عثمان الزرهونى ، كان من العلماء بطريق التصوف ، حافظا لآخبار الصالحين ، وابى الحسن على بن محمد المعروف بابن العطار ، من اهل فاس ، كان عارفا بعلوم الاعتقاد ، وابى عبد الله اللخمي المعروف بابن الحجام ، الواعظ ..

سوى هذه النراجم ، له سماعات من المغاربة ، مثل أبى موسى عيسى الجزولى النحوى ، وابى العباس أحمد بن ابراهيم بن محمد الازدى البسطي ، وعن هذا تلقى كثيرا من الآخبار .

ومما يسرعي النظر في هذا الكتاب انه لم تخل فيه مدينة من مدن المغرب وقراه الا ذكر منها رجال ، احتفظوا بمكانتهم العلمية وغيرها فمن سبتة الى طنجة الى القصر الكبير الى مكناس ، الى سلا وفضالة الى أزموور وتادلا وبها « داي » الى أغمات ايلان ووريكة ، الى تارودنت وأدوز بالسوس ... وغير هذه من المدن والقرى ، بله العاصمتين فاس ومراكش ، اللتين تردد ذكرهما في كثير من رجالهما ، مما يطول ذكره لو تتبعناه .

ويلاحظ على المؤلف ، انه كان على حصيلة عظيمة من حفظ الشعر ، فقلما يأتى بترجمة ، لم يتمثل فيها بأبيات ، ومقطوعات وقصائد ، جلها ما كان لشعراء اسلاميين غالبا . ولا غرو في هذا الاطلاع ، فقد كان الرجل على ضلع وافرة في اللغة وآدابها ، أهله ، لأن يشرح مقامات الحريري ، قبل ان يشرحها ، الشريئى الاندلسى . فمثل هذا العمل العظيم لا يتأتى الا للفظاحل من الأدباء وكار اللغويين بصفة خاصة .

ولعل السبب في كون ابن الزيات التادلاوى لم يذكر ضمن الرجال الذين ترجمهم القاضى عياضا ، مع انه اقام بتادلا قاضيا عليها وكان من رجال التصوف لا محالة أن القاضى عياضا لم يكن من أولئك الزهاد الذين اهتم بزهدهم ابن الزيات ، أكثر من اهتمامه بالتصوف الذى كانوا

عليه ، فالزهد هو السلوك الذى يكون عليه المتصوف ، وهو الذى رعاه ابن الزيات ، لم يراع التصوف كطريقة لها معالمها العلمية والأدبية ، وهذا ما كان عليه عياض ، ولم يكن يلبس مرقعة المتصوفة ويزهد فى الحياة (1) .

ومهما يكن فقد شاهد العهد الموحدى ، بشدة ادب الزهاد والمتصوفة ، حتى فى أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، فجنحوا اليه بل مارسوا التصوف أدبا وسلوكا عرفه الاندلس من أمد بعيد ، فالزهديات قد عرفت فى تلك القصائد التى نظمها ابن عبد ربه وسماها المحصات لما سبق منه من غيرها كما عرف التصوف عند ابن مسرة ، وكلا الرجلين عاشا فى القرن الثالث وأوائل الرابع ، وكلاهما أيضا كانت له صلة بالشرق . وغالبا ما كانت تلك الصلة عن طريق القيروان ، ويعتقد بعض الباحث ان التصوف فى الاندلس كان يتستر فى جلبابه كثير من المبادئ المستهجنة والمذاهب المتطرفة ، التى كانت لا تروق الدولة ، ولا الراى العام ، وذلك مثل الخارجية والتشيع والاعتزال ، وقد ظهر بهذا كله وبقوة ابن مسرة كما قلنا فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، وكون له مدرسة ظل اتباعه حافظين على مبادئها وعرفوا بالانتساب اليها (2) وكان كأبيه معتزلى المذهب ، ومعلوم ان الاعتزال كان مضطهدا فى الاندلس ، اما المغرب فقد عرف الاعتزال فى فجر تاريخه الاسلامى وفى القرن الثانى ، بل عرف دولا اعتزالية فى هذا القرن ، ثم اختفى هذا المذهب فيما بعد (ولا ننسى ان تاريخنا يسجل ان الذى تنازل للمولى ادريس عن مملكته كان معتزليا) وعلى كل فان المغرب لم يعرف التصوف على ذلك العهد المتقدم الذكر الذى عرف به فى الاندلس ، حتى اتصل المغرب به اتصالا وثيقا وقد رسبت به راوسب التصوف والزهد ، ومن بين الاندلسيين اللاحقين لأولئك الذين ظهرت الزهديات فى شعرهم

(1) وفى ترجمة عياض بفهرس الفهارس نجد تنبيها نقل فيه عن « كتاب المجد الطارف والتالد » لمحمد الامين الصحراوى ورد فيه قوله : « ولا يضر منصبه كون صاحب الشوف لم يذكره من رجال التصوف ، مع أنه أقدم وفاة من جميع من ذكر فيه ووجه العذر أنه التزم فيه ذكر الزهاد العباد أى الذين اعظموا لذلك »

وكذلك نستغرب منه عدم ذكره فى الكتاب لأبى العباس السبتي شيخه ، ولكنه وان لم يذكره فيه فقد أفردته بالتأليف الذى سماه « مناقب الشيخ أبى العباس احمد السبتي » ومبه يقول : « سمعنا من فقرائه واصحابه الذين شاهدوا بركه (سخطه بالخراة الرباط رقم 396 وبخراة القرويين رقم 313 ، وقد ذكره صاحب الاعلام فى الجزء الاول ، كما نص عليه ابن سودة فى دليله) كذا وكذا ... »

(2) سبق من رجال المغرب فى الفصل الاول من كانوا من تلاميذ ابن مسرة .

على هذا العهد عبد الله بن السيد البطليوسي ، شيخ القاضي ابي الفضل عياض وقد تأثر به القاضي به بل انه انتحى في كتابه بعض المناحي الصوفية ، كما نجد ذلك في رسالته التي كتبها وبعث الحاج القاصدين بها الى المقام النبوي ، فهي من تقاليد المتصوفة .

وعموما ظهر أثر الزهديات والتصوف في المغرب فيما خلفه ادباؤنا لهذا العصر من شعر ونثر ، وسنرى ضمن من سنذكرهم بعد أن ابا حفص عمر السلمي كان بين هؤلاء المتصوفة ، ويتحدث تلميذه التجيبي عنه بانه طلب منه ان يجمع في كتاب يؤلفه له أخبار العباد والزهاد أما الزهاد من رجال الاندلس ومن المتصوفة الذين وفدوا على المغرب فكان منهم غير من شهروا بالاندلس عبد القادر التبي والاستاذ المتصوف على بن محمد بن خليل ، الذي كان يدرس التصوف في مدارس المغرب لذلك العهد الموحدى بالذات . وهذه نقطة مهمة ، لان المتزهد أو المتصوف قد يكون سلوكه كذلك من غير ان تكون له فكرة التصريف الذي كما نعلم في مدروسنا انه يقوم على مبادئ معروفة وقواعد معينة ، وهو ما يهمنا هنا في الأدب حينما نجد له اثرافيه ، وعلى ذلك فكون هذا العالم الاندلسي على بن محمد بن خليل كان يدرس بمدارس المغرب الصوف ، مما يعد شيئا له أهميته في هذا العصر .

ولا شك أنه كون أتباعا فكان من تلاميذ هذا الاستاذ الادباء المغاربة مثل ابن الملجوم والسلاجي ثم الخطابي على حين كان هناك أساتيد غيرهم يلقبون مبادئ النصوف ورجال آخرون من المغاربة انفسهم مثل عبد الله الفخار السبتي وتلميذه ابي العباس السبتي وكان هذا الاخير يعيش بالمغرب في اواخر هذا القرن واوائل السابع) ويكنى لنبرهن على شيوع الزهد والتصوف في الاوساط المغربية بين الخاصة والعامة في ذلك الحين ان الناس صاروا يعتقدون في يعقوب المنصور انه تصوف وزهد في الملك وانقطع

كان ابن الزييات من رجال القرن السادس واوائل السابع ، اذ توفي عام 627 أو 628 ، وهو من رجال الفقه والقضاء والتصوف والأدب وكتابه المذكور يضم رجالا من المغرب عموما والاندلس ، ويهمننا منهم الاول الذين نجد من بينهم من عاصروا العهد المرابطي بل حتى من تقدم هذا العهد ، كأبي عمران الفاسي ، وآخرين كانوا من العهد الموحدى ، عايش بعضهم

المؤلف ونقل عنهم روايات وحكايات . والكتاب يضم كثيرا من الاشعار ، الا انها ليست كلها مغربية ، كثير منها شرقى من الجاهلية والاسلام ، من السموال الى المتنبي مثلا وقليل منها للأندلسيين أو المغاربة الناشئين بالاندلس وغيرهم ، وأقل هذه جميعا أبيات للأفريقيين التونسيين ، وقد نسب كثيرا من الاشعار غير المشرقية لأصحابها ، أما غيرها فاكتمى بذكرها ، على سبيل الاستشهاد الصوفى الذى يحول الكلام الى مقاصده .

وبالرغم من أن الكتاب ، لقاض من قضاة الموحدين ، فهو لا يذكر منهم احدا ، على حين يذكر من المرابطين مثل على بن يوسف ، وابنه تاشفين ، يقول فى حكاية ينقلها ، تتصل بهذا الملك « لما خرج تاشفين بن على من مراكش الى وهران كان يمشى بجيوشه فى سند الجبل ، فلما قرب من بلاد تادلا قال لخاصته : لأرينكم رجلا صالحا ، فتقدم بهم الى مكان أبى زكرياء (الجراوى) فدخلوا عليه متلثمين ، لا يعرف من هو السلطان ، فرفع بصره بديهة الى تاشفين ، وقال له : أنت هو ؟ فالى أين تذهب بهذا الخلق ؟ تهلك عباد الله ؟ فقال له : لم يدعنا هؤلاء القوم ، تم سلم عليه وخرج عنه ، فقال أبو زكرياء : سبحان الله ، هذا الرجل لا يرجع الى هذه البلاد ، قد انقرضت دولته .

ولا يهمل حتى بعض العوام الذين شهروا بالتصوف مثل عبد السلام العزفى المراكشى .

وعلى كل حال ، فهذه الاقليمية فى تراجم رجالنا ، تعد من أقدم ما عثرنا عليه بكتابنا هذا ، الذى لم يكن وحده لاسن الزيات ، بل الف غيره ، مثل شرح مقامات الحريري الذى وصف بأنه « نبيل جدا » ، كما أن « له تأليف فى صلحاء المغرب » .

والمؤلف ، تثقف فى بلاده فهو « لم يدخل الاندلس وقد صحب أبا العباس السبتي ولقى ابن حوط الله السلاجى .

وقبل أن نودع كتاب التشوف ، نريد أن ننعطف بنظرنا الى رجال ، كانوا من متصوفة القرن السادس وأوائل السابع ، ذكرت أشعار فى نراجمهم ، غير منسوبة ولكنها فى مصادر أخرى نسبت اليهم ، وهؤلاء هم ، أبو جبل يعلى الفاسى ، وعثمان السلاجى الفاسى ، ثم عثمان بن منغفاد السجلماسى .

والحق أن أبا جبل يعد من رجال القرن الخامس ، فانه كما في روض
القرطاس ، توفى سنة ثلاث وخمس مائة وهو ما في الكتاب السالف الذكر
وما في جذوة الاقتباس لابن القاضي ..

أما الشعر الذى عشنا فهو هذه الابيات :

سافر لتكسب فى الأسفار فائدة فرب فائدة تلفى مع السفر
ولا تقم بمكان لا تصيب به دينا وان كنت بين الظل والزهر
فان موسى كليم الله أعوزه علم تكسبه فى لقيه الخضر

فهذا شعر — ان صح له — لا يقل فى مستواه ، عما حفظ للقاضى
عياض فى نفس المعنى ، ان لم يفقه فى صياغته ، ويمكن أن يعد ضمن
النماذج الجيدة ، التى تمثل الشعر فى القرن الخامس ، الذى اشتدت فيه
الرحلة الى الشرق ، ونال منها هذا المتصوف الذى لقي بمصر ، ابا الفضل
عبد الله بن حسن الجوهري الواعظ ، كما بالجذوة ، فحضر فى حلقة درسه
بجامع مصر ، وهو على منبره .

والشعر الذى ذكر للسلاجى ، هو هذه القصيدة :

اذا العلم لا تفشى غرائسه قلبى
ولا شاقنى منه الى المنهل العذب
ولا انا ممن جاوز الدرب ناهضا
اليه ولا أرضى مقامى من رب
ولا كان حظى منه الا حكاية
على الناس أتلوها فحسبى اذن حسبى
اليس عجبيا أن نفسى حقيقتى
وما سلمها سلمى ولا حربها حربى
تمر بنا الأيام تحست لجاجة
وما ينقضى يومى عليها ولا عتبى
ايا ذات نفسى فارقتى بي فانها
لطائف تستولى فتنبى بما تنبى
هى العروة الوثقى هى السنة النسي
يمر عليها مقتضى اثر الركب

ولا ترض بالحظ الخسيس سفاهة
فمثلك من قد حل في المنزل الرحب
تجافوا عن الدار التي أصبحوا بها
على غربة واستوطنوا حضرة القرب
وان كان لا ينجيك الا ركوبها
فماذا التجافي عن مجاورة الرب

أشار الى مضمونها ابن حبوس في داليته ، وبعدهما نجد منها نفحة
في قول الفخر :

وأكثر سعي العالمين ضلال	نهاية اقدام العقول عقل
وحاصل دنيانا أذى ووبال	وأرواحنا في وحشة من جسمنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا	ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
فبادوا جميعا مسرعين وزالوا	وكم من رجال قد رأينا ودولة
رجال نمناوا والجبال جبال	وكم من رجال قد علت شرفاتها

وكان السلالجي له مكانة تقربه من مثل هذا العالم المعقولي ، اذ كان
منكبا على كتاب الارشاد في علم الاعتقاد لامام الحرمين الجويني ثم لما
اتقنه لخصه في كتابه « المقدمة البرهانية » وكان لامام الحرمين في عهده شأن
عظيم ، يشير اليه ابن حبوس في قوله :

وبصرت بالطوسي يفهق حوضه وأبى المعالى مجلا ومفصلا
يريد بالطوسي الغزالي ، وبأبى المعالى الجويني النيسابوري المعروف
بامام الحرمين ، والبيت من قصيدة في مدح عبد المومن الموحدي وهي بكتاب
نظم الجمان ، لابن القطان ، يقول في مطلعها :

بخليفة المهدي سيدنا اغتدى نهج العلوم معبدا ومذلا
ومن شعر السلالجي قوله مخاطبا قومه من فاس :

خذوا ضمانني ان لا يفلحوا أبدا ولو شربتم مداد الكتب بالصحف
انتم صفار كبار عند انفسكم هل يستوى من يقيس الدر بالصدف
فالبينان ينبئان عن شاعرية في صاحبهما ، ولذلك لا يستبعد ان تصدر

عنه تلك القصيدة السالفة توفى السلاجى عام اربعة وسبعين وخمسمائة .
ومن تلاميذه كثيرون عرفوا بفاس وغيرها ، بل كان منهم رجال الاندلس

واخبرا نجد قصيدة عثمان بن منغداد السجلمايى هكذا :

طبيب بذكر الله فاك فاته	لاجل ما فاهت به الافواه
طفئت مصابيح العقول فكلنا	يمسي ويصبح في ظلام هواه
كم مدع علما لو استخبرته	لو جددت اكثر علمه دعواه
ما للفتى لا يرعوى وصباحه	ومساؤه يعظاته بسواه
تلقاه نياها على من دونه	ولسوف يعطشه الذى ارواه
سبحان من لم يعتصم من امره	من عاقل مستعذب بلواه
والعيش بلوى عاقل فتعجبوا	من عاقل مستعذب بلواه
ان زيد يوم واحد في عمره	نقضت على مقدار ذاك قواه
وكأنه والموت سدد سهمه	فأصاب مقتله وما اخطاه
والمرء ينثر كالرداء الى مدى	فاذا انقضى جاء الردى فطواه

وهذا البيت الاخير منبثق من قول الشاعر :

والمرء يبلية بلاء السريال تعاقب الاهلال بعد الاهلال

فالآبيات الأولى نسبها اليه ، ابن ابي زرع في كتابه « روض القرطاس »
والآبيات الثانية ، نسبها اليه المديونى في شرحه للمقدمة البرهانية ،
والآبيات الاخيرة نسبت اليه ، في كتاب الذخيرة السنية .

وجميعها لم ترد في التشوف منسوبة الى قائلها ، وقد اعتمد صاحب
روض القرطاس ، والذخيرة السنية ، على كتاب التشوف ، وهو لا يأتى
بترجمة الا شفيعها بأبيات ، لا يذكر قائلها ، فلو كانت لأولئك المترجمين ،
لكانوا كلهم شعراء ، ولوضعنا يدنا على ذخيرة غنية من شعر المتصوفة ،
في القرنين الخامس والسادس ، وهذا — كما نرى — بعيد كل البعد ،
فان من هؤلاء كثيرين لم يعرف عنهم نظم البتة ، وفيهم من كان اميا لا صلة
له بالتعلم ، فبالاخرى ان ينظم الشعر الرائق .

على ان غيرهم عرفوا ببعض النظم ، وذكر في ترجمتهم ، شعرا ، لم
ينسبه كذلك ، مثل عبد الله بن حريز ، المعروف بابن تخميس ، والشعر

الذى ذكره هو :

ولما ركبت البحر نحوك قاصدا ولم أر غير الله مالا ولا أهلا
دعوتك بالاخلاص والموج طامح بصدق وداد لم يكن قبل معتلا
ايا منقذ الفرقتى ويا ملهم التقى وياصمدا يبتقى اذا اذهب الكلا
لوجهك ذل البر والبحر خاضع وحق لهذا الخلق ان يالف الذلا

فقد عرف لابن تاخميست نظم مثل قوله :

اخو العلم حي خالد بعد موته واوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماث على الثرى يظن من الاحياء وهو عديم

توفى ابن تاخميست بمدينة فاس عام ثمان وست مائة .

اما أبو جبل يعلى الفاسى، فقد ذكر أنه كان جزارا، فيستبعد — عادة — أن تصدر عنه تلك الابيات ، وقتلنا « عادة » لأنه لا مانع في واقع الامر ، أن يكون مثله شاعرا ، خصوصا ان كان من رجال التصوف ، الذين لا يتورعون عن مثل هذه الحرف ، بل كان من غيرهم في مصر الشعراء — الجزار ، كما كان بالاندلس كذلك ، واعرف بالمغرب من كان له ضلع في الادب ، من الدباغين ، وما زال في عصرنا هذا من المثقفين البارزين ، من يتولى حرفة الخياطة للبذل .

فالمغرب كالاندلس ومصر فيما مضى ، لم يكن يضيق عطنه بالادباء والعلماء يزاولون حرفا مختلفة ، وان كانت لا تتناسب مع منصبهم ، كالدباغة والخرازة مثلا ، وهنا تذكرت بعض الادباء المعاصرين والعلماء ، كانوا يحترفون الخرازة ، منهم من قضى نحبه ، رحمه الله ، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة ، حفظه الله ، وجميع هؤلاء ليسوا من المتصوفة ، الذين لا تعنيهم الدنيا بقدر ما تعنيهم الآخرة ، والكسب الحلال الذى كانوا يتحرونه ، ومنهم أبو جبل المذكور

فتصوفهم هذا كان مدعاة لأن يزاولوا هذه المهن ، النى تعد عند المجتمع الارستقراطى ، مهنا متواضعة ان لم تكن وضيعة في نظر أولئك المشمخرين المتكبرين ، وخصوصا في المدن التى كانت مساجدها وجوامعها تقوم بمهمة التعليم للجميع ، فلا تفصل الناس بعضهم عن بعض ، ولا تحول مجالسها

بينها وبين أى انسان يحضرها أو يستمع اليها ، وبقدر ما كانت تلك الجوامع على رتبة عالية فى تعليمها ، بقدر ما كان الذين يحضرونها أو يستمعون اليها ، من مطلق الناس ، على رتب عالية متفاوتة فى ثقافتهم (1) .

ومهما يكن فان العصر الموحدى الذى استبحر فيه الادب بشتى الوانه واغراضه لابد من ان نلاحظ ملاحظات عامة على هذا العصر فنرى ان الادب فيه قد تعرض الى انقلاب عظيم واحداث خطيرة تناولت المجتمع فى كيانه ونظمه وعقليته وفى وجدانه ايضا ، تناولت كل ذلك تناولاً قويا وهزته هزة عنيفة فوجدنا له اثرا فى الادب نظمته ونثره ، فى رسائله وفى تأليفه ، فلقد طرات على المجتمع المغربى مرحلة سياسية شاهد فيها مصرع دولة فتية قوية كانت تتصف بالبساطة فى كل شىء ، وكانت تتعلق بالشرق تعلقا رمزيا ، فتخطب لخليفة بغداد وتثبت اسمه على سكتها وتلتزم السواد فى الويتها ، ويرتدى ملوكها الاردية التى يبعث بها ملوك العباسيين ، ثم لا تفتنا ان تنطوى صفحاتها من الوجود وان تحل محلها دولة اخرى على العكس منها تماما ، معتدة فى كل شىء ومختلفة عنها فى كل شىء ، فهى معتدة فى تفكيرها وفى عقيدتها الاشعرية التى تواجه التوحيد ، وتعالج مسائله بفلسفة افلوطينية وترمى المرابطين الذين كانوا سلفيين بالتجسيد ، وتسمهم فى رسائلها بالمجوسية وتخص نفسها بالتوحيد ، فهى الفئة الموحدة ، ودولتها هى دولة الموحدين ، وتعمل جاهدة على تعميم التوحيد بتلك الطريقة وكما تعتقده بكل الوسائل وتسطر فيه صفحات بالعربية حيناً وبالبربرية حيناً آخر ، كما تتناول مسألة الخلافة والامامة بعقلية ما كانت تعرفها سالفاتها ولا سولت لها نفسها ان تخوض فيها ، ولكن هذه

(1) وأبرز مثال لذلك مدينة فاس ، وجامع القرويين منها ، فقد كان هذا الجامع ، حينما كان التعليم به ، يقوم بدور معال فى تثقيف الشعب ، فكان من الدباغين ، مثلا ، العلامة محمد ابن ركرى العاسى ، الذى كان يتردد على مجالس العلم بالقرويين (كما هو مذكور فى محاضراتنا فى تاريخ التشريع الاسلامى ص 110) .
وبهذا كان جامع القرويين ، لا يقوم بمهمة تثقيف الشعب ، ويقرب الشقة بينه وبين العلماء محاسب ، بل قد يرتفع بعضهم الى مستوى العلماء ، الذين قال لى أحدهم - رحمه الله - انه كان يبيع السناع « الايقاما » وكان يعد من العلماء الكبار والادباء الشعراء ، درست عليه ، وشاهدته يكتب الشعر ارتجالا على بلاط الزليج .
اما فى غيرها ، فقد كان يقال ، بنطوان يقفل دكانه ، حينما يحضر طلبته الكبار ، فيلقى عليهم دروسه ، بالمسجد الذى كان يؤذن به رحمه الله ؛ لا يريد من ذلك جزاء ولا شكورا ، كما كان بها معلم « قران » يدرس للطلبة المرشد المعين ، وحدادان أصبحا من العلماء الاسلام .

تتناول هذه المسألة بشيء من تفكير الاعتزال وكثير من تفكير التشيع ، ذلك المذهب الذى كان يلفظ نفسه بالمشرق على ان يبعث في المغرب ، لكن بعثه هذا كان منقطع النظير ، فهو لم يبعث كما كان حيا ، وانما بعث على صفة أخرى تمايزه في كثير من الملامح ، بعث حيا قويا متطرفا لا يقول بها الشيعة ، ولكنه يقول بالجهر بالفكرة والمخاطرة بالعمل لدرجة ان اضيف اليه مذهب الخارجية ، كما ذكر ذلك المؤرخون .

نظر الموحدون الى المشرق فوجدوا الفاطميين يلفظون أنفسهم الاخير ، كما وجدوا الدولة العباسية العوية تتارجح في بغداد ، وهى في الواقع لا تختلف في مصيرها عن ذلك المصير الذى كان الفاطميون يواجهونه لهذا قطع الموحدون صلتهم سياسيا بالمشرق فلم يعترفوا بالخلافة فيه كما كان يفعل المرابطون ، وانما قالوا نحن خلفاء للمؤمنين ونحن وجدنا الموصوفون بصفة الائمة المعصومين ، كما نظروا الى تلك البساطة التى كان يخلد اليها المرابطون في شخصية فقهاءهم الخامة ، فراوا ان لابد من القضاء عليها ، وان يعملوا فكرهم في اصول الدين مباشرة ، فامروا باحراق كتب الفروع ولجأوا الى الاصول او بالاحرى لجأوا الى الكتاب والسنة ، مباشرة وتركوا ما عداها ، وبذلك رفعوا تلك الفكرة التى كان ينادى بها الامام ابن حزم الاندلسي ، لان الظاهرية في الحقيقة كان معناها عنده هو الاجتهاد ، فلم يكن ابن حزم مقلدا في الحقيقة لداود الظاهري وانما كان مجتهدا يدعو غيره الى هذا الاجتهاد ، ولا يريد ان يتقيد فيه ، وعلى هذا سواء اقلنا ان الموحيدين دعوا الى الاجتهاد ام انهم قالوا بالظاهرية ، فهم على كل حال قد نبذوا كتب الفروع ونشروا في المغرب راية الاجتهاد التى كانت قد انتكست على عهدهم بالمشرق .

أما ما حدث للمجتمع المغربي في كيانه فقد وجدناه ينضاف اليه بعد الاندلسيين هؤلاء العرب الذين كانوا قد اتجهوا الى المغرب أواخر القرن الخامس ، الا انهم لم يصلوا اليه ولم بنحشروا فيه الا في هذا القرن ، وكانت الدولة نفسها تستملهم بشعرائها وكتابها وتسنعلمهم في جيشها ، وفي بعض الاحيان كانوا فرقا خاصة بهم ، بل انهم ظلوا عمدة الدولة ، وسنرى فيما بعد ان المامون سيأتى بهم من اشبيلية ، محاولا ان يقضى بهم القضاء المرم على اشياخ الموحيدين .

هؤلاء العرب بالرغم مما كانوا موصوفين به من بداءة وجفوة فانهم حملوا معهم الى المغرب ادبا شعبيا معظمه ، وكان هؤلاء لابد لهم ان يؤثروا في خيالات المغاربة ولابد ان يعملوا عملهم في تقويم اللهجات العامية بل كان منهم من هو على حظ من الفصحى خصوصا الرؤوس ، ومنهم الذين كانوا يخاطبون بتلك الرسائل ويستمالون بتلك القصائد التي كانت تفد عليهم من الموحدين ، فكان لا محالة ان يحسب هؤلاء حسابهم في المحيط الشعبي .

ومن مخاطباتهم بالفصحى ، قصيدة ليعقوب المنصور ، سجلها السرخسي في رحلته ، وساقها المثرى في نفح الطيب ، هكذا :

(يا ايها الراكب المزجي مطيته)	على عذافرة تشقى بها الاكم
بلغ سليمي على بعد الديار بها	بينى وبينكم الرحمن والرحم
يا قومنا لا تشبوا الحرب ان خمدت	واستمسكوا بعري الايمان واعتصموا
كم جرب الحرب من قد كان قبلكم	من القرون فبادت دونها الامم
حاشى الاعارب ان نرضى بمنقصة	يا ليت شعري هل تراهم علموا
يقودهم ارمنى لا خلاق له	كأنه بينهم من جهلهم علم (1)
الله يعلم اني ما دعوتكم	دعاء ذى قوة يوما فينتقم
ولا لجأت لامر يستعان به	من الأمور وهذا الخلق قد علموا
لكن لأجزي رسول الله عن نسب	ينمى اليه وترعى تلکم الذم
فان انينم فحبل الوصل متصل	وان ابیتم فعند السيف نحتکم

وقد راينا ما صدر عن الجراوى في استمالتهم وكذلك هناك قصائد اخرى نظمها ابن الطفيل على لسان ابي يعقوب في هذا الصدد .

وبعد فهذه حصيلة الدور الاول بشعرائها وكتابها ومؤلفيها وبعد ذلك يأتى الدور الثانى وهو الذى يمثل عهد الانحلال وضعف الدولة .

الفصل الثانى :

لقد حل القرن السابع فحمل الينا بوارد الانحلال الذى أصاب هذه الدولة . وكانت اول تلك البوارد ، ما منى به المغرب من كارثة ساحقة ، في

(1) يريد قراوش .

تلك الوقعة المشئومة ، وقعة العقاب — كما تقدم — ، ثم تلا ذلك استبداد الاشياخ بخلفاء الموحدين ، وضرب رؤس بعضهم ببعض ، وتحريض اولئك الامراء على الانتزاء بالاطراف ، ثم قيام الاندلسيين أنفسهم على الدولة والثورة على امرائها ، ثم ما انتهو اليه اخيرا من طرد الموحدين من بلادهم بالجملة ، واستنصار هؤلاء الامراء بملوك النصارى القشتاليين ، الذين استولوا على بعض المدن الهامة كقرطبة ، وما تلا هذا كله من حصولهم على امتيازات بداخل المغرب نفسه ، مقابل مساعدات قدموها للأمير فالخليفة المامون ، كل هذه العوامل ، عجلت بسقوط دولة الموحدين الذين لم يعرفوا الاطمئنان فيما بينهم منذ قيامهم .

وهكذا فقد بدا الانحلال داخل البيت الموحدى الذى وجدنا لاولئ هذا القرن خليفته المامون يعلن على الملأ لعن مهديهم محمد بن تومرت ، فيقول وهو يخطب على منابر مراكش :

« لا تدعوه بالمهدى المعصوم وادعوه بالغوى المذموم » الا لا مهدي الا عيسى وانا قد نبذنا امره النحس وتبع هذا احداث جسام ظهر خلالها اديب عمل فى ركاب الدولة ، وامتدت به الحياة ، الى اواسط القرن السابع وقد ظهر الزهد والتصوف فى ادبه ، ظهوروا بينا طافحا وهو ميمون الخطابى الفاسى ، الذى درس علم التصوف — فيما درس — واخذ من العلماء بطريق الآخرة ، كما يقول ، يعنى علماء الصوفية .

لقد شاهد هذا الاديب احداثا دامية مرت بالمغرب ، وكان مشاركا فى بعضها ، ولكنه تفهت الدنيا فى عينيه ، فتركها وانقطع الى الله الذى باعه نفسه وماله ، ولجأ الى الامداح النبوية ، بدل ان يتجه بها الى الامراء والملوك ، والوزراء والكبراء ، كما كان يفعل فيما قبل .

نعم ، شاهد موقعة العقاب ، التى منى بها المغرب ، فانهزم ماديا ومعنويا ، وشاهد الملوك بعدها العوبة فى ايدى الاشياخ من الموحدين وشاهد اقتطاع المغرب الشرقى ، من الدولة الكبيرة العظيمة ، وشاهد الاندلس تتحفز للانفصال عن هذه الدولة ، وتتدخل فى شؤونها الدولة النصرية ، فتضرب رؤوس امرائها بعضها ببعض ، بل تنقل جيوشها الجحافل الى المغرب ، وقد استنصر بها خليفة موحدى على

خصومه ، كما أن النصارى من غير الاندلس ، صاروا يمدون أعناقهم إلينا ،
وقد استضعفونا فهاجموا مدينة سبته ، وكادوا يحتلونها .

كان ذلك الخليفة ، هو ادريس الملقب بالمامون ، الذى كان منقطعا
إليه ، ميمون الخطابى ، وهو أمير باشبيلية ، ولازمه وهو خليفة بعد
فقال شعرا فى جانبه السياسى ، منافحا عنه مهاجما لغيره ، وكان المامون ،
وهو قاصد الى المغرب من الاندلس ، يتضرع قلبه حنقا على اشياع الموحدين ،
وعلى شيخهم الاكبر ، محمد بن تومرت ، فجاء الى العاصمة ، وفتك بهم
فتكته الكبرى ، وسفه احلامهم ولعن مهديهم على المنابر ، فقال ، انه
المهدى الزعوم ، لا المهدى المعصوم ، واوعز الى ميمون ، أن يناله بالقذف
والفكر ، فقال :

وجد النبوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالها
فأسر حسوا فى ارتفاء يبتغي بمحاله نسجا على منوالها

ثم اشتبك المامون مع ابن أخيه ، يحيى ابن الناصر ، الذى بويع فى نفس
السنة التى بويع فيها ، فجرت معارك كان فيها يحيى ، قد ضربت عليه
قبته الحمراء ، فسقطت تلك القبة ، وهرع اليها العرب الذين كانوا فى
صفوف المامون ، فقال ، ميمون فى الحادثة ، موجه الخطاب الى يحيى :

أنظر الى القبة الحمراء ساقطة لما رات مضر الحمراء عن كئيب
من كان أولى بها ان كنت ذا بصر العجم أو معدن العليا من العرب
وانما سجدت لما سهت وغدت فوق التراب فكانت أعجب العجب

هكذا كان الخطابى ، فى جانب المامون ، ولكن الاحداث ، كانت تنخر
فى كيانه ، وتجعل موقفه من سيده ينهار ، فى النهاية ، وبعد موته حسرة
وقبل أن نتصل بأدب الخطابى ، وهو متزهّد متصوف ، نلتفت الى قصيدة ،
كان قد رثى بها ابنا لوزير ، واستهلها بقوله :

أرجة الصعق يوم النفخ فى الصور	أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور
أم هذه الارض اظهرها لما زجرت	به الخليفة من ايقاع محذور
أم الكواكب فى آفاقها انتشرت	وباتت الشمس فى طي وتكوير
ما للنهار تعمى من ثياب سنا	وشابه الليل فى اثواب ديجور

قد كان للمصبح طرف زانه فلق مقسم الخلق بين الدجن والنور
فما الملم الذى غشى بدهمته اديمه عنبرا من بعد كافور
أصيح لتسمع من انبائها نبأ يطوى من الانس فيها كل منشور
وانظر فان بني عدنان ما حشروا الا لرزء عظيم القدر مشهور
وافى مع العيد لا عادت مضاضته فشاب سلساله الاصفى بتكدير

يلاحظ على هذا الاستهلال ، أن الابيات الثلاثة الاولى مستانقة بحذاء
القرآن ، فالاول منها ، فيه من قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من
في السماوات ومن في الارض » وقوله : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا
وخر موسى صعقا » والثانى من قوله « اذا رجت الارض رجا وبست الجبال
فكانت هباء منبثا » والثالث من قوله « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب
انتثرت » وقوله « اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدت » وبعد هذا
تأتى الابيات المتكلفة بتهويلاتها ، تكلف الشاعر في اظهار الفجيعة المفتعلة
منه ، ولا شئ فيها يسترعى النظر ، الا التصنع الذى يسود جميعها ، ومنه
البيت الرابع ، الذى تأنق فيه ، بعد ما استغل قول مهلهل :

وصار الليل مشتملا علينا كأن الليل ليس له نهار
فقال هو :

ما للنهار تعرى من ثياب سنا وشابه الليل فى اثواب ديجور
ثم استعان فى البيت الخامس ، بصنيع قول ابن عبد ربه :

غزال زانه حور

او قول غيره :

قمر قد زانه حور

فقال هو :

قد كان للمصبح طرف زانه فلق مقسم الخلق بين الدجن والنور
ولا ندرك قيمة لتقسيم خلقه بين الدجن والنور ، الا ان يكون الشاعر
أقحم فيه قول طرفة :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

فتحول التقصير الى التقسيم ، واوتى بالنور ليقابل الدجن ، من ناحية ، ولتعتمد عليه القافية من ناحية أخرى .

أما البيت السادس :

فما الملم الذى غشى بدهمته أديمه عنبرا من بعد كافور
فان صرخة المصيبة فى المصراع الاول ، تتحول الى قهقهة مرح ، فى المصراع الثانى ، الذى نجد فيه الظلام مشبها بالعنبر بعد ما كان الضوء مشبها بالكافور ، فهذا التشبيه لا مقام له هنا فى تصوير الفاجعة ، التى عم فيها الظلام واختفى النور من الوجود ثم بعد ذلك نجد الانس كان منشورا فطواه الحزن بأساه ، وان هذا النبا العظيم قد انحسر له عرب عدنان ، فانقلب العيد الى مأتم فظيع ، لا اعاده الله علينا بمضاضته ، التى كدرته ، فجعلت سلساله الاصفى عكرا آجنا .

ومن ناحية أخرى فان صياغة الالفاظ ، تحكم على الشاعر بأنه ما كان صناعا فيها ، فقد لاحظنا تكرار الصعق فى البيت الاول :

أرجة الصعق يوم النفخ فى الصور أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور
وسنرى نحو من هذا فى ديباجة وثيقته الثرية ، بعد ما نتعرض لشعره ، حينما تزهد ، وهو تلك القصيدة الطويلة التى تنيف على المائة بنيف وثلاثين ، يستهلها بقوله :

لنفنى فى مدح الحبيب المعانيما	حقيق علينا أن نجيب المعاليما
ونحشر فى ذات الاله القوافيما	ونجمع اشتات الأعاريض حسبما
لنصر الهدى والدين تردى الأعاديما	ونقتاد للأشعار كل كنيبما
مضاربها تنسى السيوف المواضيما	فألمن أرباب البيان صوارم
تلوح فتجلو من سنهات الدياجيما	لنطلع من أمداح أحمد أنجمما
بأنوارها من بات يدلج ساريما	كواكب إيمان تلوح فيهندي
سجود لجبرى كل ما كنت ساهيما	سهوت بمدح الخلق دهرا وهذه
تطيع اذا ما كنت بالمدح عاصيما	فلا مدح الا للذى بمديحه

ففى هذه الأبيات الثمانية ، وجدنا فعل « تلوح » يأتى فى المصراع الثانى بالبيت الخامس ، تم فى المصراع الاول بالبيت السادس وهذا من

قبيل الضعف الذى اوماننا اليه ، فى اول بيت من مرثيته ، فلا يشفع لهذا كون الاول فى « انجما تلوح » والثانى فى « كواكب تلوح » وتلك « تجلسو الدياجيا » وهذه « يهتدى بانوارها من بات يدلج ساريا » .

وعلى العموم ، فالابيات الاربعة الاولى يطبعها الطابع الحربى ، باجابة صريح المعالى ، وافناء جيش المعانى ، وجميع اشتات الاعاريض وحشر انفار القوافى ، وقود كتائب الاشعار ، لنصر الهدى وارداء العدى ، بالسن البيان التى هى سيوف صوارم ، دونها فى الفتك مواضى السيوف فى مضاربها ، وبعد البيتين اللذين وقع فيهما التكرار الذى اشرنا اليه ، يأتى البيت السابع ، الذى استغل فيه ما يعرف بسجود السهو فى الصلاة لجبرها ، حيث قال :

سهوت بمدح الخلق دهرا وهذه سجود لجبرى كل ما كنت ساهيا
وقد تقدم هذا الاستغلال فى قوله سلفا :

وانما سجدت لما سهت وغدت فوق التراب فكانت اعجب العجب
وهذا ان دل على شئ فانما يدل على فقر الخيال الذى كان عليه الشاعر ، وانه لا يتعدى معلومات اولية يعرفها المصلون ، وتعبيرات فى جلها قرآنية ، يستحضرها الحافظون ، وما كان اكثرهم لعهدده وعهدنا .

واخيرا نجد البيت الاخير دليلا على كونه ، اقلع عن مدح الملوك ، وانه كفر بمدح النبى عن ذلك الذى اعتبره معصية ، فاناب الى الله

وبقية الابيات فى القصيدة عبارة عن سرد شمائل النبى عليه الصلاة والسلام ، ما كان منها قبل النبوة وما كان بعدها ، وما عرفت له من معجزات ، بعضها قاطع بالكتاب والسنة ، وبعضها ليس كذلك ، وهو مذكور فى كتب القصاص والسيرة النبوية عندهم فيقول فى الاولى :

واعظمها الوحي الذى خصه به	فبلغ عنه آما فبه ناهيا
تحدى به اهل البيان بأسرهم	فكلهم الفاه بالعجز وانيا
وجاء به وحيا صريحا يزيده	مرور الليالى جدة وتعاليا
تضمن أحكام الوجود بأسرها	وحكم القضاء متبنا فيه نافيا
وأخبر عما كان أو هو كائن	يرى ماضيا أو ما يرى بعد آتيا

ووافق اخبار النبيين كلهم وتمم بالغايات منها المباديا
وما كتبت يمناه قط صحيفة ولا رى يوما للصحائف تاليا
عليه سلام الله لا زال رائحا عليه مدى الايام منا وغاديا

فهذه الاوصاف من القرآن الكريم بعضها ، وجلها مما ورد في الشفاء
للقاضى عياض ، وهى على كل حال مرصوفة ، لا يتخلله الا نحو تكرار
« باسرههم » فى البيت الثانى ، مع اسرها « فى البيت الرابع ، وبنفس
الموضع من البيتين ، ولا شك انه ينؤ به البيت الاخير ، فى قوله :

عليه سلام الله لا زال رائحا عليه مدى الايام منا وغاديا
فهذا الجار والمجرور ، المتكرر فى « عليه » نشعر جميعا بقلقه فى
الصياغة وان كان المعنى سليما حيث ان عليه الثانية متعلقة برائحا
والاولى بسلام .

اما الوثيقة التى اشرنا اليها ، فهى عبارة عن عقدة بيع ، باع
نفسه وجوارحه لله تعالى ، فقال فى مقدمتها (كما فى جذوة الاقتباس) :
يقول العبد الذى اعترف بما اقترف لمولاه ، واقر له بما اضاعه ،
لا بما اطاعه ، على ما منحه من النعم واولاه ، الميمون بن علي الخطابى :

جبر الله بالنقوى كسره ، وفك من حبال الدنيا أسره : لم ازل مدة
ايام ، بل عدة اعوام ، اخال كل مخل بدينى ، واستظل من اطالة البطالة بكل
مضل يردينى ، واخالف كل صالح ، واحالف كل طالح غير مفلح ، واجر اذيال المجون
على ارض الراحة ، واطلق عنان مهر الغفلة فى ميدان النسيان فيطيل جماعه
ومراحه ، راكبا مطايا التسوييف دون اهمال ، مستوطنا فرش الكسل
والانهماك فى الشهوات والانهمال ، مستوطنا ربع التصابى بثقل الاعمال ،
وكثرة الآمال ، سالكا سبيل الهزل وطريقته ، تاركا قبيل الجد وفريقه ،
لا اتنى عنانى الى ما يعنينى ، ولا ازال اعانى ما يعينى ، ولطائف الله عز
وجل النى يضيق عن حمل اصفرها الامكنة الفسيحة ، ولا يطيق بلوغ
شكرها الالسنه الفصيحة ، صافية الورود ، ضافية البرود ، وقد طنبت على
قباها وارواقها ، وخلعت بعنقى ثيابها واطواقها ، واطردت بماء النعمة
مذانبها وانهارها ، وتساوى فى القدوم بالكرم ليلها ونهارها ، وانا مع ذلك

لا أزيد الا غفلة عن القصد السوى وسهوا ، ولا استزيد الا اشتغالا عن المقصود السننى ولهوا ، الى أن أجرى الله عادة احسانه وجوده ، وأرادت مراداته السائقة السابقة اخراج العبد المذكور من عدم الغفلة ، الى ظهور الالهام ووجوده ، فسلط رعد الخوف على سحائب سمائى ، فكشفها وجلاها ، وحل بساحة أرضها سكر السلو ، فسكرها من سهوا وخلاها ، وسل من سويداء قلبه محبة غيره ، فنزهاها عنه وسلاها ، فلاح اصباح النجاح ، وأذن ليل الغفلة بالصباح ، ونادى منادى الوطة بمنار العزلة « حي على الفلاح » وصاح كالىء صبح النجح بالسفر المعرسين « شدوا المطى فقد سال نهر النهار » ومال جرف الليل وانهار ، وانفجر عمود الفجر بنوره الوضاح فلاح ، فأفاق العبد المذكور من نوم الركون الى السكون والكرى ، وشمر للسير ذبوله ، وضرر للسبق خيوله ، اذ سمع « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

هذا نموذج من نثره الفنى ، وهو كما نرى لا يعتمد أولا الا على التلاعب بالالفاظ والقراءة الصوتية فيما بينها كما فى : « اعترف بما اقتترف » « بما أضاعه لا بما أطاعه » و « كسره » مع « أسره » « أخال كل مخل » واستظل من اطالة البطالة بكل ظل مظل « واخالف كل صالح مصلح واحالف كل طالح غير مفلح » « لا أثنى عنانى الى ما يعينى » ولا ازال أعانى ما يعينى « صافية الورد ضافية البرود » وأوراقها « مع أطواقها » لا أزيد الا غفلة عن القصد السوى وسهوا ، ولا استزيد الا اشتغالا عن المقصود السننى ولهوا و « أرادت مراداته السائقة السابقة » و « سكر السلو فسكرها » بعد « جلالها مع خلاها » ثم « وسل من سويداء قلبه » « فلاح اصباح النجاح » و « سال نهر النهار » « وانفجر عمود الفجر بنوره الوضاح فلاح » « من نوم الركون الى السكون والكرى » وشمر للسير ذبوله وضرر للسبق خيوله .

هذا من ناحية الصياغة اللفظية أما من ناحية المعانى التى تضمنتها تلك الصور التى لا تخلو من جمال فقد وفق فيها الى حد بعيد ونسقتها أحسن تنسيق . وقد عملت فيها شاعريه وخياله فتشارك فيها نظمه ونثره ، كما اثرنا الى ذلك فيما سلف .

وكان يعاصره أديب عظيم كاتب شاعر هو محمد بن عبدون بن قاسم

المكناسي ، الذي كان ضمن الذين أدركوا أواخر الموحيدين وأوائل المرينيين الذين توفى بعد ولاية عاهلهم يعقوب المنصور ، بسنتين أو ثلاث أعشى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة أو تسع وخمسين على الخلاف في ذلك .

اذن فقد عاش هذا الأديب في العهد المضطرب ، بالنسبة لمكناس ، خاصة ، وكان اضطرابها هذا قد جنح بها الى مبايعة الحفصيين والاتسلاخ من الدولة الموحدية ، كما فعلت مثل هذا سبقة ، وطنجة والقصر الكبير وسجلماسة بالمغرب واشبيلية بالاندلس ففي هذا العصر كان قاضيها أبو المطرف أحمد بن عميرة ، يكتب بيعة أهلها لأبي زكريا الحفصي ، وقد تعرضت لهجمات بني مرين وعجز الموحدون عن الدفاع عنها ، وكان ذلك اثر وفاة الرشيد الموحدى ، حيث انه في عهد السعيد الموحدى قامت بعد ثلاث سنوات من تلك الوفاة ثورة عارمة بمكناس ، تزعمها أبو الحسن علي من بني العافية ، وهم من بيوتات مكناس القديمة ، ينتون الى موسى بن أبي العافية الشهير في عهد امتداد سلطان الفاطميين والامويين على ساحة المغرب ، فكان شأنهم عظيما بهذه المدينة ، وقال فيهم ابن عمير :

مكناس مكناسة بيض الظبا ظباؤه محمرة عادية
وساحة الانس بها أصبحت عافية لولا بنو العافية

ومهما يكن ففي خضم هذه الأحداث التي شهدتها مكناس ، وفي هذه الانقلابات السياسية التي جمعت بين مكناس واشبيلية كان أدينا ابن عبدون يصدح بشعره ، ويتألق بنثره ، ويجول ويحول بعلمه ، كما نجد له فيما وصفه به صاحب الذخيرة السنية ، اذ قال « تولى بمكناسة الفقيه الاستاذ المقرئ الكاتب البار ، محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي ، أديب وقته ، وشاعر عصره » .

وعلى هذا فقد تولى الأديب الكتابة السلطانية ، اخذا من الوصف بالكاتب البار ، وكذلك من وصف ابن غازي له ، بأنه « حائر قصب السبق في الشعر والكتابة » فالغالب أنه كان كاتباً لبعض أمراء الموحيدين ، وبعيد أن يتولى الكتابة لذلك الناصر الذي لم يطل عهده ، ولا لأولئك المرينيين ، الذين لم يعيش في ظلهم الممتد الى مدينته ، الا بضعة سنوات قلال ، وهو شيخ على شفا القدر .

كان ابن عبدون يتردد على فاس للأخذ عن شيوخها والارتواء من
معين العلم والأدب بها ، وقد جمعت بينه وبين علماء وأدباء جلة ، كان
منهم مالك بن المرحل الملقب بالملاد والسبتى الاستيطان ، ففى
« جنى زهر الآس فى بناء مدينة فاس » أن الأستاذ المزياتى كان جالسا تحت
الثريا الكبيرة بالقرويين ، ومعه ابن عبدون الأديب ومالك بن المرحل ،
ومحمد بن خلف ، فأنشد الأستاذ ارتجالا :

انظر الى ثرية نورها يصدع باللألاء سجب الفسق
فقال ابن عبدون :

كانها فى شكلها ربوة انتظم النور بها فاتسق
ثم قال ابن المرحل :

اعيدها من شر ما يتقى وفجأة العين برب الفلق
ثم قال ابن خلف :

باهى بها الاسلام ما اشرقت كاساتها عند مغيب الشفق
وبهذا ونحوه كان ابن عبدون قابضا على ناصية النظم ، أما النثر
الفنى الذى كان به كاتباً ، فسنرى بعض نماذجه بعد الفراغ من عرض
نماذج — وان كانت كذلك قليلة بيدنا — من شعره .
فمنها قوله فى مدينته مكناس :

ان تفتخر فاس بما فى طيها وبأنها فى زيهـا حسنـاء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والإطيان هواؤها والماء

فهذه مفاظرة بين مدينتين ، سنرى بعد من يوسع نطاقها ، كما فعل
ابن الخطيب الذى علق على البيتين ، بالتنويه بصاحبهما فقال ، لما ذكرهما
فى كتابه « نفاضة الجراب : « لله دره »

وكأنى بابن عبدون على قدرة فى الوصف ، الذى قلت فيه بضاعتنا ،
اذ نجده يبرع فيه بقطع عديدة ، كأن يقول فى مصباح :
تلألأ مصباحنا فاكسى بهيم الدجا من سناء نحول

كأن الذبالسة نسوارة ومن حولها الدهن ماء يجول
إذا رويت نعمت نضرة وان ظمئت اخذت في الذبول

ويقول في المشيب :

لما نراعت للمشيب بمفرقى شهب أغرن على شبابي الأدهم
أبدى التهجم من أحب أما درى أن الليالى حسنهما بالأنجم

ويقول في نهر قذفت فيه مصابيح :

انظر الى النهر يحكى الافق اذ قذفت فيه مصابيح ذاتت عنه أحلاكا
جالت به مرج شبهتها شهباً على قواعد قد حاكين أفلاكاً

ويقول، في نهر أيضا ، وردته عصابة طير :

أما ترى النهر في انصبابه كأنه الصل في انسيابه
قد انتحتبه ظمء طير مقتحات على جنبه
تنقع من مائه أواما وتلقط الحب من جنبه

وهو وصف قد استهوى بعضهم ، بتشبيه انصباب النهر بانسياب
الصل ، فقال فيه « انه غريب » ولكن لا بدع ولا غرابة فيه فقد تقدم ابن
زنباع شاعرنا بما يربو على قرنين من الزمان ، فشبه تشبيها أدق وأوفى ،
اذ قال :

وتصويت فيها فروع جداول تتصاعد الإبصار في تصويبها
تطفو وترسب في أصول ثمارها والحسن بين طفوها ورسوبها
فكأنها هى موجسات أساود تنساب من أنقابها للصوبها

فكان الإبداع هنا في المشبه الذى هو فروع جداول ، لا النهر في
انصبابه ، ثم ركب فيها بأن جعلها تطفو وترسب في أصول الثمار ، وكذلك
جعل المشبه به حيات موجسة خائفة ، فهى تنساب من أنقابها ، فتبدو ،
لتخفى في مضائق الجبال والوديان ، وهى اللصاب ، فكان هذا التشبيه
النمطيلى قد استنجم شرائطه من الجمال في صورته .

وبعد ذلك التشبيه ، نجد في المصراع الأخير ، استعارة لباس بها ،
ولكن لا بدع فيها ، بالتقاط الحب من حباب ماء النهر وقد تقدم له تشبيه

الثريا الكبرى في جامع القرويين ، بربوة انتظم فيها النور واتسق ، وهو جميل ، يوحى به عظم تلك الثريا وكثرة ما يوقد بها من مصابيح ، على اتساق نظيم .

ومن غزلياته هذه الأبيات :

يا جيرتى ومن استجرت بهم عوضتمونى بالوداد قللى وشغلتكم بالسي بهجركم ما هكذا فعل الكرام بمن علقت حبل محبتي بكم ما كان اندى ظل عيشتنا اذ نجتنى ثمر المنى ذللا نجلو الهموم بحث صافية وعرى العقول متى تحل بها عودوا الى عادات وملككم حاشاكم والفضل شيتمكم واذا ابيتم غير جوركم ان شئتم قللى فما انذا	من جور عزهم على ذلى وأبدلتهم الانصاف بالمطل ووباله عن كل ما شغل منهم تعود أجمل الفعل بحياتكم لا تقطعوا حبل اذ كان منتظما بكم شلي في روض انس وارف الظل مزجت بخمر الاعين النجل احداهما آلت الى الحل لا تحرمونى لذة الوصل ان تعقبوا الاخصاب بالمحل فالجور منكم غاية العدل لا تحذروا من طالبي ذلي
---	---

ففى هذه نجد الخمر تذكر بعد أبى الربيع ، كما نجد غزلا مذكرا ، وهو نادر شاذ جدا فى الشعر المغربى ، قبل العصر العلوى وقد استفل فى قوله « نجتنى ثمر المنى ذللا » قوله تعالى : « كل من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا » وهو تجاوز فذللا وصف للسبل لا الثمر ومن ناحية الصنعة ، لا شئ به ، الا هذه الاستجارة من جور العز على الذل ، والببيت الاخير نظر فيه الى قول صريع الفوانى :

أديرا على الراح لا تشربا تبلي ولا تطلبا من عند قائلتي ذلي

والى قول ابن عبد ربه فى معارضته :

أطلاب ذلى ليس بى غير شاذن بعينه سحر فاطلبوا عنده ذلي

ولا شك انه استفاد منهما معا ، وربط شراب الراح الوارد فى الاول ،

بسحر العيون الوارد في الثاني ، ولكنه جعله خمر الأعين بدل سحرها ،
وهو لا جديد فيه ، فمن قبل بستة قرون قال ذو الرمة البدوي :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ما تفعل الخمر
وقد لمحت « الباب » غيلان ، لشاعرنا فقال :

وعرى العقول متى تحل بها احداهما آلت الى الحل
ومن اخواني ابن عبدون ، قوله ، مجيبا صديقا له من اشبيلية
قال ابياتا ، جاء فيها :

يا سيدى قد سرت عن غريكم مشرقا ابكي على غربتي
فأجابه اديبنا :

مللت دنيأى لبين دنا	من صاحب ملتته ملتى
فرقت اذ جدت به فرقة	حلت عرى صبرى اذ حلت
وكنيت أنسيت بأنسى به	نوائب الدهر التى جلت
لا أحمد الحال اذا كنت يا	أحمد عنى نائى الحلة
وكيف يسلو عنه ذو روعة	عليه أسياف الهوى سلت
لا أهل بالبين ولا مرحبا	فأدمعني من أجله انهلت
كم شئت من شمل وكم ثل من	عرش وكم فرق من ثلة
ان غبت أو أغبيت زورا ففى	طيفك ما يطفىء من غلتى

ففى هذه الابيات نجده يركن الى التلاعب بالالفاظ ، وقلما يركن الى
المعانى فى استلالها ، بعد ما ورد في المصراع الاول من دنو البين ، وهو
لا جديد فيه ، فكثيرا ما نسمع ازف البين ، وازمع البين ، ونحو ذلك ، اما
التلاعب بالالفاظ ، ففى التفريق حين جدت الفرقة ، وحل العرى اذ حلت ،
و « أنسيت بأنسى » و « لا أحمد الحال يا أحمد » و « يسلو ذو روعة عليه
أسياف الهوى سلت » و « لا أهل بالبين » انهلت به الادمع و « شئت من
شمل وثل من ثلة » و « غبت أو أغبيت » و « طيفك يطفىء » .

فابن عبدون ، استنادا على هذه النماذج ، كان شاعرا متأنقا ،

أكثر منه شاعرا ، شاعرا بوجوده ، منطلقا على عواهنه ، وهى كلها بجذوة الاقتباس (1) .

هذا ما يصل بشعره ، أما نثره فلا نعرف منه الا ما يأتى .

كان ابن عبدون لسان بلديه ، ولهذا نجده يكتب الى المامون لما هاجم اهل زرهون مكناس ، رسالة يقول فيها :

فالعبيد ايدكم الله هالكون لا محالة ، وحياتهم فى حيز الاستحالة ، الا ان يتدارك الله تعالى بلطفه ، ويتلافى الجميع بجزيل عطفه ، ومعروف ان هذا القطر حماه الله قفل الغرب ، والبلاد معتمدة عليه اعتماد الحسام على الضرب ، فإغاثته واجبة ، فالعجل العجل ، قبل بلوغ الاجل ، والغياث الغياث ، قبل تمكن الفساد والاعبات ،،،

ثم وصل الرسالة بشعر فى المعنى طويل ، كما يقول ابن عذارى ، فمنه :

امام الهدى سمعا لدعوة شاك	ثوى بين هلاك رهين هلاك
واوشك ان يغتال مكناسة الردى	ونبكي على من نحتويه بواكي
احاطت بها الاعداء من كل جانب	فقد قعدت منها بكل شراك
وقد زارها من اهل زرهون هونها	وبثوا لها التطليق بعد ملاك
وابناء فازاز لها مستفزة	فها هى تشكو كل اروع شاك

كما نجده فيما بعد يجدد بيعة اهل مكناسة للسعيد ابي الحسن المعتضد بالله على بن ابي العلاء المامون الموحد ، وهى هكذا :

الحمد لله مقدر الأمور ، ومصرف المقدور ، ومخرج عباده من الظلمات الى النور ، عالم السرائر ، ومنور البصائر ، ورافع الدرجات ، وواضع الخطيئات ، « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » وسع كل عاص حلمه ، واحاط بكل شىء علمه ، ونفذ فى كل موجود حكمه ، لا راد لما به حكم وامر ، ولا ناقض لما احكم وامر ، قدر الاشياء واتقن الانشاء ، واتى ملكه من شاء ، واسس بالامامة مبانى الديانة ، واوصل بها للرعايا

(1) لابن القاضى

اسباب الرعاية ، وأمد من أهله لورثة مقامه الاسمى ، واختاره لامنته العظمى ، بالانجاد والاعانة .

ومنها بعد تمام الدعاء والصلاة والرضى ، كما بالبيان (1) .

اللهم ارض خليفتك فى عبادك ، المرتسم فى ديوان اوليائك وعبادك ، الامام المؤيد ، والحسام المهند ، الاتقى الاطهر الاعلى المعتضد بالله امير المومنين ابو الحسن ابن سيدنا الخليفة الامام المامون امير المومنين ابن الخلفاء الراشدين ، رضى بيلغه امله فى الدنيا والدين ، ويحكم لدولته السعيدة ، ومدته الحميدة ، بالتمهيد والتمكين ، ويجعل كلمته الباقية الى يوم الدين ، اللهم كما انتقيته من اكرم جرثومة ، وسددته لاقامة حدود الله الرسومة ، فضاعف اللهم فى قلوب رعاياه حبه ، وايد بالملائكة والروح عصابته وحزبه ،،،

ومنها ايضا :

ومن شكرت فى الخدمة آثاره ، فحقيق أن تغفر زلته وتمحى آثاره ، وإن العبيد من أهل مكناسة قد اجتمعوا ووقفوا موقف الاستكانة والمذلة ، وقرعوا سن الندم عما صدر عنهم من زلة ، واستشعروا لباس الانابة ، وبادروا لهذه الدولة المعتضدية بالاجابة ، واتفقوا جميعا على ان جددوا بيعتهم لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المعتضد بالله امير المومنين ، أبى الحسن ابن الائمة الراشدين ، اعلى الله يده ، ونصره وايده ، حسبما تقدم مستوعبه الشروط ، مستوفاة العقود والربوط ، لم يستثنوا فيها فصلا ، ولا أغفلوا من عقودها فرعا ولا أصلا ، بنفوس مغتبطة ، ونيات على الوفاء بما التزموه من عقودها مرتبطة ، واشهدوا الله وملائكته على انفسهم بذلك وهم به عالمون ، « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » وقيدوا عليه شهادتهم فى تاسع عشر شهر ذى الحجة من عام ثلاثة وأربعين وست مائة .

فهذه نماذج من أدب ابن عبدون شعرية ونثرية فائقة بليغة .

وقد انتهى فيها مضى من تصوير الادب العربى عندنا ، وما تسلط عليه

(1) لابس عذارى .

من تلك التيارات الاجتماعية والفكرية والسياسية (1) فجعله كل ذلك
يجنح الى نوع من الخواطر المستسلمة ، التي اتسمت بطابع الزهد ثم
التصوف ، وكان لهذا انعكاس تجلى في الامداح النبوية والتوسلات
بالمقام الشريف .

والحق أن هذا لم يكن وليدا لتلك الهزات العنيفة ، التي اضطرب لها
المغرب ، على أوائل القرن السابع بل اننا وجدنا في القرن السادس نفسه ،
علائم للتصوف ، كانت مستوردة من الاندلس ، التي كانت قد انتهت الى
ما انتهى اليه المغرب في القرن السابع ، مع اختلاف في طبيعة هذا الانتهاء ،
فالقاضي عياض ، يصح أن يعد من المتصوفة ، وقد كان شيخه في ذلك ابن

(1) وأهمها هذه الانقلابات المحزنة كانت أفك من تلك الانقلابات التي ثلت عرش المرابطين :
لان هؤلاء ما انهاروا حتى كانت دولة الموحدين تسيطر على الموقف وسرعان ما أقامت
دولة أخرى أقوى نفوذاً وأشمل عظمة. أما مصيرها فكان محزناً؛ الاندلس استنسر بعائنها ثم صار
ملوك الطوائف بها أضعف مما كانوا عليه أيام المرابطين الذين لموا شمل البلاد متحدّين .
ولم تستطع دولة المرينيين أن تضم إليها بتواطئها مع بنى الأحمر الا جبل طارق والرندة
والجزيرة الخضراء في بعض الأحيان ، هذا ما انتهى اليه الاندلس الذي كان أيام
الرشيدي وهو عاشرهم تتمزق أشلاؤه فكان الأسبان يحتلون مدنا عظيمة بشرق الاندلس ،
فهاجر منها مهاجرون كثيرون الى المغرب ، من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة
وغيرها ، وطلبوا من الرشيدي أن يمنحهم مكانا خاصا بهم ، على عادة الاندلسيين معين
لهم مدينة « الرباط » ليعمروها ، وكتب لهم بذلك ظهيرا ، من انشاء كاتبه أبي المطرف
ابن عميرة ، جاء فيه : هذا ظهير كريم للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ،
ومن حرى من سائر بلاد الشرق مجراهم ،،،، حين أنهى ذو الوزارتين ،،،، أبو على
ابن ،،، خلاص (كان آنذاك على سبته) ما أصابهم من الجلاء ،،،، ويلتمس لهم مكانا
للقرار ،،،، وعند ذلك أذن لهم ، أعلى الله تعالى أذنه ،،،، في النقلة الى رباط
الفتح ،،،، وان يتخذوا مساكنهم وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ،،،،، وان يتوسعوا
في الحرث ،،،، على عادتهم ببلادهم كتب في الحادى والعشرين لشعبان المكرم من سنة
سبع وثلاثين وستمائة .

وبهذا نرى أن هجرة أندلسية قوية ، كان لها خطرها في عمارة مدينة ، كما كان
لها لا محالة أثرها في الحركة الأدبية ، بعد ما كان من أبرز رجالها ، أبو على ابن خلاص
وابن عميرة ، وان كان هذا الحو المضطرب بالفتنة ، جعل هذين الرجلين يضطربسان
ولا يستقران على حال ، وسرعان ما نجدهما يميلان الى الحفصيين ، ويكسب أحدهما وثيقة
بيعة المكاسبين لهم ويبيع الآخر ببيعة السبتيين اليهم ثم توجه الأسبان الى الغرب
فاحتلوا اشبيلية التي هاجر منها الى سبته ابن أبي الربيع استاذ ابن رشيد الذي
تحدث عنه في رحلته (توفى عام 688) فقال وهو في حلقة ابن النحاس بمسجد مصر
الاعظم وقد سأله الشيخ . من أين قدومك ؟ قال ، قلت من المغرب ، قال من الاسكندرية
قلت من ابعد ، قال ، أمن تونس ؟ قلت من ابعد ، فقال ، اذن « حوى » المغرب ، قلت
نعم ، فقال ، من أى بلاده ؟ فقلت من سبته ، فكان أول ما ماتحنى به ان قال ، أيعيش
سيدنا أبو الحسين ابن أبي الربيع ؟ قلت نعم ، مقال ، ذاك شيخنا ، افادة بوصول
كتابه اليتيم ، يريد شرحه لكتاب ايفساح الفارسي ،، ثم قال لى ، اقراأت عليه ؟ قلت
نعم ،،، الجمل والايصاح والكتاب ، فلما ذكرت الكتاب ، قال : فاعبر الى آخر
القصة التي وقعت له يوم الاحد 7 رجب 684 .

السيد البطليوسى، كما سلف، كان يسترشد من الصوفى الالمرى ابن العريف ومع هذا فاننا ان قسناه بزهاد أوائل القرن السابع ومتصوفاتها ، كان هذا منا قياسا مع وجود الفارق ، فعياض لم يتخل عن الدنيا ، وهو القاضى الذى يمارس شئون الناس ، ويتزعمهم ويثور على الدولة بهم وان كانت له قصائد فى الامداح النبوية ، فانها كانت منبثقة عن كتابه الشفا ، مستأقمة من السيرة النبوية الصحيحة ، التى تختلف جدا عما جاء فى امداح ميمون الخطابى ، فتصوفه ما كان عبارة عن تجرد الانسان وانقطاعه عن عالم الكائنات ، انقطاعا كليا الى الله .

كلا فلم يكن منه ولا من غيره ، هذا الجانب السلبي ، الذى طفع فى الشرق بشطحات المتصوفة ، لدرجة ان صار اصحابه لا يفهمون ولا يفهمون ، فصاروا ضحايا الظاهر ، وحقت عقوبة الموت على بعضهم ، كالحلاج ، لقد كان تصوفا رشيدا واعيا ممثلا لاوامر الله ، متجنبنا لنواهيه ، فى اخرج الاوقات واعوص الظروف .

لقد وجدنا — غير الامداح والتوسلات — للقاضى عياض ، خطبة ، يحض فيها الناس على التوكل المطلق والالتجاء الى الله والاتكال عليه فى كل الامور ، ولكن هذا ان كان منطلقا للصوفى ، فالامتداد فيه لا ينتهى عند الانتهاء الصوفى ، انه معنى المسلم الحق ، الذى يسلم نفسه لله ، الذى وعده فقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شىء قدرا » والذى قال : « بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه » فهذا الاستسلام ، كان مبعثا للايجابية فى المسلم ، لا العكس « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

فلو جعلنا هذا النوع من التوكل تصوفا ، لقلنا ان كل مسلم متصوف ، ولهذا لا نستغرب ان يكون من ابطال الحروب متصوفة المغرب ، الذين فهموا التصوف بهذا المعنى الايجابى ، كابن الصبر ايوب السبتي ، الذى استشهد فى موقعة العقاب .

اما النصوص السلبي الذى نعينه فى القرن السابع ، فهو الذى تمثله وثيقة الشاعر الخطابى ، الذى تقدم ذكره ، وشعره فى مدح الرسول ،

فهو تصوف بمعنى الاستغراق والتجرد المطلق والفناء في الذات القدسية ،
فناء لا حراك به ، الا أن يكون التعبد والتهجد .

ولقد تخطت الامداح النبوية ، مرحلة أخرى فاتصلت بالنعال ومدحها
والتوسل بها ، وشاعت شيوعا خلقت أدبا نسميه أدب النعال
وقد كان هذا الادب مجلوبا إلينا من الاندلس كذلك ، كما جلب منه الزهد
والتصوف ، فقد اشتهر في الاندلس به ، أبو الربيع الكلاعي المتوفى أوائل
القرن السابع ، وهو صاحب « الاكتفا في سيرة المصطفى » كأنه هذا به
كتاب الشفا ، ولكنه زاد فيه هذا العنصر الجديد ، ثم قلده ابن فرج السبتي ،
فنظم على حروف المعجم منظومات التزم فيها لزوم ما لا يلزم ، كما فعل المعري،
ولكن منظوماته كانت « القطع الخمسة في مدح النعال المقدسة » الى أن
بلغ الراجح بمالك بن المرحل (1) .

فمدح النعال المقدسة ظهر في المغرب بسببته ، بعد ما كان قد ظهر في
الاندلس بقرطبة ، على يد ابن القطاع منها في القرن الخامس ، فلعل هذا
كان منبعا ، عما شاهده هذا الناظم فيها ، من مسيحي الاسبان في
الاحتفال بالمنديق الذي اعتقدوا فيه صورة المسيح ، قد انطبعت عليه ،
لما مسح به وجهه ، ولا عجب في هذا فسنرى العزفي يتأثر بهذا الصنيع ،
ويؤلف كتابه الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، كما سيأتي في موضعه
بعد ، وعند منتصف هذا القرن بالذات .

واذا كانت سببته بطبيعتها من الرباط ، صاحبة الفضل الاول ، بالمغرب ،
في تناول الجناح النبوي ، بالكتابة في السيرة ، ثم بالنظم في الامداح النبوية
ثم النعال ، فانها ستستمر في هذا الطريق الشريف ، بامداح مالك ابن
المرحل ، الملقى المولد والسبتي الموطن ، يصاحبه العزفي السبتي بمولدياته
التي سنذكرها .

لقد ولد مالك ابن المرحل عام اربعة وستمائة ، وتوفى عام تسع
وتسعين وستمائة ، فهو خير من يمثل المرحلة الادبية التي كانت قد انتهت
بوفاة ميمون الخطابي سنة سبع وثلاثين وستمائة .

(1) نعم يعتبر مالك بن المرحل من العصر المريني ، وان كان قد عاش أواخر العصر الموحدى
ونحن نعدّه من هذا العصر الأخير لا محالة .

كان ابن المرحل ، يفوق الخطابي ، بأدبه وعلمه الواسع ، مؤلفا في العلوم وناظما فيها ، منظومات يربو بعضها على الالف بيت مشاركا في شتى العلوم ، كما كان متناولا بشعره شتى الاغراض ، وفيها الهجاء ، الذى عرف بين الاشخاص في المغرب لأول مرة بسبب ما كان بينه وبين ابن ابي على ابن رشيق المرسى نزيل سبتة كما كانت مشادة نحوية مع ابن ابي الربيع الاشبيلي نزيلها أيضا وعالمها النحوى في العصر الذى كان ابن مالك الجيانى بالمشرق نحويه كذلك .

والذى يهمننا من ابن المرحل ، اشعاره في الامداح ، وعلى رأسها « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والاخرى » وهى التى رتبها على حروف المعجم ، والتزم افتتاح أبيانها كلها ، بحروف الروى ، على أن يحمل كل حرف منها عشرين بيتا .

وله منظومات أخرى ، وهى المعشرات النبوية ، التى يضم كل حرف منها — بعده حرفان زيادة على النمط السابق — عشرة أبيات الى جانب الامداح النبوية فله المعشرات الزهدية ، على نمط ما تقدم أولا ، وله أخرى عشرونية في الموضوع ، على نفس النمط الاول كذلك .

فمن الوسيلة الكبرى قوله ، فى حرف الهمزة :

الى المصطفى اهديت غر ثنائى	فياطيب اهدائي وحسن هدائي
ازاهير روض نجتنى لعطارة	واسلاك در تصطفى لصفاء
اكاليل من مدح النبي محمد	بها حازت الآداب كل بهاء
اضفت الى ميلاده غزواته	وما عن لي من آية وإيلاء
أردت رضى ربي بها فهو ارتجى	وربى كريم لا يضيع رجائى
أحق الرايا بالثناء مضاعفا	نبي له فى الوحي كل ثناء
امام هدى صلى النبيون خلفه	وصلى عليه اهل كل سماء
أمين على الوحي الكريم وانما	هو السر لم يودع سوى الامناء
أضاءت به الدنيا فمن وجهه سرى	الى الشمس والاقمار كل ضياء
أسرته تهدى السرور وكفه	تكف من الاعداء كل عداء
اتانا بقرآن كريم مفصل	جلا صدا الازهان اى جلاء

أمان يعم المومنين ومنصة
أيا عتقاء المصطفى ان حقه
أما كنتم من قبله في شقاوة
أترجون في يوم القيامة غيره
الم تعلموا عذر النبيين في غد
اليه يشير ابن البتول اذا رأى
وحظ جسيم من سنى وسناء
عظيم فكونوا أكرم العتقاء
فلولاه هل كنتم من السعداء ؟
اذا قيل هل للناس من شفعاء ؟
وقولهم لسننا من الأثراء
ضجيج الورى في حيرة وعناء

فهذا مدح اشبه بأن يكون من المولديات التى تلقى على عامة الناس ،
فالطابع الخطابى فيها أقوى من الطابع الشعرى ، خصوصا فى أواخرها .
وجمالها الفنى ، لا يعدو أن يكون فى هذه الجناسات ، مع التشبيهات التى
اكل عليها الدهر وشرب ، فمن التحلى بالحلية اللفظية « اهدائى وهدائى »
و « تصطفى لصفاء » و « آية وايائى » و « أسرته والسرور »
و « كفه تكف » و « الأعداء وعداء » و « سنى وسناء »

وهذا الأخير وجدناه عند معاصره البوصيرى فى همزيتة بالبيت :

لم يساروك فى علاك وقد حا ل سنى منك دونهم وسناء
ومن التشبيهات :

أزاهير روض تجتنى لعطارة وأسلاك در تصطفى لصفاء
أضاعت به الدنيا فمن وجهه سرى الى الشمس والأقمار كل ضياء
وان كان هذا الأخير يدعيه المتصوفة الحقيقة المجردة ، التى لا تقترن
بتشبيه ولا استعارة فيه .

وبعد هذا تبقى القصيدة كأنها نظم ، يقول فيه صاحبه :

أضفت الى ميلاده غزواته وما عن لي من آية واياء
أردت رضى ربي بها فهو أرتجى وربى كريم لا يضيع رجائي
وأخيرا يتوجه الى السامعين بقوله :

أيا عنقاء المصطفى ان حقه عظيم فكونوا أكرم العتقاء
ويستمر فى الأبيات الأربعة الباقية ، يخاطبهم بذلك الخطاب الذى
أشرنا اليه .

هذا من ناحية القنابل ، أما من ناحية المحتوى ، فهي لا تخرج عن شمائل النبي ، والتذكير ، بما ورد في القرآن عنه ، في نحو « وانك لعلى خلق عظيم » وهو الذي يعنيه بقوله « نبى له في الوحي كل ثناء » وهذا هو ما سيعنيه بعد ابن الخطيب في قوله :

ايروم مخلوق ثناءك بعد ما أثنى على أخلاقك الخلاق
ومن معشراته قوله في نفس الحرف :

أمالى الى قبر النبي مبلغ	ثناء فقد أفنى الزمان زماني
أمانة مشناق حمى الدمع جفنه	فما طاف طيف النوم خوف جمائي
أمانى كانت لي زيارة قبره	وأرضى روض يانع وسمائي
أمال قناتي بعد حسن اعتدالها	زمان أراني النقص بعد نمائي
أما توى الأعضاء الا اقلها	وأعطش روضي حين أنضب مائي
أمارى مشيبي في سني وقد رمى	فؤادى على نوسى فكيف رمائي
أمامي الروى لو أبلغتني ناقتسى	فلم تبقي ظمآن بين ظمء
أمام جميع المسلمين محمد	وأكرم مبعوث من الكرماء
أمان الورى مما يخافون حبه	فيا حب شعشع أدعني بدماء
أماه الأسى عيني وسعر أضلعي	فخذ بيدي ياراحم الرحماء

فهذه الأبيات ، كغيرها من فيئتها ، بلغت الغاية في تصنعها ، فكل بيت منها ، يتبدى بحرفين ، وينتهى بهما ، على غير الترتيب الاول وبينهما الالف ، وبذلك تكون البداية بثلاثة أحرف ، تكون بها النهاية كما قلنا فيها ، ففى البيت الاول مثلا بدايته « أما » ونهايته « مائى » .

والأبيات ، من حيث المضمون ، فيها تشويق الى قبر النبي ، وفيها ذكر الهرم الذى أدركه ، على اشتياقه للمقام النبوى الشريف ، وأخيرا يذكر النبي بالصفات التى تقدمت ضمن ما ذكر فى الابيات قبلها ، وهى فى فنّها على كل حال أجمل من سابقتها ، ولاشك أن هذه صدرت عن الشعراء بعد أن قطع أشواطاً فى مدحه عليه السلام ، وهذه المعشرات عرف بها ابن الغماد ، المتوفى عام سبعة وعشرين وستمائة ، بعد الكلاعى بثلاث سنوات ، مما يظهرنا على أن الأندلس ، كانت نصطخب بهذه الألوان من الأمداح ، سواء منها ما اتجه الى النبي مباشرة وما كان الى النعال

ومن العشرينية ، قوله في حرف الباء ، الذى تبتدى وتنتهى به الابيات :

يدأوى عذار من بياض مثير	بأى لسان أم بأى طبيب
تريك طلوعاً مؤذناً بغروب	بياض كما لاحت كواكب سحرة
على كاذب حلو اللسان خلوب	بشيرا نذيرا لاح كالفجر صادقاً
وليس جوابي منك غير وجيب	بني ابك لي ان البكا يبعث البكا
غرورا فان نهلك فغير عجيب	بحارا ركبناها بغير سفائن
فان ضحكت سني فضحك مريب	برتني يوما آية في براءة
فلم تتغير لاختلاف خطوب	بنيت لها قلبي على كرة الأسى
وسالت مآقيه كمثل غروب	بكى صاحبي حتى اذا مال في الترى
وقلت له هذا مقام كئيب	بسطت له كفي وقبليت كفه
على نغم من انة ونحيب	بحقك لا تبرح اطارحك لوعتى

فهذه أبيات كذلك على مستوى من الجمال الذى لمحناه في الابيات التى قبلها ، وفيها اقتباس من امرئ القيس والخنساء وغيرها

ومن قوله في النعال :

الى الشوق ان الشوق مما اكاتمه	ومما دعائي والدواعي كثيرة
فها أنا في ليلي ويومي لاثمه	مثال لنعلي من أحب حذيتيه
والثمة طورا وطورا الازمه	اجر على راسي ووجهي أديمه

وهكذا يستمر في هذه القصيدة وغيرها مبعجلاً للنعال النبوية ، مفرقا في اكبارها ، كما فعل ابن فرج السبتي وغيره ، فيما بعد عندنا فإذا قلنا ان القرن السابع عصر الامداح النبوية والنعال الشريفة والمولديات ، فان هذا صادق الى أقصى ما يكون الصدق وقد تحقق هذا لأول الامر بمدينة سبتة ، التى كانت على اتصال وثيق بالاندلس ، كما نقدم فكان حامل الامداح النبوية فيها شاعرنا مالك ابن المرحل ، الذى اتينا بنماذج مختلفة من امداحه تلك ، وكان يعاصره الفقيه أبو العباس أحمد العزفى الذى ألف في المولد النبوى كتابه « الدر المنظم في مولد النبى المعظم » .

ولم يكن هذا التوجه الى الجناب النبوى الكريم ، قاصرا على الشعب ، بل وجدنا حتى الخليفة الموحدى المرتضى عمر بن أبى ابراهيم بن

يوسف بن عبد المومن ، قد تزهد وتصوف ، وصار ينظم في الموالد ،
فيقول :

وافى ربيع قد تعطر نفحه	اذكى من المسك العنيق نسима
بولادة المختار احمد قد بدا	يزهو به فخرا وحاز عظيمًا
بشرى بشهر فيه مولده الذى	ملأ الزمان علاؤه تعظيمًا
ضاعت به شرق البلاد وغربها	وتألفت أرجاؤها تنعيمًا
فاعتز أمر الله يوم طلوعه	وغدا به دين الاله قويمًا
فاعرف لهذا الشهر حقًا قدره	فلقد غدا بين الشهور كريمًا
شهر كريم جاء فيه محمد	صلوا عليه وسلموا تسليما

وله شعر في الزهد وفي رثاء نفسه والتهوين من خلافته ، نجده بالبيان
المعرب .

نعود الى مالك بن المرحل ، فنجده ، وقد تكالب النصارى على
المسلمين بالاندلس ، ينظم قصيدة ، يستنفر فيها المجاهدين المغاربة .

استنصر الدين بكم فاستقدموا	فانكم ان تسلموه يسلم
لا تسلموا الاسلام يا اخواننا	واسرجوا لنصره والجموا
لاذت بكم اندلس ناشدة	برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها انسه	لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ما هى الا قطعة من ارضكم	واهلها منكم وانتم منهم
لكنها حصدت بكل كافر	فالبحر من حدودها والمعجم
لهفا على اندلس من جنة	دارت بها من العدا جهنم
استخلص الكفار منها مدنا	لكل ذى دين عليها ندم
قرطبة هى التى تبكى لها	مكة حزنا والصفاء زمزم
وحمص وهى أخت بغداد وما	ايامها الا الصبا والحلم
استخلصوها موضعا فموضعا	واقعدوا واحتكموا وانتقموا
وقتلوا ومثلوا واسروا	واحنلوا وايتموا وايموا
ايام كان الخوف من اعوانهم	والجوع والفتنة وهى اعظم
حتى اذا لم يبق من حيائها	الاذماء تدعيه الذمم
دعوا اليهود واعبدوا وما دروا	بانها بجلكم تعتصم
ظنوا وكان الظن منهم كاذبا	ان ليس لله جنود تقدم

يفضب للاسلام حين يظلم
يحفظها شبابكم والهم
عدوا على جيرانهم واجترموا
ان قد رمتهم بالشعاع الانجم
من نحوكم احظاهم التقدم
واقترعوا عليهم واقتسموا
واحبستهم نعم ونعم
عنهم وانتم في الامور احزم
الأجر فيها واغر والمغنم
وعزموا ان يهزموا فهزموا
ومن رماح في ذرى تحطم
زلت لاهل الصدق منهم قدم
كريمة ففاض منها الحكم
وحبه في فعل ما يقدم
يكبر عيسى قولهم ومريم
خلقا يصح جسمه ويسقم
وابنا ولا صاحبة ولا ابنم
مال ولا خوف نعيم يعدم
والحور عن يمينه تسلم
يدعون مهما كبروا واحرموا
افى ضمان الله ما يتهم
او عودة صاحبها مكرم
الى الذى من ربكم وعدتم
خلقا لهم تلفت اليكم
لا تطعم النوم وكيف تطعم
سواكم ردة فأين الهمم
ودمعه من الحذار يسجم
هو الفيثات او اسار او دم
فيه لنا الخير فانت الملهم
انت بما فيه الصلاح اعلم

ما صدقوا ان وراء البحر من
ولا دروا ان لديكم حرمة
لو عرفوا قبائل العدو ما
اليوم يدري كل شيطان بها
نقدمت نحوهم طليعة
فانتصفوا للدين من اعدائه
وامتلات ايديهم من السبا
يا اهل هذى الارض ما اخركم
تسابق الناس الى مواطن
تعزز الكفار في ديارهم
نمن سيوف في رؤوس تنحنى
وقامت الحرب على ساق فما
باعوا من الله الكريم انفسا
اخرجه من بيتسه ايمانسه
ما همه الا قتال اممة
تشرك بالله وتدعو معه
وتدعى ان له صاحبة
لم يثنه عن عزمه اهل ولا
كيف وعدن تحت ظل سيفه
والله راض عنه والخلق له
اخواننا ماذا القعود بعدهم
هل هى الا جنة مضمونة
خذوا السلاح وانفروا وسارعوا
ان امام البحر من اخوانكم
ونحوكم اعينهم ناظرة
والروم قد همت بهم وما لهم
كلهم ينظر في اطفاله
اين المفر لا مفر انما
يا رب وفقنا والهمنا لما
يا رب اصلح حالنا وبالننا

يا ربنا ما داؤنا شيء سوى ذنوبنا فارحم فائتت ترحم

فهذه أول قصيدة نراها تتوجه الى مخاطبة الشعب وابتغافه على أعداء الاسلام ، وهي في أسلوبها نراها تنزل عن مستوى الأسلوب الذي عرف لمالك بن المرحل ، لأنها قصيدة نظمت للشعب فهو كلام موجه الى العامة وأشباه العامة ، من المجاهدين الذين يحملون السلاح ولا يحملون الاقتلام ، وقد ما قال البلاغيون ، عند تعريفهم للبلاغة « هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال » ومن مقتضيات الحال مراعاة المخاطبين ، ولهذا قالوا « خاطب الناس على قدر ما يفهمون » فالحكم على الأديب بما له من إنتاج ، لابد أن يدخل في الحساب والتقدير ، ملابسات عديدة ، فيها الزمان والمكان والأفراد أو الجماعات ، الذين لهم اتصال بذلك الإنتاج ، من قريب أو بعيد ، زيادة على أحوال الأديب نفسه ، وما كان يعتوره عند إنتاجه ذلك من عوامل نفسية واجتماعية وغيرها ، قد تكون قاسية عليه ، أو منتعشة له ، خائفة له أو منطلقة به في الفضاء .

ففى هذه القصيدة ، يذكر المجاهدة المغاربة ، بكون الدين يستنصرهم من وراء البحار ، فلا يجل بهم أن يسلموه الى أعدائه يذكرهم بالاخوة الاسلامية ، التى تلزمهم أن يهرعوا للدفاع عنها ، وشد أزرها ، فى الاندلس التى لاذت بهم تناشدهم برحم الدين فعليهم أن يرحموا من يسترحمهم ، لأن الرحمن لا يرحم من لا يرحم ، كما فى الاثر « الراحمون يرحمهم الرحمن » فأخذ الشاعر بالمفهوم ، كما أخذ به محمد ابن الهبارية فى « الصادح والباغم » اذ قال :

وقد علمت واللبيب يعلم بالطبع لا يرحم من لا يرحم

ويركز الشاعر على هذه الاخوة المشترك ، بأننا منهم وهم منا وأرضهم ما هى الا قطعة من ارضنا ، لكن الكفار أهدقوا بها ، والبحر من ورائها ، فوالهفة على الاندلس من جنة أحاطت بها جهنم ، واستخلص الكفر منها مدنا يعرض المسلم عليها الانامل ندما ، فهذه قرطبة تبكى لمحتتها مكة والصفاء وزمزم ، وهذه اشبيلية اخت بغداد ، قد سقطت تحت اقدام النصارى ، فانتهبوها وقتلوا أهلها ومثلوا بهم ، واينموا الاطفال وايموا النساء ، قد أعانهم على هذا الخوف والفتنة والمجاعة ، فاستنزفهم ذلك ،

وعندئذ لوح لهم العدو بالعهود فوثقوا بها ، ولكنه سرعان ما خانها وفتك بهم فتكته الكبرى ، كان العدو ما علم أن وراء البحار رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يغضبون لهم ويقتحمون البحار والاطار لنصرتهم ، وقد حفظ شبابهم حرمة الجوار في هذه العدو ، التي لو حسب الاعداء حسابها لما عدوا عليهم لقد آن اليوم الذي تقذف فيه الشياطين بالشهب ، التي تتقدم بها طلائع الرحمن في أولئك الرجال ، الذين ينتصون من اعداء الحق فتمتلىء أيديهم بالسبايا والغنائم ، فيا أهل العدو ، ما أحرکم عن نصرتهم وقتال أعدائهم وأنتم أحزم في الامور ، فقد تسابق من قبلكم الى مواطن الجهاد الذي يتضاعف فيه الاجر والمغنم ، وقد تعزز الكفار في ديارهم وعزموا أن يهزموا ، ولكنهم كأن قد هزموا ، وقطفت رؤسهم سيوف الابطال وقصعتهم رماحها ، وقامت الحرب على سوقها ، وثبتت اقدام المجاهدين ، لانهم باعوا الله أنفسهم وأموالهم ، لما دعاهم الى رحمته ، فكان حيهم يقدم المجاهد بين يديه ، فيضرب بسيفه ليرضى ربه ، أما ميتهم ، فهم في رضوان من الله ورحمته ، وقد ازدحموا ببابه ، بعد ما خرج من بيته بدافع الايمان ، ورغبته في تقديم ما يجد عند الله جزاءه الأجر والثواب ، وهكذا نجد هذه القصيدة الخطابية تستحث الناس وتحضهم بخلاف القصيدة التي أجاب بها ابن الأحمر عن يعقوب ، المرينى ، فهي في منها الراقى ، لا نسبة لها بتلك ، يقول فيها :

أنا أجبن صرخة المستنجد
قمننا لنصرته ولم نتردد
من غضبها والصبح لم يتجرد
أحد بسير خيولنا في الفرقد
أنا نروح بها وأنا نفتدى
كانت تطير بنا ولم تتردد
الا الجهاد ونصر دين محمد
ملك تقدم في الجيوش لمرصد
هيهات ما الماء الأجاج بمورد
ومشارب ومزارع لم تحصد
يتوقعون الموت ان لم ننجد

شهد الاله وأنت يا أرض اشهدى
لما دعا الداعى وردد معلننا
نسرى له باسنة قد جردت
لولا الاسنة والسناك ما درى
والخيل تشكونا ولا ذنب سوى
لو أنها علمت بنا في قمدنا
الله يعلم أننا لم نعتقد
ثم اعترضنا البحر وهو كأنه
فترامت الخيل العطاش لورده
يا خيل ان وراعنا ماء روى
واحبة بين الفوائد أصبحوا

من مطلق العبرات الا انه
ومنجع لا يستلذ بمطعم
اخواننا في ديننا وودادنا
نسرى بأجحة البزاة الى العدا
واستقبلت بحر الزقاق بعصبة
فاستبشروا في أفقهم بطلوعنا
حتى بغتنا القوم في أوطانهم
ثم التقينا بالذين استصرخوا
حتى اذا جئنا وجاعوا نحونا
ازور جانبهم واشهد بعد ما
او ما راونا قد تركنا أرضنا
واطاعنا قوم كثير أسرعوا
أترون ان عادوا الى أوطانهم
ام نحسبون بوارقا نشأت لكم
برماحكم نفحت وعنها أمطرت
انا أردنا أن رغبتا قومنا
حتى ترون بلادكم معمورة
فاليوم قد اوحشتمونا وحشة
يا ليت شعري ما بدا منا لكم
تالله لولا ودنا فبكم وما
ومخافتنا ان يستطيل عدوكم
لخرجت من هذا البلاد بمن معي
او ما علمتم اننا ايد لكم
لولا رجال من مريـن رفعوا

تجـرى دمـوع جفونـه لمقيد
ومـروع لا يستقر بمرقـد
ولهم مزيد تحبب وتودد
مثل الحمام الحائمات الورد
نفذت عزائمها ولم تتعدد
كالشمس يوم طلوعها للأسعد
ان الحوادث لا تجيء بموعد
منا بكل مؤيد ومسدد
ودنا المراز وقيل للبعد ابعد
بسطوا لنا الآمال بسط معهد
ولنا بها ملك رصين المحتد
فمزود منهم وغير مزود
يبقى لكم في الارض موضع مسجد
لمثالنا في جوكم لم تعهد
بل كان ذا منا وان لم نشهد
فيكم فيرجع من مضى بتزيد
ويكون يومكم يقصر عن غد
ان لم تمد حبالها فكان قد
حتى ابتدئتم بالمكان الابد
ادراك من ود قديم متلد
ويصول بعد تذلل وتعبد
وتركتها لكم ولم اتعهد
دون العدا والله خير مؤيد
منكم لكتنم بالحضيض الاوهد

الى آخر القصيدة التي تفوق سابقتها كثيرا ، لان هذه مادرة بلسان
ملك ، في خدمته شاعرنا ، وتلك كانت تلقى على الشعب في جامع
القرويين ، فتأثر لها المسنمعون ويبيكون ، ويهرع منهم للتطوع في صفوف
المجاهدين ، على اثر سماعها .

ولابن المرحل أغراض عديدة طرقها في شعره ، فالى مدح النبى

مدح المرينيين ، الذين كان أحد كتابهم ، كما هجا ، والغز ونسب ووصف
وافتخر ، وخاطب الاخوان ، بنحو ما خاطبهم عياض فيما سلف ، وكان
الشعر يسلس له في كل ما يريد ، فنظمه للعلوم ، نجده مشرقا ، على
غير ما نجد عليه عند الناطمين فيها ، بل اننا نجده يعتقد صداقا بشعره بذلك
الاشراق ، كأن يقول فيه :

وبعد هذا الذى قدمت من كلم أرجو به النجح فى ورد وفى صدر
فان عاملنا الاهدأ وفاضلنا الـ أتقى ووالينا الموعود بالظفر
(وبعد ثمانية أبيات من الاشادة بالاوصاف الحميدة يقول)

لما رأى نجله الندب السرى أبا الـ سوفاء بلغ ما يبغيه من وطر
قد نال رتبة آباء له كرموا فى عنفوان الشباب الناضر الخضر
(وبعد بيتين يقول) :

دعاه دعوة من يرجو المزيد له وأن يراه من الآبناء فى نفر
الى الألى حفظوا أحسابهم وحموا منه العلا من بطاح طيب الأزر
فقال أمرك يا مولأى املك لى فالعبد فى كبر كالعبد فى صفر
(وبعد بيت يقول) :

فاختار صهرا كريما واستخار له مولى متى يستخره عبده يخر
فى خطبة خطبت فيها السعود على منابر العز فى حفل وفى حضر
(وبعد ستة أبيات يقول) :

كريمة من بنى حجاج اصطفيت منهم كما تصطفى الاعلاق من درر
(وبعد بيتين) :

فأحمد الله بالوفيق بينهما عقد النكاح فأضحى موثق المرر
على الكتاب الذى بالحق أنزله الاهنا وبتييسير لمذكر
(وبعد بيتين كذلك) :

على صداق دنانير وجملتها من المائين ثلاث صرفها عشر
النقد من ذاك ثلثاه وقد برئت من ذاك ذمته بالدفع فهو برى

الى ثلاث اماء فائتتان من الـ
تتلوهما من بنات الروم واحدة
وصار ذلك في قبض المصونة ام الـ
بنت الكرام التي عزت بمنصبها
(وبعد ثلاثة أبيات يقول) :

وذاك عن اذن قاضينا الاجل ابي
عبيد الله اخى نهر بنى النضر
(وبعد بيتين يقول عن العروس) :

وان تكون لديه بالامانة والمأ
وذاك معروف امساك لمسكته
وحسن صحبتها حق عليه لما
خوذ عهدا على الازواج في السير
مرت والا فتسريح بلا غير
اليه من ذاك من أمر لمؤتمر
الى آخر القصيدة التي تناهز التسعين بيتا .

هؤلاء الذين تقدموا ، كلهم او جلهم كانوا في ركاب الدولة ، او على اتصال
بها ، في السياسة او في الحكم ، ومنهم القضاة كما راينا ، ولهذا تردد ذكرهم في
كتب التواريخ ، السياسية غالبا ، اما غيرهم فقليلا ما نظفر بأحاديثهم ،
ومن هؤلاء الاحاد ومن القضاة أيضا محمد بن حسن بن عمر الفهرى السبتي
المعروف بابن المحلى ، كان من تلاميذ ابن خروف وابن الشلوين وابى
الصبر ايوب ، وغيرهم من كبار علماء العربية بسبته ، فخرج ادبيا بارعا
كاتبا بليغا ، ناظما ناثرا ، نحويا ماهرا ، حسن القيام على تفسير القرآن ،
عاقدا للشروط مبرزاً في العدالة ، وغير هذا يشهد بتفوقه تولى قضاء
سبته ، بعد الشريف ابي الحسن بن ابي الشريف ، واستمر حتى وفاته
سنة احدى وستين وستمئة ، وولادته عام 582 . ومن قبل القضاء ، كتب
عن ابي عبد الرحمن يعقوب بن ابي حفص بن عبد المومن ، ايام ولايته
حاضرة فاس ، ثم صحبه الى مراكش ومن شعره :

تعشيق قلبا انت مطلبه
(ما رام صرف) هوى خلق ليغلبه
وكيف يرجو وصالا من تبعده
وكيف يخرب ربع انت تعمده
او يذهب الشوق روحا انت مذهب
الا وحبك يدعوه فيغلبه
او كيف يخشى بعبادا من تقربه
بل كيف يعمر مسكون تخربه

وقال اهل الهوى شأن الهوى عجب
والعتب فى سلوة الاحباب موقعه
وكل حال الهوى صعب مسالكه
يا من اناجيه والاشواق توهمني
كم طيبة لك بالالطاف توجبها
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته
رفقا به فهو فى حالي مناقضة
ومنة الجود تدنيه فتؤنسه
مناى انت وحسبي ان تكون منى
كن كيف شئت فمالي عنك منصرف

فقلبت ان سلوى عنك أعجبه
عذب ولكن عتاب السر أعذبه
على المحب وسمع العذل أصعبه
نيل الوصال كأن الشوق يوجبه
عند اللقاء ومناى منك أطيبه
حتى تكون بما ترضى تقلبه
فالقبط يحزنه والبسط يطربه
وخشية الرد تقصيه فتحجبه
ياواهبها رغباتي قبل أرغبه
فما لعبد سوى مولاه مطلبه (1)

هذه القصيدة فيها ريح من قصيدة ابن زريق البغدادى :

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
والغالب ان موضوع قصيدتنا كان المدح لأمير من أمراء الموحدين ،
ولعله المذكور قبل ، ينم عن هذا البيت الثالث قبل الاخير .
ومنة الجود تدنيه فتؤنسه وخشية الرد تقصيه فتحجبه
وقد أقامها على هذا النقيض الذى احسن وصفه تمام الاحسان ، وقد
اسفر عن هذا النقيض البيت :

ففى هذا الاعتذار الوارد فى البيت قبل السابق :

رفقا به فهو فى حالي مناقضة فالقبط يحزنه والبسط يطربه
وعلى كل حال فالابيات فى نفسها رقيقة شفافة ، على غموضها فى
مقصدها ، وربما تكون من قبيل المناجاة الالهية :

يامن اناجيه والاشواق توهمني نيل الوصال كأن الشوق يوجبه
كم طيبة لك بالالطاف توجدها عند اللقاء ومناى منك أطيبه
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته حتى يكون بما ترضى تقلبه (2)

(1) الاعلام للعباس ابن ابراهيم ، وما بين هلالين فى هذه وفيما بعدها فهو منا استظهارا .
(2) لعله يومئ الى الحديث « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » وحينئذ فهى مساحة الهية .

ومن هذا النسيب — ان كان — الرقيق قوله من قصيدة :

أبوح بما القاه فهو مباح	فقبلي أرباب المحبة باحوا
إذا باح من قبلي ولم يلق بعض ما	لقيت فاني ما علي جناح
الجابنا لا تحسبوا الصبر بعدكم	سخيا ولا أن الدموع شحاح
وان فنيتم أجسادنا وقلوبنا	فتلك العهود السالفات صحاح
سمحت لكم بالنفس كي أربح الرضى	على ثقة أن السماح رباح
فؤادى منقاد اليكم مذل	فمالي إذا ليج العذول جماح
وهى من سبيل ان أطيّر اليكم	وقد حص بي ريش وقص جناح
تغير وقتي بعدكم فكأنما	صباحي مساء والمساء صباح
وأوحشتكم فالكل في الأذن نائح	لدى وآفاق الوجود (صباح)
وما تفضل الأيام أخرى بذاتها	ولكن أيام الملاح ملاح
خرست عن الشكوى اليكم مهابة	والسن حالي بالغرام فصاح
تمتع لحظى سنة في جمالكم	فان لاحظ الاغيار فهو سفاح
وياعجبا أني أسير وأنني	أناشدكم أن لا يتباح سراح
إذا هز أرباب السماع تواجد	فحظي منه زفرة وصياح
فها أنا عند الباب منوا أو اطرّدوا	فما لي عنه كيف كان براح

وهو نسيب يمكن أن يكون في الذات الالهية كذلك ، فيه انسياب ماء
الجمال الشعري ، ولا ينبو فيه الا « الكل » في البيت :

وأوحشتكم فالكل في الأذن نائح

أما « الاغيار » في البيت :

فان لاحظ الاغيار فهو سفاح

فيشفع لها كونها أصبحت من تعابير المتصوفة ، الذين ربما كان منهم
هذا الأديب ، على أن « الكل » نفسها ، صارت من استعمالهم وكذلك يعد
من هذا القبيل نونية :

غرامي دعائي والعذول نهائي
 اما علما اني على الشحط والنوى
 يقولون لي من ذا دعاك لما نرى
 ضمان على قلبي الاسى بعد بعدهم
 اعلل نفسي بالسلسو تعللا
 اذا خفق البرق اليمان بأفتكم
 وان هلمات مزن السحاب بأرضكم
 رعى الله جيران العذيب وأهله
 هم وعدوا بالغور ثم تراوغوا
 وصدوا على صدى وبالخيف خوفوا
 لئن حجبوا عن ناظري فكأنهم
 وان عميت أنباؤهم حيث يمموا
 وعندى ما لا يمكن الشرح لفظه
 أورى بسلع والعذيب وحاجر
 ليس قبيحا من نفوس نفائس
 واذكر سكان العذيب تسترا
 (أسر بقلبي) من هو القلب كله
 (ومن هو ان) لاحظت لم أر غيره
 (واني لا) ستحييه أن أشكو الهوى
 ومن فضله وجدى به وتوليبي
 ظهرت على حبي له فكأنما

فوجد وعذل كيف يجتمعان
 مقيم واني والهوى أخوان
 فقلت دعائي حبه فدعائي
 اذا لم يكن يوم اللقا بضمان
 وتلك أمان ما بهن أمان
 اقابل ذاك الخفق بالخفقان
 يغالبها دمعي على الهملان
 وان اترعوني من هوى وهوان
 وهم عنفوا بالعنف من بدلان
 وبانوا ببذات البين صوب أبان
 لقلبي يراهم فيه رأى عيان
 فسرى يراعيهم بكل مكان
 وان كنت وان (والفصيح) بيان (1)
 وتلك مغان ما لهن معان
 بأيدي الغواني المصبيات عوان
 وما ذكر سكان العذيب بشائي
 ومن ذكره في خاطري ولساني
 على أنه اذ لا أراه يراني
 وما لي بما حملت منه يدان
 ومن جوده ما أشتكى وأعاني
 يراني لمعنى الحب حين يراني

والابيات الاربعة الاخيرة من هذه ، واضحة في كونه يعنى الذات
 الالهية ، ويسود هذه القصيدة التلاعب بالالفاظ ، الذى ولع به المتصوفة ،
 كما نجد في أساليب المتصوفة ، من العرب والفرس خاصة ، فمن أولئك ابن
 الفارض ، مثلا ، ومن هؤلاء عبد الله الانصارى والسبب في هذا النوله بها
 والرمز فيها ، وهم أهل رمز منذ القديم ، وفيهم الحلاج ، الذى قال :

(1) بالاصل « والفصل » ولا يستقيم ولا يتزن الا بـحو « الفصيح » والكلمة قبله مصحفة
 لم يستن لي حوالب منها . وقد رجعنا الى « الذيل والتكملة » الذى نقل عنه ابن ابراهيم
 فلم نجد به صاحب الترجمة ولا شعره . كما أن هذا التصحيف حووظ عليه في الطبعة
 التى أخرجها الاستاد بن منصور .

أرى قدمي أراق دمي

وكانت سببة قد أصبحت موطن المتصوفة ، وفيها قبل ذلك العهد ،
مثل أبي العباس السبتي وعلى المسفر ، الذي ترنم بقصيدة ، قالها من
سبقوه ، من المتصوفة واحتفظ بها في جيبه ، حتى اطلع عليها بعد الوفاة ،
فاعتقد أنها له ، ووقع في هذا الخطأ الحاتمي ، وتبعه بعضهم ، فوقع فيما
وقع فيه ، ولو اطلع على ما صدر عن هؤلاء الاقدمين ، وعلى مراي ومسمع
من الحاضرين ، لما وقع فيما وقع .

والقصيدة التي نعنيها هي النونية :

قل لآخوان راوئي ميتا فبكوتني اذ راوئي حزنا
ذكرها ابن العربي في محاضرات الابرار ، وقد اكتشفنا فكشفنا خطأ
فيما نشرناه ، منذ خمس عشرة سنة أو يزيد وفيها نعني المحاضرات ،
ذكر أبيات أخرى له ، وهي :

يا أيها المبتلى بدمي	تجد علم الله ما تقول
فألقول ان خف في لساني	أخائنني وزنه الثقيل
وحافظ كاتب شهيد	يكتب عني الذي أقول
من حاسب النفس كل حين	لم يتهاون بما يقول

ومن الادباء المغمورين عثمان بن سعيد بن تولو القرشي التينلي ،
المولد ، والمنوفى بمصر عام 605 ، وهو القائل فيها :

يا أهل مصر رايت أيديكم	عن بسطها بالنوال منقبضة
فمذ عدمت الغذاء عندكم	أكلت كتبي كأنني قرضة

ومنهم محمد بن على السلالقي ، توفي كذلك في نفس التاريخ ، ويقال
انه كانت له شهرة بمراكش ، ومن شعره :

أرى يجمع شملتي بكم	أبدا يا أهل نعمان الأراك
كل يوم أنا شاك منكم	وعليكم أنا طول الدهر باك

وبعد فان الدولة كانت تختلف عن سابقتها بأنها قامت على اكتاف
العلم والادب ، ولم تقم على أساس الرباط والجهاد المجرد ، فكان من

ملوكها وأمرائها أدباء سبق ذكرهم ، وعلى رأسهم عبد المومن ، الذى ورث
بنيه وأحفاده أدبا ثريا .

فمن البنين ، أبو عمران ، ومن الأحفاد أبو الربيع ، ثم من جاء بعده
من بيت الخلافة ، الى ان لفظت أنفاسها الأخيرة .

ويذكر ابن عذارى فى بيانه ، بعض القطع الشعرية لأبى عمران ، بعد
ما وصفه بأنه من الأدباء والخطباء الشعراء . كتب اليه قاضى مراكش ،
عند تغيبه ببيتين تعتمد فيهما — لا محالة — قافية عويصة ، لاعتمادها على
الثناء ، فأجابه بديهة بقوله :

أنتننا منكم درر فطلت	محلا أوجبت منا انبعاثا
ولولا العذر من سبب قوى	لصرنا نحوكم حثا حثا
ولاكننا نسير بحال ود	اليكم مصبحا يوم الثلاثاء

وقال وقد انحس المطر عن مراكش التى كان بها ، ثم أمطرت السماء :

وغيث همى فوق متن الربى	فشبهته جود أهل السيادة
اتاننا على رغبة فانشئى	وقد بلغ الكل منا مراده

وكتب الى أخيه الأديب أبى زكريا ، صاحب بجاية بالابيات :

من ساد وهو صغير كيف تحسبه	يبقيه ربى اذا ما كان فى الكبر
ومن يقول أمير المومنين أبى	فتلكم الغاية القصوى لمفتخر
أضحت بجاية فى التمثيل هالته	وظل يطلع فيها مشبه القمر
بدر بلا كلف در بلا صدف	ماء بلا كدر نار بلا شرر

وأجمل ما فيها البيت الأخير .

هذا ما كان فى أوائل الدولة ، أما فى أواخرها ، وهى تلفظ نفسها
الأخيرة ، فقد تقدم من ذلك بعض ما قاله الخليفة المرتضى ، فى ربيع الأول
شهر المولد النبوى . وفى أيامه الأخيرة ، نجده يرثى نفسه ، وقد مثل لعينيه
مصيره المفجع الذى سرعان ما انتهى بقتله ، فى قصيدة خماسية ، يقول فيها :

تهر المنية تحت الترب أسكننى	وما أخذت من الدنيا سوى كفى
فيابنى ويا الفى وياسكنى	تالله لو كان لى حكم على زمنى

يوما من الدهر ما فارقتكم أبدا

تركتهم بين تشيت ومجتمع وبين باك من اللذات ممتنع
ونسوة بالفنا ييكن من جزع البست من بعد عرى أهون الخلع

وما مددت لهم يوم الوداع يدا

أنا الغريب بأرض ضاق مسلكه مع البنين ولكن كنت أملكه
ما كان ظنى صغير القوم أتركه في حجر مرضعة يحبو قتمسكه

بالرغم منى تركت المال والولدا

طمعت في الروح أن يبقى معى فابى لما تحقق أن الأمر قد وجبا
ونال صرف زمانى كل ما طلبا وصرت مستوحشا من جملة الغربا

وعند قطع رجائى لم أجد أحدا

عين الزمان أصابتنى بنظرها وأذهبت عزتى في طول مدتها
عجبت من بطئها عنى وسرعتها وكيف مازجنى تلوين صبغتها

في حين فارق منى روحى الجسدا

وقد ذكر له ابن عدارى غير هذا ، وقال انه وقف له على سفر مجلد
من شعره .

ولنقف عند هذا الحد نحدد به خطوط الأدب المغربى فنجد فيه أدبا
يشمل الشعر والنثر كما يضم اليه حركة التأليف التى ظهرت فيه بمظهر
قوى وبنشاط يصوره المغرب نفسه . بعد ما كان عالة على غيره أو منتجا في
غير أرضه أو متجليا في انتاج غير المغاربة في قطره . وقد لاحظنا ان هذا
الأدب بدأ يتخذ لنفسه كيانا يتميز به — بعض الشيء — عما كان عليه
من تقليد محض للاندلسيين ، وأنه صار يشق لنفسه طريقا وسطا على

احد جانبيه الاندلس وعلى الآخر الشرق الذى كان قد حمل منه — بعد
الاندلس — كثيرا من ثقافته مباشرة وذلك بواسطة جماعة من الأدباء
كان منهم محمد بن تومرت اذ اننا فى هذه المرحلة بالذات وجدنا الاتجاه الى
الشرق يقوى فى رجال المغرب .

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى

فهرس الموضوعات

الصفحة

- 5 توطئة فى نواة هذه الدراسة وما طرأ عليها
7 منهاج الكتاب وما تضمنه من أبواب
9 المقدمة فى نشأة هذا الادب ومراكزه الاولى

الباب الاول

- 17 فيما قبل العهد المرباطى ، وما سجل به من آثار قليلة فى تلك المراكز
المذكورة آنفا

الباب الثانى

- 29 العهد المرباطى
32 ابن زنباع ، أو ابن بىاع
52 القاضى عىاض
86 شعراء آخرون ونتف من آثارهم

الباب الثالث

- 91 العهد الموحدى

الفصل الاول

- 91 ابن حبوس

الصفحة

116	الجرأوى
168	أبو حفص الأغماتى
184	أبو الربيع الموحّد
252	أبو جعفر ابن عطية
263	أبو عقيل ابن عطية
270	الشريف الأدرىسى
284	مؤلف كتاب الاستبصار
294	عبد الواحد المراكشى
305	يوسف ابن الزيات التادلى
314	من أشعار متصوفة القرن السادس وأوائل السابع

الفصل الثانى

321	من العهد الموحّد
322	ميمون الخطابى
328	ابن عبدون الكناسى
338	مالك ابن المرحل
349	محمد بن حسن ابن المحلى
353	شعراء آخرون وفتف من أشعارهم



صدر عن :

- روضة التعريف بالحب الشريف 1 - 2
- محمد اقبال مفكرا اسلاميا
- الخوارج في بلاد المغرب
- سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1 - 2
- تأملات في الأدب المعاصر
- كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة
- الأصول : دراسة اينتسيمولوجية
- مناهج البحث في اللغة
- اللغة العربية مبناها ومعناها
- اللغة العربية بين المعيارية والوصفية
- المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين
- المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1 - 2
- تاريخ الشعر العربي
- أبو تمام الطائي
- أحاديث عن الأدب المغربي
- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم
- رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1 - 2
- زهر الأكم في الامثال والحكم 1 - 3
- لأبي علي الحسن اليوسي
- وقعة وادي المخازن
- فلسفة يكون
- تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية
- عالم شاعر الحمراء
- دفنا الماضي
- الأدب السياسي عند عبد الكريم غلاب
- تحقيق د. محمد الكتاني
- محمد الكتاني
- محمود اسماعيل عبد الرازق
- محمود اسماعيل عبد الرازق
- د. ابراهيم السولامي
- الحسن المرادي :
- تحقيق د. علي سامي النشار
- د. تمام حسان
- د. تمام حسان
- د. تمام حسان
- د. تمام حسان
- د. محمد نجيب البهيتي
- د. محمد نجيب البهيتي
- د. محمد نجيب البهيتي
- د. محمد نجيب البهيتي
- العلامة عبد الله كنون
- العلامة عبد الله كنون
- تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
- تحقيق د. محمد حجي
- و د. محمد الأخضر
- د. ابراهيم شحاتة حسن
- د. الحبيب الشاروني
- الدكتور لبيب يونان رزق
- الأستاذ عبد الكريم غلاب
- الأستاذ عبد الكريم غلاب
- الاستاذ أحمد فطري

رقم الايداع بالخزانة العامة 384 / 1981

مطبعة النخيل الجديدة
الدار البيضاء

الشمس : 30.00 درهما

To: www.al-mostafa.com